نفحات القرآن
أسلوب جديد في التفسير الموضوعي
للقرآن الكريم
الجزء الثاني
النبوة الخاصة

بسم الله الرحمن الرحيم

نفحات القرآن:اسلوب جديد فى التفسير الموضوعى للقرآن الكريم

كاتب:

ناصرمكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

موسسه ابى صالح النشر و الثقافه

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
نفحات القرآن المجلد ۸ ----- ۱۲
اشارة ----- ۱۲
الرسول لأکرم صلی الله علیه و آله و سلم و ظهور الإسلام ----- ۱۲
اشارة ----- ۱۲
الرسول صلی الله علیه و آله وظهور الإسلام وسرعة انتشاره: ----- ۱۲
ممارسة الضغط علی المسلمین الجدد: ----- ۱۴
التهمةُ والاستهزاء: ----- ۱۴
الهجرةُ إلی الحبشة: ----- ۱۵
الحصار الاقتصادی: ----- ۱۶
بدایة جدیدة فی ابلاغ الرسالة: ----- ۱۷
الرسول یلتقی أهل المدینة: ----- ۱۷
اشارة ----- ۱۷
بیعة العقبة الاولی ----- ۱۸
بیعة العقبة الثانیة: ----- ۱۸
الهجرة انعطافٌ جدیدٌ فی تاریخ الإسلام: ----- ۱۹
صلحُ الحدیبیة فتحٌ کبیرٌ وتقدمٌ للإسلام: ----- ۲۰
رسائله صلی الله علیه و آله إلی ملوک العالم: ----- ۲۱
نبیُّ الإسلام فی القرآن ----- ۲۵
تمهید: ----- ۲۵
محیط دعوة الرسول صلی الله علیه و آله: ----- ۲۶
اشارة ----- ۲۶
۱- الأصنام فی عقائد العرب ----- ۲۶

۲- تفشی حالة الفقر الشدید بین الناس ----- ۲۷
۳- عباداتهم العجیبة ----- ۲۸
۴- الخرافات الاخری لعربِ الجاهلیة ----- ۲۹
۵- شیوع الفساد الأخلاقی ----- ۲۹
طفولة الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله: ----- ۳۰
بدایة مرحلة البعثة النبویة: ----- ۳۲
قصة یوم الدار: ----- ۳۳
الأشهر الأخیرة من حیاة الرسول صلی الله علیه و آله: ----- ۳۶
الأدلة التی تثبتُ صدق دعوة رسول الإسلام ----- ۳۷
اشارة ----- ۳۷
الطریق الأول: اعجاز القرآن ----- ۳۷
تمهید: ----- ۳۷
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۳۸
توضیحات ----- ۴۲
أ) تأثیر القرآن وجاذبیته المنقطعة النظیر ----- ۴۲
اشارة ----- ۴۲
۱- قصة الولید بن المغیرة المخزومی ----- ۴۲
۲- استماع زعماء قریش إلی القرآن ----- ۴۳
۳- قصة ابن أبی العوجاء ورفاقه ----- ۴۳
۴- قصة عثمان بن مظعون ----- ۴۴
۵- قصة اسعد بن زرارة ----- ۴۴
۶- قصة الأصمعی المثیرة ----- ۴۶
۷- رد فعل إعرابی تجاه آیة من القرآن ----- ۴۶
۸- القصة المثیرة للسید قطب ----- ۴۶

۹- قصة النجاشی وعلماء الحبشة المسیحیین ---- ۴۷
۱۰- تأثیر القرآن فی اوساط العلماء الاجانب ---- ۴۸
ب) الذین لجأوا إلی المعارضة ---- ۴۹
صور اعجاز القرآن ---- ۵۳
اشارة ---- ۵۳
تمهید: ---- ۵۳
۱- الاعجاز القرآنی فی الفصاحة والبلاغة ---- ۵۴
اشارة ---- ۵۴
مقتطفات من الأمثلة الاعجازیة للقرآن: ---- ۶۰
۲- الاعجاز القرآنی علی صعید المعارف الإلهیّة ---- ۶۲
۳- إعجاز القرآن فی تصور العلوم الحدیثة ---- ۶۴
اشارة ---- ۶۴
۱- القرآن وجاذبیته العامة ---- ۶۶
۲- القرآن وخلقُ العالم ---- ۶۷
۳- القرآن وحرکة الأرض ---- ۶۹
۴- القرآن وحرکة المنظومة الشمسیة ---- ۷۰
۵- القرآن واتساع العالم ---- ۷۱
۶- القرآن ووجود الحیاة فی المجرات الاخری ---- ۷۲
۷- القرآن وخلق الجبال ---- ۷۳
۸- عنصر الزوجیة بین النباتات فی القرآن ---- ۷۶
۹- القرآن والزوجیة العامة ---- ۷۷
۱۰- القرآن یکشف النقاب عن مسألة مراحل تطور الجنین ---- ۷۸
۱۱- القرآن یتحدث عن الآثار المهمّة للغلاف الجوی للأرض ---- ۸۰
۱۲- القرآن والغلاف الجوی للأرض أیضاً ---- ۸۲

۱۳- القرآن وأسباب نزول المطر والثلوج ---- ۸۳
۱۴- القرآن وعلاقة الرعد والبرق والمطر ---- ۸۴
۱۵- القرآن وكشف هوية الإنسان ---- ۸۶
۱۶- القرآن يكشف الستار عن عظمة خلق السماوات ---- ۸۷
۴- الاعجاز التاريخى للقرآن ---- ۸۸
دور التاريخ فى المسائل التربوية: ---- ۸۸
الخطوط العريضة للتاريخ فى القرآن: ---- ۸۹
اشارة ---- ۸۹
۱- كيفية خلق «آدم» كما ورد فى القرآن وفى العهدين ---- ۸۹
۲- لقاء إبراهيم عليه السلام بالملائكة ---- ۹۲
۳- منشأ اختلاف اللغات ---- ۹۵
۴- عباده العجل من قبل بنى اسرائيل ---- ۹۶
۵- قصة النبى داود عليه السلام وزوجة اوريا ---- ۹۸
۶- هل أنّ سليمان عليه السلام بنى معبداً للأصنام؟! ---- ۱۰۲
۷- المنافسة العجيبة بين يعقوب وأخيه عيسو ---- ۱۰۴
۸- نسبة صنع الخمر إلى عيسى المسيح عليه السلام ---- ۱۰۶
۹- المسيح عليه السلام ودعوى الالوهية ---- ۱۰۷
۱۰- حضور المرأة العاصية فى مجلس السيد المسيح عليه السلام ---- ۱۰۹
نتيجة البحث: ---- ۱۱۰
۵- الاعجاز القرآنى فى سن القوانين ---- ۱۱۱
اشارة ---- ۱۱۱
ماهى أفضل القوانين؟ ---- ۱۱۱
مزايا القوانين القرآنية: ---- ۱۱۲
اشارة ---- ۱۱۲

أولًا: الشمولیة والسعة ----- ۱۱۲
ثانیاً: تقویة الروابط الاجتماعیة ----- ۱۱۵
ثالثاً: احترام حقوق الإنسان ----- ۱۱۶
رابعاً: الحرص علی تأمین الحریة والأمن ----- ۱۱۶
خامساً: ضمانات تنفیذ القوانین القرآنیة ----- ۱۱۸
سادساً: إحیاء القیم الروحیة ----- ۱۲۱
سابعاً: الاصول الثابتة والمتغیرة ----- ۱۲۱
۶- الاعجاز الغیبی للقرآن ----- ۱۲۳
إشارة وتنبیه: ----- ۱۲۳
اشارة ----- ۱۲۳
۱- الأخبار عن هزیمة الأعداء فی اقل من عشر سنین ----- ۱۲۴
۲- التنبوء عن نصرین هامین آخرین ----- ۱۲۶
۳- الغنائم الکثیرة فی المستقبل ----- ۱۲۷
۴- التنبّؤ بالهزیمة الساحقة للاعداء ----- ۱۲۷
۵- نبوءة اخری عن الانتصار فی معرکة بدر ----- ۱۲۸
۶- الوعد بالعودة ----- ۱۳۰
۷- لن ینال الإیمان أبداً ----- ۱۳۱
۸- إنّا أعطیناک الخیر الکثیر ----- ۱۳۲
۹ و ۱۰- أولئک لن یضروکم بشیء ----- ۱۳۴
۷- الاعجاز القرآنی فی عدم وجود التناقض والاختلاف ----- ۱۳۵
اشارة ----- ۱۳۵
خرق العادات والنوامیس الطبیعیة ----- ۱۳۷
اشارة ----- ۱۳۷
إشکالات حول مسألة شق القمر ----- ۱۴۱

اشارة ----- ۱۴۱
۱- إشكال من زاوية تاريخية ----- ۱۴۱
۲- من الزاوية العلمية ----- ۱۴۲
۳- انشقاق القمر فی التصور القرآنی ----- ۱۴۲
الطريق الثانی: جمع القرائن طريق آخر للاطمئنان ----- ۱۴۴
اشارة ----- ۱۴۴
تمهيد: ----- ۱۴۴
جمع القرائن دليل متداول فی كل العلوم: ----- ۱۴۴
اشارة ----- ۱۴۴
۱- ميحط دعوة النبی صلی الله عليه و آله والظروف السائدة هناک ----- ۱۴۸
۲- تاريخ الرسول صلی الله عليه و آله وخصائصه الأخلاقية ----- ۱۵۰
۳- مضمون الدعوة ----- ۱۵۱
۴- عمق تأثيره فی محيطه ----- ۱۵۶
۵- ما هی الوسائل الكفيلة لبلوغ الهدف ----- ۱۵۷
۶- إيمانه وتضحيته فی سبيل هدفه ----- ۱۵۹
۷- من هم المؤمنون به؟ ----- ۱۶۰
۸- التطور السريع ----- ۱۶۱
الطريق الثالث: البشارات والإشارات ----- ۱۶۴
اشارة ----- ۱۶۴
تمهيد: ----- ۱۶۴
إنّهم يعرفونه جيداً: ----- ۱۶۵
التبشير بظهور النبی صلی الله عليه و آله فی الكتب السماوية: ----- ۱۶۸
الخاتمية فی القرآن الكريم ----- ۱۷۳
اشارة ----- ۱۷۳

تمهید: ---- ۱۷۳
جمع الآیات وتفسیرها ---- ۱۷۴
مفهوم خاتم النبیین: ---- ۱۷۵
الاجابة عن بعض الاسئلة: ---- ۱۷۶
الخاتمیة فی الروایات الإسلامیة: ---- ۱۷۹
توضیحات ---- ۱۸۲
۱- هل أنّ السیر التکاملی للإنسان ینسجم مع مسألة الخاتمیة؟ ---- ۱۸۲
۲- هل أنّ القوانین الثابتة تتماشی مع احتیاجات الإنسان المتغیرة؟ ---- ۱۸۳
۳- هل یجب حرمان الإنسان من فیض الارتباط بعالم الغیب؟ ---- ۱۸۴
۴- هل تنسجم هذه الآیات مع مسألة الخاتمیة؟ ---- ۱۸۴
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ---- ۱۸۶

نفحات القرآن المجلد ۸

اشارة

سرشناسه : مكارم شيرازى ناصر، - ۱۳۰۵
عنوان و نام پديدآور : نفحات القرآن اسلوب جديد فى التفسير الموضوعى للقرآن الكريم ناصر مكارم شيرازى بمساعده مجموعه من الفضلا
مشخصات نشر : موسسه ابى‌صالح النشر و الثقافه [۱۳۷۷؟].
مشخصات ظاهرى : ج ۶
وضعيت فهرست نويسى : فهرستنويسى قبلى يادداشت : عربى مندرجات : ج ۱. العلم و المعرفه فى القران .-- ج ۲. معرفه الله فى القرآن .-- ج ۳. .-- ج ۴. معرفه صفات و جلال‌الله .-- ج ۵، ۶. المعاد فى القرآن موضوع : تفاسير شيعه -- قرن ۱۴
رده بندى كنگره : BP۹۸/م۷ن۷ ۱۳۷۷
رده بندى ديويى : ۲۹۷/۱۷۹
شماره كتابشناسى ملى : م۷۷-۱۳۷۱۱

الرسول لأكرم صلى الله عليه و آله و سلم و ظهور الإسلام

اشارة

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۷
الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم وظهور الإسلام
قبل كل شيء يجب التمعن فى دراسة حقيقة الإسلام ومنزلة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فى القرآن الكريم، والتحقيق فى النقاط الظريفة والدقيقة الواردة فى مختلف آيات القرآن الكريم، وحيث إنّ التعرف على هذه النقاط يقتضى معرفة تاريخ الإسلام بشكل إجمالى فعلى هذا الأساس يجب أن نتوفر على دراسة مختصرة ومركزة للتاريخ الإسلامى كى يتسنى لنا معرفة عوامل انتشار وتقدم الدين الإسلامى الحنيف، الأمر الذى يساعدنا على تمهيد الطريق للبحوث الآتية.

الرسول صلى الله عليه و آله وظهور الإسلام وسرعة انتشاره:

ظهر الإسلام قبل أربعة عشر قرناً فى مكة المعظمة، وفى مدة ۲۳ سنة (وهى فترة دعوة الرسول صلى الله عليه و آله) وقد أخضع لنفوذه أقصى منطقة فى جنوبِ الحجاز، أى‌اليمن، وإلى شمال شبه الجزيرة العربية، أى‌الشام والعراق، بل إنّ قسماً من أفريقيا أى‌الحبشة قد تأثرت بأنواره، واليوم نرى أكثر من ميليارد إنسان يدين به فى كل بقاع العالم.
وهنا نستعرض- ولو باختصار لحياة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وسرعة انتشار الإسلام، والعوامل التى ساعدت على ذلك.
من الطبيعى أنّ هذا العمل ليس بالأمر اليسير، لأنّ الظروف التى أدّت إلى وصول الإسلام إلى هذا الحد، أوسع بكثير ممّا جاء فى التاريخ بحيث يمكن القول: إنّ ما ذكره التاريخ قطرة من بحر، والذى نذكره هنا هو لمحات من ذلك التاريخ الذى لم يذكر لنا إلّاالقليل.
نفحات القرآن، ج۸، ص: ۸

بـدأ الإسـلام بشخصـيهٔ الرسول الأـكرم محمـد صـلى الله عليه و آله وقـد بعثهُ اللّه سـبحانه وتعـالى بالرسالـهٔ وهو فى الأربعين من عمره الشـريف، ثم آمنت به السيدهٔ خديجهٔ عليها السلام، وبعدها أمير المؤمنين على عليه السلام، حيث كانت دعوهٔ الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فى المرحلهٔ السريهٔ، وكان قبل ذلك فى السنين الثلاث لم يعلن دعوته إلّالمن يثق به.

أمّا بعد تلك السنوات الثلاث، وعندما نزلت الآيهٔ الكريمهٔ: «وَأَنْذِرِ عَشيرَتَكَ الأقْرَبين». (الشعراء/ ۲۱۴)

أعلن رسول اللّه صـلى الله عليه و آله دعوته أمام الناس، فصَعِدَ على جبل الصـفا ودعا أقرباءه وأعـدّ لهم وليمـهٔ، وفى ذلك اليوم كان المسلمون يعدون بالأصابع «۱».

وقـد اقيمت الوليمـهٔ مرّتين، إذ فى المرهٔ الاولى لم يُعطِ أبو لهب النبى صـلى الله عليه و آله فرصـهٔ للكلام، وفى المرهٔ الثانيهٔ سـخروا من كلامه صلى الله عليه و آله والتفتوا لأبى طالب قائلين له: «قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع».

وفى هذه المأدبهٔ كان النبى الأعظم صلى الله عليه و آله يرى بعين الغيب انتشار الإسلام الأكيد، حتى أنّه عيّن خليفهٔ ووارثاً له فيها «۲».

ولم تمضِ مدّهٔ طويلهٔ حتى أدرك رؤساء مكهٔ أنّ محمداً صـلى الله عليه و آله قد أضاء أفكار الناس وأيقظهم وأثبت عدم صحهٔ عبادهٔ الأوثان ولزوم الإيمان بخالق الكون، فأحسّوا بالخطر عنـدما ترسـخت دعوته، لأنّ منزلتهم الاجتماعيـهٔ وعائـداتهم الماليـهٔ كانت مرتبطهٔ إلى حـد ما بتلك الأفكار والأعراف الجاهليـهٔ، حتى أنّهم ذهبوا إلى أبى طالب راجين منه رفع اليـد عن حمايهٔ محمد صـلى الله عليه و آله أو المصالحـهٔ بينهم وبين محمـد صـلى الله عليه و آله أو إصـلاحه، وقـالوا: «يـا أبا طالب إنّ ابن أخيك قـد سَبَّ آلهتنا وعابَ ديننا وسفّهَ أحلامنا وضلل آباءنا فإمّا أن تكفَّهُ عنّا وإمّا أن تخلّى بيننا وبينهُ» «۳».

ولكنَّ أبا طالب عليه السلام قال لهم قولًا جميلًا وردهم ردّاً رقيقاً، وأخذ الإسلام يشق طريق

---

(۱) الكامل لابن الأثير، ج ۱، ص ۴۸۶، طبع دار احياء التراث العربى؛ وتاريخ الطبرى، ج ۲، ص ۶۱.

(۲) تفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۶۳.

(۳) سيرهٔ ابن هشام، ج ۱، ص ۲۸۳، ط مصر؛ الكامل لابن الأثير، ج ۱، ص ۴۸۸؛ والطبرى، ج ۲، ص ۶۵.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۹

الرشـد والتكامل وأحس رؤوس الكفر بالخطر الـذى يهـدد عقائدهم الوثنيهٔ وثقافتهم الجاهليهٔ، فعادوا مرّهٔ اخرى إلى أبى طالب فقالوا: «يا أبا طالب إنّ لك سـناً وشـرفاً وإنا قـد أسـتنهيناك أن تنهى ابن أخيك فلم تفعل وإنّا واللّهِ لا نصبر على شـتم آلهتنا وآبائنا وتسـفيهِ أحلامِنا حتى تكفّه عنّا أو نُنازلهُ وإيّاك حتى يهلكَ أحدُ الفريقين».

فى هذه المرّهٔ أخبر أبو طالب الرسول صـلى الله عليه و آله بما جرى بينه وبين أقطاب قريش وأنّهم مصرون على مخالفته، عندها أحسّ الرسول صـلى الله عليه و آله أنّ عمهُ أبـا طـالب قـد تباطأ قليلًا فى حمايته، فقال الرسول الأعظم صـلى الله عليه و آله لعمهِ تلك المقولهٔ المشـهورهٔ: «ياعَماهُ لو وضَعوا الشـمسَ فى يمينى والقَمرَ فى شمالى على أن أتركَ هذا الأمر، حتى يُظهِرَهُ اللّهُ أو أهلكَ فيهِ ما تركتُهُ».

ثم بكى وقام، فلما ولّى ناداهُ أبو طالب، فاقبلَ عليه وقال: «إذهب يابن أخى فقل ما أحببتَ فواللّه لا اسلِّمكَ لشىء أبداً» «۱».

عنـدما رأى رسول اللّه صـلى الله عليه و آله حمايهَ عمّه ثانيهٔ، انطلق بعزيمهٔ كبيرهٔ وثقهٔ عاليهٔ، ولما عرف رؤساء قريش ذلك عادوا إلى أبى طـالب وعرضوا عليه أن يساومَ فى ابن أخيهِ مقابل أجمل شاب من قريش على أن يتخـذه ابناً له! وجاء الرفض القاطع «۲» كصاعقهٔ دمرت ما يمكرون، فعمدوا إلى ايذاء المسلمين من كل طائفهٔ.

ومرّهٔ اخرى طلبوا من أبى طـالب أن يبلغ الرسول صـلى الله عليه و آله بأن يكفّ عن هـذا الأمر، وجاء الردّ المحمـدى صـلى الله عليه و آله: «يا عم أو لا أدعوهم إلى ما هو خيرٌ لهم منها، كلمهٔ يقولونها تَدينُ لهم بها العرب، ويملكون رقاب العَجَم» فقال أبو جهل: ما هى، وأبيك لنُعطِيَنَّكها وعَشرَ أمثالها، قال: «تقولونَ لا إله إلّااللّه ....» وقالوا: سَلْ غيرها، فقال: «لو جئتمونى بالشـمسِ حتى تضعوها فى يدى

ما سألتُكم غيرَها» «۳».

وفى هـذا الوقت دخـل فى الإسـلام أُناس كانوا يرزحون تحت ظُلم جبابرة مكـة، وآخرون واعون ليسوا بالأغنياء المغرورين، ممّا حـدا برؤوساء قريش إلى تغيير اسلوبهم

---

(۱) الكامل لابن الأثير، ج ۱، ص ۴۸۹؛ وسيرة ابن هشام، ج ۱، ص ۲۸۴- ۲۸۵؛ والطبرى، ج ۲، ص ۶۵.

(۲) سيرة ابن هشام، ج ۱، ص ۲۸۵، والكامل، ج ۱، ص ۴۸۹، والطبرى، ج ۲، ص ۶۶.

(۳) الكامل لابن الأثير، ج ۱، ص ۴۹۰؛ والطبرى، ج ۲، ص ۶۶.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۰

فى الصـراع مع الرسول صـلى الله عليه و آله- غير الرجوع إلى أبى طالب- لكى ينجوا من هـذا الخطر الداهم، وقد اتخذ الرسول صـلى الله عليه و آله من بيت الأرقم مركزاً للإشعاع الفكرى ونشر الدعوة.

ممارسة الضغط على المسلمين الجدد:

بعد أن يئس زُعماءُ مكة من التأثير على أبى طالب ورسول اللَّه صـلى الله عليه و آله، التجأوا إلى تعذيب وايذاء المسلمين المستضعفين ليردوهم عن الإسـلام فتضـعف قـدرة الرسول ومن ثم يترك الـدعوة إلى الإسـلام، ومن بين أولئـك المسـلمين بلال، وعمار، وياسـر، وسـمية، والخباب بن الارت، وصهيب، وعامر بن فهيرة، وأبو فكيهة، ولبيبة، وزبيدة، ونهدية، وأُم عبيس وأمثالهم، إذ صَبّوا عليهم ألوان العذاب حتى استشهد ياسر وسمية، ومر عليهم الرسول صلى الله عليه و آله مخاطبهم قائلًا: «صبراً آلَ ياسر فإنّ مَوعِدكُم الجنَّةُ» «۱».

ويحكى التاريخ عن كيفية تعذيبهم وصمودهم ما يستحق العجب.

التهمةُ والاستهزاء:

اتخذ المشركون اسلوباً آخر فى محاربتهم للرسول صلى الله عليه و آله كالتهمة والسخرية والاستهزاء، فأتهموا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بأنّه ساحر، وكاهن، وشاعر، ومجنون «۲»، وكذبوه وآذوه، ولم يتوقف رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله عن نشر دعوته لإظهار أمر اللَّه سبحانه، ولم تأخذه فى اللهِ لومةُ لائم.

ومن الـذين كـذّبوا واسـتهزأوا وآذوا رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله أبو لهب، والاسود بن عبـد يغوث، والحارث بن قيس، والوليد بن المغيرة، وابى، واميـة بن خلف، وأبو قيس، والعاص بن وائل، والنضـر بن الحارث، وعـدة آخرون حيث ذكر ابن هشام فى سيرتهِ. «إنّه خَرَجَ يومـاً فلم يَلقهُ أحـدٌ من النّـاس إلّاكـذّبهُ وآذاهُ لا حرٌ ولا عبـدٌ فرجع رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله إلى منزله فتـدثَّر من شـدّة ما أصابه» «۳».

---

(۱) الكامل، ج ۱، ص ۴۹۱.

(۲) تفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۷۱؛ وسيرة ابن هشام، ج ۱ ص ۳۰۸؛ والكامل، ج ۱، ص ۴۹۳.

(۳) سيرة ابن هشام، ج ۱، ص ۳۱۰.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۱

وذكر التاريـخ أيضاً: إنّ أبا لهب كان شديداً عليه وعلى المسـلمين، عظيم التكذيب له، دائم الأذى فكان يطرح العَذَرةَ والنتن على باب النبى وكان جارَهُ فكان رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله يقول: «أىُّ جوارٍ هـذا يا بنى عبـد المطلب». وكان الأسود عنـدما يمرّ عليه فقراءُ

المسلمين يستهزىء بهم ويقول: «هؤلاء ملوك الأرض» وكذلك كان العاص بن وائل يقول: «إنَّ مُحمداً أبتر لا يعيش له ولدٌ ذكر ...» «۱».

الهجرةُ إلى الحبشة:

إزداد ضغط المشركين وتعذيبهم، ففكر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بإنقاذ ضعفاء المسلمين وتخليصهم من أذى المشركين فدعاهم للهجرة إلى الحبشة، وبالفعل هاجر إليها عدد منهم فى السنة الخامسة للبعثة النبوية بعد سنتين من اعلان الدعوة الإسلامية وفى شهر رجب «۲».

وبهذه الهجرة أخذ الإسلام يتحرك وينتشر بصورة جديدة لذلك قررت قريش اعادة المسلمين من الحبشة واخضاعهم لها، فأرسلوا هدايا ثمينة للنجاشى ملك الحبشة طالبين منه تسليم المسلمين لهم، وبالرغم من اعطاء هدايا اخرى لبطانة النجاشى للتعاطف معهم ولكن النجاشى قال لهم: إنّ هؤلاء قد لجأوا إلينا ولا يمكن تسليمهم مالم نسمع حديثهم، واحضر النجاشى المسلمين وأخذ يسألهم عن سبب لجوئهم إليه.

وانتخبوا جعفر بن أبى طالب ناطقاً عنهم للجواب عن استفسارات النجاشى الذى طلب منه أن يتلو عليه آيات من سورة مريم كانت تتضمن نظر رسول الإسلام صلى الله عليه و آله فى المسيح وامّه مريم عليهما السلام، بعدها أعلن النجاشى إبقاء المسلمين عنده، وأرجع مبعوثى قريش.

ثم سأل النجاشى: «أى دين تدينون»؟ فقال جعفر: «أيّها الملك كنّا أهل جاهلية نعبدُ الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسىء الجِوار، ويأكل القوى منّا الضعيف حتى بعثَ اللَّه إلينا رسولًا منّا نَعرفُ نَسَبَهُ، وصدقَهُ وأمانتهُ وعفافهُ فدعانا لتوحيد

---

(۱) الكامل، ج ۱، ص ۴۹۳؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۷۰.

(۲) سيرة ابن هشام، ج ۱، ص ۳۴۴؛ الكامل، ج ۱، ص ۴۹۸.

اللَّه وأن لا نُشرك به شيئاً ونخلع ما كنّا نعبد من الأصنام وأمرنا بصدق الحديث وأداءِ الأمانة وصلة الرحم وحسنِ الجوار والكفّ عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم، وأمرنا بالصلاة والصيام .... فآمنّا به وصدّقناهُ وحرَّمنا ما حرّمَ علينا وحللنا ما أحلَّ لنا فتعدى علينا قومُنا فعذَّبونا وفتنونا عن ديننا ليردّونا إلى عبادة الأوثان فلما قهرونا وظلمونا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادِك واخترناكَ على من سواك ورَجَونا أن لا نُظلم عندك أيّها الملك» فقال النجاشى بعد أن سمع آيات من القرآن حول مريم والمسيح عليهما السلام: «اذهبوا فأنتم آمنون ما احبُّ أنّ لى جبلًا من ذهبٍ وأننى آذيتُ رجلًا منكم» «۱».

ورجع سفراء قريش خائبين منكسين رؤوسهم.

وقد اقترن بتلك الأيّام إسلام رجل قوى من بنى هاشم وهو الحمزة بن عبد المطلب «۲» فزاد المسلمون قوة فوق قوتهم وصمموا على تلاوة القرآن بشكل جماعى وسط الملأ من قريش، وأول من قام بهذا العمل هو ابن مسعود فتعرض للضرب والشتم.

ويذكر التأريخ: «فغدا عليهم فى الضحى حتى اتى المقام وقريش فى انديتها ثمَ رفعَ صوتَهُ وقرأ سورة «الرحمن» فلما علمت قريش أنّه يقرأ القرآن قاموا إليه يضربونه وهو يقرأ ثم انصرف إلى أصحابهِ وقد اثّروا فى وجههِ، فقالوا: هذا الذى خشينا عليك، فقال: ما كان أعداءُ اللَّه أهون علىَّ منهم اليوم ولئن شئتم لأغادينَّهم، قالوا: حسبُك» «۳».

ومن هنا نفهم أنّ المسلمين كانوا يؤدون عباداتهم إلى جانب الكعبة حيث كان عددهم يزيدُ على الستين شخصاً وكانوا يتزاورون فى بيوتهم لتعلّم القرآن.

الحصار الاقتصادى:

ولما أدركت قريش عدم تأثير جميع الأساليب التى اتخذتها وظل الإسلام يشق طريقه

---

(۱) سيرة ابن هشام، ج ۱، ص ۳۵۸؛ والكامل، ج ۱، ص ۴۹۹؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۷۳.

(۲) سيرة ابن هشام، ج ۱، ص ۳۱۱؛ والكامل، ج ۱، ص ۵۰۱؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۷۴.

(۳) سيرة ابن هشام، ج ۱؛ ص ۳۳۶؛ الكامل، ج ۱، ص ۵۰۲؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۷۳.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۳

بثبات قررت كتابة وثيقة تمنع فيها العلاقات الاقتصادية والاجتماعية مع بنى هاشم حتى تشكل ضغوطاً على الرسول صلى الله عليه و آله لمنع نشر الدعوة: «ولما رأت قريش الإسلام يفشو ويزيد وان المسلمين قووا وعاد إليهم عمرو بن العاص وعبد اللَّه بن أبى امية من النجاشى بما يكرهون من منع المسلمين عنهم وآمنهم عنده، ائتمروا فى أن يكتبوا بينهم كتاباً يتعاقدون فيه على أن لا ينكحوا من بنى هاشم وبنى المطلب ولا ينكحوا إليهم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم شيئاً، فكتبوا بذلك صحيفة وتعاهدوا على ذلك ثم علّقوا الصحيفة فى جَوف الكعبة توكيداً لذلك الأمر على أنفسهم» «۱».

وهكذا قد ضيَّقوا الخناق على بنى هاشم وبنى المطلب ليقع الخلاف بينهم ويُسلِّموا لهم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله.

واستمر الحصار على مدى ثلاث سنوات «۲» وكانوا محرومين من كل شىء ما عدا القليل الذى يهيؤنه سراً، غير أنّ مؤامراتهم فشلت مرّة اخرى فأكلت الارضة لائحتهم المعلّقة داخل الكعبة وملَّ بعض الأشخاص هذا العمل الوحشى غير الإنسانى فاصبحوا بصدد إلغاء اللائحة، وقد الغيت بالفعل وانتهى الحصار «۳». ورجع الرسول وعشيرتهُ إلى مكة المكرمة.

واستمر الإسلام بتقدمه والرسول صلى الله عليه و آله بدعوتهِ، وهنا وقعت حادثتان مؤلمتان للرسول صلى الله عليه و آله «۴» قبل الهجرة بثلاث سنوات، وهما: وفاة أبى طالب وخديجة عليهما السلام وكان للحادثتين أثر بالغٌ على الرسول صلى الله عليه و آله والمسلمين، وضيقوا الخناق على الرسول صلى الله عليه و آله «حتى ينثر بعضهم التراب على رأسهِ وحتى أن بعضهم يطرَحُ عليه رحم الشاة وهو يصلى ....».

بعدها صمم الرسول صلى الله عليه و آله على أن يستمد العون من مجموعة من قبيلة ثقيف الساكنة فى الطائف لحمايته ونشر الإسلام، ولكنهم كذبوه وطردوه فكان ذلك ثقيلًا على قلب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فأخذ يدعو بهذا الدعاء المعروف، يقول التأريخ: «فقام رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقد يئس

---

(۱) الكامل، ج ۱، ص ۵۰۴؛ وابن هشام، ج ۱، ص ۳۷۵؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۷۴.

(۲) سيرة ابن هشام، ج ۱، ص ۳۷۹.

(۳) الكامل، ج ۱، ص ۵۰۵؛ وابن هشام، ج ۲، ص ۱۴؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۷۸.

(۴) الكامل، ج ۱، ص ۵۰۷، وابن هشام، ج ۲، ص ۵۷، وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۸۰.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۴

من خير ثقيف ... واغروا به سفاءهم فاجتمعوا إليه وألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيعة ... ورَجعَ السفهاءُ عنه وجلس إلى ظلّ حبلة من عنب ... وقال: اللّهم إليك اشكو ضعف قوتى وقلةَ حيلتى وهوانى على الناس، اللّهم ياأرحم الراحمين أنت ربُّ المستضعفين وأنت ربى إلى مَن تكلنى إلى بعيد يتجهمنى أو إلى عَدُوٍ ملكتَه أمرى إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أُبالى ولكن عافيتك هى

أوسع، إنّى أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت به الظلماتُ وصلح عليه أمرُ الدنيا والآخرة من أن تنزلَ بى غضبك أو تحل بى سخطك» «۱».

فلما رأى ابنا ربيعة ما لحقه صلى الله عليه و آله تحركت له رحمهما فدعوا غلاماً لهما نصرانياً اسمه «عداس» فقالا له: خذ هذا العنب إلى ذلك الرجل، ففعل فلما وضعه بين يدى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، وضع يده عليه وقال «بسم اللَّه» وثمّ أكل، فقال عداس: واللَّه إنّ هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة.

فقال له النبى صلى الله عليه و آله من أى بلاد أنت وما دينك؟

قال: أنا نصرانى من أهل نينوى

فقال له رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ قال له: وما يُدريك ما يونس؟

قال الرسول صلى الله عليه و آله: ذلك أخى كان نبيّاً وأنا نبى.

فأكب عداس على يدى رسول اللَّه ورجليه يقبلهما، وأسلم «۲».

فلم يرجع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله خائباً من سفره هذا.

بداية جديدة فى ابلاغ الرسالة:

رغم هذه المشاكل الجمة لم يَنْثَنِ الرسول صلى الله عليه و آله عن ابلاغ رسالته، فاتصل فى موسم الحج بالقبائل مُبتدئاً بقبيلة (كندة) حتى قبيلة (كلب) و (بنى حنيفة) وكل من جاء لزيارة بيت اللَّه كان يدعوهم إلى الإسلام، وأبو لهب يلاحقه فى كل مكان ليُكذبه ويتهمهُ بخلق الأقاويل «۳».

---

(۱) الكامل، ج ۱، ص ۵۰۸؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۸۱.

(۲) الكامل، ص ۵۰۸، وابن هشام، ج ۲، ص ۶۱ و ۶۲، وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۸۱.

(۳) الكامل، ص ۵۰۹؛ وابن هشام، ج ۲، ص ۶۳؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۸۳ و ۸۴.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۵

الرسول يلتقى أهل المدينة:

اشارة

التقى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله (سويد بن صامت) أحد أفراد قبيلة الأوس فى المدينة الذى جاء حاجّاً إلى مكة المعظمة فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه بعض آيات القرآن الكريم فصدقه وآمن به وعاد إلى المدينة ومات مسلماً.

وعندما قدم (أبو الحيسر) أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بنى عبد الأشهل فيهم أياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فأتاهم فجلس إليهم فقال لهم: «هل لكم إلى خير ممّا جئتم له؟ قالوا: وما ذاك؟ قال: أنا رسول اللَّه بعثنى إلى العباد ادعوهم إلى اللَّه أن يعبدوا اللَّه لا يشركوا به شيئاً وأنزل على الكتاب ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن»، فقال أياس بن معاذ وكان غلاماً حدثاً: أى قوم، هذا واللَّه خير ممّا جئتم له.

قال: فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع حفنة من البطحاء فضرب بها وجه أياس بن معاذ وقال: دعنا منك فلعمرى لقد جئنا لغير هذا، قال: فصمت أياس، وقام رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عنهم وانصرفوا إلى المدينة فكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج، قال: ثم لم

يلبث أياس بن معاذ أن هلك، قال محمود بن لبيد: فأخبرنى من حضره من قومى عند موته أنّهم لم يزالوا يسمعونه يهلل اللّه ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات فما كانوا يشكون أنّه قد مات مسلماً لقد كان استشعر الإسلام فى ذلك المجلس حين سمع من رسول اللّه صلى الله عليه و آله ما سمع «۱».

بيعة العقبة الاولى

وفى السنة الاخرى من موسم الحج التقى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله جماعة من أهل المدينة- عُرفوا بعد ذلك بالأنصار- وهم ينتسبون إلى قبيلة الخزرج ودعاهم صلى الله عليه و آله إلى الإسلام وكانوا قد سمعوا آنفاً من اليهود قولهم: سيُبعَثُ رسول فى هذه الأيّام ونحنُ نحميه ونُساعده للقضاء

---

(۱) الكامل، ج ۱، ص ۵۱۰؛ سيرة ابن هشام، ج ۲، ص ۶۹؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۸۵.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۶

عليكم فَنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: «هذا النبى الذى توعدكم به اليهود، فأجابوه وصدقوه، و قالوا له: إن بين قومنا شرّاً، وعسى اللّه أن يجمعهم بك، فإن اجتمعوا عليك فلا رجل أعزّ منك». ثم انصرفوا عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدقوا وهم فيما ذكر سبعة نفر من الخزرج من بنى عبد النجار هم: أسعد بن زرارة، عوف بن الحارث، رافع بن مالك، عامر بن عبد حادثة، قطبة بن عامر، عقبة بن عامر، جابر بن عبد اللّه «۱».

وبعد انتهاء موسم الحج رجعوا إلى المدينة حاملين معهم مشعل الحرية للناس ونشروا الإسلام بين أهل المدينة.

وبعد مرور سنة وفى أيّام موسم الحج أيضاً جاء إثنا عشر رجلًا إلى العقبة وبايعوا الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فسُميت هذه ببيعة العقبة الاولى وعند رجوعهم إلى المدينة أرسل الرسول صلى الله عليه و آله مصعب بن عمير لتعليمهم القرآن والإسلام وقد استقر فى بيت (أسعد بن زرارة) والتفوا حول (مصعب) فبدأ يدعوهم إلى الإسلام باسلوب خاص فلم يبقَ بيتٌ من بيوت بنى عبد الأشهل إلّاودخله الإسلام، ولم يقتصر على هذه القبيلة فحسب، بل دعا أهل المدينة الآخرين إلى الإسلام فدخل الإسلام جمعٌ كثير «۲».

بيعة العقبة الثانية:

اتسع نطاق الإسلام فى المدينة بين الأنصار حتى إزداد عدد المسلمين كثيراً فقرروا السفرَ إلى الحج والالتقاء برسول اللّه صلى الله عليه و آله سرّاً ودعوته للقدوم إلى المدينة، وقد أرسلوا ممثلين عنهم يبلغ عددهم (۷۲) شخصاً، (۷۰) رجلًا وأمرأتين، وبدأوا عملهم سرّاً، بعد منتصف الليل وهم ينحدرون آحاداً إلى مكان معين فحضرَ الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وصَحبهُ عمُّهُ العباس، فبايعوه على أن يبذلوا أرواحهم «۳» دونه، وأن يكونوا أوفياء له وللاسلام، وواعدهم الرسول على الوفاء أيضاً، وقد أورد التاريخ مقاطع ممّا قيل فى ذلك اللقاء حيث بدأ العباس الكلام قائلا:

---

(۱) الكامل، ج ۱، ص ۵۱۰؛ وسيرة ابن هشام، ج ۲، ص ۷۰؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۸۶- ۸۸.

(۲) الكامل، ج ۱، ص ۵۱۱؛ وسيرة ابن هشام، ج ۲، ص ۷۳.

(۳) الكامل، ج ۱، ص ۵۱۳؛ وسيرة ابن هشام، ج ۲، ص ۸۴؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۹۱.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۷

«إن محمداً منّا حيثُ قد علمتم، فى عزٍ ومنعةٍ وإنّه قد أَبى إلّاالانقطاع إليكم فإنّ كنتم ترونَ أنّكم وافون له بما دعوتموهُ إليه ومانعوه

ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك وإن كنتم تَرونَ أنّكم مسلموهُ وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدَعُوه فانّه فى عزٍّ ومنعةٍ من قومه وبلده»، فقالت الأنصار:

تكلّم يارسول اللَّه وخذ لنفسك وربّك ما أحببت «فتكلّم وتلا القرآن ودعا إلى اللَّه ورغب فى الإسلام ثم قال: ابايعكم على أن تمنعونى ممّا تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»، فأخذ (البراء بن معرور) بيده ثم قال: «والذى بعثك بالحقِ لنمنعنك ممّا نمنع منه أزرنا فبايعنا يارسول اللَّه فنحن واللَّه أهل الحرب ...».

وقال الآخر ويدعى أبو الهيثم بن تيهان: يارسول اللَّه إنّ بيننا وبين الناس حبالًا وإنا قاطعوها يعنى اليهود فهل عسيتَ إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك اللَّه أن ترجع إلى قومِك وتدعنا؟ فتبسم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقال:

«بل الدَّم الدَّم والهدمَ الهدمَ أنتم منّى وأنا منكم اسالم من سالمتم وأحارب من حاربتم» ثم قال صلى الله عليه و آله: «أخرجوا إلىّ منكم اثنى عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم» فاخرجوهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وهنا قال العباس بن عبادة صاحب الفكر العميق والنظرة الثاقبة: يا معشر الخزرج هل تَدرون عَلامَ تُبايعون هذا الرجل ... تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس فإنّ كنتم تَرون أنّكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلًا أسلمتموهُ فمن الآن، فهو واللَّهِ خُزى الدنيا والآخرة إن فعلتم، وإن كنتم تَرون أنّكم وافون لهُ بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوهُ فهو واللَّه خير الدنيا والآخرة، قالوا: فإنّا نأخُذَه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فمالنا بذلك يارسول اللَّه إن نحن وفينا؟ قال: الجنَّة، قالوا: أبسط يدكَ فبسط يده فبايعوهُ «۱».

إنّ هذا النصر الكبير أدّى إلى ازدياد حقد وعداء أهل مكة للمسلمين فازدادوا ظلماً وتعذيباً لهم، فأمرهمالرسول صلى الله عليه و آله بالهجرة «۲» إلى المدينة.

---

(۱) الكامل، ج ۱، ص ۵۱۳؛ وسيرة ابن هشام، ج ۲، ص ۸۸.

(۲) سيرة ابن هشام، ج ۲، ص ۱۱۲؛ والكامل، ج ۱، ص ۵۱۵؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۹۷.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۸

الهجرة انعطافٌ جديدٌ فى تاريخ الإسلام:

بعد هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة ظل الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فى مكة منتظراً أوامر اللَّه تعالى وأحسَّ رؤساء قريش بالخطر الشديد لإسلام أهل المدينة وهجرة مسلمى مكة فقرروا قتل الرسول صلى الله عليه و آله فاجتمعوا لذلك وبعد مشاورات طويلة قرروا إشراك القبائل كافة مع قريش فى قتل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فى ذلك الوقت نفسه أمر اللَّه سبحانه وتعالى رسوله الكريم صلى الله عليه و آله بالهجرة «۱».

وفى بداية شهر ربيع الأول تخلص الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله من محاصرة الأعداء بمعجزة عجيبة وهاجر إلى المدينة فى يوم الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول ووصل إلى (قباء) «۲» وبقى فيها حتى الخميس وقد بنى هناك مسجداً سُمى (بمسجد قباء) وأقام أول صلاة للجمعة وخطبَ فى الناس أول خطبتين للصلاة فى تاريخ الإسلام، بالقرب من قباء فى (قبيلة بنى سالم).

بعدها دخل المدينة واستقبله أهلها استقبالًا عظيماً، وأول عمل قام به صلى الله عليه و آله هو بناء مسجد فيها اعتبره منطلقاً للرسالة وتعاليم الإسلام، ولتجمع «۳» المسلمين، غير أنّ الرسول والمسلمين تعرضوا إلى ألوان المؤامرات فاضطر النبى صلى الله عليه و آله إلى إشهار السلاح والاستفادة من القوة العظيمة لمسلمى المدينة لإبطال تلك المؤامرات.

وبعد سبعة أشهر من دخولِهِ المدينة أرسل الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أول كتيبة بقيادة عمّه (الحمزة بن عبد المطلب) للتعرض لقافلةِ قريش، ثم جهز سرية اخرى بقيادة «سعد بن أبى وقاص) وارسله إلى (الابواء)، بعدها غزوة (البواط) التى كان هدفها ضرب قافلة

قريش، ثم غزوة (العشيرة) لملاحقة قافلة لقريش أيضاً وفى السنة الثانية أعدّ سرية (عبد اللّه بن جحش) للتعرض إلى قريش بين مكة والطائف.

وفى السنة نفسها وقعت معركة بدر الكبرى التى نكست بها رؤوس الشرك والضلالة من

---

(۱) سيرة ابن هشام، ج ۲، ص ۱۲۳؛ والكامل، ج ۱، ص ۵۱۵.

(۲) سيرة ابن هشام، ج ۲، ص ۱۳۸؛ والكامل، ج ۲، ص ۵۱۸؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۱۰۰.

(۳) سيرة ابن هشام، ج ۲، ص ۱۴۳؛ والكامل، ج ۲، ص ۵۲۱؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۱۰۶- ۱۱۶.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۹

قريش وأرسلوا إلى جهنم ووقع كثير من أهل مكة فى الأسر، بعد هذا الانتصار ازداد المسلمون قوة وعزيمة وأوقعوا الرُعب فى قلوب اعدائهم، ثم أعقبتها غزوة (بنى قينقاع) بسبب نقض يهود المدينة عهدهم مع الرسول صلى الله عليه و آله، بعدها (غزوة كدر) ضد بنى سليم ثم غزوة (السويق) ضد هجوم أبى سفيان.

وفىالسنة الثالثة للهجرة وقعت حربُ (غطفان) ضد (بنى ثعلبة) الذين أرادوا الهجوم على المسلمين ثم غزوة (بنى سليم) التى قُتل فيها اثنان من شياطين الكفر هما (كعب بن أشرف) و (أبو رافع) على أيدى المسلمين، وبعدها معركة (احد) ثم تبعتها غزوة (حمراء الاسد) وقد مُنى المسلمون بالهزيمة فى معركة أحد لكن ذلك كان باعثاً لهم على التهيؤ للحروب القادمة وليعلموا أنّ الغفلة والغرور والتعلق بالماديات هى من أسباب الهزيمة.

وفى السنة الرابعة للهجرة وقعت غزوة (رجيع) ضد قبيلة (عضل وقارة) حيث سلَّموا مبلغى الإسلام إلى الأعداء، بعدها حادثة (بئر معونة) فقد دعوا (۷۰) شخصاً لتعليمهم الإسلام ثم قتلوهم، وحادثة (إجلاء بنى النضير) إذ صمموا على قتل الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وقد أخرجهم من المدينة بأجمعهم.

بعدها وقعت غزوة (ذات الرقاع) ضد طائفة (بنى محارب) و (بنى ثعلبة) من قبيلة (غطفان).

وفى هذه السنة وقعت (بدر الثانية) التى كان هدفها ملاحقة أبى سفيان. وقد كان لهذه الغزوات أثر بالغٌ فى تقدم وانتشار الإسلام فى الجزيرة العربية.

وفى السنة الخامسة للهجرة أحسّت قبائل العرب بخطر هذه القوة الجديدة فقرروا الاتحاد والتنسيق فيما بينهم للقضاء عليها وعدم فسح المجال لها بتأصيل جذورها كقوة ضد الظلم والشرك فى المنطقة فحدثت (معركة الأحزاب) التى انتصر فيها المسلمون ورجع منها المشركون خائبين مندحرين وأصبحت فكرة القضاء على المسلمين وقلع جذورهم من المحال.

وفى السنة نفسها وقعت غزوة (بنى قريظة) وحاصر المسلمون قلعتهم للتخلص من شر

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۰

اليهود الذين كانوا يحيكون الدسائس ضد المسلمين.

ثم فى السنة السادسة للهجرة وقعت غزوة (ذى قرد) حيث أغار الكفّار على أموال المسلمين وأموال رسول اللّه صلى الله عليه و آله واجتمع كذلك (بنو المصطلق) ضد الإسلام ولكنهم اندحروا فى غزوة (بنى المصطلق)، إنّ هذه الحوادث كلها كانت دليلًا واضحاً على قدرة وعظمة الإسلام.

صلحُ الحديبية فتحٌ كبيرٌ وتقدمٌ للإسلام:

فى السنة السادسة للهجرة أمر الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله المسلمين بالتهيؤ إلى حج العمرةِ مصطحبين معهم الإبل لذبحها

قرابين إلى اللّه سبحانه وتعالى ومعلنين لأهل مكة بأنّهم لم يأتوا للحرب، وكان لهذه الحادثة أثران واضحان:

الأول: أراد الرسول صلى الله عليه و آله من ذهابه إلى مكة اعلان عدم خوف المسلمين من أى عدو فى الجزيرة العربية.

الثانى: مع دخولهم مكة تظهر قدرة الإسلام فى مقابل مركز عبادة الأوثان وهذا مؤشر واضح على قوة وانتصار الإسلام لأنّ مكة كانت من المراكز المهمّة والقوية فى مقاومة الإسلام، وأدرك أهل مكة ذلك فقرروا منع دخول المسلمين من مكة وعندها أمر الرسول صلى الله عليه و آله أصحابه بمبايعته فكانت بيعة شديدة المواثيق والعهود سُميت ب «بيعة الرضوان».

ولما سمع المشركون بخبر البيعة قرروا عقد صلح مع الرسول صلى الله عليه و آله جاء فيه: أن يخرج المشركون من مكة السنة القادمة ويدخلها الرسول صلى الله عليه و آله لأداء حج العمرة «۱». وبعد أن تمّ الاتفاق على هذا الصلح توفرت أرضية سهلة للقضاء على أعداء الإسلام الكبار والصغار الذين كانوا بين الحين والآخر يحوكون المؤامرات ضد المسلمين أو يتعرضون لهم، فبمجرد أن عاد الرسول صلى الله عليه و آله من الحديبية أعدّ العدّة لحرب هؤلاء الأعداء فارسل سرية (عكاشة)

---

(۱) الكامل، ج ۱، ص ۵۸۲؛ سيرة ابن هشام، ج ۳، ص ۳۲۱؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۲۷۰.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۱

إلى (بنى اسد)، وسرية (محمد بن سلمة)، إلى (بنى ثعلبة)، وسرية (أبى عبيدة الجراح)، إلى (ذى القصد)، وأرسل ست سرايا «۱» بقيادة (زيد بن حارثة) لحرب (الجموح) إلى (عيص وطرف وحسمى ووادى القُرى وام قرفة)، وسرية (عبد الرحمن بن عوف) إلى (دومة الجندل)، وسرية (على بن أبى طالب عليه السلام إلى (فدك)، وسرية (كرز بن جابر) «۲» إلى (عرينين)، وكل هذه المعارك وقعت بعد الحديبية «۳».

وكثير من القبائل التى كانت تعدُ العدّة لحرب المسلمين قد فشلت وانهزمت قبل أن تنجز شيئاً ذا بال ووصلت قدرة الإسلام إلى أوج عظمتها وحينها لم تحدّث قبيلة من القبائل نفسها فى أن تخوض معركة مع الرسول صلى الله عليه و آله والمسلمين وأحست مكة بالضعف وعقدت هدنة مع الرسول فاعترفت برسمية الحكومة الإسلامية.

رسائله صلى الله عليه و آله إلى ملوك العالم:

وتعاظمت فى هذه الأثناء قدرة الإسلام وتوسع نفوذه فانتشر أول شعاع لشمسه خارج الجزيرة العربية، وقام الرسول بإرسال سفراء محملين برسائل إلى كسرى (ملك ايران)، وقيصر (حاكم الروم) «۴»، والنجاشى (حاكم الحبشة)، والمقوقس (حاكم مصر) «۵» وإلى عدّة اخرى من الرؤساء والحكام أداءً لتكليفه الإلهى ولدعوتهم إلى الإسلام فكان جواب بعضهم إيجابياً، وسكت بعضهم الآخر ماعدا خسرو برويز (شاه ايران) وهذا دليل على إمّا: أنّ التبليغ الإسلامى الصحيح قد وصلهم فاطلعوا على حقائق الإسلام، أو أحسّوا بقدرته ووصلتهم أخباره فكان صلاحهم فى عدم المواجهة العسكرية مع المسلمين «۶».

---

(۱) سيرة ابن هشام، ج ۳، ص ۵۳.

(۲) المصدر السابق، ج ۴، ص ۲۹۰.

(۳) الكامل، ج ۱، ص ۵۸۸- ۵۹۰.

(۴) تفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۲۸۸.

(۵) الكامل، ج ۱، ص ۵۹۱.

(۶) الكامل، ج ۱، ص ۵۹۱؛ تفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۲۹۸؛ وسيرة ابن هشام، ج ۳، ص ۳۴۲.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۲

ولم يبقَ من مراكز المؤامرات إلّاخيبر مركز اليهود «۱» الذى يجب القضاء عليه.

لذلك فقد صمّم الرسول صلى الله عليه و آله فى السنة السابعة للهجرة على اخضاعه مع قبيلة يهودية اخرى كانت تقطن أرض فدك.

بعد ذلك تجاوز الإسلام كل الموانع والعقبات التى كانت أمامه وارتفعت رايته عالية بالنصر المبين.

وفى هذه المرحلة وصل الإسلام فى الجزيرة العربية إلى أوج العظمة والازدهار واستغل الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله فرصة الاستفادة من صلح الحديبية للذهاب إلى زيارة بيت اللّه لأداء فريضة حج العمرة.

وبعد أن رجع الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله من خيبر فى شهر ذى الحجة أعلن للمسلمين الذين ذهبوا معه العام الماضى للعمرة أن يتهيأوا إلى السفر فى العام الحالى «۲» فلما سمع أهل مكة بهذا الخبر تركوا بيوتهم وفروا لاجئين إلى الجبال (وفقاً للصلح الذى اتفقوا عليه)، ودخل المسلمون مكة رافعين رؤوسهم.

عند ذلك أعلن الرسول صلى الله عليه و آله بقوله: «رحم اللّه امرأً أراهم اليوم من نفسه قوّةً» وبهذا الاسلوب استطاع المسلمون أن يحققوا آمالهم فى زيارة بيت اللّه سبحانه وهم يعرضون عظمة وقدرة الإسلام أمام أهل مكة «۳».

وعند حلول السنة الثامنة من الهجرة وسّع الرسول صلى الله عليه و آله دائرة نفوذ الإسلام، فأرسل سرية (غالب بن عبد اللّه الليثى) إلى (بنى الملوح)، و (العلاء بن الحضرمى)، إلى (البحرين)، وحسب أحد الأقوال أرسل سرية (شجاع بن وهب) إلى (بنى عامر)، وسرية (عمرو بن كعب الغفارى)، إلى (ذات الاطلاح)، فى أحد نواحى الشام.

وفى هذه السنة بعث الرسول صلى الله عليه و آله (عمرو بن العاص) إلى أرض (بلى وعُذْرة) ليدعوهم

---

(۱) تفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۳۹۰؛ وسيرة ابن هشام، ج ۴، ص ۱۲.

(۲) المصدر السابق.

(۳) الكامل، ج ۱، ص ۶۰۲.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۳

إلى الإسلام، فوقعت غزوة (ذات السلاسل) «۱».

وفى السنة نفسها أرسل صلى الله عليه و آله (عمرو بن العاص) نحو (جيفر وعياز) إبنى الجلندى فى عمان ليدعوهم إلى الإيمان، ويأخذ (الجزية) من المجوس.

كما أرسل جيشاً بقيادة (أبى عبيدة الجراح) فحدثت غزوة (الخبط) التى وافقت السنة الهجرية نفسها وأرسل صلى الله عليه و آله أيضاً سرايا (أبى قتادة) للوقوف بوجه من جهز جيشاً لمحاربة الرسول صلى الله عليه و آله وحدثت أيضاً غزوة (مؤتة) «۲» فى أرض مؤتة وهى إحدى القرى فى الشام.

وكان عدد المسلمين المشتركين فى هذه الغزوة ثلاثة آلاف مقاتل، وقد استشهد فيها عدد من قادتهم فكان ذلك سبباً لشعور المسلمين بالضعف الذى يعدُ نصراً للأعداء، غير أنّه سرعان ما تهيأت أسباب فتح مكة حيث إنّ قبيلة (خزاعة) كانت حليفة للرسول صلى الله عليه و آله وقبيلة (بنى بكر) حليفة لقريش، فبغت قبيلة (بنى بكر) على (خزاعة) وساندتها قريش، أتاح للرسول صلى الله عليه و آله التدخل لنصرة (خزاعة) فأمر صلى الله عليه و آله بتجهيز جيش لغزو مكة وتمكن بعشرة آلاف من المسلمين وبخطة عسكرية حكيمة من السيطرة على مكة وفتحها بدون قتال.

وبلغ المسلمون آمالهم فى الدخول إلى بيت اللّه الآمن مطهراً من دنس الجاهلية والأوثان.

وعندما رأى (أبو سفيان) كثرة المسلمين وقدرتهم انبهر بعظمة الإسلام فصرح إلى (العباس) بقولهِ: «لقد أصبح ملك ابن أخيك

عظیماً» فأجابه العباس: «ویحک إنّها النبوّة» «۳».

وصل الرسول الأعظم صلی الله علیه و آله إلی الکعبة ووقف فی بابها بعمامته السوداء منادیاً بالشعار

---

(۱) سیرة ابن هشام، ج ۴، ص ۲۷۲.

(۲) سیرة ابن هشام، ج ۴، ص ۱۵؛ و تفسیر جامع البیان، ج ۲، ص ۳۱۸.

(۳) الکامل، ج ۱، ص ۶۱۴.

المعروف لنبذ آداب واعراف الجاهلیة بقوله صلی الله علیه و آله: «لا إله إلّااللّه وحدهُ صَدقَ وعدهُ ونَصرَ عبدَهُ، وهَزمَ الأحزاب وحدهُ»، ثم أضاف صلی الله علیه و آله: «ألا ـ کُل دَمٍ فی ـ الجاهلیة ـ أو مأثرة أو مال یُدعی فَهو تحت قدمیّ هاتین إلّاسدانة البیت وسِقایة الحاج»، ثم قال: «یا معشر قریش ما تَرون أنّی فاعل بکم»؟ قالوا: «خیراً أخ کریمٌ وابن أخٍ کریمٍ»، قال: «اذهَبوا فأنتُم الطُلَقاء» «۱».

ثم أرسل الرسول صلی الله علیه و آله مجموعة من الجیش لاطفاء الفتنة التی حدثت بین القبائل فی اطراف مکة «۲» وللوقوف بوجه هوازن التی کانت مصرّة علی قتال المسلمین واشتبک المسلمون مع هوازن فی (حنین) وردوا بغیهم إلی نحورهم «۳». وبعدها حاصروا الطائف واجبروهم علی التسلیم «۴».

عندما حلت السنة التاسعة للهجرة تنفس المسلمون الصُعَداء بتدمیر کل مراکز المؤامرات التی کان یحوکها المشرکون والیهود والنصاری وبرزت قوة جدیدة إلی الوجود، فأسلمت بعض القبائل المحیطة علی یدیها وخضع لها بعضها الآخر.

وفی خضم هذه الحوادث جاء خبرٌ مفاده أن (هرقل) امبراطور الروم وعدداً من العرب الذین اعتنقوا النصرانیة یریدون الهجومَ علی بلاد الإسلام، فأعلن الرسول صلی الله علیه و آله أن یعدّ المسلمون أنفسهم للحرب مع الروم.

ونقل أرباب التاریخ أن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله أعلن عن مکان الحرب ولم یتکتم علیه خلافاً لعادته فی الحروب السابقة. ربّما لبُعد الطریق وأمثال ذلک ولکن یبدو أنّ هدفه کان بث الرعب فی قلوب الأعداء وقد جهز جیشاً بصعوبة بالغة وبمعدات قلیلة وسُمی ب (جیش العسرة) واتجهوا إلی (تبوک) «۵» وعند وصولهم إلیها ومرورهم ب (میناء ایله) فوافق حاکمها علی اعطاء الجزیة وتعاهد مع المسلمین علی الصلح «۶». ثم أرسل صلی الله علیه و آله خالد بن الولید إلی حاکم (دومة الجندل) فقبل الجزیة أیضاً «۷».

---

(۱) الکامل، ج ۱، ص ۶۲۰.

(۲) الکامل، ج ۱، ص ۶۱۸؛ سیرة ابن هشام، ج ۴، ص ۷۰.

(۳) الکامل، ج ۱، ص ۶۲۴؛ وسیرة ابن هشام، ج ۴، ص ۸۰؛ وتفسیر جامع البیان، ج ۲، ص ۳۴۴.

(۴) الکامل، ج ۱، ص ۶۲۸؛ وسیرة ابن هشام، ج ۴، ص ۱۲۲.

(۵) الکامل، ج ۱، ص ۶۳۵؛ سیرة ابن هشام، ج ۴، ص ۱۵۹؛ وتفسیر جامع البیان، ج ۲، ص ۳۷۳.

(۶) الکامل، ج ۱، ص ۶۳۸.

(۷) الکامل، ج ۱، ص ۶۳۸.

وظل رسول اللّه صلی الله علیه و آله فی تبوک خمسة عشر یوماً تقریباً ولکن جیش الروم تخلف عن المجیء فرجع الرسول صلی الله علیه و آله إلی مکة «۱».

وفی هذه السنة جاءت مجموعة من ثقیف وأعلنت إسلامها بین یدی الرسول صلی الله علیه و آله «۲»، وأمر الإمام علیاً علیه السلام

بتطهير قبيلة (طى) من دنس الأوثان فحاربهم وانتصر عليهم وأسّر بنت حاتم الطائى وعلى أثر ذلك دخل الإسلام (عدى بن حاتم و ...) «۳».

إنّ فتح مكة ودخول بنى ثقيف الإسلام والفراغ من تبوك كانت مؤشرات على عظمة الإسلام وصدق هذا الدين فتوافد كثير من القبائل على الرسول صلى الله عليه و آله واطلعوا تدريجياً على معارف الإسلام وعظمته فاعتنق بعضهم الإسلام وبعض عقد صلحاً وترك الحرب مع الرسولفسُمى ذلك العام (بعام الوفود) «۴»، فجاء وفد (بنى اسد) إلى الرسول صلى الله عليه و آله قائلين:

«أتيناك قبل أن تُرسل إلينا رسولًا» ووفد (بلى)، ووفد (زاريين)، ووفد (بنى تميم) «۵».

و وصلت رسائل كثيرة من ملوك وسلاطين (حِمْير) تدل على قبول قدرة وحكومة الإسلام «۶».

وكذلك جاء وفد (بهراء) ووفدُ (بنى البكاء) ووفدُ (بنى فزارة)، ووفد (ثعلبة بن منقذ)، ووفد (سعد بن بكر) «۷».

ونزلت سورة البراءة وقرأها الإمام على عليه السلام معلناً البراءة من الشرك وعبادة الأوثان ومنع المشركين من الدخول إلى مكة للحج.

---

(۱) الكامل، ج ۱، ص ۶۳۸.

(۲) المصدر السابق، ص ۶۴۰.

(۳) المصدر السابق.

(۴) الكامل، ج ۱، ص ۶۴۱؛ وسيرة ابن هشام، ج ۴، ص ۲۰۵.

(۵) الكامل، ج ۱، ص ۶۴۲.

(۶) سيرة ابن هشام، ج ۴، ص ۲۳۵.

(۷) الكامل، ج ۱، ص ۶۴۴.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۶

«فأقام الناس الحج وحجت العربُ الكفّار على عادتهم فى الجاهلية وعلىُ Z]يؤذن ببراءة فنادى يوم الأضحى لا يحجنَّ بعد العام مُشرِكٌ ولا يَطوفنّ بالبيت عُريانٌ ومن كان بينهُ وبين رسول اللَّهِ عهد فأجلُهُ إلى مدّتهِ» «۱».

وحَلَّ العام العاشر للهجرة وصوتُ الإسلام يدوى فى كل مكان، فجاء نصارى (نجران) إلى المباهلة، ثم قبلوا الصُلح بدونها: «وصالحوه على ألفى حُلّة ثمنُ كل حُلّة أربعون درهماً وعلى أن يُضيّفوا رُسُلَ رسول اللَّه Z]وجعل لهم ذمَّةَ اللَّه تعالى وعَهدهُ ألّا يفتنوا عن دينِهم ولا يُعشِروا وشرط عليهم أن لا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به» «۲».

وتوالت الوفود تلو الوفود إلى المدينة لتعلن وفاءها للاسلام والرسول الأعظم صلى الله عليه و آله، فجاء وفد (سلامان)، ووفد (غبشان)، ووفد (عامر)، ووفد (ازد)، ووفد (مراد)، ووفد (زبيد)، مع (عمرو بن معدى كرب)، ووفد (عبد قيس)، ووفد (بنى حنيف)، ووفد (كندة)، ووفد (محارب)، ووفد (رهاويين)، ووفد (عبس)، ووفد (صَدف)، ووفد (خولان)، ووفد (بنى عامر)، ووفد (طى) «۳».

وقد تجلّت قوّة الإسلام فى حجة الوداع فبناءً على ماذكر فى بعض الروايات فإنّ مجموع المسلمين الذين ذهبوا لزيارة بيت اللَّه الحرام وحضروا (حجة الوداع) كان أكثر من مائة الف شخص، ويعد هذا الاجتماع من أكبر الاجتماعات الدينية فى ذلك العصر، كما تعكس ذلك أيضاً خطب الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فى سفره سواء كانت فى مكة، أم فى عرفات، أم فى منى أم فى غدير خُم، لتعيين الخليفة والوصى من بعده وقد جاء فى التاريخ مايلى:

«فأرآهم مناسكهم وعلمهم سنن حجهم وخطب خطبتهُ التى بيّن فيها للناس ما بيّن وكان الذى يبلغ عنه بعرفة (ربيعة بن امية بن خلف) لكثرة الناس، فقال بعد حمد اللَّه: «ايّها الناس اسمعوا قولى فلعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً. أَيّها الناس إنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا وكل ربا موضوع لكم رؤوس أموالكم وإن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كُلّهُ وكل

دم كان فى الجاهلية موضوع أَيّها النّاس

---

(۱) الكامل، ج ۱، ص ۶۴۴؛ سيرة ابن هشام، ج ۴، ص ۱۹۰.

(۲) الكامل، ج ۱، ص ۶۴۶.

(۳) الكامل، ج ۱، ص ۶۴۷- ۶۴۹؛ وللاطلاع على غزوات وسرايا الرسول صلى الله عليه و آله) يمكن الرجوع إلى سيرة ابن هشام ج ۴، ص ۲۵۶؛ الكامل، ج ۱، ص ۲۵۲؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۴۰۴.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۷

إنّ الشيطان قد يئس أن يُعبد بأرضِكم هذه أبداً ولكنّه يُطاع فيما سوى ذلك وقد رضى بما تحقرون من أعمالكم ...» «۱».

جاء فى تاريخ حجة الوداع: أنّه أثناء ذهاب الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله إلى الحج كان قد اجتمع خلق كثير فى المدينة على الرغم من انتشار أحد الأمراض الذى منع حج كثير منهم: «ومع ذلك كانت معهُ جموع لا يعلمها إلّااللّه، وقد قيل إنّه خرج معهُ تسعون الفاً، ويقال: مائة الف وأربعة عشر الفاً وقيل: مائة الف وعشرون الفاً، وقيل: مائة الف وأربعة وعشرون الفاً، ويقال أكثر من ذلك وهذه عدةُ من خرج معه وأمّا الذين حجوا معه فأكثر من ذلك كالمقيمين بمكة والذى اتوا من اليمن مع على Z]وأبى موسى «۲».

ولو يمكن تقدير عدد المسلمين الذين لم يستطيعوا الحجّ لتبين مقدار ما وصلت إليه شوكة الإسلام.

وأخيراً جهّز الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله قبل وفاتهِ جيشاً بقيادة (أُسامة) لحرب ديار الشامات (بصرى فتخلف بعضهم عن أمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله.

---

(۱) الكامل، ج ۱، ص ۶۵۲.

(۲) سيرة الحلبى، ج ۳، ص ۲۸۳؛ وتواريخ اخرى نقلًا عن الغدير، ج ۱، ص ۹ وهو مصدر جامع لمن أراد أن يستزيد.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۹

نبيُّ الإسلام فى القرآن

تمهيد:

استعرضنا فيما تقدم لمحات مختصرة من حياة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله من وجهة نظر المؤرخين، والآن نستعرض حياتَه الشريفة منذُ نعومةِ أظفارهِ وحتى انتهاء عُمره- كما جاء فى القرآن الكريم- بتحقيق دقيق مختصر يصلح أن يكون مقدّمة خاصة للبحوث حول النبوة.

إنّ دراسة الآيات القرآنية وبالأخص ذات العلاقة بهذا البحث لها أهميّة بالغة وذلك للرد على أصحاب الشبهات والمخالفين، فلو أنّ هذه الآيات لم تنطبق على واقع حياة الرسول صلى الله عليه و آله فإنّ ذلك سيكون مدعاة لإثارة هذه الشبهات، والتى سوف يكتبونها فى التواريخ كما كتبت الوقائع الأُخرى

وبتعبير آخر: بغض النظر عن كون القرآن الكريم كلام اللّه سُبحانه وتعالى وكل ما جاء به من الآيات القرآنية منسجمٌ مع الحقيقة والواقع. فلو فرضنا عدم صحة تطابقها فإنّ الآيات القرآنية التى تخص حياة الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله لا يمكن عدم تطابقها مع الواقع، لأنّها ستكون وسيلة جيدة يتذرع بها الأعداء لتمرير شبهاتهم وبهذه الإشارة نمعن النظر مرة أُخرى فى الآيات القرآنية والنقاط المهمّة التى جاءت بها حول مقاطع مختلفة من حياة الرسول صلى الله عليه و آله.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۰

محيط دعوة الرسول صلى الله عليه و آله:

اشارة

بيّن القرآن الكريم فى سورتين منه وبتعبير فى غاية الوضوح حياة عرب الجاهلية المعاصرين للرسول صلى الله عليه و آله بقوله: «وَان كَانُوا مِن قَبلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ».

(آل‌عمران/ ۱۶۴) (الجمعة/ ۲)

وتعبير (ضلالٌ مُبين) فى الآيتين بيانٌ واضحٌ لتحكُّم الضلالةُ والضياع فى المجتمع العربى الجاهلى.

ضياع فى العقائد حيث كانوا مشركين يعبدون الأصنام التى يصنعونها بأيديهم من الحجر والخشب.

وضياعٌ فى الجوانب الاجتماعية إلى الحد الذى كانوا يئدون بناتهم احياءً وهم يفتخرون بذلك.

وكانوا يطوفون رجالًا ونساءً حول الكعبة عُراة ويعتبرون ذلك من ضمن عبادتهم.

والإعتداء والحروب وإراقة الدماء بالباطل، كل ذلك كان له قيمة اجتماعية فى الجاهلية، حتى وصل الأمر إلى أن يَرِثَ الأبناء أحقاد واضغان الآباء.

والمرأة فى خضم ذلك مجرّد متاع يقامرون به.

وأفضل من رسم مفهوم (ضلال مبين) قولُ (جعفر بن أبى طالب) عندما بيّن أوضاع عرب الجاهلية لملك الحبشة (النجاشى) بقوله: «أيّها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبدُ الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسىء الجوار، ويأكلُ القوىُ منّا الضعيف حتى بعثَ اللهُ إلينا رسولًا منّا نعرفُ نسبهُ، وصدقهُ وامانتهُ وعفافهُ فدعانا لتوحيد اللّه وان لا نشركَ به شيئاً ونخلعَ ما كنا نعبدُ من الأصنام وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحُسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ...» «۱».

ولمزيد من توضيح تلك الإشارة التى وردت فى الآيتين الكريمتين نستعين بآيات اخرى حيث جاء فيها:

---

(۱) الكامل، ج ۲، ص ۸۰؛ تفسير فى ظلال القرآن، ج ۸، ص ۹۵.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۱

۱- الأصنام فى عقائد العرب

إنّ عقائدأىّ قوم أو شعب تشكل ركناً أساسياً فى ثقافتهم، وانحطاط تلك العقائد يدل على الانحطاط الثقافى والحضارى لهم.

وعلى هذا الأساس، فعرب الجاهلية كانوا فى أرذل درجات الانحطاط الثقافى والضياع حيث كانوا يعبدون الأصنام التى يصنعونها بأيديهم فيتصورون أنّها تتحكم فى مصائرهم بل يزعمون أنّها حاكمة على السماء والأرض أحياناً، وقد خاطب القرآن الكريم الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله بصدد ذلك بقوله: «قُلْ اَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَايَملِكُ لَكُم ضَرًّا وَلَانَفعَاً وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ».

(المائدة/ ۷۶)

وبالإضافة إلى الأصنام الصغيرة فقد كانت لديهم ثلاثة أصنام كبيرة ذات شهرة خاصة فى مجتمعهم يزعمون بأنّها بنات الرب وهى وسيلة للتقرب إليه، أحدها (مَناة) وكان ما بين المدينة ومكة المكرمة بالقرب من ساحل البحر الأحمر، ولهذا الصنم احترامٌ خاص عند كل العرب انذاك، فيقدمون إليه القرابين، وأكثر القبائل احتراماً وتقديساً له قبيلة (الاوس) و (الخزرج).

والثانى فى الطائف يُعرف باسم (اللّات)، وقد شُيد فى مكانه اليوم مسجد وكانت (ثقيف) من أكثر القبائل احتراماً له.

والثالث من الأصنام الكبيرة هو (العُزى وقد وضع فى الطريق المؤدى إلى العراق قريباً من منطقة (ذات العِرق) ولقريش علاقة خاصة بهذا الصنم،

وهناك أصنام اخرى للقبائل والعشائر بل وللعوائل أيضاً إذ لا معنى لحياة عرب الجاهلية بدونها، فمثلًا لو أرادوا السفر فإنّهم يستاذنون من الصنم ولهم فى اسفارهم أصنام يصحبونها معهم.

وقد أشار القرآن الكريم فى سورة النجم إلى ذلك بقوله تعالى «افَرَأَيتُمُ اللَّاتَ وَالعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الاخَرى الَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الانثَى . (النجم/ ١٩- ٢١)

ومن الجدير بالذكر فى الحياة الجاهلية أنّهم كانوا يكرهون البنات ويئدونهن أحياناً

نفحات القرآن، ج٨، ص: ٣٢

بالرغم من اعتقادهم بأنّ الملائكة بناتُ اللَّه وهذه الأصنام تماثيل تلك الملائكة، لذلك واجههم القرآن الكريم بمنطقهم وهو كيف تقولون: أنّ لله بنات فى الوقت الذى تكرهونهن فيه؟

و قد استنكر القرآن وذم تلك الأفكار الخرافية المنحطة بقوله تعالى «وَجَعَلُوا المَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحمنِ انَاثاً اشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ». (الزخرف/ ١٩)

وقد حارب الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله هذه العقائد الضالة الناشئة من التصورات الخاطئة وهوى النفس كما ورد فى ذيل الآية الكريمة بعد أن أشارت إلى الأصنام الثلاثة الكبيرة المعروفة بقوله تعالى: «انْ هِيَ إِلَّا اسمَاءٌ سَمَّيْتُمُوَها انتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَّا انزَلَ اللّهُ بِهَا مِنْ سُلطَانٍ انْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهوَى الأنْفُسُ». (النجم/ ٢٣)

صحيح أنّ المشركين قد تشبثوا بدليلٍ واهٍ ليبرّروا به عبادتهم للأصنام حيث قالوا: (إنّ ذاتَ اللَّه أسمى من أن يصلَ إليها العقل والفكر الإنسانى وهو منزه عن أن نعبده بصورة مباشرة)، وعلى هذا الأساس فالذين وكّل إليهم أمر خلقهِ وتدبيرهِ هم الواسطةُ إليه وهؤلاء هم الملائكة والجن وكل الموجودات المقدسة فهؤلاء اربابٌ نعبدهم وهم الذين يقربوننا إلى اللَّه «مَانَعبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلفَى . (الزمر/ ٣)

وعلى هذا فإنّ أيدينا لا تصل إلى هذه المقدسات فنصنع لها تمثالًا ثم نَعبدُها! وهذه التماثيل هى أصنامهم وفى تصورهم أن هناك وحدة واتحاداً بين هذه الأصنام والوجودات المقدسة فهم يخاطبونها بالآلهة والأرباب.

وهم بهذه الخرافات الواهية ابتعدوا عن اللَّه سبحانه وتعالى وهو أقرب إلى الإنسان من نفسه، وبدلًا من أن يتوجهوا إلى اللَّه الذى هو منبع الفيض والقدرة البصير الموجود فى كل مكان لجأوا إلى مخلوقات ممكنة لا حول ولا قوة ولا شعور لها بل إنّها مخلوقة بايدى عبّادها ومع ذلك فقد أجلسوا تلك المخلوقات التى لا قيمة لها على عرش الربوبية والالوهية ناسين عظمة الذات الإلهيّة اللامتناهية ولاهثين وراء سراب يحسبونه ماءً.

نفحات القرآن، ج٨، ص: ٣٣

٢- تفشى حالة الفقر الشديد بين الناس

فى الوقت الذى بُعثَ فيه الرسول صلى الله عليه و آله كان عرب الجاهلية غارقين فى فقر شديد إلى الحد الذى كانوا يقتلون فيه أبناءهم- وحتى الذكور منهم أولئك الذين يشكلون الحجر الأساس لحياتهم المادية والاقتصادية- ليقللوا عدد الأفواه الجائعة، قال تعالى «وَلَاتَقتُلُوا اولَادَكُمْ خَشْيَةَ املَاقٍ نَّحنُ نَرزُقُهُمْ وَايَّاكُم» «١». (الإسراء/ ٣١)

وقد جسّم أمير المؤمنين على عليه السلام هذا المعنى فى تحليل جامع فقال عليه السلام: «إنّ اللَّهَ بَعَثَ محمداً صلى الله عليه و آله نذيراً

للعالمين، وأميناً على التنزيل وأنتم معشر العرب على شرِ دين وفى شر دار منيخون بين حجارةٍ خُشن وحيّات صُمٍّ، تَشربونَ الكَدِرَ، وتأكلونَ الجَشِبَ» «۲».

۳- عباداتهم العجيبة

كانت عبادة المشركين غريبة للغاية، ويجيب القرآن الكريم على ادّعاء المشركين الذين يزعمون: بأنّه إذا كان محمدٌ صلى الله عليه و آله قد اتى بعبادات فإنّ لنا مثلها وكنا نصلى إلى جانب الكعبة كذلك، فيقول القرآن: «وَمَا كَانَ صَلَاتُهُم عِندَ البَيتِ إِلَّا مُكَاءً وتَصدِيَةً». (الانفال/ ۳۵)

نعم، إنّهم يُسمّون صفيرهم الاحمق وتصفيقهم الأبله صلاةً، «فالمكاء» يعنى: صوت الطيور، وجاء تشبيه أصوات العرب فى الجاهلية حول الكعبة بصوت الطيور، ربّما لأنّه خالٍ من أى مفهوم كصوت الطيور الذى لا محتوى فيه، أو أن كل ماكان يفعلونه ما هو إلّا مجرّد غناء.

وأمّا «التصدية» فمعناها التصفيق، وهو ضرب اليد على الاخرى والصوت الناتج من

---

(۱) هناك احتمال أنّ هذه الآية إشارة إلى قتل البنات اللاتى ينظر إليهن المجتمع باحتقار ويعدهن لوحدهن مخلوقات وضيعة مستهلكة ولكن الاحتمال هنا يشمل الأولاد أيضاً لوجود ضمير جمع المذكر ولقوله تعالى «إن قتلهم كان خِطأً كبيراً) ويعود هذا الضمير إلى الأولاد فى صدر الآية التى نزلت إمّا بخصوص الأولاد فحسب أو الأولاد والبنات على أقل تقدير وقد استخدم ضمير الجمع للمذكر لتغليب الذكور على الإناث.

(۲) نهج البلاغة، الخطبة ۲۶.

ذلك يسمى تصدية، وعلى هذا الأساس سمى تردد الصوت بين الجبال بالصدى ولم ينتهوا إلى هذا الحد بل كانوا يطوفون عراة كما ولدتهم امهاتهم حول الكعبة، وهذا ما اشير إليه عندما نزلت سورة براءة وقام بإبلاغها أمير المؤمنين على عليه السلام فى شهر ذى الحجة بقوله: «لا يطوفَنَّ بالبيت عُريانٌ ولا يحُجنَّ البيتَ مشركٌ ...» «۱».

ويقال: إنّ السبب من طوافهم عراة أنّ مجموعة من العرب يُسمّون أنفسهم (حُمس) «۲» يعتقدون بأنّ طوافهم حول الكعبة يجب أن يكون بلباس خاص، ومن لم يملك ذلك اللباس ويطوف بملابسه المعتادة فعليه أن يرميها بعيداً بعد انتهاء الطواف ولا يحق له وللآخرين استخدامها ولذلك يطلقون على هذه الألبسة (اللَقاء)، أى ما يُلقى من الثياب، وإذا اخذ بنظر الاعتبار أنّ أكثر الناس كان يسودهم فقر مدقع ولا يملكون إلّالباساً واحداً فيضطرون لخلعه من أجل الاحتفاظ به ويطوفون عراة حول الكعبة.

وقد استفاد أصحاب الشهوات أحياناً من هذه الخرافة ليتمتّعوا بالنظر إلى الشباب من الرجال والنساء عندما يعرضون أجسادهم عارية «۳».

ويذكر ابن هشام أنّ الرجال كانوا عراة تماماً. أمّا النساء فكنَّ يخلعن كل ملابسهن ما عدا ثوباً مشقوق الذيال يبدى أجسامهن ثم ينشغلن بالطواف، وذات يوم طافت امرأة فى تلك الهيئة أمام أعين رجال شرهة فأنشأت هذا الشعر الذى حفظه لنا التاريخ:

اليَومَ يَبدُو بَعضُهُ أو كُلُّهُفما بَدا مِنهُ فَلا أحِلُّهُ «۴»

أمّا القرابين التى يقدمونها إلى الأصنام فلها قصةٌ مفصلةٌ، فمن جملة ذلك أنّ الناس فى (دومة الجندل) «۵» كانوا يقدمون شخصاً فى كل سنة قُرباناً إلى الآلهة مع مراسم خاصة ثم يدفنون جسده المدمى قرب المذبح، حتى كتب بعضهم: ا نّ المصريين كانوا يقدمون أجمل

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۵، ص ۳، فى ذيل الآيات الاولى لسورة البقرة.

(۲) «حُمس» على وزن «خُمس» جمع «أحمس» وهو من تعصب لدينهِ، ولأنّ قريش كانت توطد عقيدةالشركلذلك وصفوا أنفسهم بال (حُمس).

(۳) الإسلام والعقائد والآراء البشرية، ص ۲۸۸.

(۴) سيرة ابن هشام، ج ۱، ص ۲۱۵.

(۵) منطقة فى شمال غربى (نجد) فى قمة جبال الجزيرة العربية، وهناك كانت قصة وقوع التحكيم بصفين.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۵

الشباب والشابات قرابين إلى (آلهة النيل)، وقد بقى ذلك التقليد عُرفاً اجتماعياً لبعض قبائل العرب فينذر الآباء أبناءهم أحياناً قرابين إلى الآلهة أيضاً «۱».

۴- الخرافات الاخرى لعربِ الجاهلية

ومن جملتها مسألة اللحوم المحللة والمحرمة والقوانين المخزية الفارغة التى كانوا يسنونها لأنفسهم كما ذكر ذلك القرآن الكريم: «وَقَالُوا هَذِهِ انْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّايَطعَمُهَا الَّا مَنْ نَّشاءُ بِزَعمِهِم وَانعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا». (الأنعام/ ۱۳۸)

ويقول فى الآية التى بعدها: «وَقَالُوا مَا فِى بُطُونِ هذِهِ الانعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلَى ازوَاجِنَا وَانْ يَكُنْ مَّيْتَةً فَهُم فِيهِ شُرَكَاءُ». (الأنعام/ ۱۳۹)

وقد وعَد القرآن أصحاب تلك البِدع القبيحة التى ابتدعوها بالخسران كما ورد فى ذيل هذه الآيات من قوله تعالى «قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا اولَادَهُم سفَهًا بِغَيرِ علمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَد ضَلُّوا وَمَاكَانُوا مُهتَدِينَ». (الأنعام/ ۱۴۰)

حتى أنّهم قد حرَّموا بعض السنن الباقية من الأنبياء عليهم السلام وأصبحت غير مؤثرة مثل سُنة تحريم القتال فى الاشهر الحرم (ذى القعدة، ذى الحجة، محرم، رجب) حيث كان ذلك المعتقد عاملًا مهماً فى منعهم عن سفك وإراقة دمائهم، لكن تلك السُنة الخرافية (النسىء) كانت تبطل تأثيرها، فمتى ما أرادوا تجاوز حرمة هذه الأشهر الحُرم، قالوا لا مانعَ من جعل شهر آخر مكان هذا الشهر، فعابَ عليهم القرآن هذا العمل السيء بقوله تعالى «انَّمَا النَّسِىءُ زِيادَةٌ فِي الكُفرِ». (التوبة/ ۳۷)

إنّ الحج وزيارة بيت اللَّهِ الحرام التى كانت من سنن إبراهيم عليه السلام ودافعاً إلى الوحدة والتقرب إلى اللَّه سبحانه، قد تلوث بخرافاتهم ولم تصبح سبباً وعاملًا للابتعاد عن اللَّه سبحانه فحسب بل وللتفرقة والتشتت بين الناس، لأنّ التعصب للقومية والشرك وعبادة الأصنام كانت سائدة عليها.

(۱) الإسلام وعقائد وآراء البشر، ص ۲۷۸.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۶

۵- شيوع الفساد الأخلاقى

لقد بلغ الفساد الأخلاقى أعلى درجاته عند عرب الجاهلية فقد كانت تحكمهم عداوات شديدة وأحقاد موروثة من السلف إلى الخلف، لم تقتل الأخلاق فحسب بل إنّ كل شىء فى المجتمع ذهب ضحية لهذه العداوات وقد بيّن القرآن الكريم ذلك للعرب الذين مَنَّ اللَّهُ وتعالى عليهم بالإسلام بقوله: «وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيكُم اذْ كُنْتُم اعدَاءً فَالَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُم فاصبَحْتُم بِنِعمَتِهِ اخوَاناً وَكُنْتُم

عَلى شَفَا حُفرَةٍ مِنَ النَّارِ فَانقَذَكُم مِّنهَا». (آل عمران/ ۱۰۳)

و «الشفا»: كما جاء فى «مقاييس اللغة» هى الإشراف والتسلُّط على الشىء و (الشفا) هنا يطلق على الأشياء التى يشرف الإنسانُ عليها، مثل الإشراف على جوانب الحفرة أو حافة الوادى أو حافة النهر، وكذلك (شفة) الإنسان على جانبى فمه ويُطلق أيضاً على تحسن صحة المريض لأنّه يتسلط ويتغلب على المرض.

وعلى أيّة حال فقد شبَّه القرآن الكريم حياة عرب الجاهلية بمن يقف على شفا حفرة من النار ليسقط فيها بسهولة، نار تحرق كل شىء وتحوله إلى رماد.

كانت العداوة والنفاق والاختلافات مطبوعةً فى نفوسهم وحاكمةً عليهم بحيث صرح القرآن الكريم لنبىّ الإسلام محمد صلى الله عليه و آله: إنّ من المستحيل القضاء على هذه الاختلافات بالطرق العادية وإيجاد الاتحاد والوحدة بينهم إلّابمعجزة إلهيّة، وقد حصل ذلك على يد الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله بإذن اللّه: «لَو انفَقتَ مَا فِى الأَرضِ جَمِيعاً مَّاأَلَّفتَ بَينَ قُلُوبِهِم وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَينَهُم». (الانفال/ ۶۳)

إنَّ معاقرة الخمر واللعب بالميسر والأزلام كانت متفشية بحيث كان من الصعب القضاء عليها بمرحلة واحدة، لذلك جاء أمر تَحريم الخمر على عدّة مراحل «۱».

كما أنّ أحد أكبر المفاسد الأخلاقية والاجتماعية هو مسألة (حقوق المرأة) فى مجتمع عرب الجاهلية، فقد وصلت إلى الحد الذى يتفق مع ما قاله بعض المفسرين: إنّه عندما تحين ولادة المرأة فى العصر الجاهلى تحفر حفرة وتجلس على شفتها فإن كان المولود بنتاً

---

(۱) والتفصيل فى ذلك جاء فى التفسير الامثل ذيل الآية ۹۰ من سورة المائدة.

قذفته فيها، وإذا كان ولداً عصمته منها. وقد قال أحد شعرائهم بهذا الصدد مفتخراً:

سَميتُها إذْ وُلدت تَموتُوالقبرُ صِهرٌ ضامنٌ ذمِّيتُ «۱»

إنّ هذا العمل سواء كان بدافع الفقر المدقع والاعتقاد بعدم الفائدة الاقتصادية للبنات أو بدليل التعصب المفرط ضدهن لتفادى وقوعهن فى الحروب أسيرات بيد الأعداء فهو أفضع وأوحش عادات عصر عرب الجاهلية.

وقد عاب القرآن هذه الاعتقادات مراراً بقوله تعالى «وَاذَا بُشِّرَ احدُهُم بِالانثَى ظَلَّ وَجهُهُ مُسوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ* يَتَوَارَى مِنَ القَومِ مِن سُوءِ مَابُشِّرَ بِهِ ايُمسِكُهُ عَلَى هُونٍ امْ يَدُسُّهُ فِى التُّرابِ الَا سَاءَ مَايَحكُمُونَ». (النحل/ ۵۸- ۵۹)

إنّ هذا العمل نوع من أنواع التعصب الأعمى لحفظ الشرف وقد جرهم لاقتراف أفضع الجرائم: (قتل الإنسان لطفله المسالم) وهو دليل واضحٌ على أعظم حالات الجهل وسقوط الأخلاق وانعدام العواطف الإنسانية والاستهانة بمنزلة المرأة فى ذلك المجتمع الجاهلى وتعبير «أَيُمسِكُهُ عَلَى هُونٍ» يشير إلى أنّ وجود البنت يعدّ عاراً عندهم إلى الحد الذى يهرب من قومه وقبيلته تخلصاً من عارها، غافلًا عن أنّ مسألة عدم وجود بنت تعنى عدم وجود امهات، وإذا انعدمت الامهات انعدم وجودهم أيضاً، يقول أحد شعرائهم فى هذا الصدد:

لكل أبى بنت يُراعى شؤونهاثلاثةُ أصهارٍ إذا حُمِدَ الصهرُ

فبعلٌ يُراعيها وخِدرٌ يُكنّهاوقَبرٌ يُواريها وخيرُهُم القَبرُ «۲»

طفولة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله:

لا يوجد بحث كثير فى القرآن الكريم عن طفولةِ الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله إلّاسورة الضحى حيث نقرأ فيها: «أَلَمْ يَجِدْكَ

يَتيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فاغنَى .

(الضحى/ ۷- ۸)

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۴۴.

(۲) تفسير القرطبى، ج ۶، ص ۳۷۳۴. نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۸

فى الآيـة الاولى إشارة إلى يُتمِ الرسول الأكرم صـلى الله عليه و آله حيث جاء فى التاريخ أيضاً أن الرسول الأكرم صـلى الله عليه و آله عندما كان فى بطن امه توفى والدهُ (عبد اللَّه)، وفى السنة السادسة من عُمرهِ الشريف توفيت والدتُهُ فتكفّله جدُهُ (عبد المطلب).

وفى السنة الثامنة من عمرهِ توفى جدُّهُ، فاحتضنه عمُّهُ (أبو طالب) وآثرهُ على أولادهِ ونفسهِ.

وفى الآية الثالثة إشارة واضـحة إلى فقر الرسول صـلى الله عليه و آله فى بداية عمره الشريف فمنَّ اللَّه سبحانه وتعالى عليه بإلقاء محبته فى قلب خديجة عليها السلام فتزوج منها واغدقت عليه ثروتها واعانته على حياته ودعوته.

وأمّا فى الآية الثانية فيقول تعالى «وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وفسّرهُ أحد المفسرين بمعنى عدم معرفة الحق.

وقال آخرون: إنّ مفهوم الآية هو أنّك كنت ضالًا لا تعرف الحق ونحن هديناك إليه.

وقـال بعضـهم: إنّ المراد بكلمـة «ضالًـا» هو (غافل) عن الأحكام والكتب السـماوية، ولكن بعضـهم يـذهب إلى الضـلالة الظاهريـة فى الطفولـة حيث ضـاع الرسـول صـلى الله عليه و آله مرة أو مرات عديـدة عنـد أبواب مكـة أو فى أمـاكن اخرى واللَّه سـبحانه هـداهُ إلى أحضان مملوءة بالمحبّة فأرجعه إلى أحضان (عبد المطلب) و (أبى طالب) و (حليمة السعدية) التى كانت امُهُ فى الرضاعة.

وقد بيّنا شـرح هذه الآية فى المجلد السابع من رسالة القرآن فى بحث تنزيه الأنبياء، وفى التفسـير الأمثل فى ذيل هذه الآية آراء مختلفة وأفضل التفاسير هو ما ذكر أعلاه.

وعلى أيّة حال فإنّ هذه الآيات تُبيّن مراحل طفولة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله.

ومن أبرز خصائص الرسول صلى الله عليه و آله فى هذه المرحلة أنّه لم يتعلم القراءة والكتابة عند استاذٍ قط، ولربّما يبدو لأول وهلة أنّه نقص مـا، ولكنه من النقـاط المهمّـة والقويـة فى شخصـية الرسول الأكرم صـلى الله عليه و آله، لأنّه عنـدما جاء القرآن الكريم بعباراته ومعارفه الراقية لم يشك أحد فى كون القرآن منزل من اللَّه سبحانه من نتاج فكر إنسان امى.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۹

وقـد أكـدت سـورة العنكبوت هـذا المفهوم بقوله تعـالى «وَمَـا كُنتَ تَتلُوا مِن قَبلِهِ مِن كِتَـابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ اذاً لَّارتَـابَ المُبطِلُونَ» (العنكبوت/ ۴۸)

لاشـك أنّ النبىّ صـلى الله عليه و آله لو درس على يـدى اسـتاذ مـا فى تلك البيئـة التى يُعـد عـدد المتعلمين فيها قليل جـدّاً لكان من المستحيل عليه أن يأتى بمثل هذا القول الجلى، ولجابهه بعض الأفراد المطلعين على مجريات الأحداث بهذه الحجّة القوية متهمين إيّاه بالكذب والافتراء.

وحتى لو كان الرسول الأكرم صـلى الله عليه و آله يعرف القراءة والكتابـة فإنّ من المسـلّمات أيضاً أنّ هذا القرآن لا يمكن أن يأتى به عقل بشرى، فعدم معرفة الرسول القراءة والكتابة دليل قاطع على هذا المعنى

وفى آيـتين من القرآن الكريم جـاء تصـريح واضـح أيضـاً: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِىَّ الاـمِّىَّ» و «فـآمِنُوا بِـاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الاـمِّىِّ». (الأعراف/ ۱۵۷- ۱۵۸)

وفى آية اخرى ضمنت ذلك المعنى بقوله تعالى «هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الامّيّينَ رَسُولًا مِّنهُم». (الجُمعة/ ۲)

ونحن نعرف أنّ أشهر تفسير لكلمة «أُمىّ» هو من لا يقرأ ولا يكتب وحاله كحال الذى يخرج من بطن أُمه لم ير استاذاً ولا مدرسة.

وفسّر البعض كلمة «أُمّيّ» بأنّه من قام من بين الامة والنّاس لا من بين الطغاة والجبابرة.

وبعضهم يذهب إلى أنّه من وُلد فى مكة المكرمة لأنّ أحد أسمائها (أم القُرى أو من قام من مكة، وتختلف الروايات بهذا الصدد ولكن لا مانع فى ذلك لو احتملنا أنّ كلمة «أُمّيّ» تتضمن معنى المفاهيم الثلاثة (لا يقرأ ولا يكتب)، وقام من بين الأمة، وولد فى منطقة مكة.

وقد حاول بعض المستشرقين المخالفين أن يسلبوا هذه الخصيصة من الرسول صلى الله عليه و آله حيث زعموا أنّه كان رجلًا غير (أمى)، ولو أنّه كان كما يدعون فكيف خفى ذلك على بيئة لا يمكن أن يخفى فيها شىء على أحد، بل إنّها ليس لها القدرة على انكار ذلك.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۴۰

بداية مرحلة البعثة النبوية:

ما تقدم يمثل لمحات مختصرة من القرآن الكريم حول حياة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله قبل البعثة الشريفة، والآن جاء دور البحوث المفصلة حول البعثة النبوية.

فقد أشار القرآن الكريم إشارات مختلفة حول بعثة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله ومن جملتها الآيات الخمس التى جاءت فى أول سورة العلق، التى اتفق المفسرون على أنّ نزولها فى بداية «۱» الوحى وبعثة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله حيث قال عز من قائل: «اقْرَأْ بِاسمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ* خَلَقَ الانسانَ مِن عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الاكرَمُ* الَّذِى عَلَّمَ بِالقَلَمِ* عَلَّمَ الانسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ» وكما هو المشهور فإنّ هذه الآيات نزلت على النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى غار حراء.

أجل، إنّ اللَّه سبحانه وتعالى ذو القدرة هو الذى أنزل إليك كتاباً سماوياً عظيماً يحمل بين دفتيه أسمى العلوم والمعارف الجليلة والقوانين والدروس التربوية بوسائل بسيطة كالحروف الهجائية، وأكد مرة اخرى على ضرورة تعلم القراءة باسم الخالق العظيم، واضافة إلى مسألة القراءة أشار إلى تعلم الكتابة وإلى أنّ اللَّه سبحانه هو المعلم، اللَّه معلم البشر الأول الذى «عَلَّمَ الانسَانَ مَالَمْ يَعْلَم» فكانت طرق التعليم على ثلاثة أقسام: (قسم خلقها على هيئة علوم فطرية فى وجودها مع الإنسان فى الفطرة، وقسم آخر يعتمد العقل والتدبر والتفكير فى عالم الخلق، والقسم الثالث عن طريق الأنبياء).

إنّ هذه الآيات القرآنية تدل على أنّ البعثة بدأت فى جو مفعم بالمعنوية ومملوء بنور العلم والمعرفة «۲».

فثقل الوحى من جهة وثقل الرسالة التى أُلقيت على عاتق الرسول صلى الله عليه و آله من جهة اخرى والمستقبل المُرعب فى المجابهة المحتومة مع المشركين المعاندين المتعصبين من جهة

---

(۱) أورد بعض المفسرين ومن بينهم القرطبى قولًا ضعيفاً هو إنّ أول آية نزلت على الرسول صلى الله عليه و آله هى آيات، سورةالحمد، أو المدثر، ولكن وفقاً لما ورد فى تفسير روح البيان، إذا كان هناك خلاف ففى سورة العلق كلها ولا يوجد هناك خلاف على الآيات الخمس الأوائل منها بكونها أول آيات نزلت، ج ۱۰، ص ۴۷۰.

(۲) فى الآيات ۱۶۴ من سورة آل عمران والآية ۲ من سورة الجمعة أيضاً إشارات إلى أصل البعثة ولم تذكر الآيات الاولى التى نزلت.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۴۱

ثالثة، كانت سبباً فى شعور النبى صلى الله عليه و آله بالتعب الشديد بعد نزول الوحى عليه أول مرةٍ، فرجع إلى بيته ونام على فراشه وإذا بصوت الوحى يقرع مسامعه للمرة الثانية بقوله تعالى «يَاايُّهَا المُدَّثِّرُ* قُمْ فَأَنذِرْ* وَرَبَّكَ فَكَبِّر». (المدثر/ ۱- ۳)

وهناك أقوال كثيرة حول سبب نزول هذه الآية عند المفسرين.

فبعضهم يقول: إنّها تتعلق بزمان تجمع فيه المشركون العرب فى موسم الحج، وتشاوروا لمجابهة الرسول صلى الله عليه و آله.

وقد جاء فى روايات متعددة أنّ الآيات الاولى من سورة العلق- على أقل تقدير- نزلت بعد حادثة غار حراء وبعثة الرسول صلى الله عليه و آله والآيات الباقية لها تتعلق بالسنوات التالية «۱».

وتشابه هذه الآيات، الآيات الاولى من سورة المزّمل التى أشارت أيضاً إلى أنّ الرسول صلى الله عليه و آله تدثر بردائه ونام فى فراشه فنزل قوله تعالى «يَاايُّهَا المُزَّمِّلُ* قُمِ اللَّيلَ إِلَّا قَلِيلًا* نِّصفَهُ اوِ انقُصْ مِنهُ قَلِيلًا* او زِدْ عَلَيهِ وَرَتِّلِ القُرآنَ تَرتِيلًا* انَّا سَنُلقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا».

واسلوب هذه الآيات يدلل على أنّها نزلت فى أوائل الدعوة الإسلامية لأنّ إلقاء القول الثقيل يشير إلى القرآن المجيد الذى نزل على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى زمان كان عدد المؤمنين فيه قليلًا، فاضطر صلى الله عليه و آله إلى جمع المؤمنين ليلًا وبعيداً عن أنظار الأعداء ليقرأ عليهم الآيات القرآنية التى كانت تحتوى على المعارف والقوانين الإسلامية.

وطبيعى أنّ قسماً من آيات هذه السورة قد نزلت فى السنوات التالية، بل وهناك احتمال أنّ الآية الطويلة الواقعة فى آخر السورة والتى جاء فيها حثٌ على الجهاد فى سبيل اللَّه سُبحانه قد نزلت فى المدينة أواخر المرحلة المكية (لأنّ فيها أخباراً عن المستقبل القريب).

وعلى أيّة حال فليس هناك سبب يمنع نزول الآيات الاولى من السورة فى بداية الدعوة

---

(۱) فسّر المفسرون كلمة (المدثر) على خمسة تفاسير، وردت فى التفسير الامثل، ذيل هذه الآيات وأكثر الجميع ملاءمة هو أنّ الرسول صلى الله عليه و آله) كان مضطرباً فنام فى فراشه ونزلت تلكم الآيات.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۴۲

وبالأخص أنّ كثيراً من المفسرين قد أشاروا إلى ذلك.

ومن المعروف أنّ دعوة الرسول صلى الله عليه و آله كانت سرية فى بداية البعثة ولم يتصل ويدع إلى الإسلام إلّاالخواص الذين كان يطمئن باستعدادهم النسبى لتلبية دعوته، وفى هذه المدّة آمنت به عدّة معدودة.

قصة يوم الدار:

وفى السنة الثالثة للبعثة أمر اللَّه سبحانه رسوله الكريم صلى الله عليه و آله أن يعلن الدعوة الإسلامية فنزلت الآية الكريمة: «وَانذِرْ عَشِيرَتَكَ الاقرَبِينَ». (الشعراء/ ۲۱۴)

وفى ا لآية: «فَاصدَعْ بِمَا تُؤمَرْ وَاعرِضْ عَنِ المُشرِكِينَ». (الحجر/ ۹۴)

فأعلن الرسول صلى الله عليه و آله دعوته مبتدئاً بالأقربين من عشيرته، وهذه القصة معروفة، وقد بيّناها فى القسم السابق.

وفى هذه الأثناء تعرض الرسول صلى الله عليه و آله إلى ضغوط متنوعة، وتحرك الأعداء ضده من كل حدبٍ وصوبٍ.

والجدير بالذكر أن تحرك الأعداء ضد الرسول صلى الله عليه و آله كان على عدّة مراحل واشكال مختلفة (ويظهر أنّ هذه المراحل كانت موجودة فى جميع الدعوات الإلهيّة).

المرحلة الاولى كانت مرحلة الاستهزاء وهى أول المراحل فى زمان لم ينظر فيه المشركون بشكل جدى إلى الدين الجديد، ولم يحسوا بخطره الحقيقى، بل تصوروا أنّ السخرية والاستهزاء سينهيان الأمر سريعاً ولا يحتاج إلى أكثر من ذلك، وقد جاء تعبير عن تلك المرحلة بقوله تعالى «وَاذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا انْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً اهَـذَا الَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحمنِ هُمْ كَافِرُونَ» «۱». (الانبياء/ ۳۶)

ولم تنحصر السخرية والاستهزاء بنبىّ الإسلام صلى الله عليه و آله بل تعرض لها جميع الأنبياء

(۱) وجاء مثل هذه المعنى فى الآية ۴۱ من سورة الفرقان «وَإِذَا رَأَوْكَ ان يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِى بَعَثَ اللهُ رَسُولًا».

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۴۳

السابقين: «وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ الَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ». (الحجر/ ۱۱)

ولما رأى المشركون أنّ السخرية والاستهزاء لم تؤثرا شيئاً وأنّ الإسلام ما زال يواصل تقدمه دون تلكؤ، انتقلوا إلى المرحلة الثانية:

لقد تصور المشركون أنّهم سيخرجون الرسول صلى الله عليه و آله من ميدان الصراع بإلصاق التهم به كالجنون او (السحر)، أو (الشِعر)، أو أنّ ما جاء به قد تعلمه على يد هذا أو ذاك أو أنّه منقول من أساطير الأولين.

فمرة يقولون: «يَاايُّها الَّذِى نُزِّلَ عَلَيهِ الذِّكرُ انَّكَ لَمَجنُونٌ». (الحجر/ ۶)

واخرى يقول بعضهم للآخر: «ائِنّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنا لِشَاعِرٍ مَّجنُونٍ». (الصافات/ ۳۶)

وأحياناً يقولون: «هَذَا سِحْرٌ وَانَّا بِهِ كَافِرُونَ». (الزخرف/ ۳۰)

وأضاف القرآن الكريم: إنّه ليس مشركو العرب لوحدهم ألصقوا تلك التُهم بالرسول صلى الله عليه و آله فحسب بل إنّ هذه التهم قد عانى منها كل الأنبياء: على مر التأريخ: «كَذَلِكَ مَا اتَى الَّذِينَ مِن قَبلِهِمْ مِّن رَّسُولٍ الَّا قَالُوا سَاحِرٌ اوْ مَجنُونٌ». (الذاريات/ ۵۲)

وفى مكان آخر نقرأ قوله تعالى «وَلَقَدْ نَعلَمُ انّهُم يَقُولُونَ انَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِى يُلحِدُونَ اليَهِ اعْجَمِىٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ» «۱». (النحل/ ۱۰۳)

وأحياناً يقولون: «وَقَالُوا اسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكتَتَبَها فَهِى تُمْلَى عَلَيهِ بُكرَةً وَاصِيلًا». (الفرقان/ ۵)

و «اساطير»: جمع (اسطورة) ومعناها القصص الخيالية التى لا صحة لها، وبهذا الاسلوب ألصقوا أنواع التهم وكل ما يختمر فى أذهانهم بالرسول صلى الله عليه و آله ولكن لم يؤثر أىّ منها، وأخذ الإسلام يشق طريقه بسرعة بين الطبقات المختلفة.

المرحلة الثالثة: بدأت المرحلة الثالثة بضغوط مختلفة: اجتماعية وسياسية ولأنّهم أدركوا مدى خطورة الإسلام عليهم سعوا إلى القضاء على الرسول صلى الله عليه و آله والمجموعة القليلة التى آمنت به من هذا الطريق.

(۱) جاء فى التفاسير أن رجلًا يدعى (بلعام) كان فى مكة وأصله عبد رومى لبنى حضرم وكان المشركون يقولون: إنّ محمداً صلى الله عليه و آله تعلم القرآن منه، وقال بعضهم: إنّ كلامه إنّما نقله من عبدين نصرانيين أحدهما يسار والآخر جبر أو ذكروا اسم سلمان الفارسى، ولم تكن لغة أىمنهم العربية بينما يعد القرآن معجزة فى الفصاحة والبلاغة.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۴۴

وقصة (شِعب أبى طالب) معروفة إذ تمّ فيها محاصرة المسلمين فى ذلك الوادى المقفر لمدة ثلاث سنوات خلال السنة السادسة للبعثة حيث انتهت بموت اطفالهم وحتى بعض كبار السن.

وكذلك قصة الهجرة إلى الحبشة خلال السنة الخامسة للبعثة معروفة أيضاً على أثر تعرُّض المسلمين لضغوط شديدة وتعذيب المشركين لهم.

والعجيب أنّه لم يتعرض المسلمون وحدهم لهذه الضغوط فحسب، بل جاء فى التاريخ أنّهم عقدوا معاهدة على مقاطعة كل بنى هاشم وبنى عبد المطلب سواء من أسلم منهم أم لم يسلم فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم، وأن لا يشتروا منهم ولا يبيعوهم شيئاً حتى يزداد الضغط على المسلمين.

مع العلم أننا لا نرى فى الآيات القرآنية إشارات واضحة حول هذه المسألة ولكن ممّا كان يتواصى به المشركون والكفار والمنافقون مع بعضهم فى المدينة نستطيع أن نعرف وضع مكة: «هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَاتُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا».

(المنافقون/ ۷)

إنَّ هذه الضغوط لم تجدِ نفعاً أيضاً، بل ازداد تعاطف الناس شيئاً فشيئاً مع المسلمين وصار الإسلام أنشودة على كل لسان، حيث إنّ المسلمين اكتسبوا مظلومية تأثرت بها عواطف مجاميع عظيمة فانجذبوا إليهم.

وأخذت مواجهات الأعداء شكلًا أكثر حدة فى:

المرحلة الرابعة: وفيها صمموا على قتل الرسول صلى الله عليه و آله وإراقة دمهِ ليتخلصوا منه إلى الأبد أو أن يبعدوه عن مكة على اقل تقدير، ففى (دار الندوة) محل اجتماعهم ومركز مشاوراتهم، اجتمعوا ووضعوا خطة شيطانية دقيقة للوصول إلى أهدافهم تلك كما يقول القرآن: «وَاذْ يَمكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثبِتُوكَ او يَقْتُلُوكَ او يُخرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ». (الانفال/ ۳۰) وكما نعلم أنّ اللَّه سبحانه وتعالى قد أبطل كل خططهم الشيطانية ونجا الرسول

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۴۵

الكريم صلى الله عليه و آله من سيوف الأعداء حيث هاجر إلى المدينة تلك الهجرة الكبيرة التى تركت آثاراً عظيمة وتحولًا كبيراً فى تاريخ الإسلام وفى العالم أجمع.

ومرة أُخرى نتأمّل فى القرآن حيث يُحدثنا بقوله تعالى «الَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ اذْ اخرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثنَينِ اذْ هُمَا فِى الغَارِ اذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَاتَحْزَنْ انَّ اللَّهَ مَعَنَا فَانْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيهِ وَايَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفلى وَكَلِمَةُ اللّهِ هىَ العُلْيا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». (التوبة/ ۴۰)

وبهذا الترتيب تخلص الرسول صلى الله عليه و آله من الأخطار المختلفة المحيطة به بلطفٍ من اللَّه سبحانه وبدأ هجرته المباركة بهدوء وسكينة ودخل الإسلام عندها مرحلة جديدة فى حياته، وباء الأعداء بالفشل الذريع فى هذه المرحلة أيضاً.

انتشر الإسلام فى المدينة بسرعة فائقة وكثر اتباع الدين الإسلامى فشكل الرسول صلى الله عليه و آله الحكومة الإسلامية وصار للمسلمين جيش منظم وبيت للمال وكل ما تحتاجه الدولة آنذاك.

وفى مقابل توسع الإسلام وتثبيت أركانه احس الأعداء بخطر أكثر جدية فوسعوا مجابهتهم ودخلوا:

المرحلة الخامسة: وهى المواجهة المسلحة مع الإسلام، وبدأت الغزوات الإسلامية كغزوة (بدر الكبرى و (الصغرى و (أحد) و (خيبر) و (حنين) و ..... واحدة تلو الاخرى وفى كل مرة- إلّافى مورد واحد- كان المسلمون يشهدون انتصارات ملفتة للنظر وكانوا فى تقدم مستمر.

وقد أشار القرآن الكريم فى كثير من الآيات إلى هذه المرحلة من حياة الرسول صلى الله عليه و آله حيث تعد من أكثر المرتكزات المهمّة فى هذا المقطع من تاريخ الإسلام.

فى الآية التالية إشارة اجمالية إلى هذه الغزوات بقوله تعالى «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَينٍ». (التوبة/ ۲۵)

فكلمة (مَواطِن) جمع (مَوْطِن) وتأتى أحياناً بمعنى وطن ومحل الإقامة الدائمية

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۴۶

وأحياناً بمعنى ساحة القتال ومن هنا جاءت «مواطن كثيرة» أى الساحات المتعددة للحروب الإسلامية حيث بلغ عدد هذه الغزوات ثمانين غزوة، لذا نقرأ فى الحديث أنّه:

عندما نذر أحد خلفاء بنى العباس أنّه إذا عافاه اللَّه سبحانه فإنّه يعطى مالًا كثيراً للفقهاء ولمّا تماثل للشفاء اجتمع الفقهاء حوله عاجزين عن تعيين مقدار (المال الكثير) إلّاأنَّ الإمام التاسع (محمد بن على التقى عليه السلام فسّر ال (كثير) ب (ثمانين) (ربّما تكون ثمانين ألف درهم) لأن الآية السالفة الذكر قد اطلقت مواطن كثيرة على الغزوات الإسلامية البالغة ثمانين غزوة «۱».

ثم جاء الفتح المبين و (فتح مكة) وحكم الإسلام شبه الجزيرة العربية بأجمعها وحطم المسلمون آخر معقل للأعداء.

ولكن العدو المهزوم لم يستسلم فقد اضطر إلى تشكيل جمعية سرية (وهم المنافقين الذين كانوا يتظاهرون بالإسلام وفى الخفاء كانوا منهمكين بأنواع المؤامرات ضده الدين الإسلامى).

وبهذا الاسلوب دخلوا:

المرحلة السادسة: (مرحلة نهاية الحرب مع الأعداء)، وبالطبع أنّ ظهور المنافقين بدأ مع أول انتصار للإسلام وتوسع فى مقابله وما زال مستمراً إلى الآن.

وفى هذه المرحلة فقد باؤوا بالفشل الذريع أيضاً حيث كلما أرادوا التآمر على الإسلام كشفهم اللّه سبحانه وأبطل حيلهم ولم يبقَ منها سوى نارٍ خامدة تحت الرماد لم يظهر اشتعالها ثانيةً إلّابعد رحلة الرسول الكريم صلى الله عليه و آله.

نزلت آيات قرآنية كثيرة حول هذه المرحلة أيضاً تعد من مقاطع القرآن المهمّة فى اسداء العبر والدروس، ففى سورة (الأحزاب)، و (التوبة)، و (المنافقون) بحوث حية ومجدية تحكى لنا عن عمق المؤامرات التى قام بها المنافقون ومن جملتها الآية الكريمة فى قوله تعالى حيث ذكرت بحوثاً كثيرة حول هذه الجماعة ومخالفتهم وفتنتهم وتجسسهم،

---

(۱) تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۱۹۷.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۴۷

قال تعالى «لَقَدِ ابتَغَوُا الفِتنَةَ مِن قَبلُ وَقَلَّبُوا لَکَ الامُورَ حَتَّى جَاءَ الحَقُّ وَظَهَرَ امرُ اللَّهِ وَهُم کَارِهُونَ». (التوبة/ ۴۸)

إنّ هذه المراحل الست السالفة الذكر لم تكن فى مقابل الثورة الإسلامية للرسول الكريم وحده صلى الله عليه و آله فحسب بل فى مقابل كل الثورات الإلهيّة وهى بدورها موضوع لقصة مفصلة نتعلم منها الكثير.

ولكن لم يفلح الأعداء بكل مساعيهم للاطاحة بالإسلام وظلت شجرته زاهيةً مثمرةً حيث غطّت باغصانها واوراقها كل أصقاع شبه الجزيرة العربية كما دلت الآية الكريمة «اذَا جَاءَ نَصْرُ اللّهِ وَالفَتْحُ* وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دينِ اللَّهِ افْوَاجاً». (النصر/ ۱- ۲)

الأشهر الأخيرة من حياة الرسول صلى الله عليه و آله:

إنَّ السنة الأخيرة من حياة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله هى السنة التى كانت فيها (حجة الوداع) ونزلت بها آخر سورة من سور القرآن يعنى سورة (المائدة)، ومع نزول آخر رسالة للوحى على الرسول صلى الله عليه و آله أمر اللّه سبحانه وتعالى نبيه الكريم صلى الله عليه و آله أن يعين أمير المؤمنين علياً عليه السلام وصياً له وخليفة من بعده كما فى قوله تعالى «يَاايُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا انْزِلَ اليَکَ مِن رَّبِّکَ وَانْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُکَ مِنَ النَّاسِ انَّ اللَّهَ لايَهْدِى القَوْمَ الکَافِرِينَ».

(المائدة/ ۶۷)

وفى (غدير خُم) ذلك المعبر الكبير الذى كان مُفتَرقَ طرق للمجاميع التى جاءت مع الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فى (حجة الوداع) وأمام الجمع الكبير أدّى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله حق الرسالة بإظهار هذا الأمر «۱».

وحلت الحادثة الكبيرة المؤلمة وهى رحيل الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله من الدنيا فى وقت كان الإسلام ثابت الأركان من جميع النواحى. وله أرضية مهيأة للانتشار فى جميع أنحاء العالم.

ولذا فقد كانت توقعات الأعداء هى ذهاب الإسلام مع رحلة الرسول صلى الله عليه و آله ولكن خابت

---

(۱) ويمكن مراجعة تفصيل ذلك فى التفسير الأمثل، ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۴۸

ظنونهم وذهبت أدراج الرياح: «وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَايْن مِّتَّ فَهُمُ الخَالِدُونَ». (الأنبياء/ ۳۴)

وقوله تعالى «انَّكَ مَيِّتٌ وَانَّهُم مَّيِّتُونَ». (الزمر/ ۳۰)

وقال: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوتِ». (الأنبياء/ ۳۵)

إنّ هذا القانون شامل وعام لعالم الخلقة أجمع: «وَخَسِرَ هُنالِكَ المُبطِلُون». (الغافر/ ۷۸)

وتحقق وعداللّه كما ورد فى الآية: «يُرِيدُون انْ يُطفِؤا نُورَ اللَّهِ بِافوَاهِهِم وَيَأبَى اللَّهُ الَّا انْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَو كَرِهَ الكَافِرُونَ». (التوبة/ ۳۲)

وهكذا فإنّ هذا النور الإلهى يتألقُ يوماً بعد يوم، وهو الآن يُنير افقاً واسعاً من آفاق البشرية، وفى كل سنة تتنور آفاق اخرى بنور الإسلام ليزيح الظلام والظُلم عن العالم أجمع.

كان هذا شرحاً مختصراً عن المراحل المختلفة لحياة الرسول صلى الله عليه و آله فى القرآن المجيد، وشرح كل مرحلة منها يحتاج إلى كتاب خاصّ ومفصّل.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۴۹

الأدلة التى تثبتُ صدق دعوة رسول الإسلام

اشارة

الطريق الاول: اعجاز القرآن

الطريق الثانى: جمع القرائن طريق آخر للاطمئنان

الطريق الثالث: البشارات والإشارات

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۵۱

الطريق الأول: اعجاز القرآن

تمهيد:

نفحات القرآن ج۸ ۹۹

بدون شك أنّ ادّعاء أىّ مدعٍ حول أى قضية لا يمكن قبوله إلّابالدليل المقنع، فكيف إذا كانت القضية غاية فى الأهميّة مثل نبوّة الأنبياء والادّعاء بنزول الوحى والارتباط باللّه سبحانه ودعوة الناس إلى اتباعهم؟!.

و على هذا فإنَّ أوّل المسائل التى نواجهها هى مسألة الأدلةُ على نبوة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله.

وإنَّ هذه الدلائل التى نعلم إجمالًا بتفرعها تقع تحت أربعة عناوين وهى:

۱- المعجزات.

۲- مضمون الدعوة.

۳- أخبار الأنبياء الماضين والكتب السماوية السابقة.

۴- القرائن المختلفة: من دراسة سوابق حياته واقربائه وأصحابه والوسائل المتخذة للوصول إلى الهدف، ومقدار تأثيره فى المجتمع، ومقدار اعتقاده وايثاره فى سبيل هدفه، والأخلاق والصفات الاخرى التى تشكل أرضية لمعرفة صدق ادعائه.

بعد هذه الإشارة المختصرة نعود إلى معجزات النبى صلى الله عليه و آله فنقوم ببحث ودراسة للقرآن الذى يعتبر أول وأفضل وأخلد معجزة للنبى صلى الله عليه و آله وقبل كل شىء نقرأ منطق القرآن فى وصف نفسه:

١- «قُل لَّئِنِ اجتَمَعَتِ الإِنسُ وَالجِنُّ عَلَى ان يَأْتُوا بِمِثلِ هَذَا القُرآنِ لَايَأْتُونَ بِمِثلِهِ وَلَو

نفحات القرآن، ج٨، ص: ٥٢

كانَ بَعضُهُم لبعضٍ ظَهِيراً». (الاسراء/ ٨٨)

٢- «أَمْ يَقُولُونَ افتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثلِهِ مُفتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ استَطَعتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ انْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ». (هود/ ١٣)

٣- «وَانْ كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَائَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ انْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* فَانْ لَّمْ تَفعَلُوا وَلَنْ تَفعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ التَّى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ اعِدَّتْ لِلكَافِرِينَ». (البقرة/ ٢٣- ٢٤)

٤- «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثلِهِ وادعُوا مَنِ استَطَعتُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ انْ كُنْتُم صَادِقِينَ». (يونس/ ٣٨)

٥- «أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَّايُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثلِهِ انْ كَانُوا صَادِقِينَ».

(الطور/ ٣٣- ٣٤)

٦- «قُلْ فَأْتُوا بِكَتابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ اهدَى مِنْهمَا اتَّبِعْهُ انْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* فَإِنْ لَّمْ يَستَجِيبُوا لَكَ فاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ اهوَاءَهُم وَمَن اضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ انَّ اللَّهَ لا يَهدِى القَومَ الظَّالِمِينَ». (القصص/ ٤٩- ٥٠)

٧- «وَقَالُوا لَوْلَا انزِلَ عَلَيهِ آيَاتٌ مِّنْ رَبِّهِ قُلْ انَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وانَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ* اوَلَمْ يَكْفِهِمْ انَّا انَزَلْنا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتلَى عَلَيهِمْ انَّ فِى ذَلِكَ لَرَحمَةً وذِكْرى لِقَومٍ يُؤْمِنُونَ». (العنكبوت/ ٥٠- ٥١)

جمع الآيات وتفسيرها

فى جميع الآيات السبع المذكورة ركّز القرآن الكريم على مسألة التحدى (الدعوة إلى المعارضة) التى هى من اركان الاعجاز، فتارة يقول بصراحة- وتارة اخرى بالدلالة الالتزامية-:

انَّ هذا الكتاب السماوى هو من عند اللَّه وإذا كنتم فى شك وريب ممّانزلنا فاجمعوا كلَّ قواكم من أجل الإتيان بمثله أو بسورة منه، لأنّه إذا كان من نتاج فكر البشر فأنتم بشر أيضاً

نفحات القرآن، ج٨، ص: ٥٣

ولديكم فكر وذكاء، وفى الواقع أنّ القرآن وبواسطة هذا المنطق العقلى الواضح أثبت اعجازه بصورة إجمالية.

إنَّ الآية الاولى تقف بوجه المعاندين قائلة: «قُلْ لَّئِنِ اجتَمَعَتِ الانسُ وَالجِنُّ عَلَى انْ يَأْتُوا بِمِثلِ هَذَا القُرآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثلِهِ وَلَو كانَ بَعضُهُم لِبَعضٍ ظَهِيراً».

فهذه الآية تدعو من جهة أفراد البشر كافة دعوة عامة، ومن جهة اخرى فهى تدعو جميع أفراد البشر فى عصرنا والعصور الآتية نظراً إلى خلود دعوة القرآن، ومن جهة ثالثة، وبملاحظة كلمة «اجتمعت»، وجملة «بَعضُهم لِبَعضٍ ظَهِيراً» تبين أنّها دعوة للمشركين كافة للتعاون فيما بينهم وشحذ الهمم، وتوحيد أفكارهم فى مجرى واحد من اجل المقابلة بالمثل، ومن جهة رابعة، فإنّ إثارة الخصم والتحرش به من أجل تأجيج غيرته قد اتخذ أقوى أشكال التحدى، وحينما خاطبهم بكلام قاطع: «لايأتون بمثله»، فهو دليل قوى على ارتباطه الوثيق بعالم ما وراء الطبيعة.

إنّ هذا التحدى وهذا النداء كان موجهاً إلى أبناء البشر جميعاً فى كل زمان ومكان، لأنّ دوافع أعداء الإسلام للقضاء عليه فى عصر النبوة وفى كل عصر وزمان قائمة وقوية، ومن المُسلَّم أنّه لو كانت لديهم قدرة على ذلك لما تماهلوا عن ذلك، وتاريخ الإسلام وتاريخ كل العالم لم يذكر لنا بأنّ شخصاً أو جماعة قد أقدمت على هذا العمل، وهذا دليل على عجزهم وعدم قدرتهم، وفى النتيجة فهو دليل على عظمة واعجاز القرآن الكريم.

ويستفاد من هذه الآية أنّ الاجتماع وحده لا يؤثر فى حل المشكلات مالم يكن بعضهم ظهيراً لبعض لحماية ومساعدة بعضهم للبعض

الآخر وإسداء النصح لبعضهم الآخر.

كما نلفت الانظار إلى أنّ القرآن لا يكتفى فى التحدى بالبلاغة وجمال البيان فقط، بل الشبه من جميع الجوانب الشاملة للمحتوى والمعارف والأحكام وكل شىء، وهذا ما تؤكده كلمة (مثله) الواردة فى الآية.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۵۴

فى الآية الثانية يقلص القرآن تحديه عن الاتيان بمثله، ويطلب من الخصم أن يأتى بعشر سور وهو أقل من عشر كل القرآن قائلًا: «أَمْ يَقُولُونَ افتَرَاهُ قُلْ فَأْتوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثلِهِ مُفتَرَياتٍ» ولم يكتف بهذا بل صرح: «وادعُوا مَنِ استَطَعْتم مِّن دُونِ اللَّه ان كُنْتم صَادِقِينَ».

وفى الآية الثالثة نرى أنّ التحدى القرآنى يصل إلى أقل من ۱ خ قائلًا: «وَان كُنتُمْ فِى رَيبٍ مِّمَا نَزَّلنَا عَلَى عَبدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثلِهِ» ثم أضاف: «وَادعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

فمن الواضح أنّ المراد من: «شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّه» أنصارهم وكل من اعتقد اعتقادهم لأنهم هم الذين شهدوا لصالحهم فى رد وتكذيب رسالة النبى صلى الله عليه و آله. ومن الطبيعى أن يتعاونوا فيما بينهم ليأتوا بسورة واحدة مماثلة لسورة من القرآن وإلّا لو كان المراد من «شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّه» الإتيان بسورة تماثل سورة من القرآن لكان من المفروض مطالبة اللَّه بالشهادة قبل أى شخص آخر، ولذا فإنّ أول تفسير للآية نقله المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان عن ابن عباس هو: المراد منها الأعوان والأنصار، وأضاف: إنّه يطلق على الأعوان والأنصار: شهداء، لحضورهم وشهودهم حين التعاون.

وقدر رجح الفخر الرازى فى تفسيره بعد ذكر معنيين للفظ الشهداء (أى: الأصنام، والأعوان، والأنصار) المعنى الثانى «۱». وارتضى بعض المفسرين هذا المعنى أيضاً.

والسورة: تمثل جزءاً من آيات القرآن، تبدأ ب «بسم اللَّه ...».

وتختم قبل مجىء «بسم اللَّه» جديدة فى السورة التى تليها، ماعدا سورة واحدة وهى سورة التوبة أو سورة براءة.

وقيل: إنّ كلمة سورة مأخوذة من «سُور» وهو الجدار المحيط بالمدن، فكأنّما أعتُبرَ

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۲، ص ۱۱۹.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۵۵

القرآن بمجموع آياته، دولة عظيمة واسعة، والسور القرآنية مُدن هذه الدولة العظيمة.

وبناءً على هذا الدليل نعتقد بوجود ترابط واتصال بين آيات السورة الواحدة، وإن لم يكن واضحاً فى الظاهر أحياناً وهذا الارتباط نظير وجود نوع من الانسجام والارتباط بين البيوت والعمارات والشوارع لكل مدينة مع أنّ فيها المساجد والمدارس والأسواق والمناطق المأهولة بالسكان، كل كيان فى موضعه المناسب.

ويستفاد من هذا المعنى أنّ السور كانت فى وقت نزول القرآن على هذه الهيئة العالية بخلاف تصوُّر بعض الجّهال وإن كان بعض من الآيات النازلة أحياناً يُتخذ له مكان معين فى سورة خاصة بأمر من النبى صلى الله عليه و آله.

وجملة: «من مثله» تتضمن معنى شىء يكون على شاكلة القرآن فى كل أوصافه التى تشمل (الفصاحة) و (بلاغة الألفاظ) مع المحتويات والمعارف القيمة «۱».

والشاهد على هذا الكلام ما ورد فى قوله تعالى «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثلِهِ». (يونس/ ۳۸)

ونقرأ فى قوله تعالى «فَلْيأْتُوا بِحَديثٍ مِّثلِهِ». (الطور/ ۳۴)

وعلى هذا الأساس يستبعد كثيراً احتمال عودة ضمير (مثله) إلى النبى صلى الله عليه و آله بأنّ يكون معناها: إذا كنتم مرتابين فى أصل هذه الآيات السماوية فأعثروا على رجل مثل محمد صلى الله عليه و آله لم يكن قد درس على الاطلاق وأتوا بآيات تناظر الآيات التى

أتى بها.

إنَّ هذا المعنى بعيدٌ وإن ذكرهُ جماعة من المفسرين إمّا على وجه الاحتمال أو على وجه القبول.

ويحتمل أيضاً اجتماع التعبيرين فى هذا المعنى ويصير مفهومه بهذا الشكل: آتوا بسورة مثل سور القرآن من شخص لا يعرف القراءة والكتابة، كالنبى صلى الله عليه و آله.

والحديث الذى ورد فى «تفسير البرهان» جمع هذين المعنيين فى عبارة واحدة «۲».

وعلى كل حال يقول عز من قائل فى تعقيب هذه الآية: «فَإِنْ لَّم تَفعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فاتَّقُوا النّارَ الَّتى وَقُودُها النَّاسُ وَالحِجَارَةُ اُعدَّتْ لِلكَافِرِينَ».

---

(۱) وبناء على ذلك فإنّ (من) إمّا زائدة أو بيانية.

(۲) تفسير البرهان، ج ۱، ص ۶۷. ح ۱.

وتضمنت الآية الرابعة أيضاً التحدى بالاتيان بسورة تشابه سور القرآن فيقول عز وجل:

«امْ يَقولُونَ افتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بسُورَةٍ مِّثلِهِ وادعُوا مَن استَطَعتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ان كُنتُم صَادِقِينَ».

إنّ لفظة «سورة» تشمل السور الطوال والقصار فى القرآن، والتعبير (بمثله) إشارة إلى مماثلته من جميع الجهات، وجملة: «وَادعُوا مَنِ استَطَعتُمْ مِّن دوُنِ اللَّهِ» شاملة لكل ما سوى اللَّه تعالى.

فعلى هذا الأساس إذا كان القرآن نتاج فكر بشرى، فإنّ إنساناً آخر يستطيع أن يأتى بمثله فضلًا عن أن يستعين أيضاً بأشخاص لا يحصون، وبالأخص مع كثرة وجود الفصحاء والبلغاء فى أوساط العرب الجاهليين سابقاً.

ويستفاد ضمنياً من هذه الآية والآيات السابقة أنّ أفضل طريق للوصول إلى الأهداف المهمّة هو الاستفادة من الأطروحات المشتركة، وقد ذكر القرآن ذلك فى الوقت الذى لم تكن مسألة الاجتماعات والمؤتمرات للوصول إلى حقائق المسائل المهمّة مطروحة على صعيد الواقع وحتى مساعى وجهود العلماء كانت تتخذ صبغة فردية وشخصية.

فى الآية الخامسة ذكر هذا المعنى نفسه فى قالب آخر، يقول عز من قائل: «امْ يَقولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَّايُؤمِنُونَ* فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثلِهِ إن كَانُوا صَادِقِينَ».

و «تَقَوَّلَ»: مأخوذة من لفظة (تَقُّول) بحسب ماورد عن المرحوم «الطبرسى» فى مجمع البيان: هو بمعنى الكلام الذى يختلق ويفتعل بتكلف ومشقة، ويستعمل عادةً فى الكذب والزور، لأنّه ليس من الواقع فى شىء ولايخلو من تكلف «۱».

ويمكن الإشارة «بحديث مثله» إلى تمام القرآن أو بضع سور أو سورة واحدة، أو حتى أقل من ذلك لاطلاق كلمة (الحديث) على كل منها.

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۹، ص ۱۶۸.

يقول الراغب فى المفردات: كل كلام ينقل إلى الإنسان عن طريق السماع المباشر، أو الوحى، فى اليقظة، أو فى المنام، فهو يسمى بالحديث.

الآية السادسة من سورة القصص تطرقت إلى الحديث عن الإتيان بكتاب يشابه هذا الكتاب (القرآن)، يقول عز من قائل: «قُل فأتُوا بِكِتَابٍ مِّن عِندِ اللَّهِ هُوَ اهدَى مِنهُمَا اتَّبِعْهُ انْ كُنْتُم صَادِقِينَ».

ثم من أجل تعريـة وفضـح أساريرهم الملوثـة، وبيان الاعجاز القرآنى يعقب اللّه تعالى بقوله: «فَانْ لَّمْ يسـتَجيبُوا لَكَ فَاعلَم أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ اهَواءَهُم».

أى: إذا عجز هؤلاء عن الإتيان بمثله فهو دليل على أنّ هذا الكتاب ليس وليد فكر البشر. وإلّا فليس هناك مبرر لعجز الفصحاء والبلغاء الذين يعيشون بين ظهرانيهم مع كل جهودهم ومساعيهم التى بذلوها.

و لفظة (كتاب) تعنى كل شىء (مكتوب) و (مدوّن).

وبناءً على هـذا فهو شامل لتمام القرآن ولاجزائه المختلفـة أيضاً، خصوصاً إذا نظرنا إلى أنّ هـذه الآيـة جاءت فى سورة القصـص، وقد نزلـت فى مكـة، ومن المعلـوم أنّ القرآن لم ينزل بتمـامه فى ذلـك الزمـان، فيتضـح أنّه إضافـة إلى كـونه معجزة بـأجمعه فـإنّ أجزاءه المختلفة معجزة أيضاً.

وفى الآيـة السابعـة والأـخيرة من البحث جـاء الردُّ على المحتجين فيقول تعـالى على لسانهم: «وَقَالُوا لَولَا انزِلَ عَلَيهِ آيَاتٌ مِّن رَبِّهِ»، فيرد عليهم بقوله: «قُلْ انَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وانَّمَا أَنا نَذِيرٌ مّبِينٌ».

ثم يعقِّب على ذلك بقوله: «اوَلَمْ يَكْفِهِم أَنَّا انزَلنَا عَليكَ الكِتَابَ يُتلَى عَلَيهِم».

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۵۸

يعنى لماذا يطلب هؤلاء معجزات اخرى على الرغم من وجود هذه المعجزة الإلهيّة العظيمة؟

فعلى هذا الأساس يُعلن بصراحة عن اعجاز القرآن ويتحدى المناوئين بالدلالة الالتزامية ويدعوهم إلى المنازلة.

يقول المفسر الكبير المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان: إنّ فى إنزال القرآن دلالة واضحة ومعجزة لائحة وحجة بالغة تنزاح معه العلة وتقوم به الحجـة فلا يحتـاج فى الوصول إلى العلم بصـحة نبوته إلى غيره. على أنّ إظهار المعجزات مع كونها إزاحـة للعلـة تراعى فيه المصلحة فاذا كانت المصلحة فى اظهار نوع منها لم يجز إظهار غيرها «۱».

وتتبين أهميّة هذا البحث من خلال التوجه إلى النكتتين اللتين وردتا فى (تفسير القرطبى) و (ظلال القرآن):

إحـداهما: إنّ خوارق العادات الجسـمية تتوافق غالباً مع الأفراد المبتلين بالمسائل الحسـية، وتتناسب مع بدايـة التفكير البشـرى، أمّا مثل هذه المعجزة الروحية التى تنطوى على جنبة معنوية فهى تنسجم مع الحقبة المتفتحة للفكر البشرى.

والاخرى اضافة إلى مخالفته خوارق عادات الأنبياء (نظير معجزة موسـى وعيسـى عليهما السـلام التى ألقيت عليها مسوح السحر تشكل هذا الإعجاز (الذى هو من جنس الكلام) من ألفاظ يقوى عليها جميع الأفراد من أصحاب تلك اللغة «۲».

تحصَّل من ذلـك أنّ القرآن الكريم أشـار فى سـبع آيـات من السـور المختلفـة على الأقـل إلى أنّه معجزة إلهيّـة كـبرى وقـام بتحـدى المنكرين له بطرق مختلفة.

ومن المعلوم أنّ أىَّ شخص قام بعمل خارق للعادة ودعا جميع الناس إلى معارضته

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۷، ۸، ص ۲۸۹.

(۲) تفسير فى ظلال القرآن، ج ۶، ص ۴۲۲؛ وتفسير القرطبى، ج ۷، ص ۵۷۱.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۵۹

ومنازلته وعجزوا عن القيام به فذلك دليل على إعجاز عمله.

وبعبارة اخرى احتج القرآن عليهم فى هذه العبارات بكلام فريد من نوعه بقوله: إذا كنتم تعتقدون بأنّ هذه الآيات هى من صنع عقل البشـر فـأنتم أيضـاً بشـر، ولكم عقول وأفكـار ولا ينـدر وجود البلغاء والمتكلمين والفصـحاء فى أوساطكم، فاذا كنتم صادقين فى هـذا الادّعاء فأتوا بآيات مثل هذه الآيات. فيدعوهم إلى المشاركة فى هذه المنازلة من خلال عباراته المتنوعة والمثيرة.

من جهة اخرى لو كان بإمكان أولئك الانتصار فى مثل هذه المنازلة، لحشدوا كلَّ قواهم لأنَّ الانهزام فى هذه المواجهة يساوى التضحية بكل شىء عندهم.

لقد كان القرآن فى مواجهة حادة مع اسس ثقافتهم المتمثلة فى عبادة الأوثان والمتغلغلة فى مختلف شؤون حياتهم، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أنزل شيوخهم ووجهاءهم وأثرياءهم المغرورين من اوج جبروتهم وقدرتهم إلى منتهى الحضيض، وسلب منهم امتيازاتهم المصطنعة والموهومة كافة.

وبغض النظر عن الشواهد التاريخية التى سوف نشير إليها لاحقاً فإنّ العوامل المحركة للمقابلة بالمثل كانت كثيرة جدّاً وإذا كان باستطاعتهم حقاً أن يجردوا النبى محمداً صلى الله عليه و آله من السلاح بهذا الاسلوب، لما دعت الحاجة إلى كل هذه الحروب الدموية، والمجابهات الساخنة وحيث إننا نراهم قد توسلوا بكل شىء سوى محاولة الإتيان بمثل آيات القرآن، فهذا بنفسه أكبر دليل على انهزامهم فى هذه المنازلة.

توضيحات

أ) تأثير القرآن وجاذبيته المنقطعة النظير

اشارة

هناك قصص ووقائع موثقة وعجيبة يذكرهالنا التاريخ تروى من جهة عمق التأثير الذى يتركه القرآن الكريم على قلوب المخاطبين، وحتى على أولئك الذين لا يؤمنون بالإسلام

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۶۰

ولا بالقرآن، ومن جهة أُخرى تمثل هذه القصص دليلًا دامغاً على عجز المناوئين عن الجواب عن تحدى القرآن لهم.

إنّ دراسة هذه الحوادث توفر للإنسان فرصة التعرف على دروس وعبر يمكن الاستفادة منها فى حياته وتبين عظمة وإعجاز هذا الكتاب السماوى وما ورد فيه، وهذه نماذج من هذه القصص:

۱- قصة الوليد بن المغيرة المخزومى

تتحدث آيات سورة المدثر بشكل واضح عن الشخص الذى خطر فى ذهنه أن يتحدى القرآن وقد آل أمره إلى مصيرٍ أسود حيث نطالع معاً هذه الواقعة التى حدثت وكانت سبباً لنزول هذه الآيات التى نقلها جمع غفير من المفسرين كالطبرسى، والقرطبى، والمراغى، والفخر الرازى وغيرهم. وهى كما يأتى:

يروى أنّ النبى صلى الله عليه و آله لما نزلت عليه الآية الكريمة: «حم تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنْ اللَّهِ العَزِيزِ العَلِيمِ غَافِرِ الذَنْبِ وَقَابِلِ التَوْبِ شَدِيْدِ العِقَابِ» قام إلى المسجد والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته فلما فطن النبى صلى الله عليه و آله لاستماعه لقراءته أعاد قراءة الآية فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه بنى مخزوم فقال: «واللَّه لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن وإنّ له لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة وإنّ أعلاه لمثمر وإنّ أسفله لمغدق وانّه ليعلو وما يعلى عليه»، قال ذلك ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش: صبأ والله الوليد، واللَّه لتصبأن قريش كلهم، وكان يقال للوليد ريحانة قريش: فقال لهم أبو جهل: أنا أكفيكموه، فانطلق فقعد إلى جنب الوليد حزيناً، فقال الوليد: مالى أراك حزيناً يابن أخى، قال: هذه قريش يعيبونك على كبر سنك

ويزعمون أنّك زينت كلام محمد. فقام مع أبى جهل حتى أتى مجلس قومه فقال: أتزعمون أنّ محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق قط؟ فقالوا: اللّهم لا، قال: أتزعمون أنّه كاهن فهل رأيتم عليه شيئاً من ذلك؟ قالوا: اللّهم لا، قال: أتزعمون أنّه شاعر فهل رأيتموه أنّه ينطق بشعر قط؟ قالوا: اللّهم لا، قال: أتزعمون أنّه كذاب فهل جربتم

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۶۱

عليه شيئاً من الكذب؟ فقالوا: اللّهم لا، وكان يسمى الصادق الأمين قبل النبوة من صدقه، فقالت قريش للوليد: فما هو؟ فتفكرّ فى نفسه ثم نظر وعبس فقال: ما هو إلّاساحر، ما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه فهو ساحر وما يقوله سحر يؤثر «۱».

۲- استماع زعماء قريش إلى القرآن

نقرأ فى سيرة ابن هشام: أنّ أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والاخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى، حليف بنى زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول اللّه صلى الله عليه و آله وهو يصلى ويتلو القرآن فى بيته فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع منه وكلٌ لا يعلم صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئاً، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألّا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا «۲».

نعم لقد كانت جاذبية القرآن شديدة إلى درجة بحيث خضع لها حتى ألدُ الأعداء، فلو أُزيلت عنهم حجب العصبية والنعاد والتعلق بالمصالح الشخصية لآمنوا بالله بصورة قطعية.

۳- قصة ابن أبى العوجاء ورفاقه

ينقل المرحوم الطبرسى فى الاحتجاج عن هشام بن الحكم العالم المعروف وأحد تلامذة الإمام الصّادق عليه السلام يقول:

---

(۱) ونقل الحديث مفسرون عديدون- بتفاوت- كالفخر الرازى؛ والمراغى؛ والقرطبى؛ والطباطبائى فى الميزان؛ وسيد قطب فى الظلال.

(۲) سيرة ابن هشام، ج ۱، ص ۳۳۷.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۶۲

اجتمع كل من (ابن أبى العوجاء)، و (أبى شاكر الديصانى)، و (عبد الملك البصرى)، و (ابن المقفع) وقد كانوا جميعاً من الملحدين الذين لا إيمان لهم، اجتمعوا إلى جوار الكعبة واخذوا يسخرون من أعمال الحجاج ويوجهون الطعن إلى القرآن.

قال ابن أبى العوجاء: هَلمُّوا جميعاً لينقض كل واحد منّا ربعاً من القرآن ونأتى بشىء مثله، وسيكون موعد لقائنا فى السنة الآتية فى هذا المكان، عندما ننقض القرآن بأكمله، لأن نقض القرآن هو السبب المؤدى إلى إبطال نبوة محمد صلى الله عليه و آله وإبطال نبوته هو إبطال للإسلام وإثبات لأحقية ادّعائنا، فاتفقوا وتفرقوا على ذلك.

وفى السنة المقبلة، وفى اليوم نفسه اجتمعوا إلى جوار الكعبة وأخذ ابن أبى العوجاء يحدثهم ويقول: منذ اليوم الذى تركتكم وابتعدت

عنكم، كُنت افكر فى هذه الآية: «فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنهُ خَلَصُوا نَجِيّاً». (يوسف/ ٨٠)

فوجدتها على جانب كبير من الفصاحة والغزارة المعنوية بحيث إننى لم أتمكن من أن اضيف شيئاً إليها، إضافة إلى أنّ هذه الآية شغلت ذهنى عن التفكير بغيرها.

وأمّا عبد الملك فقال: وأنا كذلك كنت افكر فى هذه الآية حينما افترقت عنكم: «يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدعُونَ مِن دُونِ اللَّه لَنْ يَخلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجتَمَعُوا لَهُ وإِنْ يسلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيئاً لَّايَستَنقِذُوهُ مِنْه ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطلُوبُ».

(الحج/ ٧٣)

وقد وجدت نفسى عاجزاً عن الإتيان بمثلها.

وقال أبو شاكر: منذُ ذلك الوقت الذى ابتعدت عنكم كنت افكر فى هذه الآية: «لَو كَانَ فَيهِمَا آلهةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا». (الأنبياء/ ٢٢)

ولم أجد نفسى قادراً على الإتيان بمثلها.

وأضاف ابن المقفع فقال: «ياقوم إنّ هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر لأننى منذ تلك اللحظة التى افترقت فيها عنكم كنت أتأمل فى هذه الآية: «وَقِيلَ يَا ارْضُ ابلَعِى مَآءَكِ وَيَاسَمَاءُ اقْلِعِى وَغِيضَ المَاءُ وَقُضِىَ الْامْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعداً لِّلقَومِ الظَّالِمِينَ». (هود/ ۴۴)

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۶۳

ورأيت نفسى عاجزاً عن الإتيان بمثلها.

يقول هشام بن الحكم: فى هذه الأثناء مر بالقرب منهم جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وتلا هذه الآية: «قُل لَّئِنِ اجتَمَعَتِ الانسُ وَالجنُّ عَلَى انْ يَأْتُوا بِمِثلِ هَذَا القُرآنِ لَايأْتونَ بِمثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعضُهُمْ لبَعضٍ ظَهيراً». (الاسراء/ ٨٨)

عندئذٍ أخذ يَنظر كل واحد منهم إلى الآخر ويقول: إذا كان للإسلام حقيقة قائمة بذاتها، ولم يكن يمثل محمد صلى الله عليه و آله سوى جعفر بن محمد عليه السلام فتاللّه لا يقع نظرنا عليه فى وقت من الأوقات إلّاوتستحوذ علينا أُبهته، وتقشعر أبداننا من هيبته، قالوا هذا الكلام وتفرقوا معترفين بعجزهم.

۴- قصة عثمان بن مظعون

وهو أحد صحابة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله المعروفين، قال عثمان بن مظعون: كنت أسلمت استحياءً من رسول اللّه صلى الله عليه و آله لكثرة ما كان يعرض علىَّ الإسلام ولما يقر الإسلام فى قلبى فكنت ذات يوم عنده حال تأمله، فشخص بصره نحو السماء كأنّه يستفهم شيئاً فلما سرى عنه، سألته عن حاله، فقال: نعم بينا أنا أحدثك إذ رأيت جبرائيل فى الهواء فأتانى بهذه الآية: «انّ اللَه يَامرُ بالعدلِ وِالاحسان» وقرأها علىَّ إلى آخرها فقر الإسلام فى قلبى وأتيت عمه أبا طالب فأخبرته فقال: يا آل قريش اتبعوا محمداً صلى الله عليه و آله ترشدوا، فانّه لا يأمركم إلّا بمكارم الأخلاق. وأتيت الوليد بن المغيرة وقرأت عليه هذه الآية فقال: إن كان محمد قاله فنعم ما قال وإن قاله ربّه فنعم ما قال «۱».

۵- قصة اسعد بن زرارة

وردت هذه القصة فى كتاب (أعلام الورى و (بحار الأنوار) وقد تحدثت عن الجاذبية والتأثير الهائل لآيات القرآن فى نفوس المخاطبين.

(۱) تفسیر مجمع البیان، ج ۵ و ۶، ص ۳۸۱، ذیل الآیة ۹۰ من سورة النحل.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۶۴

و استناداً إلی (بحار الأنوار) ننقل الحکایة بصورة موجزة وکمایلی:

«قدم أسعد بن زرارة وذکوان بن عبد قیس فی موسم من مواسم العرب وهما من الخزرج، وکان بین الأوس والخزرج حرب قد بقوا فیها دهراً طویلًا وکانوا لا یضعون السلاح لا باللیل ولا بالنهار، وکان آخر حرب بینهم یوم بعاث، وکانت للأوس علی الخزرج، فخرج أسعد بن زرارة وذکوان إلی مکة فی عمرة رجب یسألون الحلف علی الأوس، وکان أسعد بن زرارة صدیقاً لعتبة بن ربیعة فنزل علیه فقال له: إنّه کان بیننا وبین قومنا حرب وقد جئنا نطلب الحلف علیهم، فقال له عتبة: بعدت دارنا من داارکم، ولنا شغل لا نتفرغ لشیء، قال: وما شغلکم وأنتم فی حرمکم وأمنکم؟ قال له عتبة: خرج فینا رجل یدّعی أنّه رسول اللَّه، سفّه أحلامنا وسبّ آلهتنا وأفسد شبابنا، وفرّق جماعتنا، فقال له أسعد: من هو منکم؟ قال ابن عبد اللَّه بن عبد المطلب من أوسطنا شرفاً، وأعظمنا بیتاً، وکان أسعد وذکوان وجمیع الأوس والخزرج یسمعون من الیهود الذین کانوا بینهم: النضیر وقریظة وقینقاع، أنّ هذا أوان نبی یخرج بمکة یکون مهاجره بالمدینة لنقتلنّکم به یا معشر العرب، فلما سمع ذلک أسعد وقع فی قلبه ما کان سمع من الیهود، قال: فأین هو؟ قال:

جالس فی الحجر وأنّهم لا یخرجون من شعبهم إلّافی الموسم، فلا تسمع منه ولا تکلمه فانّه ساحر یسحرک بکلامه.

وکان هذا فی وقت محاصرة بنی هاشم فی الشعب، فقال له أسعد: فکیف أصنع وأنا معتمر لابدّ لی أن أطوف بالبیت؟ قال ضع فی أذنیک القطن، فدخل أسعد المسجد وقد حشا اذنیه بالقطن، فطاف بالبیت ورسول اللَّه جالس فی الحجر مع قوم من بنی هاشم فنظر إلیه نظرة فجازه، فلما کان فی الشوط الثانی قال فی نفسه، ما أجد أجهل منّی؟ أیکون مثل هذا الحدیث بمکة فلا أتعرفه حتی أرجع إلی قومی فأخبرهم، ثم أخذ القطن من أذنیه ورمی به، وقال لرسول اللَّه: أنعم صباحاً، فرفع رسول اللَّه صلی الله علیه و آله رأسه إلیه وقال: «قد أبدلنا اللَّه به ما هو أحسن من هذا، تحیة أهل الجنة: السلام علیکم»، فقال له أسعد: إنّ عهدک بهذا لقریب، إلی ما تدعو یا محمد؟ قال: «إلی شهادة أن لا إله إلّااللَّه، وأنّی رسول اللَّه، وأدعوکم إلی

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۶۵

«أن لا تشرکوا به شیئا وبالوالدین احساناً ولا تقتلوا أولادکم من إملاق نحن نرزقکم وإیّاهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التی حرم اللَّه إلّابالحق ذلکم وصّاکم به لعلکم تعقلون ولا تقربوا مال الیتیم إلّابالتی هی أحسن حتی یبلغ أشده وأوفوا الکیل والمیزان بالقسط لا نکلف نفساً إلّاوسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو کان ذا قربی وبعهد اللَّه أوفوا ذلکم وصّاکم به لعلکم تذکرون».

فلما سمع أسعد هذا قال له: أشهد أن لا إله إلّااللَّه وأنّک رسول اللَّه، یارسول اللَّه بأبی أنت وامی أنا من أهل یثرب من الخزرج، وبیننا وبین اخوتنا من الأوس حبال مقطوعة، فإن وصلها اللَّه بک، ولا أجد أعزّ منک، ومعی رجل من قومی فإن دخل فی الأمر رجوت أن یتمم اللَّه لنا أمرنا فیک، واللَّه یارسول اللَّه لقد کنا نسمع من الیهود خبرک، ویبشروننا بمخرجک، ویخبروننا بصفتک، وارجو أن یکون دارنا دار هجرتک عندنا، فقد أعلمنا الیهود ذلک، فالحمد للَّهالذی ساقنی إلیک، واللَّه ما جئت إلّالنطلب الحلف علی قومنا، وقد آتانا اللَّه بأفضل ممّا أتیت له. ثم أقبل ذکوان فقال له أسعد: هذا رسول اللَّه الذی کانت الیهود تبشرنا به، وتخبرنا بصفته، فهلّم فأسلم ذکوان، ثم قالا: یارسول اللَّه ابعث معنا رجلًا یعلمنا القرآن، ویدعو الناس إلی أمرک، فقال رسول اللَّه لمصعب بن عمیر، وکان فتی حدثاً مترفاً بین أبویه یکرمانه ویفضلانه علی أولادهما ولم یخرج من مکة، فلما أسلم، جفاه أبواه، وکان مع رسول اللَّه فی الشعب حتی تغیّر وأصابه الجهد، وأمره رسول اللَّه بالخروج مع أسعد، وقد کان تعلم من القرآن کثیراً، فخرجا إلی المدینة، ومعهما مصعب بن عمیر فقدموا علی قومهم وأخبروهم بأمر رسول اللَّه وخبره، فأجاب من کل بطن الرجل والرجلان «۱».

۶- قصة الأصمعى المثيرة

ينقل الزمخشرى فى تفسير (الكشاف) عن الأصمعى «۲» أنّه قال: أقبلت من جامع البصرة

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۱۹، ص ۸- ۱۰.

(۲) اسمه عبد الملك بن قريب، عاش فى أيّام هارون الرشيد، اشتهر بكثرة حفظه ومعلوماته الواسعة عن تاريخ‌العرب وآدابهم توفى فى البصرة سنة ۲۱۶، الكنى والالقاب، ج ۲، ص ۳۷.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۶۶

فطلع أعرابى على قعود له فقال: من الرجل؟ قلت: من بنى أصمع، قال: من أين أقبلت؟

قلت: من موضع يتلى فيه كلام الرحمن، فقال: اتل علىَّ، فتلوت «والذاريات» فلما بلغت قوله تعالى «وَفِي السَمَاءِ رِزْقُكُمْ» قال: حسبك، فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف فاذا أنا بمن يهتف بى بصوت دقيق، فالتفتُّ فاذا أنا بالأعرابى قد نحل واصفّر، فسلم علىَّ واستقرأ السورة، فلما بلغت الآية صاح وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقاً، ثم قال:

وهل غير هذا؟ فقرأت: «فورب السماء والأرض إنّه لحق»، فصاح وقال: ياسُبحان اللَّه، من ذا الذى أغضب الجليل حتى حلف، لم يصدقوه بقوله حتى الجأوه إلى اليمين، قالها ثلاثاً وخرجت معها نفسه «۱».

۷- رد فعل إعرابى تجاه آية من القرآن

وروى أنّ رجلًا تعلم من النبى صلى الله عليه و آله القرآن فلما انتهى إلى قوله تعالى «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيراً يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ» (الزلزلة/ ۷- ۸)

قال: يكفينى هذه، وانصرف، فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: انصرف الرجل وهو فقيه «۲».

۸- القصة المثيرة للسيد قطب

ينقل السيد قطب فى تفسيره فى ظلال القرآن قصة عجيبة من حياته، وذلك فى ذيل قوله تعالى «امْ يَقُولُونَ افتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ». (يونس/ ۳۸)

يقول: اذكر حادثاً وقع لى وكان عليه معى شهود ستة، وذلك منذ نحو خمسة عشر عاماً ... كنّا ستة مسلمين على ظهر سفينة مصرية تمخر عباب المحيط الأطلسى إلى نيويورك، من بين ۱۲۰ راكباً وراكبة أجانب ليس فيهم مسلم ... وخطر لنا يوم الجمعة أن

---

(۱) الكشاف، ج ۴، ص ۴۰۰.

(۲) تفسير روح البيان، ج ۱۰، ص ۴۹۵؛ وتفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۶۵۰؛ وسفينة البحار، ج ۲، ص ۴۱۴، مادة (قرء) والتفسير الأمثل، ذيل آيات سورة الزلزال.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۶۷

نقيم صلاة الجماعة فى المحيط على ظهر السفينة! واللّه يعلم- أنّه لم يكن بنا أن نقيم الصلاة لذاتها أكثر ممّا كان بنا حماسة دينية إزاء مبشر كان يقوم بمزاولة عمله على ظهر السفينة، وحاول أن يزاول تبشيره معنا! ... وقد يسّر لنا قائد السفينة- وكان انجليزياً- أن نقيم صلاتنا، وسمح لبحارة السفينة وطهاتها وخدمتها- وكلهم نوبيون مسلمون- أن يصلى معنا من لا يكون فى (الخدمة) وقت الصلاة! وقد فرحوا بهذا فرحاً شديداً، إذ كانت المرة الاولى التى تقام فيها صلاة الجماعة على ظهر السفينة ... وقمت بخطبة الجمعة وإمامة الصلاة، والركاب الأجانب معظمهم- متحلقون يرقبون صلاتنا، وبعد الصلاة جاءنا كثيرون منهم يهنئوننا على نجاح (القدّاس)! فقد كان هذا أقصى ما يفهمونه من صلاتنا! ولكن سيدة من هذا الحشد- عرفنا فيما بعد أنّها يوغسلافية مسيحية هاربة من جحيم تيتو وشيوعيته!- كانت شديدة التأثر والانفعال تفيض عيناها بالدمع ولا تتمالك مشاعرها جاءت تشد على أيدينا بحرارة، وتقول:- فى انجليزية ضعيفة- أنّها لا تملك نفسها من التأثر العميق بصلاتنا هذه وما فيها من خشوع ونظام وروح! ... وليس هذا موضع الشاهد فى القصة ... ولكن ذلك كان فى قولها: أى لغة هذه التى يتحدث بها (قسيسكم)! فالمسكينة لا تتصور أن يقيم (الصلاة) إلّاقسيس- أو رجل دين- كما هو الحال عندها فى مسيحية الكنيسة! وقد صححنا لها هذا الفهم! وأجبناها: فقالت: إنّ اللغة التى يتحدث بها ذات ايقاع موسيقى عجيب، وإن كنت لم أفهم منها حرفاً ... ثم كانت المفاجأة الحقيقية لنا وهى تقول: ولكن هذا ليس الموضوع الذى أريد أن أسأل عنه ... إنّ الموضوع الذى لفت حسى، هو أن (الإمام) كانت ترد فى أثناء كلامه- بهذه اللغة الموسيقية- فقرات من نوع آخر غير بقية كلامه! نوع أكثر موسيقية وأعمق ايقاعاً ... هذه الفقرات الخاصة كانت تحدث فىَّ رعشة وقشعريرة! إنّها شىء آخر! كما لو كان الإمام- مملوءاً من روح القدس! حسب تعبيرها المستمد من مسيحيتها! وتفكرنا قليلًا، ثم أدركنا أنّها تعنى الآيات القرآنية التى وردت فى أثناء خطبة الجمعة وفى أثناء الصلاة! وكانت- مع ذلك- مفاجأة لنا تدعو إلى الدهشة، من سيدة لا تفهم مما نقول شيئاً «۱»!

---

(۱) تفسير فى ظلال القرآن، ج ۴، ص ۴۲۲.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۶۸

۹- قصة النجاشى وعلماء الحبشة المسيحيين

لقد جاءت أول هجرة للمسلمين إلى الحبشة وذلك بسبب الضغوط والأذى الذى تعرضوا له من مشركى مكة، ممّا اضطرهم إلى الهجرة إلى الحبشة بأمر من رسول اللّه صلى الله عليه و آله، وقد آواهم ملك الحبشة وعاشوا فيها بأمان.

ويعدُ هذا الأمر من العوامل الرئيسية التى ساعدت فى انتشار الإسلام بشكل تدريجى فى الحبشة، وكذلك ساعد على انتشار الإسلام فى مكة وذلك لأنّ المسلمين وجدوا لهم مخرجاً، فعندما كانوا يتعرضون للاذى والمضايقة فكّروا أن يهاجروا إلى الحبشة.

يذكر ابن هشام فى تاريخه المعروف ...:

«فلما رأت قريش أنّ أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله قد آمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنّهم قد أصابوا بها داراً وقراراً، ائتمروا بينهم أن يبعثوا رجلين من قريش جَلْدين إلى النجاشى فيردّهم عليهم ليفتنوهم فى دينهم ويخرجوهم من دارهم التى اطمأنوا بها وأمنوا فيها، فبعثوا عبد اللّه بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص بن وائل وجمعوا لهما هدايا للنجاشى ولبطارقته ... وأمروهما بأمرهم وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بَطْريق هديته قبل أن تكلما النجاشى فيهم، ثم قدِّما إلى النجاشى هداياه، ثم سَلاهُ أن يُسلِّمهم إليكما قبل أن يُكلِّمهم، فخرجا حتى قدّما إلى النجاشى هداياه وقالا لكل بَطْريق منهم: إنّه قد ضوى إلى بلد الملك منّا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا فى دينكم، وجاءوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأنّ يُسلِّمهم إلينا ولا يُكلِّمهم فإنّ قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم.

فقالوا لهما: نعم، ثم كلّما الملك: ياأيّها الملك، إنّه قد ضوى إلى بلدك منّا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه، فقال بطارقته الذين كانوا حوله: صدقا أيّها

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۶۹

الملك، قومهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم، فغضب النجاشى ثم قال: لاها اللَّه إذا لا أسلمهم إليهما ولا يُكادُ قوم جاورونى ونزلوا بلادى واختارونى على من سواى حتى ادعوهم فاسألهم عمّا يقول هذان فى أمرهم، فإنْ كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاورونى. ثم أرسل إلى أصحاب محمد صلى الله عليه و آله فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول واللَّه ما علمنا وأمرنا به نبيّنا صلى الله عليه و آله فلما جاءوا وقد دعا النجاشى أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم: ما هذا الدين الذى فارقتم قومكم فيه ولم تدخلوا فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل؟ فقال جعفر عليه السلام: «أيّها الملك كنّا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسىء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف حتى بعث اللَّه إلينا رسولًا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته، وعفافه فدعانا إلى اللَّه لنوحده ونعبده ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمر بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم ... وأمرنا بالصلاة والزكاة، والصيام، فعدد علينا امور الإسلام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ماجاء به من اللَّه ... فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان فخرجنا إلى بلادك ورغبنا فى جوارك ورجونا أن لا نُظلم عندك أيّها الملك»، فقال له النجاشى: هل معك ممّا جاء به عن اللَّه من شىء؟ قال جعفر: نعم، قال النجاشى: فاقرأه علىّ، فقرأ جعفر عليه السلام كهيعص ذِكرُ رحمتِ رَبّكَ عَبْدهُ زكريا ....، فبكى النجاشى حتى اخضلّت لحيته وبكى أساقفته حتى أخضلّت مصاحفهم ... فضرب النجاشى بيده على الأرض، فأخذ منها عوداً، ثم قال: «واللَّه ما عدا عيسى بن مريم ما قلتَ هذا العود إنّ هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاةٍ واحدة، إنطلقا، فلا واللَّه لا أسلمهم إليكما ولا يكادون».

فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به» «۱».

---

(۱) سيرة ابن هشام، ج ۱، ص ۳۵۶، بشكل مُلخص.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۷۰

۱۰- تأثير القرآن فى اوساط العلماء الاجانب

لم يقتصر تأثير القرآن على العرب فى الأدوار الاولى لعصر الرسالة وما بعدها، وإنّما شمل عصرنا هذا حتى أولئك الذين لايحيطون علماً برموز الأدب العربى؛ فإنّ تأثيره بينهم قوى عجيب؛ ولهذا السبب انبرى عدد من العلماء الغربيين إلى تعظيم القرآن والاعتراف بحقائقه التى هى مورد اعتزازنا ومن جملة هؤلاء:

الدكتور (واغليرى) الاستاذ بجامعة (فاپل). حيث يقول فى كتابه المعروف (التطور السريع للاسلام): «كتاب الإسلام السماوى هو أحد نماذج الاعجاز، والقرآن هو الكتاب الذى لا يمكن أنْ يُقلّد؟ فكيف يمكن أن يكون هذا الكتاب الاعجازى من انشاء محمد صلى الله عليه و آله الرجل العربى الذى لم يتعلم القراءة والكتابة، إننا نجد فى هذا الكتاب من المحتويات والمضامين العلمية ما يفوق قابلية واستعداد أذكى أفراد البشر وأكبر الفلاسفة واقوى رجال السياسة» «۱».

ويقول (كارلايل) العالم الانجليزى المعروف بصدد القرآن: «إذا ألقينا نظرة واحدة على هذا الكتاب المقدس، لوجدنا حقائق جلية، وخصائص أسرار الوجود مكنونة فى مضامينها الجوهرية، بالصورة التى تبين حقيقة القرآن وعظمته بوضوح، وهذا بحد ذاته مزية كبرى يختص بها القرآن وتفتقر إليها كل الكتب العلمية والسياسية والاقتصادية، وإن كانت بعض الكتب تحدث تأثيراً عميقاً فى ذهنية الإنسان، إلّاأنّها لا تشابه القرآن فى نفوذه وتأثيره».

يذكر (جان ديون بورت) فى كتابه (اعتذار إلى حضرة النبى والقرآن): «القرآن منزّه عن النواقص، والعيوب بحيث لا يحتاج إلى أدنى تصحيح أو تقويم.

ثم يضيف على ذلك قائلًا: إنّ القسيسين أوجدوا- ولسنوات طويلة- هوة بعيدة بيننا وبين التعرف على حقائق القرآن المقدسة وعظمة المبشِّر به (محمد) صلى الله عليه و آله إلّاأننا كلما قطعنا خطوة فى طريق العلم والمعرفة، كلما أنزاحت عنا حُجُب الجهل والتعصب، وسيستقطب

---

(۱) كتاب (التطور السريع للاسلام) ترجمة المرحوم سعيدى ص ۴۹ (بشكل ملخص).

هذا الكتاب الغنى عن الوصف العالم إلى نفسه فى القريب العاجل، ويحدث تأثيراً عميقاً فى العلم والفكر البشرى، وسيصبح محور أفكار الدنيا «۱».

ويقول الشاعر الألمانى الكبير (غوته): «نحن كنا فى بادىء الأمر مبتعدين عن القرآن، ولم تنقضِ مدّة طويلة حتى أصبح هذا الكتاب موضع توجهنا واهتمامنا ومبعث حيرتنا، إلى الحد الذى أذعنا فيه بالتسليم لُاصوله وقوانينه العلمية الكبيرة».

ويقول العالم الفرنسى (جول لابن) فى كتاب (تفصيل الآيات): «إنّ الذى أوقد فتيل العلم والمعرفة فى العالم هم المسلمون، ونهلوا العلوم والمعرفة من بحر القرآن واجروا منه أنهاراً وينابيع إلى البشرية فى العالم» «۲».

يكتب (دينورت) أحد علماء الغرب فى مايلى: «يجب الاعتراف بأنّ الفضل فى انتشار العلوم الطبيعية والفلكية والرياضيات فى اروبا إنّما يعود إلى تعليمات القرآن والمسلمين وأننا لمدينون لهم، بل يمكن القول: إنّ اروبا- من هذه الجهة- هى احدى البلاد الإسلامية» «۳».

ويقول المستشرق الشهير (نولدكه): «لقد فرض القرآن سيطرته باستمرار على قلوب أولئك الذين يخالفونه عن بعد وأوجد فيما بينه وبينهم ارتباطاً قوياً» «۴».

ب) الذين لجأوا إلى المعارضة

ذكرنا فيما سبق إنّ المعجزة تمثل تحدياً ودعوة للآخرين بالمواجهة، فيعجز الجميع عن الإتيان بمثلها، وهنا يتبادر فى الذهن سؤال، وهو: لقد تحدى القرآن البشرية والجنّ وعلى مر التاريخ أنْ لا يستطيعون الإتيان بمثله أبداً، من أين يعلم القرآن بأنّ هذا التحدى سوف يستمر مفعوله على طول التاريخ؟

---

(۱) اعتذار إلى محمد والقرآن. ترجمة فارسية ص ۱۱۱.

(۲) المعجزة الخالدة.

(۳) المصدر السابق.

(۴) مجموعة مقالات على كتاب.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۷۲

الجواب واضح، فهذا الموضوع ليس بمسألة هامشية حتى يمكن للتاريخ أن ينساها، بل هى مرتبطة كثيراً بمصير هذه العقيدة المهمّة ومصير منافسيها الذين يمتلكون قدرة هائلة ويصرفون سنوياً مبالغ ضخمة فى محاربة الإسلام ومواجهته ولو كان يقع مثل هذا الأمر، لاتخذوا من ذلك وسيلة اعلامية وبوقاً دعائياً واسعاً ومربحاً.

وعليه وبناءً على المثل المعروف القائل: «لو كان لبان» لابد أن يبدو للعيان كل مظهر من مظاهر المعارضة والمواجهة فى هذا المجال، ولهذا السبب كانت ترد بعض الاتهامات على عدة من الأفراد الذين قد لا يفكرون فى معارضة القرآن اطلاقاً واتُخِذَ من ذلك وسيلة دعائية، وهذا يدل بوضوح على الاصرار الكبير على هذه المسألة من قبل المناوئين ولهذا الأمر كانوا يتشبثون بكل الوسائل الممكنة فى سبيل الوصول إلى مقاصدهم الدنيئة.

۱- الشخص الوحيد الذى سجله التاريخ هو (مُسَيلَمة) المشهور (بالكذاب) الذى قام بادّعاء النبوة فى عصر النبى صلى الله عليه و آله وعلى أرض (اليمامة) من منطقة شرق الحجاز.

كان اسمه الحقيقى (مسيلمة بن حبيب) وأظهر دعوته فى آواخر حياة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله (فى السنة العاشرة للهجرة) وكان يبذل ما وسعه من أجل أن يقلد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى كل شىء.

ويدعى أنّ ملكاً ينزل عليه اسمه (رحمان) ويأتيه بآيات تشابه آيات القرآن.

وقيل: إنّه طلب من النبى أن يشاركه فى النبوة ويوصى بأنّ يقوم مقامه بعد وفاته صلى الله عليه و آله حتى يكف عن المخالفة والعداء.

ونستشف من الكثير من القرائن والامارات أنّ أيادى العصبيه القبلية كانت وراء مسيلمة وتؤيده على هذا العمل وتؤازره.

وكان أهل اليمامة يتخذون هذه الوسيلة للقضاء على سيادة قريش وحاكمية أهل مكة والمدينة التى تحققت تحت ظل مقام نبوة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله.

ولهذا السبب كانوا يبحثون عن رجل يثير الشغب ويطلب الرئاسة والمال، فوجدوا هذه الصفات عند مسيلمة.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۷۳

إلّا أنّ الحديث الذى ينقل عنه بعنوان المعارضة للقرآن يدل بوضوح- فضلًا عن كل ما مرّ- على أنّه رجل سخيف، يعتمد السجع فى الكلمات من دون أن يهتم بمحتوى كلامه.

من جملة عباراته المضحكة التى نقلت عنه فى هذا المجال كتقليد للقرآن، هى هذه الكلمات:

«والمبذرات بذراً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والعاجنات عجناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقماً، إهالة وسمناً» «۱».

يبدو أنّه يريد من وراء هذه الجمل المضحكة أن يتحدى آيات سورة العاديات أو الذاريات.

يقول القرآن: «وَالعَادِيَاتِ ضَبحَاً* فَالمُورِيَاتِ قَدحَاً* فَالمُغِيَرَاتِ صُبحَاً* فَأَثَرنَ بِهِ نَقعَاً* فَوَسَطنَ بِهِ جَمعَاً* انَّ الانسَانَ لِرَبّهِ لَكَنُودٌ ...» انظر إلى هذا التفاوت البعيد.

ينقل عنه فى عبارة اخرى أنّه نزلت عليه هذه الآيات «يا ضفدعة بنت ضفدعين نقى ماتنقين أعلاكِ فى الماء وأسفلك فى الطين لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين» «۲».

وسائر الأحاديث أو بحسب زعمه الآيات الاخرى التى نقلت عنه هى على هذه الشاكلة أيضاً، بل إنّ بعضها أسوء حالًا، وبعضها ركيك، فالإعراض عن ذكرها أولى

ويستفاد بوضوح من عباراته التى نقلت عنه أنه يولى السجع أهميّة كبيرة ويرى ذلك كافياً، بالضبط على غرار الأشعار التى تنظم فى زماننا للاطفال وهى مطالب خاوية لا قيمة لها تصب من دون معنى مترابط فى قوالب شعرية، ويكتفون بقافيتها فقط.

يذكر المؤرخون: أنّه كان فى عصره امرأة معروفة بالكذب اسمها (سَجاح) على وزن حَباح)، وكانت العرب تقول: «فلان أكذب من سجاح» نظراً لما اشتهر عنها بالكذب. وهى من بنى تميم، وكانت تدعى النبوة ونزول الوحى عليها أيضاً وتبعها ثلة من الناس، وأخذت هى الاخرى تنشىء الفاظ السجع كمسيلمة.

---

(۱) سفينة البحار، مادة (سلم)؛ تاريخ ابن الاثير، ج ۲، ص ۳۶۱؛ اعجاز القرآن للرافعى، ص ۱۲۷.

(۲) المصدر السابق ص ۱۲۸.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۷۴

يقال: انَّ أتباع هذين الشخصين المتجاورين استعد كل منهما للحرب مع الآخر، إلّاأنّ مسيلمة توسل بأسلوب الحيلة والمكر واختلى بسَجاح، وقال لها: هل ترغبين بالزواج منى، فتتحد قبيلتى مع قبيلتك ونحمل حملة رجل واحد على العرب، فرضيت بذلك، ومكثت معه ثلاثة أيّام ولما رجعت سألها أفراد قبيلتها عن مهر هذا الزواج، فجاءت إلى مسيلمة وطالبته بالمهر، فأمر مسيلمة أحد الأشخاص بالنداء بين القبيلتين: إنّ مهر سجاح هو رفع وحذف صلاتى الصبح والعشاء اللتين وردتا فى شريعة محمد.

وعندما قُتل مسيلمة فى حرب اليمامة بعد رحلة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله على يد قاتل حمزة المعروف (وحشى) أظهرت هذه المرأة الإسلام «۱».

ولقد اشتهر هذان الشخصان بالكذب إلى درجة بحيث قال أحد الشعراء فى حقهما:

والت سَجاح ووالاها مسيلمةٌ كذابةٌ من بنى الدنيا وكذّابُ

۲- ومن ضمن الأفراد الذين قاموا بمعارضة القرآن فى آواخر حياة النبى هو (الأسود العنسى) وكان هو الآخر يكتفى بتلفيق الكلمات فى معارضة القرآن وإن كانت فارغة من المحتوى وادّعى النبوة فى أيّام حجة الوداع (فى آواخر حياة النبى) ولم تستغرق مدّة ادّعائه للنبوة أكثر من أربعة أشهر.

وقد فرض سيطرته على بلاد (البحرين) و (نجران) وقسم من بلاد (اليمن) وسواحل (الخليج الفارسى) وغيرها ومن ثمَّ قتل فى اليمن على يد «فيروز» الايرانى مستعيناً بزوجته، ووصلت أنباء قتله إلى المدينة فى حياة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله «۲».

ويقال: إنّه كان يعيش فى الأماكن المنحطة فكرياً وخلقياً، ولهذا السبب تبعه مجموعة من شذاذ الآفاق، وكان يراهن على السجع فى كلماته لمعارضة القرآن، كما نقل عن مسيلمة ذلك آنفاً. إلّاأنّ اتباعه سرعان ما اطلعوا على فساد عقيدته وابتعدوا عنه.

۳- وردت بعض الاتهامات المفتعلة أيضاً إلى عدد من الشخصيات بمعارضة القرآن وإن

---

(۱) دائرة معارف القرن العشرين، فريد وجدى وفق نقل تنزيه التنزيل للمرحوم الشهرستانى ص ۱۷۶.

(۲) دايرة معارف البستانى وفق نقل تنزيه التنزيل للسيد هبة الدين الشهرستانى ص ۱۸۶.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۷۵

لم يثبت تاريخياً، وقد يكون السبب وراء تلك الاتهامات أنَّ مجموعة من الجهال فسرت قسماً من المقاطع المسجعة لبعض الادباء العرب على انّها تحد للقرآن الكريم، أو أنّ الأعداء المحتالين أرادوا أنْ يستغلوا هذا الاحتمال.

ومن جملتهم: (عبد اللَّه بن المقفع) وهو من الكتاب والادباء المعروفين فى القرن الثانى للهجرة عاصر الإمام الصادق عليه السلام ويُقال عنه إنّه كان فى بداية الأمر مسيحياً ثم أسلم بعد ذلك، وكان يمتلك الاحاطة الكاملة باللغة الفارسية، وترجم إلى العربية بعض الكتب من جملتها كتاب (كليلة ودمنة) وقد أظهر الإسلام بوضوح فى المقدمة التى كتبها لهذا الكتاب.

ولكن يقال: إنّه سُمع منه أحياناً بعض الكلمات الجارحة.

ومن ثَمَّ سلَّموه إلى أمير البصرة (سفيان بن معاوية المُهلبى) فقتله بسبب بعض الاختلافات الجانبية بينهما ظاهراً.

ويقالُ: إنّه لما أراد سفيان أن يلقيه فى التنور قال له: أقتلك ولا شىء علىّ لأنّك زنديق قد أفسدت عقائد الناس. وعلى أى حال فإنّ عقائده ليست واضحة لنا بدقة، ولكن المسلّم به هو أنّه لم يدعُ إلى معارضة القرآن، وإن كان بعضهم يرى أنّ كتابه المعروف (بالدرة اليتيمة) دُوِّنَ لهذا الغرض، ومن حسن الحظ أنّ كتابه هذا بين أيدينا وقد طبع عدّة مرات.

ولم نرَ فيه أيّة إشارة لمسألة المعارضة للقرآن، ولا يعلم ما هو السبب وراء هذه النسبة له ولكتابه.

وعلى أيّة حال لا توجد هناك وثيقة تاريخية تدل على معارضته للقرآن، وكتابه المذكور وإن دوّن بصورة أدبية إلّاأنّه لا يوجد فيه شىء يدل على (تحديه) للقرآن.

۴- من ضمن الأشخاص الذين نسبت إليهم هذه التهمة أيضاً: (أبو العلاء المعرى) وهو من الكتاب والشعراء المعروفين فى القرن الخامس للهجرة، وكان رجلًا ملحداً، نقل عنه كلام جارح، بحيث لايمكن القياس بينه وبين (عبد اللَّه بن المقفع)، إلّاأنّه- وعلى أى حال- لا يوجد بين أيدينا سند تاريخى يدل على توجهه إلى تحدى القرآن؛ ولعل توجيه مثل هذه النسبة إليه يعزى إلى اتهامه بالإلحاد وعدم التدين من جهة، وإلى كونه أديباً وشاعراً وكاتباً

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۷۶

من جهة اخرى يشهد على ذلك استخفافه بالعبارات المسجعة المذكورة فى كتاب (التاج) لابن الراوندى، إذ يقول بصراحة فى (رسالة الغفران) التى كتبها رداً، على كتاب (التاج):

بان قوافى وسجعيات ابن الراوندى لاتعدو أن تكون نظير ما يقوله الكهنة نحو: افٍ وتُفٍ وجَورَبٍ وخُفٍ «۱».

وعلى هذا الأساس، يرى هو الآخر أن حَبكَ العبارات المسجوعة من دون مضمون ليس لها أية قيمة وأهميّة.

ومن الجدير بالذكر، أنّه يمتلك مقالة جيدة بصدد القرآن فى رسالة الغفران نفسها تدل على اعترافه بعظمة القرآن وشموخ معانيه (وإن كان لا يعتبره وحياً سماوياً) فهو يقول بصراحة: عندما تأتى آية واحدة من القرآن فى حديث ما فهى كنجم مضىء يتلألأ فى ليل بهيم.

۵- (أحمد بن الحسين الكوفى) الشاعر المعروف بالمتنبى‌الذى يظهر من اسمه أنّه كان ادّعى النبوّة، وقد كان من ادباء القرن الرابع للهجرة، وهو على جانب كبير من الذوق الشعرى، فى بداية الأمر اعتنق الإسلام لكنه ادّعى النبوّة بعد ذلك كما قيل، ومن الجدير بالذكر أن دعواه هذه كانت فى السنة السابعة عشرة من عمره.

جاء فى حاشية كتاب (اعجاز القرآن) للرافعى: أنّه ادّعى النبوّة فى سنة ۳۲۰ ه. وتبعه جمع من (بنى كلب)، ومن ثَمّ ألقاه والى حمص فى السجن وتفرق عنه اتباعه، فتاب وافرِج عنه، ثم أنكر هذا الأمر بعد ذلك، ومرّت مدّة من الزمن أصبح فيها مقرباً إلى (سيف الدولة) وكلما ذُكِّر فى مجلسه ادّعائه للنبوّة كان ينكر ذلك؛ قُتل فى نهاية الأمر على يد (فاتك بن أبى جهل) بسبب وقوع اختلافات بينه وبين اتباع (عضد الدولة الديلمى) «۲».

۶- ومن ضمن الأشخاص الذى فكروا فى تحدى القرآن: (أحمد بن يحيى المعروف بابن الراوندى، وهو من متكلمى المعتزلة، لازَمَ الملحدين والمناوئين للاسلام دائماً لأنّهم

---

(۱) اعجاز القرآن للرافعى، ص ۱۳۷.

(۲) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۷۷

كانوا يلومونه كثيراً، وكان يقول: أريد أن احيط علماً بعقائدهم؛ ثم تظاهر بالالحاد بعد ذلك ودخل فى منازعات مع الناس، يقال: إنّ

أباه كان يهودياً ثم أسلم، لذا قال بعض اليهود لبعض المسلمين: إنّ ابن الراوندى سيضيع كتابكم كما ضيع والده كتاب اليهود.

وكتبوا عنه: أنّه لم يستقر على عقيدة معينة، إذ كتب لليهود كتاباً فى الرد على الإسلام، مقابل أربعمائة درهم تحت عنوان (البصيرة) ولما انتهى منه، انبرى للرد عليه، وامتنع عن ذلك مقابل استلامه لمائة درهم.

ويقال: إنّه قام بتأليف كتاب، يتحدى به القرآن اسمه (التاج) إلّاأنّه لم تقع فى ايدينا نسخة منه إلى وقتنا هذا. وهو الكتاب نفسه الذى يقول عنه (أبو العلاء المعرى): أمّا تاجُهُ فليس إلّانعلًا! وهل تاجه إلّاكما قالت الكهنة: افٍ وتُفٍ وجورَبٍ وخُفٍ «۱».

يُستنتج بشكل واضح من كل ما قلناه: أنّ أحداً لم يعطِ جواباً لدعوة القرآن إلى المناظرة والتحدى، على الرغم من توفر الدواعى لهذا الأمر، ابتداءً من زمن المشركين العرب وأهل الجاهلية، وانتهاءً بهذا اليوم الذى تخصص فيه القوى الاستكبارية رؤوس اموال ضخمة من اجل القضاء على الإسلام والقرآن، ومن الطبيعى أنه إذا كان باستطاعتهم أن يعبئوا طاقات الادباء العرب والعلماء الاجانب للإتيان بما يماثل القرآن لما ادخروا وسعاً فى ذلك.

وما نشاهد فى طول التاريخ من أشخاص كمسيلمة وسجاح مع كل فضائحهما فأنّهم لم يثبتوا قدماً واحداً فى هذا وعندئذ سندرك جيداً عدم إمكانية هذا الأمر، وإلّا لكان ذلك ذريعة كبرى يتوسل بها أعداء الإسلام المعاندون لنشر هذا الأمر فى كل مكان، وهذا هو معنى الضعف والعجز عن تحدى القرآن.

---

(۱) اعجاز القرآن ص ۱۳۳- ۱۳۷.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۷۹

صور اعجاز القرآن

اشارة

۱- الاعجاز القرآنى فى الفصاحة والبلاغة

۲- الاعجاز القرآنى على صعيد المعارف الإلهيّة

۳- اعجاز القرآن فى تصور العلوم الحديثة

۴- الاعجاز التاريخى للقرآن

۵- الاعجاز القرآنى فى سن القوانين

۶- الاعجاز الغيبى للقرآن

۷- الاعجاز القرآنى فى عدم وجود التناقض والاختلاف

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۸۱

تمهيد:

يتصور البعض أنّ إعجاز القرآن يقتصر على جانب الفصاحة والبلاغة فحسب وهى:

المحسنات اللفظية والمعانى والبلاغة، فى حين أنّ أغلب أصحاب الخبرة والمحققين فى عصرنا يذهبون إلى عدم صحة هذا الكلام، لأنّ جوانب الاعجاز القرآنى متنوعة ومتعددة، حتى يمكن القول إنّنا مع مرور الزمان سنقف على جوانب جديدة من اعجاز القرآن لم تتضح معالمها لنا فى الماضى.

ويمكن التعرف على الجوانب التالية للإعجاز القرآنى فى وقتنا الحاضر من خلال الشواهد الموجودة فى القرآن نفسه:

١- الإعجاز فى الفصاحة والبلاغة وهو الظاهر الحسن والباطن العميق والبيان المتين المنزّه والصراحة والحدية والشمولية فى المفاهيم، وانسجام الألفاظ مع المعانى.

٢- الإعجاز فى المعارف والاطروحات العقائدية.

٣- الإعجاز فى طرح المسائل التاريخية.

۴- الإعجاز فى سن القوانين.

۵- الإعجاز فى العلوم العصرية والمفاهيم العلمية المجهولة فى عصر القرآن.

۶- الإعجاز فى التنبؤات المستقبلية والأخبار الغيبية.

٧- الإعجاز فى عدم وجود الاختلاف بين الآيات القرآنية التى نزلت طيلة ٢٣ عاماً بالرغم من تغيّرات الظروف والأوضاع الزمانية والمكانية كافة.

ومع هذه الإشارة نعود إلى القرآن مرّة اخرى لنبحث كل واحدة من الصور المتقدمة بصورة مستقلة:

نفحات القرآن، ج٨، ص: ٨٣

١- الاعجاز القرآنى فى الفصاحة والبلاغة

اشارة

يقول علماء المعانى فى تعريف البلاغة والفصاحة: إنّ الفصاحة تستعمل تارة لوصف الكلمة، وتارة اخرى لوصف الكلام وهى: عبارة عن خلو الكلام من الحروف والكلمات الثقيلة غير المحببة ذات الايقاع الردىء غير المتجانس من العبارات الركيكة والضعيفة والمنفرة والوحشية والمعقدة والمبهمة.

وأمّا البلاغة فهى عبارة عن تناسب الكلام مع مقتضى الحال والانسجام التام مع الغاية المتوخاة من الكلام.

وبعبارة اخرى الفصاحة ناظرة إلى كيفية الألفاظ والبلاغة ناظرة إلى كيفية المعنى والمحتوى أو بعبارة ثانية: الفصاحة تقتصر على الجوانب الشكلية والظاهرية للكلام والبلاغة تقتصر على الجوانب المعنوية والجوهرية.

ومما لا شك فيه أنّ هذين الأمرين ينطويان على جانب ذوقى واستحسانى فضلًا عن الجانب العلمى والقانونى، ولكن هذا الجانب الفنى والذوقى نفسه يتفتح ويكتمل ويتسق فى ظل التعليم والتربية والاعتماد على القواعد التى تستقى غالباً من كلمات الفصحاء والبلغاء. نظير الحس الشعرى أو القابلية على الخط اللذين يتكاملان بالتعليم والممارسة والاستعانة بالمعلم.

وعلى كل حال يعتقد بعضهم أنّ اعجاز القرآن والدعوة إلى التحدى التى وردت فى آيات مختلفة مستندة إلى هذا المعنى نفسه، ويمكن الاستدلال على ذلك بالامور التالية:

١- إنّ ما اشتهر به العرب فى ذلك العصر والزمان هوفن الفصاحة والبلاغة، بحيث بلغت

نفحات القرآن، ج٨، ص: ٨۴

أشعار الجاهلية أوج فصاحتها، وكان أحد أهم برامجهم هو قراءة أجمل قصائد تلك السنة خلال التجمع الاقتصادى الذى يعقد فى (سوق عكاظ) بالقرب من الطائف فى كل عام.

وعندما يقع اختيارهم على أفضل هذه القصائد يعلقونها على جدار الكعبة بصفتها أثراً أدبياً قيّماً، ومع مرور السنين علقت سبع قصائد عرفت فيما بعد باسم (المعلقات السبع).

وعلى هذا الأساس إذا أراد القرآن أن يدعوهم إلى التحدى والمعارضة فيلزم أن يكون فى هذا المجال.

۲- ولعل الاتهام الذى كان يوجهه المشركون العرب إلى القرآن بكونه سحراً وإلى النبى بكونه ساحراً يعود إلى التأثير السحرى للقرآن، حيث اشتمل، على روعة الكلام والفصاحة.

۳- نقرأ فى الحديث الوارد عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام فى صدد انسجام معجزات الأنبياء مع العلوم والفنون المتطورة فى أعصارهم: «إنّ اللَّه تعالى لما بعث موسى عليه السلام كان الغالب على أهل عصره السحر فأتاهم من عند اللَّه تعالى بما لم يكن فى وسعهم مثله وما أبطل به سحرهم وأثبت به الحجّة عليهم وأنّ اللَّه تعالى بعث عيسى عليه السلام فى وقت قد ظهرت فيه الزمانات (الآفات) واحتاج الناس إلى الطب فأتاهم من عند اللَّه بما لم يكن عندهم مثله وبما أحيى لهم الموتى وأبرء الأكمه والأبرص باذن اللَّه، وأثبت به الحجّة عليهم وأنّ اللَّه تبارك وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه و آله فى وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب والكلام (وأظنه قال: الشعر) فأتاهم من اللَّه عزّ وجلّ بخطبه ومواعظه وأحكامه ما أبطل به قولهم، وأثبت به الحجة عليهم» «۱».

إنَّ جميع هذه القرائن تدل على أنّ الاعجاز القرآنى كان ولا يزال متكئاً على جانب الفصاحة والبلاغة إلّاأنّ واقع الأمر هو أنّ الاعجاز فى الفصاحة والبلاغة كان مورد اهتمام عميق وإن لم ينحصر به. خصوصاً أنّ الجوانب الاخرى من الاعجاز القرآنى واضحة جلية.

---

(۱) عيون اخبار الرضا، (وفق نقل تفسير نور الثقلين، ج ۱، ص ۴۳) ونقله أيضاً الكلينى فى الكافى والعلامة المجلسى فى بحار الأنوار.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۸۵

وللحصول على معلومات كافية حول اعجاز القرآن فلابد من الالتفات إلى النقاط التالية:

۱- تقدمت الإشارة إلى أنّ عرب الجاهلية كانوا على جانب كبير من الفصاحة والبلاغة بحيث إنّ القصائد المتبقية من ذلك العصر ومن جملتها (المعلقات السبع) مازالت تعرف بالقصائد المنتخبة لدى العرب.

إلّا أننا نعلم بانّهم جمعوا قصائدهم كلها بعد نزول القرآن وانحنوا إجلالًا أمام الفصاحة القرآنية المنقطعة النظير، وبالرغم من امتلاكهم كل الدوافع والحوافز الذاتية لمعارضة القرآن ومنازلته إلّاأنّهم أخفقوا فى ابداء شىء ما.

ولقد اطلعنا على نماذج حية واضحة من تأثير القرآن فى هذا المجال فى البحث السابق لجاذبية القرآن.

۲- يقف ثلة من الذين تعرضت مصالحهم اللامشروعة للخطر بوجه رجال الحق دائماً وعلى طول التاريخ، ليوجهوا إليهم التهم والافتراءات، وبالرغم من كونها كاذبة إلّاأنّها تحكى عن بعض الحقائق الموجودة فى تلك البيئة.

فعلى سبيل المثال، من ضمن الافتراءات والتهم التى وجهت إلى نبى الإسلام صلى الله عليه و آله هى مسألة السحر والساحرية، التى كانت تستخدم ضمن نطاق واسع.

ويقول القرآن فى الآيات (۲۴) و (۲۵) من سورة المدثر على لسان الوليد كبير المشركين: «فَقَالَ انْ هَذَا الَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ* انْ هَذَا الَّا قَولُ البَشَرِ» «۱»، فالسبب الرئيس وراء هذه النسبة المفتعلة للنبى صلى الله عليه و آله هو النفوذ العجيب والخارق للآيات القرآنية التى استحوذت على القلوب من خلال فصاحتها وبلاغتها العجيبة؛ بحيث لا يمكن أن يعتبروا هذا النفوذ أمراً عادياً ولذلك لم يجدوا لفظة مناسبة ينسبونها له سوى لفظة (السحر)، التى تعنى فى اللغة كل عمل خارق للعادة ومجهول المنشأ، فأولئك وإن أرادوا بهذه النسبة أن يسدلوا الستار على هذه الحقيقة الناصعة وينكروا الاعجاز الإلهى، إلّاأنّهم اعترفوا بحديثهم هذا

---

(۱) ورد فى تفصيل قصة الوليد بن المغيرة وحديثه بصدد جاذبية القرآن فى البحوث السابقة.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۸۶

بدون وعى منهم بعظمة القرآن وجاذبيته السحرية.

۳- إنَّ من يتتبع آثار المؤلفين والادباء يجد أنّهم عادة ينقسمون إلى فئتين مختلفتين:

فئة تعلق اهتماماً كبيراً على الجانب الفنى للألفاظ، وتجعل المعانى فى بعض الأحيان ضحية للألفاظ. وبعكس ذلك فئة لا تولى اهتماماً كبيراً للألفاظ وإنّما تستخدم كامل قدرتها ونبوغها فى النظر إلى عمق المعانى ولهذا السبب قسّم كتّاب تاريخنا الادبى والآثار القديمة للشعراء الكبار، إلى اسلوبين مختلفين، الاسلوب العراقى والاسلوب الهندى.

الشعراء الكبار الذين نظموا قصائدهم على النحو الأول، استخدموا قابلياتهم الفنية فى مجال التفنن بروعة الألفاظ وحسنها فى حين أنّ اتباع النحو الثانى وجهوا اهتمامهم فى الغالب إلى دقائق المعانى والملابسات المحيطة بها.

ومما لايقبل الانكار أنّ الذين أبدوا اهتمامهم بكلا الأمرين وخلفوا وراءهم آثاراً طيبة، هم نزر يسير، إلّاأنّ الحديث عن مدى نجاحهم فى هذا المضمار حديث ذو شجون.

والدليل على هذا الكلام واضح، لأنّ الألفاظ الجميلة العذبة لا تتحكم فى واقع المعانى المطلوبة، ولا تعكس حقائقها الدقيقة فيها، ولهذا غالباً مايقف الشاعر والمتكلم على مفترق طريقين: جمالية اللفظ وجمالية المعنى ومن ثَمَّ يضطر إلى اختيار أحدهما، ولذلك فى كثير من النثر والنظم تذهب المعانى ضحية للسجع والقافية.

غير أنّ الذين اطلعوا على آداب العرب وتعرفوا على حقائق القرآن يفهمون جيداً أنّ هذا الكتاب الإلهى العظيم حافظ على الامتياز المهم وهو الاعجاز، فألفاظه فى منتهى العذوبة والحلاوة، والجمل المحبوكة فى غاية الدقة والجمال. والكلمات فيه ذات ايقاع ووزن عذب، والمعانى قد اعطى حقها بكل خصائصها ودقتها، وهذه هى احدى أبعاد اعجاز القرآن فى الفصاحة والبلاغة.

إنّ القرآن لا يتكلف بأداء المعانى ويبين مراده بوضوح وفى الوقت نفسه يضفى على المعانى ألفاظاً عذبة وفى منتهى الجمال.

۴- اشتهر الشعراء والخطباء بهذه الصفة: وهى أنّهم غالباً مايبالغون إلى حد الكذب فى

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۸۷

أحاديثهم من أجل التوصل إلى حلاوة البيان وطراوته؛ وعلى سبيل المثال يجعلون الطبقات السبع للأرض ستاً، والطبقات السبع للسماء ثمانياً. لتصاعد غبار حوافر خيل العسكر، فى الصحراء أو وضع تسعة مقاعد من الفلك تحت قدميه ليصل إلى طول ركاب (قزل ارسلان)، أو يجعلون من القلب بحراً، ومن الدم ومن دمع العين نهر (جيحون) حتى قالوا:

لا تراوغ فى الشعر وفى فنهلأن أكذبه هو أحسنه

وعلى هذا الأساس فإنّ اعذب الشعر أكذبه ويشير التعبير القرآنى فى صدد الشعراء إلى أنّهم غالباً مايستغرقون فى تخيلاتهم وتشبيهاتهم الشعرية: «الَم تَرَ أَنَّهُم فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ». (الشعراء/ ۲۲۵)

غير أننا حينما نقرأ جميع آيات القرآن فلا نرى فيها أى نوع من المبالغة الكاذبة، بالرغم من وجود كل الدقّة والجمال فى الالفاظ والمعانى والتى تشترك فى تبيين الحقائق.

ولهذا السبب نشاهد أنّ القرآن يبرىء ساحة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله من تهمة الشاعرية، وساحته أيضاً من تهمة الشعر «۱».

نعم على الرغم من خلو القرآن من التخيلات الشاعرية والمبالغات والاستغراقات البعيدة عن الحقيقة الشعرية، والتشبيهات والاستعارات الوهمية، فلايحتوى إلّاعلى بيان الحقائق بصورة واقعية وقطعية، بالرغم من كل ذلك نجده فى عين الوقت فى منتهى العذوبة والجاذبية بحيث استقطب البعيدين عن الإسلام بل حتى المخالفين للنبى صلى الله عليه و آله وذكرنا أمثلة لذلك فى البحث السابق عن جاذبية القرآن.

ومن الجدير بالذكر أنّ ما نقله التاريخ من أن كثيراً من الشعراء العرب عندما اصطدموا بفصاحة القرآن، ارتضوا الإسلام طوع أنفسهم، ومن جملة الشعراء الذين أسلموا تحت تأثير جاذبية القرآن هو (لبيد) الذى كان له فى زمن الجاهلية احدى المعلقات السبع (وهى

(۱) ينقل القرآن هذه التهمة عن المشركين فى ثلاث آيات فى سور: الأنبياء، ۵؛ والصافات، ۳۶؛ والطور، ۳۰؛ وينفيها اللّه سبحانه وتعالى عن نبيه بصراحة فى آيتين من سورة يس، ۶۹؛ والحاقة، ۴۱.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۸۸

سبع قصائد شعرية معروفة ومتميزة انتخبت وعلقت على جدار الكعبة).

وكذلك حسان بن ثابت وهو من الشعراء الأثرياء فقد أسلم تحت تأثير جاذبية القرآن.

ومن الشعراء الذين دخلوا إلى الإسلام طواعية واستفادوا كثيراً من جاذبية القرآن هم:

(الخنساء) الشاعرة والناقدة العربية، و (الاعشى الذى كان من نوادر الشعراء فى عصر الجاهلية.

۵- من الظواهر الاخرى للفصاحة والبلاغة القرآنية هو الايقاع الخاص الموجود فى القرآن نفسه.

إنّ أحاديث الادباء عادة إما أنْ تكون شعراً أو نثراً، أمّا القرآن فليس شعراً ولا نثراً عادياً ومعروفاً، وإنّما هو نثر ذو ايقاع خاص به، نثر حينما يتلوه قرّاء القرآن يقع غالباً فى قالب موزون كامل.

وإذا كان لا يمكن استعمال كلمة (الموسيقى فيما يخص القرآن لأنّه يمتزج فى عُرفنا بالمفاهيم السلبية. إلّاأنّ بعض الكتاب العرب المعروفين نظير (مصطفى الرافعى). يقول فى كتابه (اعجاز القرآن): «الاسلوب القرآنى يسبب ويوجد الحاناً تلفت اسماع كل مستمع إليها، وهى نوع من الموسيقى الخاصة التى لم تكن فى الكلام الموزون فى ذلك الزمان وهذا الترتيب والنظم كان يلطف طباع العرب ويعرفهم اسلوباً جديداً فى الكلام لم يكن موجوداً سابقاً».

ويقول (بولا-تيتلر) أحد العلماء الغربيين فى هذا المضمار: «من الخطأ أن نفكر بأنّ الفصاحة الإنسانية تستطيع أن تؤثر بمثل ما يؤثر القرآن لأنّه دائماً يسير باطرادٍ إلى الرفعة بدون أن يرى فيه أى ضعف وفتور، وكل يوم يفتح لنا قمماً جديدة، نعم إنّه معجزة يتضاءل أمامها اناس الأرض وملائكة السماء» «۱».

ويضيف إلى ذلك عالم آخر اسمه (كنت هنرى دى كسترى) قوله: «إذا لم تكن فى القرآن غير عظمة المعانى وجمال المبانى لكان كافياً لأن يتسلط على كل العقول ويجذب جميع القلوب إليه» «۲».

---

(۱) إثبات الهداة، ج ۱، هامش ص ۲۲۳.

(۲) المصدر السابق، ص ۲۲۲.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۸۹

۶- ومن الامور المهمّة أيضاً: إنّ أىَّ حديث يبعث الملل والسأم مع التكرار عادةً، إلّا القرآن فإنّه فى منتهى الروعة بحيث لو قرىء مئات المرات لاحتفظ بجاذبيته ورونقه، الأمر الذى يدركه عشاق القرآن وغيرهم بوضوح.

وهذا ما نقرأه جلياً فى الحديث المشهور عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام والذى جاء فيه بأنّ رجلًا سأل الإمام الصادق عليه السلام «ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلّا غضاضة، فقال: لأنّ اللّه تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس فهو فى كل زمان جديد وعند كل قوم غض إلى يوم القيامة» «۱».

ويقول على عليه السلام فى جملة مختصرة وبليغة أيضاً: «لا تُخلقُه كَثرة الرَدّ وَولوج السمعِ» «۲».

۷- ومن دقائق الفصاحة والبلاغة فى القرآن هو تجنب كثرة الألفاظ ومراعاة الاختصار، مع ما يؤديه من وضوح المعنى وبيان تمامية المقصود، وهو ما يسمى اصطلاحاً بترك «الايجاز المخل» و «الاطناب الممل».

وقد تمت مراعاة ذلك فى آيات القرآن على أحسن وجه، فنجد أحياناً آية واحدة من القرآن تبين معالم قصة طويلة بحيث إنّ كل

جملة منها تتكلم عن مجال واسع من هذه القصة، ونقف على هذا فى أمثلة كثيرة من القرآن، ومنها الآية المشهورة التى تقول: «وَقِيلَ يَا ارْضُ ابْلَعِى مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِىَ الامْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِىّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ». (هود/ ۴۴)

نعم هذه هى الآية نفسها التى جثى لها الأديب العربى المعروف (ابن المقفع) على ركبتيه عندما قصد القيام بمعارضة أحد أرباع القرآن حسب الاتفاق الذى عقده مع أصحابه، وحينما وصل إلى هذه الآية أعرض عن ذلك وأقرّ فى نفسه بالضعف والعجز الكامل.

ذلك لأنّها تروى قصة طوفان نوح عليه السلام باختصار بارع بكل تفاصيلها ونتائجها، وبعبارات قصيرة وغنية بالمعانى، وحسب قول أحد المحققين إنّها تشتمل على ۲۳ نكتة من

---

(۱) بحارالأنوار، ج ۱۷، ص ۲۱۳.

(۲) نهج البلاغة، الخطبة ۱۵۶.

النكات الأدبية، من قبيل: (الإستعارة، الطباق، مجاز الحذف، الإشارة، الموازنة، الجناس، التسهيم أو الإرسال، التقسيم، التمثيل، الارداف و ...) «۱».

۸- احدى خصائص القرآن من الناحية الادبية، هى الصراحة القاطعة بما يقل نظيرها، اضافة إلى اللطافة والدقّة فى العبارات.

ومن المعلوم أنّ كل إنسان يستمتع بالنبرة الصريحة لأحد الفصحاء، ذلك لأنّه يبيّن الحقائق بصدق وأمانة وبدون أىتشويه أو تشويش، وليس هناك لذة تفوق لذة درك الحقائق.

إنّ التشدق والتحدث بأشكال متعددة، يدل بوضوح (إلّافى الموارد الاستثنائية) على عدم إيمان المتكلم بأقواله، أو على مخاوفه واحتراسه من حكم المستمعين له، وفى كلتا الحالتين يحكى ذلك عن ضعف وعجز المتكلم.

وتقترن الصراحة والصدق القاطع بالخشونة فى أغلب الأحيان والمهم فى الأمر أنّ على المتكلم فى الوقت الذى يكون صريحاً فيه أن يهتم بلطافة البيان أيضاً، ونشاهد ذلك فى آيات القرآن بشكل واضح.

ومن أهم الجبهات القتالية للإسلام هى جبهة التوحيد والشرك، وقد استفاد القرآن من أعلى مراتب الصراحة والقاطعية فى هذا المجال فتارة يقول: «انَّ الّذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَانْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّايَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطلُوبُ». (الحج/ ۷۳)

وتارة اخرى يقول رداً على عبدة الأوثان الذين احتموا بذريعة اتباع عقائد آبائهم وأشرافهم هروباً من المنطق الصاعق للقرآن: «بَلْ نَتَّبِعُ مَا الْفَيْنَا عَلَيهِ آبَاءَنَا اوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَايَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ». (البقرة/ ۱۷۰)

وفى موضع آخر يصعد من حدة قاطعيته فى مقابل التوسل بآداب وتقاليد الأجداد بقوله على لسان إبراهيم عليه السلام: «لَقَدْ كُنْتُم انْتُم وَآبَاؤُكُم فى ضَلَالٍ مُّبِينْ». (الأنبياء/ ۵۴)

---

(۱) أساليب اعجاز القرآن، ص ۵۲.

ويقول فى صدد الإيمان بنبى الإسلام صلى الله عليه و آله: «فَلا وَرَبِّكَ لَايُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُم ثُمَّ لَايَجِدُوا فى انْفُسِهِم حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً». (النساء/ ۶۵)

وعلى هذا الأساس يعتبر الشرط الأساسى للإيمان الصادق التسليم ظاهراً وباطناً وسراً وعلانيةً، إضافة إلى ايجاد الانسجام بين الرغبات الذاتية والأوامر النبوية الشريفة، وبالرغم من كل هذه الصراحة والقاطعية نشهد اللطافة والدقة فى العبارات بصورة كاملة أيضاً.

ونلاحظ هذه الحدية أيضاً بشكل واضح فى المباحث الاخرى ذات العلاقة بالمبدأ أو المعاد، والقوانين الاجتماعية، أو المسائل المتعلقة بالحرب والصلح، أو البحوث الأخلاقية، والتى يتطلب شرح كل واحدة منها كتاباً مستقلًا.

۹- المتانة والنزاهة فى البيان: الأشخاص الاميون لا يعبأون بعباراتهم عادة وغالباً ما يستعينون بالجمل البعيدة عن الأدب والذوق من أجل التوصل إلى أداء مقاصدهم من الكلمات، وبالرغم من أنّ القرآن ظهر فى أوساط هذه الفئة من الناس، إلّاأنّه لم يتأثر بتلك البيئة على الاطلاق، وحرص على مراعاة منتهى المتانة والعفة فى تعبيراته وهو ممّا أضفى على فصاحة القرآن وبلاغته طابعاً خاصاً.

وحينما يتصدى الخطباء والكُتّاب الكبار لحوادث العشق أو مسائل اخرىمشابهة، فهم يضطرون لأن يطلقوا العنان لألسنتهم وأقلامهم كيفما شاؤا فيطرحون ألواناً كثيرة ومختلفة من التعابيرالمهيجة والمؤذية لرسم معالم الصورة الواقعية للأبطال الحقيقيين فى القصة، وإمّا أن يسدلوا ستار الغموض والإبهام على جانب من هذه الوقائع- مراعاةً للعفة والذوق العام- ويتحدثوا مع رقبائهم بشكل مغلق.

والجمع بين هذين الأمرين: أىرسم معالم الواقع بصورة كاملة، وعدم تلوث القلم واللسان بكل ما يخدش العفة والآداب، يعتبر أمراً فى منتهى الصعوبة لا يؤديه إلّاالقليل.

فكيف يمكن أن نتصور شخصاً اميّاً ظهر فى مجتمع متخلف متوحش يحدد المعالم الدقيقة كاملة للأوضاع القائمة، ثم لا نجد فى تعابيره أدنى معنى يخدش العفة والآداب؛ وعلى سبيل المثال حينما يبدأ القرآن فى وصف الوقائع الحساسة لقصة يوسف الواقعية وما

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۹۲

اشتملت عليه من معانى الحب والغرام الذى اشتعل فى قلب تلك المرأة الجميلة المتهورة نجده يستفيد من جميع اصول الأخلاق والعفاف من دون أى تمويه وتعتيم على الحقائق، أو إجمال الحوادث فى جو من الابهام والغموض، إنّه لا يدع أى شاردة وواردة فى الحديث إلّا وذكرها ولكنه لا يتطرق إلى أدنى انحراف عن اصول العفة فى البيان، فعلى سبيل المثال يقول فى صدد شرح قصة اختلاء زليخا بيوسف عليه السلام: «وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَنْ نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الابْوابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ انَّهُ رَبِّى احْسَنَ مَثْوَاىَ انَّهُ لَايُفْلِحُ الظَّالِمُونَ». (يوسف/ ۲۳)

ومن الجدير بالذكر استعمال القرآن لكلمة «راود» التى تستفاد فى مورد الالحاح فى الطلب من إنسان ما بشىء من الهدوء والمرونة، وهى تنسجم تماماً مع أداء المعنى المقصود هذا من جهة، ومن جهة ثانية، لا يذكر اسم زليخا ولا زوجها عزيز مصر بل يقول: «الَّتى هُو فى بَيْتِهَا» من أجل أن يبيّن مروءة يوسف وعدم خيانته لمولاه، كما يبين فى الوقت ذاته تقواه، ومقاومته لمن يعيش فى كنفه وتحت إمرته.

ومن جهة ثالثة تشير جملة «غَلَّقَتِ الابْوَابَ» التى تفيد معنى المبالغة بحكم مصدر باب التفعيل إلى مدى صعوبة الموقف وتلاطم الاحداث التى مرت بها هذه الواقعة.

ومن جهة رابعة توضح جملة «قَالَتْ هَيْتَ لَكَ» ذلك الحديث الأخير لزليخا الذى قالته لبلوغ وصال يوسف، إلّاأننا نلاحظ هنا مدى رزانته وقوة سبكه المصحوبة بنزاهة البيان وسمو المعنى

ومن جهة خامسة يشير كلام يوسف: «مَعَاذَ اللَّهِ انَّهُ رَبِّى احْسَنَ مَثْوَاىَ» راداً على زليخا منـدداً بها وبصرامة، بمعنى اننى لا أقوم بخيانة صاحب البيت الذى أنعم علىَّ وقاسمته هموم العيش، بالرغم من الأيّام القليلة لتى قضيتها فى هذا البيت فما بالك أنت وقد قضيت هنا عمراً طويلًا.

وتوضح الآيات اللاحقة التى يطول شرحها هذه القصة بشكل رائع، ومن ثم ترسم معالم المقاومة الخيرة، لعواصف الهوى والتهور وتسليم الامور الذاتية بيد اللّه تعالى فى هذه المشاهد بشكل ممتع وجميل.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۹۳

وفى آية اخرى عندما يصف أحاسيس نساء مصر، حينما دعتهن زليخا إلى ضيافتها لتبرئة نفسها، يقول فى جملة مختصرة: «فَلَمَّا رَأَيْنَهُ

اكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ ايْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً انْ هَذَا الَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ». (يوسف/ ۳۱)

ويدل تعبير «مَلَكٌ كَرِيمٌ» على مدى عفَّته ونقائه الفائقين فضلًا عن دلالته على مدى جماله المنقطع النظير، وهذا مثل تعبيرنا عن عفة أحد الأشخاص عادة بأنّه مَلَك من الملائكة، وكذلك توجد على أثر هذه الحوادث جمل تحتوى على قدر كبير من الفصاحة والجمال، تدلل على عظمة ومقام يوسف بصورة كاملة ذلك المثل الأعلى فى العفة والطهارة «۱».

۱۰- أمثلة القرآن: يستخدم القرآن أمثلة كثيرة من أجل تبيان الحقائق وهى بأجمعها تجليات واضحة للفصاحة والبلاغة فى هذا الكتاب الإلهى العظيم، ممّا يبعث على اعتزاز الإنسان واعجابه الكبير، وهى الادوات الدقيقة التى استخدمت فى هذه الأمثلة والامور الصغيرة الجذابة الممتعة التى نلاحظها فى كل واحد منها:

وممّا لا يقبل انكاره أساساً هو دور المثال فى توضيح وتفسير البحوث، ولهذا السبب لا يمكن الاستغناء عن ذكره فى أىمبحث مهم، لتوضيح الحقائق وتقريبها من الذهن.

فالمثال الجيد والمنسجم مع المعنى المقصود يمكن أن يؤدّى دور أحد الكتب أحياناً، فيوضح المطالب المعقدة ويجعلها قابلة للفهم، ولهذا يعتبر التمثيل من أحد الفنون التى يعتمد عليها الفصحاء والبلغاء والادباء والشعراء فى العالم؛ يقول الزمخشرى فى الكشاف فى صدد (المثل):

المثل فى أصل الكلام معناه المِثْل ويعنى النظير ... ولضرب الأمثال عندهم والتحدث بالأمثال والنظائر لدى العلماء شأن رفيع ذلك لأنّها ترفع الحجاب عن المعانى الخفية وتوضح النكات المبهمة بحيث يصبح الأمر المتخيل حقائق ويقع الشىء المتوهم مستيقناً فى محله وتتجلى صورة الغائب على غرار صورة الشاهد ولهذه الجهة أورد اللَّه تعالى أمثالًا كثيرة فى كتابه القرآن المبين وسائر كتبه الاخرى «۲».

---

(۱) لمزيد من الاطلاع يُراجع التفسير الأمثل ذيل الآية ۳۱ من سورة يوسف.

(۲) أمثال القرآن، ص ۱۲۰.

وللأمثلة فوائد عديدة، منها أنّها تجعل المسائل العقلية حسية وتقرب الطرق البعيدة، وتوصل فهم المسائل إلى جميع الناس وبصورة شاملة، وتصعّد درجة الاطمئنان بالامور المطروحة، ومن ثم المثال المناسب يعتبر رداً صاعقاً على منطق المعاندين، وقد جمع بعض المحققين أمثال القرآن فى كتاب درس وحلل فيه أكثر من مائة مثال قرآنى.

إنّ أمثلة القرآن معجزة حقاً، ويكفى من أجل الوصول إلى هذه الحقيقة، أن نجعل قسماً منها مورداً للبحث.

مقتطفات من الأمثلة الاعجازية للقرآن:

حينما يريد القرآن رسم مشهد دقيق عن الحق والباطل يقول: «انْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ اوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوْقِدُونَ عَلِيهِ فِى النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ اوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الحَقَّ وَالبَاطِلَ فَامَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَامَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الارْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الامْثَالَ». (الرعد/ ۱۷)

لقد بيّن اللَّه تعالى معالم صورة الحق والباطل على احسن وجه فى هذا المثال الغزير بالمعانى والمشتمل على ألفاظ وعبارات موزونة، وتجدر الإشارة هنا إلى بعض الحقائق المهمّة التى تضمنها هذا المثال:

۱- يحدث أحياناً أن تلتبس كثيراً عملية التمييزبين الحق والباطل ممّا يقتضى الرجوع إلى الأمثلة والأدلة.

۲- الحق دائماً يعود على الإنسان بالخير والفائدة شأنه شأن الماء الصافى الذى هو مادة الحياة أو نظير المعدن الخالص الذى يستخدم

للزينة أو لوسائل الحياة الضرورية.

٣- الحق غنى فى ذاته قائم بنفسه دائماً، أمّا الباطل فيستمد العون من مكانة الحق ويسعى إلى التلبس به والاستفادة من قيمه مثلما يستمد أىنوع من أنواع الكذب وجوده وشأنه من الصدق بحيث لو لم يظهر على مسرح الوجود كلام صادق لم يتصور أحد معنى الكذب، وإذا لم يكن للحق وجود لما عُرف الباطل.

نفحات القرآن، ج٨، ص: ٩٥

٤- إنّ استفادة أى موجود بحسب قابليته وقدرته كما يجمع الوادى من ماء المطر على قدر اتساعه واستيعابه.

٥- الباطل يبحث دائماً عن سوق مضطرب، مثله كمثل الماء المنحدر من قمة الجبل فانّه ينهمر بسرعة مصحوبة بهدير وتلاطم يعلوه الزبد، أمّا عندما يصل إلى السهل فإنّ هديره وهيجانه سوف يهدأ وكذلك الزبد فانه يختفى ولا يبقى له أثر.

٦- الباطل لايظهر فى صورة واحدة وإنّما يظهر فى كل لحظة بشكل معين، مثلما يطفو الزبد على سطح الماء وعلى سطح المعادن فى فرن صهر المعادن، لذلك لا ينبغى الانخداع بتلك المظاهر المختلفة على الاطلاق، ولابد من تحديد مقاييس لمعرفة الحق والباطل، لتشخيص وفرز كل واحد منهما عن الآخر.

٧- الصراع بين الحق والباطل مستمر استمرار الحياة ويتوارث من جيل لآخر فهذا ماء عذب فرات وهذا ملح اجاج، يسرى بين الخلائق حتى ينفح فى الصور فكما أن تساقط الأمطار من السماء وذوبان المعادن فى فرن صهر المعادن مستمر ودائم، كذلك هذا الأمر مستمر ودائم أيضاً.

٨- الباطل يميل إلى التعالى وجلب الأنظار، لكنه خاوٍ من أى محتوى أمّا الحق فيمتاز بالتواضع والهدوء والمهارة فى الفن.

وهناك نكات أخرى يمكن استخلاصها من هذه الأمثلة وفى مجالات مختلفة إذا ما دققنا النظر فى الزوايا المختلفة لهذه الآية.

وهذه الآية تمثل نموذجاً من الأمثال القرآنية، وهناك أمثال أخرى نظير المثل الذى يدعو الناس للانفاق فى سبيل اللَّه سبحانه وتعالى، ويشبه ذلك بالحبوب والسنابل، كما ورد فى الآية ٢٦١ من سورة البقرة، وكالمثال الذى ورد فى ذم الأعمال المقرونة بالرياء حيث صورها القرآن كالحجر الصلب الذى يعلوه التراب، فاذا أصابه المطر أزال عنه التراب وتركه صلداً أملساً، أما الأعمال الخالصة لوجه اللَّه فقد شبهها المثل بالجنة على مكان مرتفع وأصابها المطر فآتت ثمارها ضعفين. كل ذلك ورد فى الآيتين ٢٦٤ و ٢٦٥ من سورة البقرة.

نفحات القرآن، ج٨، ص: ٩٦

وكالذى ورد فى صدد أعمال الكفار وتشبيهها بالرماد فى مهب الريح (إبراهيم/ ١٨)، أو تشبيهها بالسراب (النور/ ٣٩)، أو بالظلمات المتراكمة فى البحر عند قدوم الليل والسحب تغطى السماء (النور/ ٤٠).

وكالذى ورد فى صدد أعمال المنافقين وتشبيهها بالشخص التائه فى صحراء مقفرة فى الليل البهيم، وقد هزمته صواعق الرعد والبرق وإذا به يرى لحظة واحدة أنّ أشعة البرق قد أضاءت ما حوله وحين يعقد العزم على التحرك فى طريقه تعود الظلمة لتغطى كل ما يقع عليه نظره (البقرة/ ١٩ و ٢٠).

وكالذى ورد فى صدد تمسك عبدة الأصنام باصنامهم العديمة الشعور والقدرة وتشبيهها ببيت العنكبوت (العنكبوت/ ٤١).

وما ورد فى صدد تشبيه المغتابين بأولئك الذين يأكلون لحوم إخوانهم الموتى (الحجرات/ ١٢) ومن ثم ما ورد فى صدد الذات المقدّسة لله تعالى بأنّه نور السموات والأرض، وتشبيه ذلك النور بالمصباح والخواص المتعلقة به المقترن بأنواع الظرافة والروعة (النور/ ٣٥).

ويمكن إزاحة الستار فى هذا القسم من الفصاحة والبلاغة القرآنية عن موارد اخرى كثيرة يستغرق الكلام عنها وقتاً طويلًا، وهى بدورها تطلعنا على حياة مليئة بالقيم وأضدادها تواجهنا فى حياتنا اليومية وتبين لنا عالماً من المعارف فى حلة من الأمثلة البديعة.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۹۷

۲- الاعجاز القرآنى على صعيد المعارف الإلهيّة

بعد الكلام عن مسألة الفصاحة والبلاغة وصل بنا المطاف للحديث عن المضمون وقبل كل شيء نتعرض لمسألة المعارف ونحاول بيان المسائل المتعلقة بالمبدأ والمعاد والعقائد الدينية.

ومن الامور الأساسية هى أنّ بيان المسائل ذات العلاقة بالمبدأ والمعاد والنبوة والإمامة، يُعدُّ أحد المعايير الفاصلة بين الأديان الحقة والباطلة، لأنّ بحوث هذا القسم وبالأخص ما يتعلق بالذات القدسية لله تعالى وصفاته واسمائه فى غاية الدقة والتعقيد، بحيث يصبح الحد الفاصل بين الشرك والتوحيد ادق من الشعرة أحياناً.

إنّ هذا القسم من الآيات القرآنية على جانب كبير من الابداع والعمق والدقة، بحيث لو لم يوجد دليل على اعجازه سوى الايضاحات الدقيقة التى يبينها فى هذه المسائل، لكان هذا كافياً للاستدلال عليه.

خصوصاً وأنّ القرآن ظهر فى بيئة عاكفةٍ على عبادة الأصنام مملوءه بالمعابد بدءاً من الأصنام المنزلية وانتهاءً بالاصنام العشائرية والأصنام الكبيرة العامة، التى كانت مقصداً لكل بلد وحى.

لقد كانوا يصنعون الأصنام بأيديهم من الاخشاب أو الصخور أو المعادن، وبالرغم من علمهم بعدم امتلاكها لأدنى احساس وشعور وحركة ورؤية، نجدهم ينسبون إليها القدرة الهائلة استناداً إلى جملة من التخيلات المحضة الركيكة التى تدور فى أذهانهم، ومن ثم يسلمونها مقاليد امورهم ومقدراتهم ويخضعون لها فى عجز وتضرع يلتمسونها ويسجدون

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۹۸

لها ويقدمون لها القرابين حتى تصير واسطة للفيض والشفاعة بينهم وبين اللّه تعالى وكان يصل بهم الأمر أحياناً إلى أن يصنعوا أصناماً من التمر، واتفق فى احدى سنى القحط أن خلت منازلهم من الطعام فحملوا على آلهتهم التى صنعوها بأيديهم فأكلوها، ومن شواهد هذه القصة هو الشعر الذى لا يزال شاخصاً بين أشعار عصر الجاهلية:

أكلت حنيفةُ ربَّها عامَ التقحم والمجاعةلم يحذروا مِن ربّهم سوءَ العواقبِ والتباعه

وهذه الأفكار هى من أسوأ الأفكار خرافية وانحطاطاً وأكثرها سخافة والتى يمكن أن تخطر فى ذهن إنسان.

إنّ الأكثرية الساحقة من عرب الجاهلية تعتبر الملائكة بنات اللّه، فى حين أنّهم أنفسهم كانوا ينفرون من مجرد سماع اسم البنت- لما أُثر عنهم من تحقيرهم للمرأة فى تلك البيئة- كما نقرأ ذلك فى قوله تعالى «وَاذَا بُشِّرَ احَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحمنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ». (الزخرف/ ۱۷)

وتوجد هناك مسائل خرافية اخرى كثيرة يطول شرحها سواء فى مبحث المعرفة الإلهيّة أو فى مبحث المعاد وغيرها.

وعندما نشاهد شخصاً ظهر من تلك البيئة يدعو إلى التوحيد الخالص والمعارف الأصيلة ببيان دقيق يذعن له كبار الفلاسفة، حينئذٍ لا يعترينا الشك بأنّ بيان مثل هذه المعارف لا يصدر إلّامن اللّه عزّ وجلّ، وليست هناك أدنى مبالغة فى هذا القول ولا حاجة إلى قطع طريق بعيد طويل للتوصل إلى الحقيقة، فاذا القينا نظرة على المجلد الثانى والثالث من هذا الكتاب «نفحات القرآن» حيث تضمن المجلد الثانى بحثاً عن اللّه سبحانه وتعالى والثالث حول معرفة اللّه لاطلعنا على سعة المعارف القرآنية وعمقها، وكذلك الحال بالنسبة إلى المعاد فى القرآن فقد افرد له بحث واسع فى المجلد الخامس والسادس من نفحات القرآن.

لذا نقف هنا عند البحث الإجمالى ونكتفى باشارات عابرة فى هذا المجال، الغرض منها

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۹۹

ان نعود بقرّائنا الأعزاء إلى المجلدات السابقة.

وبالرغم من سيطرة فكرة الشرك بالله وعبادة الأصنام على تلك البيئة بحيث لا يجرؤ احد على النيل من هذه العقيدة بادنى لوم أو اعتراض، انبرى القرآن بقاطعية كاملة إلى ضرب تلك العقيدة الخرافية، فتارة ينقل ذلك على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام فيقول: «قَالَ افَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَالَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ* افٍّ لَّكُم وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ افَلَا تَعْقِلُونَ». (الأنبياء/ ۶۶- ۶۷)

وتارة اخرى يقول فى صدد قصة عجل السامرىّ الذى أصبح مورداً لإغواء عدة من جهال بنى اسرائيل واغترارهم به: «افَلَا يَرَوْنَ الَّا يَرْجِعُ الَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً». (طه/ ۸۹)

وبجملة مختصرة: إنّ القرآن ينـدِّد كثيراً بالشرك ويذم عبادة الأصنام بحيث إنّه يعفو ويصفح عن جميع الذنوب ما عدا الشرك، فيقول: «انَّ اللّهَ لَايَغْفِرُ انْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى اثْمَاً عَظِيماً». (النساء/ ۴۸)

إنّ هذا التنديد القاطع والحاسم بفكرة عبادة الأصنام يعدّ بحق أمراً فريداً من نوعه؛ لأنّ هذه الفكرة تعتبر سُنّة معروفة للأجداد، والثقافة الرائجة فى جميع أنحاء تلك البيئة بحيث إنّ العدول عنها يُعد من عجائب الامور وموردا لكل أنواع الذم والتقريع، أمّا نحن ففى الوقت الحاضر نلقى نظرة عفوية على هذه الآيات ونعتبرها أمراً عادياً بغض النظر عن أنّ تلك البيئة كانت تعيش ضمن ظروف وأوضاع خاصة تختلف عن أوضاعنا، هذا من جانب ومن جانب آخر عندما يشرع فى بحث التوحيد، يعمد إلى طرح الدلائل الفطرية والمنطقية و (برهان النظام) و (برهان الصديقين) بشكل لا يتصور الإنسان ما هو أروع منه.

ويشير فى بحث التوحيد الفطرى إلى المسألة التى كانت تحدث فى حياة كل أولئك الناس وبأشكال مختلفة فيقول: «فَاذَا رَكِبُوا فِى الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الّدِينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ الَى البَرِّ اذَا هُمْ يُشْرِكُونَ». (العنكبوت/ ۶۵)

وبهذه الطريقة يبيّن استقرار نور التوحيد فى أعماق وجودهم ووجدانهم، ويزيح النقاب

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۰۰

نفحات القرآن ج۸ ۱۴۹

عن طوفان الحوادث تلك الشعلة المستترة فى أقبية الجهل والجاهلية، فعندما يأتى إلى التوحيد الاستدلالى يقول فى جملة مختصرة: «أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّموَاتِ وَالارْضِ».

(إبراهيم/ ۱۰)

بعد هذا البيان الإجمالى يأخذ بيد البشرية ويجوب كل نقطة من نقاط هذا العالم الفسيح ليريهم الآيات فى الآفاق وفى أنفسهم واحدة تلو الاخرى فتارة يقول: «وَفِى الارْضِ آيَاتٌ لِّلمِوقِنِينَ* وَفِى انْفُسِكُمْ افَلَا تُبْصِرُونَ». (الذاريات/ ۲۰- ۲۱)

ثم بالبراهين المفصلة على عظمة اللّه تعالى وقدرته وحكمته فى السماءوالنجوم والأرض، والنباتات والطيور، والليل والنهار، والهواء والمطر .... فيستأنس الإنسان عند البحث فيها وتأخذه حالة سرور غامر «۱».

ونجده يبدى رأيه أيضاً حينما يشرع فى بحث الصفات الإلهيّة وهو من أعقد الأبحاث العقائدية وواحد من أهم المنزلقات الفكرية المحيرة لكثير من العلماء؛ ففى أحد المواضع يكرم اللّه تعالى وينزهه من أىنوع من الصفات الممكنة المحدودة الناقصة، فيقول فى جملة مختصرة: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىءٌ». (الشورى ۱۱)

وعلى هذا الأساس ينفى عنه جميع الأوصاف الممكنة، ويثبت له الصفات الجمالية والكمالية المنقطعة النظير.

ويتوسع فى كلامه أحياناً فيقول: «هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَااالهَ الَّا هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيْمُ* هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَااالهَ الَّا هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلَامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ* هُوَ اللَّهُ الخَالِقُ البَارِىءُ المُصَوِّرُ لَهُ الاسْمَاءُ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّموَاتِ وَالارْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ». (الحشر/ ۲۲- ۲۴)

وفى الواقع أننا لو عقدنا مقارنة بين الوصف الذى رسمه القرآن فى عدّة آيات عن خالق الكون وبين الرؤية التى يمتلكها المشركون والانطباعات السائدة فى بيئة ظهور القرآن عن اللّه تعالى لما أمكن تصور أن هذا البيان الساطع الفريد من نوعه هو وليد تلك البيئة

الخرافية المظلمة اطلاقاً.

---

(١) شرحنا هذه الآيات تحت عشرين عنواناً فى ج ٢، من هذا التفسير.

نفحات القرآن، ج٨، ص: ١٠١

ويصف فى موضع آخر العلم اللامحدود للّه تعالى بهذا الرسم الذى يفوق حد التصور «وَلَوْ انَّمَا فِى الارْضِ مِن شَجَرَةٍ اقْلامٌ وَالبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ ابْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ». (لقمان/ ٢٧)

فى واقع الأمر أنّ هذه الصورة تتضمن الإشارة إلى حالة غير متناهية إلّاأنّها صورة حية، لأنّ العدد اللامتناهى قد يستفاد منه بشكل جامد فى الرياضيات والتوضيحات الفلسفية، وقد يستفاد منه وهو ينبض بالحياة على شاكلة الصورة التى وردت فى هذه الآية بحيث ترتقى بفكر الإنسان، إلى ذرى اللانهاية.

ونحن عندما نستطيع أن نقف على عمق المعارف الإسلامية فيما يخص أدق المسائل التوحيدية والأسماء والصفات الإلهيّة نكون قد بحثنا دورة لكل القرآن المجيد بهذا الصدد «١».

وحينما يضع القرآن اللبنات الاولى لمسألة المعاد والحياة بعد الموت نجده تارة يفند جميع المزاعم والافتراضات الخاطئة للمناوئين فى جملة مختصرة ويقول: «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ». (الأعراف/ ٢٩)

وتارة يقول فى تبيان أوسع: «اوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمواتِ وَالارْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الخَلَّاقُ العَلِيمُ* انَّمَا امْرُهُ اذَا ارَادَ شَيْئاً أنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ». (يس/ ٨١- ٨٢)

وتارة اخرى يجسم لهم مشهد المعاد والبعث فى لوحة حية بدون أن يكلفوا تفكيرهم عناء الاستدلال: «يَا ايُّهَا النَّاسُ انْ كُنْتُم فِى رَيْبٍ مِّنَ البَعْثِ فَانَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى الارْحَامِ مَا نَشَاءُ الَى اجَلٍ مُّسَمّىً ثُمَّ نُخْرِجُكُم طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا اشُدَّكُمْ وَمِنْكُم مَّنْ يُتَوَفّى وَمِنْكُم مَّنْ يُرَدُّ الى ارْذَلِ

---

(١) يراجع ج ٣ من هذا التفسير، للحصول على معلومات واسعة ومنظمة بهذا الصدد.

نفحات القرآن، ج٨، ص: ١٠٢

العُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الارْضَ هَامِدَةً فَاذَا انْزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَانْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ* ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ وَانَّهُ يُحْيِ المَوْتى وَانَّهُ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ». (الحج/ ٥- ٦)

وبناء على ذلك يبين القرآن مشهد البعث فى عالم الإنسان وطيّه لمختلف المراحل الجنينية التى تُعدُّ كل واحدة منها بعثاً عظيماً، وفى عالم النباتات أيضاً نلاحظ مشهد الموت والحياة وبعثها فى كل شتاء وربيع من كل سنة.

إنّ الآيات التى تطرقت إلى الحياة بعد الموت والأدلة المختلفة عليها تعرضت إلى المنازل والمشاهد المتعددة للآخرة، وما يقع هناك من حوادث، وكيفية تجسُّم الأعمال والحساب والكتاب والميزان والشهود فى يوم القيامة، وتحتوى هذه الآيات على امور ومسائل دقيقة، تجعل الإنسان عند مطالعتها والتأمل فيها فى حالة غامرة من العجب، وبإمكانكم مطالعة نبذة من هذه المسائل بشكل موسع فى المجلد الخامس والسادس من هذا الكتاب.

نفحات القرآن، ج٨، ص: ١٠٣

٣- إعجاز القرآن فى تصور العلوم الحديثة

اشارة

قبل الدخول فى هذا البحث لابدّ من الإشارة إلى نقطتين لتصحيح أىنوع من سوء الفهم بصدد هذا البحث:

١- يجب أن لا يتوقع أحد أن يُبيّن القرآن الكريم جميع مسائل العلوم الطبيعية وأسرار وخواص كل الأشياء، لأنّ القرآن لم ينزل لبيان هذه الامور، فهو ليس دائرة للمعارف أو كتاباً لعلم طبقات الأرض «الجيولوجيا» أو لعلم النبات وإنّما هو كتاب للتربية والهداية، نزل ليقود الناس إلى حياة طيبة مقترنة بالسعادة والفضيلة ويحكمها الصدق والأمانة والنظام والرحمة، وليوصلها فى النهاية إلى القرب من اللَّه تعالى

وأمّا الغرض من قوله تعالى فى صدد القرآن الكريم: «وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَىءٍ». (النحل/ ٨٩)

فهو لبيان كليات الامور التى تتعلق بنجاة الإنسان وسعادته وتربيته ولذلك يقول تعقيباً على هذه الجملة: «وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلمُسْلِمِينَ». (النحل/ ٨٩)

بيدَ أنّ بعضاً من الآيات الإلهيّة ومن أسرار الخلق فى العالم وفى وجود الإنسان ذاته تساعد على معرفة اللَّه والتعرف على عظمة عالم الخلائق الذى هو من صنع اللَّه تعالى لذلك قد نجد أحياناً إشارات إلى هذه المسائل بين الآيات القرآنية وقد رفعت الستار عن امور خفيت واستترت عن جميع علماء العالم فى ذلك الوقت.

وملخص الكلام هو: أنّ الإتيان ببعض أسرار العلوم وحقائق عالم الوجود فى القرآن لا لعرض العلوم الطبيعية أو لتأليف دائرة للمعارف بل الغرض منه هو تبيين الأهداف التربوية

نفحات القرآن، ج۸، ص: ١٠۴

والأخلاقية، وتعليم درس التوحيد ومعرفة اللَّه، وفهم أسماء وصفات الحق، أو الاطلاع على جانب من أسرار المعاد وما شاكل ذلك.

٢- هل من الصحيح التشبث بمثل هذه البحوث وتطبيق الآيات القرآنية على الاكتشافات العلمية؟ هل يحق لنا أن نطبق المسائل المختلفة للعلوم الطبيعية على الآيات القرآنية، أو بالعكس؟ فى حين أنّ آراء العلماء لا تستقر على حال، وهى فى تغير دائم، ولذلك ليس من المنطق فى نظرنا أن نطبق أمراً ثابتاً مستحكماً على آخر متغير؟

للاجابة عن هذا السؤال لابدّ من القول: إنّ هناك ثلاثة آراء مختلفة، فأتباع الرأى الأول وهم الذين اتخذوا جانب الإفراط فى هذا المجال، فقد طبقوا الآيات القرآنية على الفرضيّات العلمية لأدنى تناسب أو توافق بينهما- لا على الحقائق المسلَّمة والقطعية للعلوم- ظناً منهم أنّهم قد أسدوا خدمة إلى معرفة القرآن من هذا الطريق.

فى حين أننا نعلم فى وقتنا الحاضر أنّ القيام بهذا العمل يعد خطأً كبيراً لأنّه لا يعد عدم خدمة للقرآن فحسب، بل سبباً لسقوط اعتبار القرآن ومكانته، لأنّ الفرضيات العلمية- لا القوانين المسلَّمة- فى حالة تحول وتغير مستمر، ولذلك ليس من المنطق ولا هى خدمة للعلم والعقيدة أن نقوم بتطبيق الحقائق القرآنية الثابتة على جملة من الامور المتحولة والمتغيرة، والمشكوكة أو المظنونة.

وأمّا القائلون بالرأى الثانى: فهم الذين سلكوا طريق التفريط، واعتقدوا بعدم جواز التطبيق فى أىمورد من الموارد حتى فى المسلّمات العلمية التى تنسجم بصورة أو بأخرى مع العبارات القرآنية الصريحة، وهذا يعدُ نوعاً من التعصب والجمود والبعد عن المنطق والدليل أيضاً.

و أمّا الرأى الثالث وهو الذى يمثل الحالة الوسط بين هاتين النظريتين الخاطئتين، فلو خرجنا من حيز الافتراضات ودخلنا فى عالم القوانين العلمية الثابتة بالدلائل القطعية أو الشواهد المُسَلَّمة لكانت دلالة القرآن على هذه الامور صريحة وواضحة.

فما هو المانع من تطبيق هذه المسائل على آيات القرآن؟ ولماذا نتخوف من هذا

نفحات القرآن، ج۸، ص: ١٠۵

الانسجام الذى هو أحد الأدلة على عظمة هذا الكتاب السماوى؟ وإذن ما المانع من أن يكشف القرآن الستار بوضوح عن البحوث التوحيدية ومعرفة اللَّه تعالى والمسائل التربوية المستندة لجملة من الحقائق العلمية المجهولة بصورة كاملة فى ذلك العصر، ومن ثم

يوجه أتباعه ويوقفهم على هذا الأمر، فبالإضافة إلى تحقق النتائج التوحيدية والأخلاقية من وراء ذلك، يعتبر إمارة واضحة على حقانية القرآن فضلًا عن أنه يفتح باباً واسعاً للعلوم والمعارف.

وعلى هذا الأساس سنتطرق بدقة إلى نقطتين مهمتين فى هذا البحث المتواصل وهما:

١- سنختار المسائل الثابتة والمسلَّمة مائة بالمائة من العلوم الطبيعية مثل قانون الجاذبية، والزوجية فى عالم النباتات، حركة الأرض، وحركة المنظومة الشمسية، وأمثال ذلك ممّا ثبت بالأدلة الحسية فى يومنا هذا.

٢- سننتخب من الآيات فى هذا المجال ما هو صالح للانطباق على القواعد العلمية العصرية بدون أدنى تكلُّف أو تأويل، أو بعبارة اخرى فدلالة الآيات التى تقع مورداً للقبول، هى التى تكون وفق القواعد الأدبية التى يكثر فيها استفادة المعانى من الجمل والكلمات.

١- القرآن وجاذبيته العامة

نقرأ فى قوله تعالى «اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ». (الرعد/ ٢)

مما يستحق الإهتمام فى هذه الآية، أنّ القرآن لا يقول: إنّ السماء ليس لها عمد، وإنّما يقول: ليس لها عمد قابل للرؤية والمشاهدة. يستفاد جيداً من هذا التعبير أنّ أعمدة السماء غير مرئية وأنّ هذه الأعمدة هى التى أرست دعائم السماء «١».

---

(١) يستفاد من ظاهر الآية أنّ «ترونها» وصف ل «عمد»، وقول البعض: إنّ مفهوم الآية «ترونها بغير عمدٍ» هو أنّكم ترون السماء بغير عمد (وعلى هذا، فعبارة «بغير عمد» جار ومجرور ومضاف إليه متعلقة ب «ترونها»)، خلاف الظاهر أولًا، وثانياً، إنّ هذا التعبير يشير إلى أنّكم ترون السماء بدون عمد فى حين أنّ لها اعمدة فى حقيقة الأمر.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۰۶

ونقرأ فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام وقد سأله أحد أصحابه وهو «حسين بن خالد» عن معنى قوله تعالى «وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ...». (الذاريات/ ٧)

فقال الإمام عليه السلام: «سبحان اللَّه، أليس اللَّه يقول: «بغير عمدٍ ترونها»؟ قلت: بلى فقال:

ثَمَّ عمدٌ ولكن لا ترونها» «١».

فهل يوجد توجيه وتفسير لهذا الحديث سوى العمد الذى نطلق عليه فى عصرنا هذا إسم «التوازن بين القوة الجاذبية والدافعة».

وتوضيح ذلك، يكمن فى أنّ النظرية الوحيدة التى غزت أفكار علماء ذلك العصر- زمان نزول القرآن الكريم- ومن ثم القرون السابقة واللاحقة، هى نظرية «الهيئة» لبطليموس التى سيطرت بقوة تامة على المحافل العلمية الدولية. ووفقاً لذلك صوَّرت السماوات على شكل كرات متداخلة نظير طبقات البصل المتلاصقة وكانت الأرض فى مركزها، ومن الطبيعى أن تستند السماوات كل منها إلى الاخرى

إلّا أنّه ثبت بطلان هذه العقيدة بالأدلة القطعية بعد مرور زهاء الالف سنة من نزول القرآن، وذهبت تماماً نظرية الأفلاك- قشور البصل- إلى غير رجعة، وأصبح من المسلّمات أنّ كلّاً من هذه الكرات السماوية معلقة وثابتة فى مدارها وموضعها، وأنّ المجاميع والمنظومات متحركة، والشىء الوحيد الذى يحافظ على ثباتها واستقرارها هو نفس هذا التعادل بين القوة الجاذبة والدافعة.

إنّ الذى يتسبب فى التحرك السريع لكل الكرات السماوية ومن ثم اجتماعها فى مركز واحد، هو القوة الجاذبة- التى تقول: إنّ الجاذبية بين كل جسمين تتناسب طردياً مع وزنيهما، وعكسياً مع الجذر التربيعى للمسافة بينهما-، بَيدَ أنّ الحركة الدورية موجودة فى الكواكب السيارة أو المنظومات- ولا يخفى أنّ الميزة الدورية هى نفس القوة الطاردة المركزية وهى التى تؤدّى إلى الابتعاد السريع لهذه الكرات والمنظومات عن بعضها (على

(١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٢٧٨. ورد هذا الحديث فى التفسير المزبور عن طريقين، عن تفسير على بن إبراهيم، وكذلك عن تفسير العياشى.

نفحات القرآن، ج٨، ص: ١٠٧

شاكلة الهروب من دائرة النار فى حالة دورانها وذلك عندما ينقطع سلكها ويتطاير الشرر من قطع النار المتقاذفة)، أمّا لو كانت القوة الجاذبة متساوية مع القوة الدافعة بدون أدنى نقيصة أو زيادة، فسيظهر فى هذه الحالة العمد اللامرئى القوى حتى يثبتها فى موضعها الخاص كما أنّ الكرة الأرضية تتحرك فى دورانها حول الشمس بمدار معين ملايين السنين بدون أن تقترب منها أو تبتعد عنها، وهذه من دلائل عظمة اللّه وإعجاز القرآن.

ومن الظريف أنّ المفسرين القدامى وقفوا على هذه النكتة إجمالًا بيد أنّهم لم يعبّروا عنها سوى بالقول بمسألة القدرة الإلهيّة، بحيث يقول «ابن عباس» وفقاً لنقل الطبرسى فى «مجمع البيان» والآلوسى فى «روح المعانى»: إنّ معنى الآية هو أنّ السماء تكون بدون عمد قابل للمشاهدة، وعليه يكون عمدها هو القدرة الإلهيّة الهائلة «١».

٢- القرآن وخلقُ العالم

إنّ للقرآن الكريم تعابير وإشارات متعددة حول حدوث العالم، إذ يقول فى أحد المواضع: «ثُمَّ اسْتَوَى الَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلَارْضِ ائتِيَا طَوْعَاً اوْ كَرْهَاً قَالَتَا اتَيْنَا طَائِعِينَ». (فصلت/ ١١)

وفى موضع آخر يقول: «اوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا انَّ السَّموَاتِ وَالْارضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَىءٍ حَىٍّ افَلا يُؤْمِنُونَ». (الأنبياء/ ٣٠)

لقد اشير فى هاتين الآيتين إلى ثلاث نكات مهمة فى صدد خلق العالم والموجودات الحيّة:

١- كان العالم فى بادىء الأمر على شكل غاز وبخار.

٢- كان العالم متصلًا فى البداية ثم فصلت الكرات السماوية عن بعضها الاخرى

٣- بدأت خلقة الموجودات الحية من الماء.

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٧٤؛ وتفسير روح المعانى، ج ١٣، ص ٧٨.

نفحات القرآن، ج٨، ص: ١٠٨

وهذه هى نفس الامور التى عرفت فى هذا اليوم بعنوان النظريات العلمية المسلمة.

ويتقرر توضيح ذلك: بأنّه بالرغم من وجود فرضيات مختلفة لم تخرج عن حدود الفرضية فى صدد كيفية نشوء العالم، إلّاأنّه نظراً للمطالعات التى اجريت على المجرات والمنظومات التى تتجه نحو التكون والحدوث، بدا من المسلَّم أنّ العالم كان على شكل أكوام من الغاز فى بادىء الأمر نظير الشىء المضغوط الذى تنعزل منه قطعاته وتتطاير أوصاله على أثر دورانه حول نفسه، وهذه القطع تبرد شيئاً فشيئاً ثم تظهر بشكل مائع أو جامد فى كثير من الأحيان لتشكل الكرات المسكونة وغير المسكونة.

وبعبارة اخرى تدل دراسات العلماء الفلكيين فى مجال السُحب، والعوالم البعيدة عن متناول اليد والتى تأخذ طريقها نحو التكامل على أنّهم أخرجوا هذه النظرية وهى كون الدنيا على شكل أكوام من غاز البخار من حيّز الفرضية واعتبروها من النظريات القطعية، والتى تم تأييدها من قِبل المحافل العلمية الدولية.

وكذلك نقرأ فى بداية الآية الاولى بصراحة ب «أن السموات» الكرات السماوية كانت فى بداية الأمر على هيئة دخان وهذه الآية

تنسجم مع الاكتشافات العلمية للعلماء التى لم تزل حديثة العهد، وفى ذلك دلالة واضحة على الاعجاز العلمى للقرآن الذى يكشف عن الحقيقة التى كانت مجهولة فى زمن نزول القرآن بصورة كاملة.

والآية الثانية أيضاً تُعبِّر عن حالة الارتباط الموجودة فى العالم فى بادىء الأمر، ومن ثم انفصال أجزائه الاخرى وهذا أيضاً أيدته المحافل العلمية كأصل من الأصول فى يومنا هذا، وكذلك الحال بالنسبة إلى ظهور الموجودات الحية من ماء البحار فى بادىء الأمر- سواء كانت نباتية أو حيوانية- هى الاخرى تعتبر اليوم من النظريات العلمية المعروفة، وإن كان البحث قائماً على قدم وساق بين العلماء فى صدد كيفية التحول والتطور، وظهور الأنواع المختلفة للنباتات والحيوانات.

والقرآن أيضاً يفصح عن حقيقة ظهور كافة الموجودات الحية من الماء فى الآية الثانية المتقدمة الذكر، وفضلًا عن ذلك تصرح الآيات التى تنسب خلقة الإنسان إلى التراب، بأنّ

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۰۹

هذا التراب كان ممتزجاً مع الماء على هيئة طين.

ونقرأ أيضاً فى قوله تعالى «وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّنْ مَّاءٍ». (النور/ ۴۵)

وللمفسرين أحاديث مطولة فى صدد «الرتق» و «الفتق» الواردين فى الآية الثانية واللذيْنِ هما فى الأصل بمعنى «الإتصال» و «الإنفصال».

اختار البعض المعنى المتقدم، وهو السماء والأرض واللتين كانتا على هيئة كُتل عظيمة من البخار والغاز المُحترق، وتجزأت شيئاً فشيئاً على أثر الانفجارات الداخلية وحركتها حول نفسها، ومن ثم ظهرت الكواكب والنجوم، من جملتها المنظومة الشمسية.

ويرى البعض الآخر أنّ ذلك إشارة إلى الوحدة النوعية فى مواد العالم، بحيث كانت متداخلة فى بداية الأمر حيث ظهرت على هيئة مادة واحدة، لكنها انفصلت عن بعضها الآخر، وتشكلت مع مرور الزمان بتركيبات جديدة.

وذهب جمع آخر أيضاً إلى أنّ ذلك إشارة إلى عدم نزول المطر ونمو النباتات من الأرض، بمعنى أنّ السماء كانت فى بداية الأمر متصلة مع بعضها الآخر، ولم يكن ينزل المطر، والأرض أيضاً كانت متصلة مع بعضها الآخر، فلم يكن للنبات وجود فيها، ثم بأمر من اللَّه تعالى انفجرت السماء ونزل المطر، وتفتحت الأرض فخرجت النباتات.

وقد أشارت إلى المعنى الأخير روايات متعددة من طريق أهل البيت عليهم السلام، وكذلك قسم من الروايات الواردة من طريق العامة «۱»، فى حين تضمنت بعض الروايات الاخرى الإشارة إلى المعنى الأول «۲»، وتبدو الإشارة إلى هذا الاتصال أيضاً فى الخطبة الاولى من نهج البلاغة، وفى كل الاحوال ينسجم ظاهر الآية مع التفسير الأول، علاوة على عدم وجود مانع من الجمع بين التفاسير المتقدمة، فمن الممكن الجمع بين كل من المعانى الثلاثة فى المفهوم الجامع للآية.

وممّا يسترعى الإنتباه ما ورد فى قوله تعالى «ءَانتُمْ اشَدُّ خَلْقًا امِ السَّمَاءُ بَنها ...

---

(۱) راجع تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۴۲۴، الأحاديث ۵۲، و ۵۳، و ۵۴، و ۵۵؛ وتفسير در المنثور، ج ۴، ص ۳۱۷.

(۲) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۱۰

وَالارْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحهَا* اخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا* وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا».

(النازعات/ ۲۷- ۳۲)

وتدل هذه الآيات بوضوح أيضاً على كون السماء مخلوقة قبل الأرض، ثم إنّ ظهور الماء والنباتات والجبال كان بعد الانتهاء منها.

وبناءً على ذلك، يكون هذا الأمر هو الشىء الذى يؤكّد عليه العلم الحديث، وهو يرى أنّ الأرض وجدت بعد وجود الشمس، ويعتبر

ظهور الماء من سطح الأرض، ومن ثم النباتات وكذلك ظهور الجبال بعد خلق الأرض.

۳- القرآن وحركة الأرض

نقرأ فى قوله تعالى «وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى اتْقَنَ كُلَّ شَىءٍ انَّهُ خَبيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ». (النمل/ ۸۸)

تتجلّى فى هذه الآية عدّة نكات:

أولًا: إنّ الجبال التى تبدو ساكنة فى نظركم، هى فى حركة سريعة كسرعة حركة السحب، (وينبغى الالتفات إلى أنّ السرعة الفائقة تُشَبَّهُ عادة بسرعة السَّحاب، إضافة إلى خلو الحركة السريعة للسحب من التزلزل والصخب).

ثانياً: إنّ هذا هو صنع اللَّه الذى خلق كل شىء بميزان معين.

ثالثاً: إنّ اللَّه عزّ وجل مطلع على أفعالكم.

عند التأمل بدقّة فى هذه الجمل الثلاث، يتضح أنّ الآية لا ترتبط بيوم القيامة كما تخيَّل بعض المفسرين، بل ترتبط بنفس هذه الدنيا، إذ تقول: «أنتم تتخيلونها وتتصورونها هكذا فى حين أنّها ليست كذلك»، وأمّا حركة الجبال فى القيامة أو على مشارف القيامة فليست هى من الامور المخفية والمبهمة، بل إنّها واضحة ومهوِّلة بحيث لا يقوى أحد على تحملها والصبر على مشاهدتها.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۱۱

إضافة إلى أنّ الاتقان فى الخلقة وحاكمية النظم والموازين فيها، هو إشارة ودلالة على وضعها الفعلى لا على زمن اقتراب يوم القيامة، حيث سيتلاشى النظام العالمى ليبنى على أنقاضه نظام جديد.

فضلًا عن ذلك فإنّ العلم الإلهى بالأفعال التى نقوم بها يرتبط بأفعالنا فى هذه الدينا، وإلّا فإنّ القيامة يوم حساب لا يوم عمل.

ويتضح من خلال هذه القرائن الثلاث أنّ هذه الآية لا تطابق حركة الجبال فى نهاية مسيرة العالم ووقوع يوم القيامة بأىّ شكل من الأشكال، غاية ما فى الأمر أنّ جماعة من المفسرين لم يتمكنوا من إدراك عمق المفهوم فى الآية، فما وجدوا بُدّاً سوى القبول بخلاف ظاهر الآية، وتفسيرها بمسألة القيامة.

كما تتضح هذه المسألة أيضاً وهى أنّ حركة الجبال لا تنفصل عن حركة الأرض، بل هما مترابطتان مع بعضهما الآخر كوحدة واحدة، فاذا تحركت الجبال تحركت الأرض الحركة الدائبة.

وربّما ينقدح فى الذهن هذا السؤال: لماذا اقتصر اللَّه تعالى على ذكر الجبال، ولم يقل إنّك ترى الأرض فتحسبها ساكنة فى حين أنّها متحركة.

والجواب عن هذا السؤال واضح، لأنّ الجبال من أعظم الموجودات على وجه الأرض، وهى مظهر من مظاهر الصلابة والصمود والاستحكام، ولذا نقول لضرب المثل المعروف:

«إنّ الشخص الفلانى منيع وصامد كالجبل»، ولذلك يمكن اعتبار حركة الجبال على عظمتها وصلابتها وثباتها، أحد العلائم على القدرة اللامتناهية للحق تعالى لكن ممّا لا جدال فيه أنّ حركة الجبال هى احدى التجليات الواضحة لحركة الأرض.

وفى كل الاحوال، تعتبر الآية المذكورة أحد المعاجز العلمية المهمّة للقرآن، إذ من المعلوم أنّ العقيدة الرائجة والحاكمة لدى كافة المحافل العلمية الدولية فى عصر نزول القرآن وزهاء الألف سنة بعد ذلك هى نظرية ثبات الأرض ودوران الكرات حولها، والتى نشأت من هيئة «بطليموس».

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۱۲

ومن العلماء الأوائل الذين اكتشفوا حركة الأرض هم كل من «غاليلو» الايطالى، و «كبرنيك» البولندى، وذلك بعد مرور ما يقارب

الألف سنة، إذ اعلنوا عقيدتهم فى آواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر الميلاديين، ممّا أثار على الفور حفيظة أرباب الكنيسة بشدّة بحيث هدّدوهما بالقتل، فى حين أنّ القرآن الكريم كشف الستار عن هذه الحقيقة بعشرة قرون قبلها، وطرح بعباراته البديعة المتقدمة حركة الأرض باعتبارها إحدى علائم التوحيد والعظمة الإلهيّة.

وعلى كل حال، فممّا لا شك فيه أنّ هذه الآية تتحدث عن حركة الجبال (وبتعبير آخر حركة الأرض) فى هذه الدينا، ذلك لأنّ حركة الجبال عند وقوع يوم القيامة، تُحدثُ زلزالًا قوياً فى الكرة الأرضية بحيث يقول تعالى عنها «يَومَ تَروْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمّا أرْضَعَتْ وتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَملٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكارَى وَمَاهُمْ بِسُكارَى ...». (الحجّ/ ۲)

وهذا الكلام لا ينسجم مع جملة: «تَحْسَبُها جَامِدَةً» على الاطلاق.

إضافة إلى أنّه لا يبقى مجال لأفعال الخير والشر فى تلك اللحظات الحرجة، حتى يتأتى القول بأنّ اللّه تعالى مطلع على الأفعال التى نقوم بها.

والقول بأنّ الآيات التى تسبق الآية المتقدمة أو ما بعدها ترتبط بالقيامة لا يمكن اعتباره دليلًا قطعياً على أنّ مفهوم هذه الآية يرتبط بالقيامة، لأنّ هذا ليس أحد المصاديق النادرة فى القرآن، فَرُبَّ آية تتحدث فى مسألة معينة وتتحدث التى قبلها أو بعدها عن مسألة اخرى وبعبارة اخرى فالإطلاع على محتوى الآية نفسها والقرائن الموجودة فيها أهم وأفضل من الملاحظات الاخرى

وهذه النكتة تستحق الاهتمام أيضاً وهى أنّ التشبيه بحركة السحب بالإضافة إلى أنّه إشارة إلى السرعة الفائقة لها، يعتبر جواباً قاطعاً عن هذا السؤال، وهو إذا كانت الأرض متحركة فلماذا لا نشعر بها؟ فيأتى الجواب إنّها تتحرك ببطءٍ ومرونة وهدوءٍ بحيث لا يمكن تشخيص ذلك، كما لو صعد أحد على السحاب مثلًا، فانّه لم يكن يشخص حركتها أيضاً.

وممّا يدعو إلى الاهتمام هذه النكتة أيضاً وهى أنّ القرآن يقول: «الَمْ نَجْعَلِ الارْضَ

كِفَاتَاً* احْيَاءً وَامْوَاتَاً». (المرسلات/ ۲۵- ۲۶)

ونشاهد فى قواميس اللغة التى من جملتها «المفردات» للراغب وكتاب «العين» أنّه قد ذكر معنيان للفظة «كِفات» المأخوذة من مادة «كَفْت» وهما الجمع والطيران السريع، فاذا كان المعنى الأول هو المقصود، يكون مفهوم الآية على أن جعلنا الأرض محطاً لاجتماع بنى البشر فى حياتهم، وما تحت الأرض مقراً لاجتماعهم بعد مماتهم، وإذا كان المقصود المعنى الثانى، يكون مفهومها الطيران السريع للأرض. وهذا يتناسب مع الحركة الانتقالية للأرض حول الشمس التى تسير دائريّاً بسرعة فائقة- تقدر ب (۲۰) كيلو متر فى كل ثانية و (۱۲۰۰) كيلو متر فى كل دقيقة- ثم إنّها تحمل الأموات والأحياء معها وتدور بهم حول الشمس.

ولعل السبب فى اطلاق لفظة «كَفْت» على الطيران السريع، هو أنّ الطيور عندما تريد أن تطير بسرعة فائقة فى السماء تجمع أجنحتها بصورة كاملة وبشكل متناوب وتسبح فى الفضاء، لكن نظراً لكون لفظة «كَفْت وكِفات» تحتمل معنين، لم نذكر هذه الآية بعنوان أحد الأدلة القطعية على مسألة دوران الأرض.

۴- القرآن وحركة المنظومة الشمسية

يقول القرآن الكريم: «وَالْشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ* لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا انْ تُدْرِكَ القَمَرَ وَلَا اللَيلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ».

(يس/ ۳۸- ۴۰)

كما تقدمت الإشارة إليه من قبل أنّ النظرية التى تحدثت فى صدد السماء والأرض وسيطرت على المحافل العلمية فى عصر نزول القرآن والقرون السابقة واللاحقة عليه، هى نظرية الهيئة ل «بطليموس» الذى كان يعتبر الأرض مركز العالم، ويعتقد أنّ النجوم

والشمس مندكّة فى قلب الأفلاك البلورية، ويتصور أنّ الأفلاك تدور حول أطراف الأرض.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۱۴

ويذكر القرآن فى الآيات أعلاه مطلباً يتنافى مع هذا الكلام بصورة كاملة، فهو يقول:

أولًا: إنّ الشمس تتحرك باتجاه احدى المقرات (أو إنّ الشمس تتحرك فى قرارها المختص بها)، لا أنّ الشمس مع فلكها البلورى تدور حول الأرض.

ثانياً: إنّ كلّاً من الشمس والقمر يسبح فى فلكه الخاص به.

وبعد إنهيار دعائم فرضية «بطليموس» على أثر اكتشافات القرون الأخيرة، وتحرُّر الأجرام السماوية من قيود الأفلاك الخارجية، استحكمت هذه النظرية التى ترى أنّ الشمس ساكنة وثابتة فى مركز المنظومة الشمسية، وتدور حولها المنظومة الشمسية بأكملها.

وفى هذا المضمار أيضاً لم تكن هناك معلومات عن حركة الشمس باتجاه قرارها الخاص أو فى دائرة نفسها.

وهكذا تطور العلم أكثر فأثبت من خلال مشاهداته النجومية بالاستفادة من المراصد الفلكية القوية جدّاً أنّ للشمس حركتين على أقل تقدير: الحركة الموضعية حول نفسها، والحركة الانتقالية بصحبة المنظومة الشمسية بأكلمها باتجاه نقطة معينة من السماء، او بتعبير آخر باتجاه نجم «ويكا» وهو يعتبر من نجوم الصورة الفلكية التى تسمى «الجاثى على ركبتيه» «۱».

جاء فى إحدى دوائر المعارف: أنّ للشمس- بالإضافة إلى الحركات الظاهرية- حركة واقعية، «الحركة الدورية للمجرات تسير بالشمس وتدور بها فى الفضاء بسرعة مليون ومائة وثلاثين ألف كيلو متر فى الساعة تقريباً، وكذلك ليست الشمس ثابتة فى داخل المجرات، بل تتحرك باتجاه الصورة الفلكية التى تدعى «بالجاثى» بسرعة تناهز (۷۲) ألف كيلو متر فى الساعة، والسبب فى عدم اطلاعنا على الحركة السريعة للشمس فى الفضاء هو الدورة الفلكية للأجرام السماوية».

---

(۱) تطلق الصورة الفلكية «الجاثى على ركبتيه» على النجوم التى تكون بمجموعها على هيئة شخص جاثٍ على ركبتيه يريد القيام، ونجم «ويكا» يعد من هذه المجموعة التى تدور حولها المنظومة الشمسية بما فيها الشمس.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۱۵

ثم تضيف على ذلك بالقول: إنّ للشمس فى دورانها حول نفسها حركة دورية موضعية أيضاً (الدورة الموضعية لحركة الشمس فى استوائها تستغرق (۲۵) ليلة تقريباً «۱».

إذن ممّا لا يقبل الشك أنّ الآية: «كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» لا تتلاءم مع نظرية الأفلاك البلورية ل (بطليموس) التى أثبتت كل واحدة من الكرات فى موضعها الخاص، وتنسجم تماماً مع اكتشافات العلم الحديث، علاوة على أنّ الحركة باتجاه «المستقر» إشارة اخرى إلى حركة الشمس باتّجاه أحد جوانب المجرات أيضاً، وفى الواقع فإنّ بيان هذا الموضوع يُعدُّ معجزةً.

۵- القرآن واتساع العالم

نقرأ فى قوله تعالى «وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِايْيْدٍ وَانَّا لَمُوسِعُونَ». (الذاريات/ ۴۷)

«أيدٍ»: (على وزن صيدٍ) معناه القدرة والقوة، كما جاء هذا المعنى فى آيات اخرى من القرآن أيضاً، وذكر بعض المفسرين إضافة إلى ما قلناه معنى (النعمة) ل «أيد» أيضاً، فى حين أن «يَدْ» تأتى بمعنى «النعمة» فى بعض الأحيان والتى يكون جمعها «أيدى» وجمع جمعها «أيادى».

وعلى أيّة حال، تدل جملة «انّا لَمُوْسِعُون» بوضوح على أنّ اللّه تعالى الذى خلق السموات بقدرته التامة يضفى عليها عامل الاتساع والاستيعاب بصورة مستمرة، وبناء على عدم وضوح هذا المطلب بالنسبة للعلماء والمفسرين سابقاً، فقد فسَّر الكثير منهم هذه الجملة

بأنّها تعطى معنى سعة رزق اللَّه تعالى على عباده من خلال نزول المطر، أو من خلال طرق مختلفة. وفسَّرها بعض أنّها تعطى معنى الغنى والكفاف، وبأنّ اللَّه تعالى كلما أجزل نعمة وأعطى لا تنقضى خزائنه أبداً. بيدَ أنّنا لو ألقينا نظرة على ما أثبتته المشاهدة النجومية بواسطة المراصد الفضائية نلاحظ أنّ المجرات تبتعد إحداها عن الاخرى بسرعة، وأنّ

---

(۱) قاموس دهخدا، ج ۲۲، مادة (الشمس) «باللغة الفارسية».

العالم فى حالة اتساع مطَّرد، ولكى يتّضح مفهوم هذه الجملة فى أذهاننا بصورة كاملة، نقرأ فى كتاب «بداية ونهاية العالم» لمؤلفه «جان ألدر»:

«لقد كشفت أحدث وأدق الحسابات على طول مسيرة الأمواج التى تنبعث من النجوم، الستار عن إحدى الحقائق العجيبة والمدهشة، حيث بيّنت أنّ مجموعة النجوم التى تشكل هيئة العالم تبتعد بسرعة فائقة عن مركز العالم بصورة مستمرة، وكلما اتسعت الفاصلة بينها وبين مركز العالم كلما زاد ذلك من سرعة سيرها، ويبدو أنّ النجوم بأكملها كانت مجتمعة فى هذا المركز فى يوم من الأيّام ثم تشتت شملها بعد ذلك، وانفصلت عنها مجموعة من النجوم الكبيرة لتشق طريقها فى مسالك الفضاء المختلفة، علاوة على أنّ العلماء استفادوا من هذا الموضوع على أنّ للعالم نقطة شروع فى بداية الأمر» «۱».

ونقل فى نفس الكتاب عن «جورج كاموف» قوله فى كتاب «خلق العالم»:

«إنّ فضاء العالم المتكون من مليارات المجرّات، فى حالة اتساع مطَّرد، وفى الحقيقة أنّ عالمنا ليس فى حالة سكون وإنّما فى حالة انبساط، والتوصل إلى الحقيقة القائلة بأنّ هذا العالم هو فى حالة انبساط وتوسع، هو المفتاح الذهبى للتعرف على لغز هذا العالم، قولنا: إنّ العالم فى حالة انبساط حالياً، يستلزم منه أنّ العالم كان فى حالة انقباض شديد جدّاً فى يوم من الأيّام» «۲».

ونقرأ فى كتاب «حدود النجوم» لمؤلفه «فورد هويل» حول سرعة الانبساط واتساع العالم مايلى:

«تصل أقوى درجات السرعة لتقهقر الكرات التى خضعت للقياس إلى وقتنا هذا إلى حدود ستة وستون ألف كيلو متر فى الثانية، إنّ نور المجرات الأبعد يبدو ضعيفاً بنظرنا إلى درجة بحيث يتعسر علينا قياس سرعتها، نظراً لعدم وجود النور الكافى، لقد بيّنت الصور التى التقطت من السماء بوضوح أنّ فاصلة هذه المجرّات ابعد بكثير من فاصلة المجرّات القريبة» «۳».

---

(۱) بداية ونهاية العالم، ص ۷۴- ۷۷ (باختصار).

(۲) المصدر السابق.

(۳) حدود النجوم، ترجمة رضا أقصى ص ۳۳۸، عن النسخة الفارسية.

وعلى هذا الأساس نقف على تفسير واضح جدّاً فى صدد الآية السابقة واتساع السموات، والتى تكشف الستار عن السر وراء أحد المعجزات العلمية للقرآن.

وممّا يستحق الاهتمام أيضاً أنّ عبارة: «إنّا لَمُوْسِعُونَ» والتى استعمل فيها اسم الفاعل والجملة الإسمية للدلالة على حالة الاستمرار والديمومة، وعلى تداوم حالة التوسع والانبساط.

۶- القرآن ووجود الحياة فى المجرات الاخرى

جاء فى قوله تعالى «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّموَاتِ وَالارْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ اذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ». (الشورى ۲۹)

يـا ترى هـل العيش والحيـاة مختص بـالكرة الأرضـية، والكرات الاخرى ليست مسـكونة اطلاقاً؟ لقـد كان العلماء الأوائل يتابعون هـذه المسألة دائماً بشيء من التردّد أو الحكم المنفي، بيدَ أنّ التحقيقات الأخيرة للعلماء أثبتت لنا أنّ الحياة لا تختص بالكرة الأرضية.

ونقرأ في كتاب «الحياة في العالم» من منشورات مجلة «لايف» ما يلي:

«من الممكن حسب احصاءات العلماء أن تتواجد في مجرتنا ملايين النجوم التي تكون سياراتها التابعة لها آهلة بالسكان».

وذهب البعض إلى أكثر من ذلك حيث اعتقـدوا بوجود موجودات حيـة في بعض الكرات السـماوية تفوق حالـة التطور لـدى الإنسان بكثير، فالإرسالات الراديويـة التي يبثونهـا في الفضـاء ولاـ نسـتطيع الإتيـان بمثلها، قابلـة للاطلاع عليها بصورة كاملـة من خلال أجهزة الاستقبال التي بحوزتنا، وإن كنّا لا نفهم لغتهم ولا نعي مغزاها.

وعلى أيّة حال فتصـريح الآية المتقدمة بالقول: إنّ اللّه تعالى بث الموجودات الحية في السـموات والأرض، يخبر عن حياة الموجودات الاخرى بشكل واضح، ومن الاشتباه بمكان أن نتصور أنّ المقصود من الموجودات الحية في السماء هي (الملائكة)، وذلك لكون

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۱۸

كلمة «دابة» تطلق على الموجودات الجسمانية فحسب ولا تطلق على الملائكة.

ولهـذا ففي الموضع الـذي يريد القرآن الكريم أن يذكر الملائكة يتحدث عنها بصورة مسـتقلة بعد ذكر كلمة «الدابة»، كما نقرأ ذلك في قوله تعالى «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمواتِ وَمَا فِي الارْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لَايَسْتَكْبِرُونَ». (النحل/ ۴۹)

بحيث نجد أنّ «الملائكة» جعلت في قبال «الدابة»، وهذا يدل على عدم شمول كلمة الدابّة للملائكة في الآية التي جاء ذكرها في بحثنا هذا.

ومن الظريف ما يقوله «الفخر الرازي» في تفسير الآية الواردة في بحثنا هذا بأنّه: «لا يستبعد أن يقال إنّ اللّه خلق في السموات أنواعاً من الموجودات الحية تمشي كما يمشي الإنسان على وجه الأرض» «۱».

ونقرأ في حـديث ظريف عن الإمام علي عليه السـلام ما يلي: «هذه النجوم التي في السـماء مدائن مثل المدائن التي في الأرض مربوطة كل مدينة إلى عمودٍ من نور» «۲».

ووردت في بعض المصادر الإسلامية روايات اخرى في هذا المجال «۳».

ومن المعلوم أنّ هذه المعلومات اسـتقيت من نفس المصدر الذي استقاه القرآن الكريم، وإلّا لم يطلع أحد على هذه المسائل في ذلك العصر.

۷- القرآن وخلق الجبال

وردت في القرآن الكريم عبـارات مختلفـة وغنيـة في معانيها في مجال خلق الجبال، يقول تعالى في أحـد المواضع: «وَالْقَى فِي الارْضِ رَوَاسِيَ انْ تَمِيدَ بِكُمْ وَانْهَاراً وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ». (النحل/ ۱۵)

وفي موضع آخر يقول تعالى «الَمْ نَجْعَلِ الارْضَ مِهَادَاً* وَالْجِبالَ اوْتَادَاً». (النبأ/ ۶- ۷)

ونقرأ في آية اخرى قوله عزّ وجلّ: «وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَاسْقَيْنَاكُمْ مَّاءً فُرَاتاً». (المرسلات/ ۲۷)

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۲۷، ص ۱۷۱.

(۲) سفينة البحار، ج ۲، ص ۵۷۴، مادة (النجم).

(۳) لمزيد من الاطلاع راجع كتاب «الهيئة والإسلام».

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۱۹

ويقول تعالى أيضاً: «وَالْقَى فِى الارْضِ رَواسِىَ انْ تَمِيدَ بِكَمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ». (لقمان/ ١٠)

وهناك آيات اخرى بهذا المضمون أو قريبة منها فى القرآن الكريم أيضاً.

الأمر الذى نواجهه لأول وهلة فى هذه الآيات، هو تأثير وجود الجبال فى الحفاظ على استقرار الأرض، والتى عبر عنها تارة ب «الأوْتاد» والتى تستخدم عادة فى اقفال أقسام مختلفة من الأبواب والصناديق والسفن وما شابه ذلك، أو صيانة المخيمات وتقويتها فى مقابل هبوب الرياح.

وتارة اخرى عبر عنها ب «أنْ تَميدَ بِكُم» المأخوذة من مادة «مَيْدان» بمعنى الاهتزاز والاضطراب، ومعنى ذلك أنّ الجبال تَحُدُّ دون اضطراب الأرض واهتزازها. ولم يطلع أحد على هذا المطلب فى ذلك العصر، ونحن فى هذا الوقت نعلم جيداً مدى دور الجبال على هذا الصعيد، وذلك للنقاط التالية:

أولًا: إنّ الجبال فى واقع الأمر هى فى قوة أحد الدروع الفولاذية التى تحيط بالأرض من كل جوانبها، ونظراً لقوة ارتباطها واتصالها باعماق الأرض تشكل بدورها أحد الشبكات القوية الشاملة، وإذا لم يكن كذلك وكانت الرمال الناعمة تغطى صعيد الأرض، لوقعت تحت تأثير الجاذبية القوية للقمر بكل سهولة، ولهزَّ الجزر والمدُّ كل شىء على اليابسة نظير المد والجزر فى البحار، واستولى الاضطراب والاهتزاز والحركة على وجه الأرض فى الليل والنهار، ولتعرض لإمكان الانهدام والسقوط كل مبنى من المبانى.

بيدَ أنّ وجود هذا الحصن المنيع فى الأرض ينزل بالمد والجزر إلى أدنى مستوى وحالياً تأخذ القشرة السميكة للأرض بالارتفاع والانخفاض بمقدار ثلاثين سانتيمتراً فى كل يوم وليلة أيضاً، وهذا بعكس البحار التى ترتفع وتنخفض على أثر الجزر والمد امتاراً متعددة أحياناً.

وتوجِد جاذبية الشمس المد والجزر أيضاً وإن كان ضعيفاً، ولو وقع مسير الشمس والقمر فى خط واحد واتصلت الجاذبيتان فى جانب واحد، لاشتدت قوة هذه الحركات

نفحات القرآن، ج٨، ص: ١٢٠

وتضاعفت قوتها، إلّاأنّ القرآن يذهب بالقول إلى أنّ الجبال التى هى أوتاد الأرض تصونها من الاهتزاز.

ثانياً: إنّ الضغط الداخلى للأرض بواسطة حرارتها المركزية الهائلة يؤثر على قشرة الأرض بصورة دائمة، ولولا وجود الجبال لأصبح مصدراً من مصادر الاضطراب المستمر للأرض.

والآن تدبّروا لو اشتد الاضطراب الناجم عن المد والجزر والضغط الداخلى على أثر مرونة قشرة الأرض وطراوتها، فهل سننعم بالهدوء والاستقرار الذى نعيشه الآن على الكرة الأرضية؟ وهل سنجد بيتاً وملجأً ومأوىً نلجأ إليه؟

ثالثاً: لقد ثبت فى وقتنا الحاضر أنّ الجبال بأعمدتها القوية تحرك معها الهواء الحاصل فى أطراف الأرض، والآن لو فرضنا أنّ الأرض تتحرك فى دورانها حول نفسها بسرعتها الذاتية المعهودة- أى ما يقارب الثلاثين كيلو متر فى الدقيقة-، فلو لم تكن الجبال، لما تحقق مثل هذا الدوران للهواء الموجود فى أطرافها، ولثارت ثائرة العواصف والأعاصير والرياح الشديدة على أثر اصطدام جزيئات الهواء بوجه الأرض، فضلًا عما يولِّد ذلك من حرارة هائلة تحرق الأخضر واليابس. كما أنّ الطائرات السريعة لو سارت فى الطبقات السفلى للجو لارتفعت درجة حرارة أجنحتها بحيث قد يؤدّى ذلك إلى عواقب وخيمة، لهذا تضطر إلى الصعود فى الطبقات العليا للجو لتتحرك فى وسط الهواء الرقيق جدّاً حتى يقل احتكاكها بالهواء الذى هو المنشأ لإيجاد الحرارة.

أجل، لقد أزالت منخفضات ومرتفعات وجبال الأرض هذه الازمة وحرَّكت الطبقة السميكة للجو مضافاً إلى حركة الأرض، تماماً كدوران أسنان الدواليب ذات المقود التى تدور مع دورانها بقية الأشياء الاخرى

فبناءً على ذلك، تعتبر الجبال وسيلة من وسائل استقرار الأرض واستقرار ساكنيها سواء فى مقابل جاذبية القمر والشمس، أو فى مقابل الضغط الداخلى، أو فى مقابل العواصف الشديدة والمستمرة، أو فى مقابل تولد الحرارة الشاقة.

من جهة اخرى تقدمت الإشارة فى الآيات السابقة إلى وجود العلاقة بين الجبال وبين

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۲۱

نزول المطر وارتواء الأراضى والحصول على الماء الفرات وهو «الماء العذب»، يقول عزّ من قائل: «وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَاسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُراتاً».

ممّا لا يقبل الشك هو أنّ العلاقة بين الاثنين- الماء والجبال- لم تكن معروفة فى السابق، إلّاأنّنا نعلم فى الوقت الحالى:

أولًا: أنّ الجبال هى سبب من اسباب تجمع بخار الماء، أى تراكم السحب.

وثانياً: أنّها سبب من أسباب برودة طبقة الهواء المجاور لها.

وثالثاً: أنّها تحتفظ بالقسم الأكبر من الأمطار على شكل ثلج، كما أنّها مصدر من مصادر الطاقة المستمرة لجريان المياه على سطح الأرض، ومن ثم صيانة المياه من الهدر والضياع.

بالإضافة إلى أنّ الامتداد الواسع للجبال، وقشرتها المتعرجة تقلب أمواج الماء وتعرضها للهواء النقى، فيصفو الماء ويتحول إلى «ماء فرات» وهو (الماء العذب).

وبغض النظر عن كل ذلك، فإنّ النكتة الظريفة الاخرى التى استأثرت باهتمام بعض العلماء فى صدد جبال الأرض، هى أنّ الجبال فى مقابل تغيرات الضغط الأرضى فى قوّة «الدولاب الثابت» الذى يحول دون تبدل السرعة.

توضيح ذلك: أنّ المقصود من «الدولاب الثابت» هو نفس الشىء الموجود فى جميع الوسائل التى لها حركة دورية مشابهة، وذلك فى صورة دولاب ثقيل يدعى بالدولاب الطيار أو الدولاب الثابت، ينصب فى محورها حتى ينظم سرعتها، وعلى سبيل المثال لو ورد ضغط من الخارج على هذه الوسيلة ذات الحركة الدورية ثم انقطع الضغط فجأة لقفزت إلى الأمام ووجهت صدمة إلى ذلك الجهاز، أمّا إذا نصب الدولاب الثابت عليها لاحتفظت بهذا الضغط فى داخلها، ثم تدفعه بالتدريج بدون أن تتوجه أى صدمة إلى ذلك الجهاز (تأمل جيداً).

هذا من جهة، ومن جهة اخرى بإمكان العواصف الهائجة التى تهب أحياناً فى الجهة المخالفة أو الموافقة لحركة الأرض أن تؤثر على حركتها ...، وحينما تهدأ فورة العاصفة تتحول الأرض إلى حالة من الاندفاع العشوائى الذى يوجه ضربة قاصمة إلى جميع

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۲۲

الموجودات الأرضية، بحيث يولد الاضطراب فى كل شىء.

إلّا أنّ لوجود الجبال التى هى بمثابة «الدولاب الثابت» دور فى الاحتفاظ بكل هذه الضغوط المثبتة فيها والمنفية فتحدُّ دون حدوث الصدمات، وتحافظ على الحركة المتوازنة للأرض، وعلى حد تعبير القرآن تقف مانعاً دون حدوث الاهتزازات وزعزعة الاستقرار.

ولو كان البحث فى زمن هذه الآيات قائماً على قدم وساق فى مجال مباحث «الدولاب الثابت» وآثاره فى ذلك العصر، لما كانت التعبيرات فى هذه الآيات مدهشة ومثيرة، ولكن نظراً إلى عدم وجود مثل هذه المسائل فى ذلك الزمن على الاطلاق، خصوصاً أنّه لم يكن للفيزياء معنى فى محيط الجزيرة العربية، فضلًا عن هذه المسائل المعقدة، فلابدّ من الاعتراف بأنّ بيان مثل هذه الآيات تعبير عن احدى المعاجز العلمية الكبرى «۱».

والنكتة الاخرى هى أنّ القرآن الكريم عندما يتحدث عن تكوين الجبال يقول: «وَالْقَى فِى الارْضِ رَوَاسِيَ». ويقول فى مكان آخر: «أَمَّن جَعَلَ الارْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالِهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ». (النمل/ ۶۱)

هذه التعابير ونظائرها التى تكررت فى القرآن تبين بوضوح أنّ الجبال خلقت بعد خلق الأرض، وقد أثبت العلم الحديث هذا المعنى بوضوح أيضاً، وذهب إلى القول بأنّ الكثير من الجبال حدث على أثر إلتواء الأرض، والبعض حدث على أثر المواد الذائبة المحرقة، والبعض الآخر حدث بسبب تنقية المواد الرخوة من اطراف المواد الصلبة للأرض الذى يحصل على أثر نزول المطر، وكل ذلك تحقق

بعد خلق الأرض وايجادها .. وممّا لا ريب فيه أنّ هذه المسائل لم تكن معروفة حين نزول هذه الآيات من القرآن.

۸- عنصر الزوجية بين النباتات فى القرآن

وردت الإشارة إلى عنصر الزوجية فى عالم النباتات فى آيات خمس من القرآن

---

(۱) ما تقدم أعلاه موجز من مقال محقق تحت عنوان «أثر الجبال فى استقرار الأرض» (مسألة الدولاب الثابت) فى المجلة الدينية والعلمية المدرسة الإسلامية العدد ۸، السنة ۱۳ (ص ۶۸- ۷۳ باللغة الفارسية)، ولمزيد من الاطلاع حول هذا الموضوع والوقوف على جزئياته راجع المقال المذكور.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۲۳

الكريم، فنقرأ فى قوله تعالى «وَانْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَانْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ». «۱»

(لقمان/ ۱۰)

و قوله تعالى «وَتَرى الارْضَ هَامِدَةً فَاذا انْزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَانْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ» «۲». (الحج/ ۵)

ونقرأ أيضاً فى قوله تعالى «وَانْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاخْرَجْنَا بِهِ ازْوَاجاً مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى .

(طه/ ۵۳)

عندما وصل أغلب المفسرين الاوائل إلى هذه الآيات فسروا «زوج» بمعنى «النوع» «الصنف»، و «الأزواج» بمعنى «الأنواع» و «الأزواج» المختلفة للنباتات، لأنّ حقيقة الزوجية فى حقل النباتات بمعناها المعروف لم يكن معروفاً فى ذلك الزمان.

إنّ الناس فى سالف الزمان وإن كانوا يعلمون نوعاً ما عن أنّ بعض أنواع النباتات يتكون من جنسين، الذكر والانثى وأنّهم كانوا يستخدمون عملية التلقيح من أجل تكثيرها (خصوصاً شجرة النخل التى يُعلم بوجود الذكر والانثى فيها منذ قديم الزمان، وأنّهم كانوا يحرصون على إنمائها عن طريق التلقيح)، لكن أحد العلماء المعروفين فى حقل النباتات من السويد يدعى «لينه» كشف عن هذه المسألة لأول مرّة فى أواسط القرن الثامن عشر للميلاد وهى أنّ عنصر الزوجية (بين الذكر والانثى فى عالم النباتات تعتبر من احدى المسائل العامة، والمتفق عليها، وأنّ النباتات كأغلب الحيوانات إنّما تتكاثر وتنمو من خلال الامتزاج بين نطفة الذكر والانثى ومن ثم تعطى الثمار.

إلّا أنّ القرآن الكريم- كما رأينا- قد كشف النقاب عن هذة الحقيقة قبل هذا العالم بإثنى عشر قرناً، وأشار إلى عنصر الزوجية فى عالم النباتات فى موارد متعددة، إلّاأنّه نظراً لعدم امتلاك هؤلاء للجرأة فى التصريح بهذه الحقيقة، عمدوا إلى تفسير الزوجية بمعنى آخر على خلاف ظاهرها.

---

(۱) وورد نفس المضمون فى كل من الآية (۷) من سورة الشعراء والآية (۷) من سورة (ق).

(۲) ورد نفس هذا المضمون فى الآية ۷ من سورة الشعراء و الآية ۷ من سورة ق.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۲۴

ومن الظريف أنّ النباتات مختلفة من هذه الجهة، ففى كثير منها يجتمع الذكر والانثى فيها فى أصل واحد، وفى البعض الآخر تنفصل أشجار الذكر عن أشجار الانثى

خذوا وردة من الورود ثم افصلوا أوراقها عنها، وتأملوا بدقة فى داخلها تجدون عالماً مليئاً بالعجائب والأسرار. وفى الواقع ينعقد هناك محفل كبير، بيدَ أنّه لا صخب فيه، ويخلو من أى لون من ألوان العنف والاعتداء، حيث أنّ المياسم الظريفة واللطيفة التى تحمل معها

أكياس حبوب اللقاح تحيط بما حولها ثم تتحرك مع هبوب الرياح، لتنثر تلك الحبوب على المدقة. إنّ الحبات المذكرة التى تمثل كل واحدة منها خلية صغيرة جدّاً، تتجذر بسرعة وبعد العبور من على عنق المدقة تمتزج مع نطفة الانثى فى المبيض فى أصل الورد لتشكل بدورها بذرة الورد أو الفاكهة.

وكأنّ الأوراق الزاهية للورد بمنزلة احدى معالم الزينة لهذا المحفل الغرامى العجيب أو الاستار الموضوعة على الحجرة المزينة للعروسين، ثم تُدعى الحشرات والفراشات الجميلة والنحل إلى هذا المحفل البهيج أيضاً.

ويتناول كل منهم الحلوى المخصوصة والمعدّة له من قبل رحيق الأزهار ويبعثون لنا حصةً منها، وما نشاهده من العسل فى الأسواق، هو نصيبنا من ذلك المحفل.

وعلى أيّة حال استناداً إلى تصريح القرآن فى آيات مختلفة على شمولية عنصر الزوجية للنباتات، وبالرغم من بعض الاستثناءات القليلة الواهية الموجودة فى كل قانون كلى، يكون قد رفع الستار عن هذا السر المهم الذى خفى عن أنظار العلماء فى ذلك العصر والقرون التى تلته وهذه بحد ذاتها من المعاجز العلمية البديعة.

٩- القرآن والزوجية العامة

نقرأ فى قوله عزّ من قائل: «وَمِن كُلِّ شَيءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ».

(الذاريات/ ۴۹)

ويقول تعالى «سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الازْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الارضُ وَمِن انفُسِهِم وَمِمَّا لَا

يَعْلَمُونَ». (يس/ ۳۶)

فهذه الآية تبين- بوضوح أكثر- شمولية عنصر الزوجية للنباتات والبشر والأشياء الخارجة عن حدود العلم البشرى، ونظراً لأنّ كثيراً من المفسرين لم يجدوا هنا مفهوماً للزوجية بالمعنى الحقيقى (أى عنصرى الذكر والانثى ، فقد عمدوا إلى تفسيرها بالأصناف المختلفة للموجودات فى العالم التى تبدو على شكل زوج زوج مثل: النهار والليل، النور والظلمة، البحر والبر، الشمس والقمر وغيرها.

لكننا نجد تفسيراً أدق لهاتين الآيتين فى وقتنا الحاضر، حيث إنّ التحقيقات العلمية أثبتت هذه الحقيقة بوضوح وهى أنّ جميع الموجودات لعالم المادة تتشكل من أجزاء صغيرة جدّاً تدعى بالذرة، وهذه الأجزاء التى عرفت قديماً بالموجود الذى لا يتجزء (أجزاء لا تتجزأ) وسمى ب «الذرة» لهذا السبب قد تحطم على أثر تطور القدرة العلمية والفكرية للإنسان، ومن هذا المنطلق نشأت القوة الذرية والصناعات المتعلقة بها.

وعندما حلّلوا الذرة وجدوا أنّها مركبة من أجزاء متكونة غالباً من الألكترونات (الجزئيات التى تغلف النواة، وتحمل شحنة سالبة)، البروتونات (الجزئيات التى تحمل شحنة موجبة).

وعلى هذا الأساس نستنتج من ذلك معنى أدق للزوجية فى كل ذرات عالم الوجود وهو توفر عنصرى (الذكر) و (الانثى ، (الموجب) و (السالب)، (الفاعل) و (القابل) وبدون أى استثناء أيضاً، فى حين أنّ التفسير الذى قال به العلماء الأوائل بالرغم من عدم انسجامه الكامل مع مفهوم الزوجية، فإنّ فيه استثناءات كثيرة أيضاً.

وعلى أى حال، توجد هناك جاذبية قوية بين الزوجين الحقيقيين، وكذلك بين جسمين بشحنتين كهربائيتين مختلفتين سالبة وموجبة، وهى كثيراً ما تشابه الجاذبية الجنسية، فى حين لا يوجد أى نوع من أنواع الجاذبية بين الليل والنهار، النور والظلمة، البحر والبر، وما شابه ذلك.

ومن الجدير بالذكر ماصرح به بعض المفسرين القدامى من خلال ما استلهموه من

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۲۶

الآيات السالفة، بأنّ المقصود من الزوجين فى هذه الآيات هو عنصرى الذكر والانثى نفسيهما، وإن لم يوضحوا هذا المطلب بصورة كاملة «۱».

۱۰- القرآن يكشف النقاب عن مسألة مراحل تطور الجنين

وردت ضمن الآياتالقرآنية المرتبطة بعلائم التوحيد ودلائل المعاد إشارات غزيرة المعانى إلى مسألة خلق الإنسان من النطفة ومن ثمّ مراحل تطور الجنين. والتى يمكن عدّ بعض منها فى قائمة المعجزات العلمية للقرآن.

من جملتها ما نقرأه فى الآية الثانية من سورة الإنسان: «انَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُّطفَةٍ أَمشَاجٍ نَّبتَلِيهِ فَجَعَلنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً».

«النطفة»: فى اللغة بمعنى الماء الصافى أو الماء القليل «۲». (الامشاج) جمع مشج (على وزن نسج أو على وزن سَبب). أو جمع مشيج بمعنى الشيء المختلط. وقد ابدى المفسرون احتمالات متعددة فى صدد الجواب عن ما هو الشيء الذى تختلط به النطفة.

فتارة تصوروا أنّ ذلك إشارة إلى تركيب نطفة الإنسان من «الحيامن» و «البويضة»، وتارة أنّه إشارة إلى كونها مركبة من الاستعدادات المختلفة من الناحية الجسمية أو الروحية (القبح والحسن، الذكاء والغباء و ...). واخرى إلى أنّه إشارة إلى أنّ نطفة الإنسان مركبة من مواد مختلفة من المعادن ونحوها.

بطبيعة الحال أنّ ذلك كله حسن، ولعله كان من أفضل التفاسير فى عصره، إلّاأنّه لا ينطبق بدقة على معنى الآية. ذلك أنّ لفظة الأمشاج جمع، واطلاقها على شيئين أى (البويضة والحيمن) خلاف الظاهر، هذا أولًا، وثانياً: أنّ وجود الاستعدادات المختلفة فى

---

(۱) جاء فىتفسير مجمع البيان، ج ۹، ص ۱۶۰، عن أحد المفسرين القدماء ويدعى «ابن زيد» أنّه قال فى تفسير الآية «ومن كل شيء خلقنا زوجين ...» الزوجين الذكر والانثى. كما ورد هذا المعنى نفسه عن قتادة فى تفسير الآية «سبحان الذى خلق الأزواج كلها». (تفسير القرطبى، ج ۸ ص ۵۴۷۰).

(۲) تمت الإشارة إلى المعنى الأول فى معجم مقاييس اللغة والمفردات، والى المعنى الثانى فى لسان العرب.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۲۷

الأشخاص بشكل مستقل لا يتلاءم مع معنى الأمشاج، وكذلك ليس من المناسب القول بتركيب النطفة من أنواع المعادن واشباهها، لأنّ هذا الأمر لا ينحصر فى النطفة فقط، وإنّما تتركب من هذه المواد كل الموجودات العالية نظير الإنسان والنبات وألوان الاطعمة، اضافة إلى أنّ كلمة النطفة فى آيات متعددة من القرآن جاء فى خصوص نطفة الرجل.

فمثلًا نقرأ فى قوله تعالى «الَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّنْ مَّنىٍّ يُمْنَى ؟ (القيامة/ ۳۷)

لكن مع تطور العلم واتساع نطاق تحقيقات العلماءثبت اليوم أنَّ القطرات القليلة للمنى والتى تدعىب (النطفة) مركبة من مياه متعددة تفرزها الغدد المختلفة للجسم، وبشكل رئيسى فهناك خمس غدد تتظافر فيما بينها لكى تصنع المنى من ترشحاتها، وهى عبارة عن: غدتان تقعان فى أكياس قريبة من غدة البروستات وتدعى ب (البيضة).

والاخرى هى غدة البروستات نفسها، وكذلك غدتا «الكوبر» و «الليترة» اللتان تقعان بالقرب من المجارى البولية هذا ما أثبته العالم الفرنسى الدكتور (بوكارى) «۱».

وتختلط هذه المياه الخمسة مع بعضها بنسب دقيقة وموزونة لتشكل مادة الحياة (النطفة).

ويعتقد هذا العالم الفرنسى أنَّ التعبير ب (الأمشاج) الوارد فى القرآن هو إشارة إلى تلك النكتة الدقيقة التى خفيت عن أنظار علماء ذلك العصر.

وممّا يسترعى الانتباه هو قوله تعالى فى ذيل الآية السابقة: «فَجَعلْناهُ سَميعاً بَصيراً»، بمعنى أنّ نعمة السمع قد تقدمت على نعمة البصر، لاحتمال أن يكون السبب فى ذلك كما ذهب إليه العلماء هو أنَّ الحس الأول الذى يبدأ بالعمل لدى الرضيع هو السمع، فهو يستعد لالتقاط الأصوات فى الأيّام الاولى من حياته. بل إنّ له قبل ذلك نشاطاً محدوداً فى العالم الجنينى أيضاً.

---

(١) مقتبس من كتاب (مقارنة بين التوراة والانجيل والقرآن والعلم) تأليف الدكتور «بوكارى» ترجمة المهندس «ذبيح اللَّه دبير» باللغة الفارسية- ص ٢٧١. الملفت للنظر أنّ هذا الدكتور الفرنسى يميل كثيراً إلى القرآن حينما يصمم على مقارنة هذه الكتب فيما بينها، وحيث إنّ ترجمات القرآن المتداولة لا تشفى غليله، نراه يستفيد من الادب العربى ويحيط به احاطة تامة ليتمكن من الحصول على مايحتاجه من القرآن مباشرة دون حاجة للرجوع إلى ترجماته.

نفحات القرآن، ج٨، ص: ١٢٨

وهذا بخلاف البصر فانّه يستعد للإبصار بعد ذلك ولعله بعد مرور اسبوعين، لعدم امتلاك العين المغمضة أى استعداد لرؤية امواج النور فى البيئة المظلمة للرحم. ولهذا السبب فإنّ عين الرضيع تبقى مغمضة بعد ولادته مدة من الزمن أيضاً، حتى تعتاد على الضياء بالتدريج.

من جانب آخر يقول تعالى «اَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ* فَجَعَلْنَاهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ* اَلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ* فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ القَادِرُونَ». (المرسلات/ ٢٠)

لقد توصل علماء الأجنة اليوم من خلال مطالعاتهم ومشاهداتهم الدقيقة والمصورة عن تحولات الجنين إلى هذه النكتة، هى أنّ لقاء (الحيامن والبيوض) إنّما يتمّ خارج الرحم وفى الممرات المنتهية إليه. ثم تنعقد النطفة لتشق طريقها نحو قرارها الأصلى وهو الرحم فتلتصق بجداره.

ويتبيّن هذا المعنى بوضوح فى الآية الآنفة الذكر أيضاً، ففى البداية تتحدث عن خلقة الإنسان، ومن ثم عن استقراره فى قرار الرحم (وينبغى الالتفات إلى أنَ «ثمَّ» تُستعمل فى لغة العرب عادة للترتيب بشىء من الفاصلة)، وعليه فإنّ الأمر الذى غاب عن أنظار جميع العلماء فى ذلك العصر وما بعده قد جاء فى القرآن بشكل واضح.

والتعبير ب «القرار المكين» هو الآخر تعبير غنى جدّاً فى معناه والذى كان مجهولًا فى ذلك الزمان قطعاً.

ونعلم فى وقتنا الحاضر أنّ هناك خصائص مهمّة أخذت بنظر الاعتبار فى خلق الرحم بحيث أصبح من آمن الأماكن للجنين.

وبغض النظر عن الأغشية الثلاثة التى تحيط بالجنين من كل جوانبه (غلاف بطن الام، جدار الرحم، الكيس الخاص لاستقرار الجنين). فإنّ كل جنين يسبح فى كيس يحتوى على ماء لزج، ويستقر هناك تقريباً فى حالة من انعدام الوزن وعدم الاتكاء على شىء معين، وهو يتحمل كثيراً من الصدمات التى ترد على انحاء جسد الأم، ذلك أنّ الصدمات فى الواقع تصيب (كيس الماء) لا الجنين نفسه مباشرةً، وبعبارة اخرى يمكن أن نسمى ذلك

نفحات القرآن، ج٨، ص: ١٢٩

الكيس ومحتواه بالجهاز المضاد للصدمات نظير النوابض المرنة للسيارة التى تخفف من تأثير عراقيل الطريق. فضلًا عن ذلك أنّه يحول دون تسليط ضغط على أعضاء جسم الجنين، ذلك لأنّ هذا الضغط يلحق الضرر بذلك الجسم اللطيف، إضافة إلى أنّ البرودة والحرارة الخارجية لا- تنتقل إلى الجنين بسهولة كما لا- يخفى لأنّها وفى طريقها إلى الجنين لابدّ أن تخترق ذلك الكيس المملوء بالماء، فتصل إليه معتدلة الحرارة، وإلّا فمن الممكن أن يختل وضع الجنين بصورة كاملة عند استحمام واحد للُام بالماء البارد أو الحار. وبناءً على هذه الامور التى توضح لنا مفهوم (القرار المكين) بصورة كاملة لا يعتبر الرحم ملجأً آمناً ومناسباً للجنين فحسب، بل إنّ هذا الأمن والحصانة تسايره فى المراحل التى تمر بها ولادته أيضاً.

وكما قال بعض المفسرين الجدد: إنّ المادة السائلة الخاصة التى يسبح فيها الجنين تتسبب فى اتساع فوهة الرحم حين الولادة وتعقيم المجرى الذى يمر منه الجنين ليتمكن من اجتياز هذا المجرى المتلوث بأنواع الميكروبات عادة فيخرج إلى الدنيا سالماً، فى منتهى الأمن والراحة «۱».

وممّا يستحق الاهتمام أنّ القرآن الكريم عندما يريد أن يفصح عن سلسلة المراحل التكاملية للجنين يقول تعالى «ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضغَةً فَخَلَقْنَا المضغةَ عِظَاماً فَكَسَونا العِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ انشَأنَاهُ خَلْقًا آخَرَ* فَتَبَارَكَ اللَّهُ احْسَنُ الخَالِقِينَ».

(المؤمنون/ ۱۴)

ومن طريف القول هو ما اثبته علم الأجنة حالياً أنَّ الجنين عندما يطوى مرحلة كونه علقة ومضغة، تتبدل كل خلاياه إلى خلايا عظمية، ثم تغطيها العضلات واللحم بالتدريج (وقد أثبتت ذلك الأفلام الدقيقة الباهضة التكاليف التى أخذت لكل المراحل الجنينية).

وهذا هو ما جاءت به الآية السابقة بدقة إذ تقول: «فَخَلَقْنَا المُضَ غَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْمًا»، وهذه هى احدى المعجزات العلمية للقرآن الكريم، ذلك أنّه لم يكن فى ذلك الزمن

---

(۱) تفسير المراغى، ج ۱۸، ص ۱۱.

مايسمى بعلم «الأجنة»، وعلى الخصوص فى محيط جزيرة العرب الذى لم يتوفر فيه الاطلاع على أبسط المسائل العلمية «۱».

۱۱- القرآن يتحدث عن الآثار المهمّة للغلاف الجوى للأرض

نقرأ فى قوله تعالى «وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعرِضُونَ».

(الأنبياء/ ۳۲)

لقد أبدى المفسرون القدماء وجهات نظر مختلفة فى صدد بيان حقيقة السقف السماوى المحفوظ، فتارة يذهبون إلى أنّه محفوظ من نفوذ الشياطين، وتارة يقولون: إنّه محفوظ من السقوط على الأرض، وتارة ثالثة: إنّه محفوظ من الانهدام بالرغم من تقادم الزمن «۲».

إنّ السر وراء هذه التفاسير المبهمة هو عدم اطلاع البشر على السماء اطلاعاً دقيقاً فى ذلك العصر.

وعندما وُجد علم الهيئة الجديد أثبت أنّ الكواكب بأجمعها تسبح فى الفضاء اللامتناهى، وأنّه لا يوجد سقف أساساً، أصبح مفهوم هذه الآية أكثر تعقيداً بالنسبة لبعض المفسرين، حتى لجأوا إلى القول: إنّ معناها هو أنّ السماء كالسقف المحفوظ الذى يحول دون حدوث أى اختلال فى نظام الوجود.

وعلى هذا الأساس صار المتبادر إلى الذهن من معنى السقف هو المعنى المجازى والذى جاء بصورة التشبيه والكناية.

إلّا أنّ العلم البشرى لم يزل يواصل تقدمه نحو الأمام، وأصبح مفهوم هذه الآية أكثر وضوحاً نظراً إلى ما حصل عليه العلماء من معلومات جديدة عن طبقات الغلاف الجوى، فثبت أنّه يوجد سقف محفوظ بمعناه الحقيقى.

---

(۱) أشار سيد قطب فى كتابه فى ظلال القرآن ج ۶ ص ۱۶ إلى ذلك. وقد شاهدنا ذلك أخيراً فى فيلم وثائقى عجيب عن المراحل التكاملية للنمو الجنينى.

(۲) تفسير مجمع البيان، ج ۷ ص ۴۶؛ والتفسير الكبير، ج ۲۲، ص ۱۶۵ وتفاسير اخرى

توضيح ذلك: أنّه توجد طبقة عظيمة للهواء تحيط بالأرض من كل أطرافها تسمى «الغلاف الجوى» يصل سمكها مئات الكيلو مترات

ونظراً لضخامة هذه الطبقة الشفافة ظاهراً والمتكونة من الهواء وبعض الغازات الاخرى نجدها على جانب كبير من القوة والمقاومة يقدرها بعض العلماء بمقاومة سقف فولاذى سمكه عشرة أمتار، تُصان به الكرة الأرضية من ألوان المخاطر.

فمن جهة يقف سداً منيعاً أمام سقوط الصخور المستمرة- ليلًا ونهاراً والمعروفة ب (الشهب) المنجذبة نحو الأرض بسرعة هائلة وتشكل خطراً كبيراً فيما لو اصطدمت بإحدى الأماكن.

وتتضح أهميّة هذه المسألة أكثر من خلال النظر إلى ما قاله العلماء: إنّ ملايين من هذه الشهب تتجه نحو الأرض فى كل يوم وليلة، وعندما تصطدم هذه الأحجار السريعة بمقاومة الغلاف الجوى تتولد حرارة فتحترق وتشتعل متحولة إلى رماد، ينزل إلى الأرض رويداً رويداً، و فى بعض الأحيان تكون هذه الأحجار كبيرة جدّاً فتجتاز الغلاف الجوى (بعد أن يحترق جزء منها) فتصيب نقطة من الكرة الأرضية، وتحدث أضراراً مخيفة، وقد سُجلت نماذج لها فى التاريخ، ولعله انذار موجه إلى الغافلين بأنّ اللّه تعالى لو لم يخلق هذا السقف المحفوظ، لتعرضتم بأجمعكم إلى هذا القصف الخطير، ولما كان للهدوء والاستقرار معنىً فى حياتكم.

ومن جهة اخرى نعلم أنّ الشمس تنبعث منها أشعة تدعى بالأشعة فوق البنفسجية (تلك الأشعة هى نفسها التى تقع فوق اللون البنفسجى عندما يتحلل ضوء الشمس ولا تشاهد بالعين المجرّدة) والمقدار القليل منها مفيد ونافع جدّاً، فضلًا عن أنّه لا يلحق الضرر بأحد، وبالأخص إنَّ له دوراً كبيراً فى قتل الميكروبات، إلّاإذا ازداد وكثر فانّه يحرق البدن بدون أن يشعر الإنسان بالحرارة، (إنّ السبب وراء الحروق التى تصيب جلد الرأس والوجه والبدن فى المناطق القريبة من خط الاستواء فى فصل الصيف هو أنّ الشمس تسطع بصورة عمودية وتجتاز طبقة قليلة من الهواء، فلا تحظى بقدر كافٍ من التصفية) ولو لم يوجد هذا

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۳۲

(السقف المحفوظ) وهو «الغلاف الجوى» لم يستطع أى إنسان أن يقاوم الشمس ولو لحظة واحدة.

من جهة ثالثة أنّ الاشعاعات المميتة المسماة ب (الأشعة الكونية) تتجه بسرعة نحو الأرض ممّا وراء المنظومة الشمسية فيقف جزءٌ من الغلاف الجوى ويسمى ب «طبقة الاوزون» «۱» مانعاً من نفوذ هذه الأشعة القاتلة ويقاومها كالسقف المحفوظ.

أخيراً برزت مخاوف كثيرة للعلماء على أثر الثقب الذى حدث فى طبقة الاوزون بسبب تصاعد الغازات الضارة من بعض أجزاء السيارات فى الهواء وإلحاقها الضرر بتلك الطبقة، هذه المخاوف ظهرت بصورة جدية بحيث أخذ رجال الدول والعلماء يفكرون فى وضع مقررات دولية تمنع حدوث هذه الاضرار.

هذا ما توصلنا إليه حالياً من التعرف على الآثار العجيبة لهذا (السقف المحفوظ)، أى الطبقات العظيمة للهواء ومن الممكن الكشف عن حقائق أهم وأكثر فى هذا المضمار مستقبلًا.

وقد يخطر فى الذهن هذا السؤال وهو: هل يمكن اطلاق اسم «الغلاف الجوى» على السماء فتصدق عليه؟ وهل تعنى السماء الكواكب والأجرام السماوية والمنظومات والمجرّات؟

فى الجواب عن هذا السؤال نقول: إنّ القرآن الكريم هو الذى اطلق مراراً هذه الكلمة على الغلاف الجوى ومن جملة ذلك ما نقرأه فى قوله تعالى «وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخرَجَ بِهَ مِنَ الثَّمراتِ رِزقَاً لَكُم» «۲». (البقرة/ ۲۲)

ويتجلى بوضوح نموذج آخر لهذا المعنى فى قوله عز من قائل: «اَلَمْ يَروَا اَلَى الطَّيرِ مُسَخَّرَاتٍ فِى جَوِّ السَّمَاءِ». (النحل/ ۷۹)

---

(۱) الاوزون، غاز أزرق اللون ذو رائحة نفاذة ويعد أخطر من غاز الاوكسجين. ويتكون عند التفريغ الكهربائى للاوكسجين، ويستعمل لاغراض الصباغة وتصفية الماء والهواء.

(۲) وورد نظير هذا المعنى فى البقرة، ۱۶۴؛ الأنعام، ۹۹؛ الأعراف، ۹۶؛ يونس، ۲۴؛ هود، ۴۴؛ الرعد، ۱۷ وآيات أخرى متعددة.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۳۳

۱۲- القرآن والغلاف الجوى للأرض أيضاً

نقرأ فى قوله تعالى «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ انْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدرَهُ لِلإِسلَامِ وَمَنْ يُرِد انْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَانَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّماءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَؤْمِنُونَ». (الأنعام/ ۱۳۵)

وربّ سؤال يتبادر إلى الذهن وهو:

ماهى العلاقة بين الصعود إلى السماء وضيق الصدر؟

وهو سؤال لم يجد له المفسرون الأوائل جواباً دقيقاً.

قال كثير منهم: إنّ المقصود من ذلك هو كما أنّ الصعود إلى السماء أمر عسير أو محال كذلك تحصيل الإيمان بالنسبة إلى الكفار المعاندين والجهلاء المتعصبين «۱».

فى حين أنّ الأعمال الشاقة والمستحيلة كثيرة على وجه الأرض فليس هناك مبرر للتشبيه، إضافة إلى أنّ هذا التفسير بحاجة إلى تقدير: وهو أنّ الإيمان يشابه الصعود إلى السماء، فى حين أنّ القرآن يقول: «يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَانَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّماءِ».

وقالوا فى بعض المواضع: شبّه اللّه الكافر فى نفوره من الإيمان وثقله عليه بمنزلة من تكلف ما لا يطيقه، كما أنّ صعود السماء لايطاق «۲»، ولا يخفى عدم تناسب هذا التفسير مع محتوى الآية أيضاً.

أمّا بالنظر إلى الاكتشافات الأخيرة فإنّ للآية المتقدمة تفسيراً آخر يناسب هذا المعنى من كل الجهات وهو:

لقد ثبت اليوم أنّ الهواء المحيط بأطراف الكرة الأرضية مضغوط بصورة كاملة فى الأماكن المجاورة لسطح الأرض ويلائم تنفس الإنسان ويناسبه، لأنّه يحتوى على الاوكسجين الكافى، وكلما ابتعدنا عن سطح الأرض أصبح الهواء أقل كثافة فيغدو التنفس شاقاً جدّاً على ارتفاع عشرة كيلو مترات عن سطح الأرض بدون استخدام الإنسان نقاب الاوكسجين، ويصاب بحالة من الضيق الحاد فى التنفس، وكلما ارتفع إلى الأعلى أكثر،

---

(۱) تفاسير مجمع البيان؛ روح البيان؛ تفسير القرطبى و ... ذيل الآية مورد البحث.

(۲) تفسير روح البيان، ج ۳، ص ۱.

ازدادت حدّة الضيق فى تنفسه حتى يصل إلى الوقت الذى يغمى عليه لقلّة الاوكسجين.

إذن توجد هناك علاقة وثيقة بين ضيق النفس والصعود إلى السماء، ولم تتبلور هذه الحقيقة فى ذهن أى شخص فى ذلك العصر «۱». بيد أنّها قد تبلورت فى اذهان الجميع فى يومنا هذا، فقد سبق لنا أن سمعنا هذا الحديث من مضيّفى الطائرة عدة مرات أثناء سفرنا بها، بأنّ الهواء الموجود داخلها ينظم بجهاز خاص، فاذا حدث خلل فيه، فحينئذ ينبغى الاستفادة من نقاب الاوكسجين، لتستغل الطائرة سرعتها وتصل إلى الطبقات السفلى للجو الأكثر ضغطاً.

كما أنّ العلاقة بين هذا المعنى وبين تفسير الآية واضحة جلية.

وهى فى الواقع تشبيه المعقول بالمحسوس، فقد شبّه الجمود الفكرى والتعصب واللجاجة وقصر نظر الضالين المعاندين فى اعتناقهم للإسلام، بضيق التنفس الناجم عن قلة حصول الاوكسجين بالنسبة للشخص الذى يصعد إلى السماء.

ونُنهى هذا البحث بمقولة للمراغى فى تفسيره هذه الآية، إذ يقول: «سُبحانك ربّى نطق كتابك الكريم بقضية لم يتفهم سرها البشر، ولم يفقه معرفة كنهها إلّابعد أن مضى على نزولها نحو أربعة عشر قرناً، وتقدم فن الطيران، الآن علم الطيارون بالتجربة صدق ما جاء فى كتابك، ودلّ على صحة ما ثبت فى علم الطبيعة من اختلاف الضغط الجوى فى مختلف طبقات الهواء، وقد عُلم الآن أنّ الطبقات

العليا أقل كثافة من الطبقات التى هى أسفل منها، وأنّه كلما صعد الإنسان إلى طبقة أعلى شعر بالحاجة إلى الهواء وبضيق فى التنفس نتيجة لقلة الهواء الذى يحتاج إليه، حتى لقد يحتاجون أحياناً إلى استعمال جهاز التنفس ليساعدهم على السير فى تلك الطبقات، وهذه الآيات وأمثالها لم يستطع العلماء أن يفسروها تفسيراً جلياً لأنّهم لم يهتدوا لسرّها، وجاء الكشف الحديث وتقدُّم العلوم فأمكن شرح مغزاها وبيان المراد منها بحسب ما أثبته العلم، ومن هذا صح قولهم، «الدين والعلم

---

(١) يُصاب الإنسان أحياناً بضيق فى النفس عند تسلق الجبال، هذا صحيح ومعروف منذ الأيّام السالفة، ويحصل نتيجة للجهد البدنى الشديد ويشاهد فى حالة الركض على الأرض المستوية أيضاً، غير أن القرآن يقول: إنّ ضيق النفس يسببه الصعود إلى السماء لا الجهد البدنى الشديد.

نفحات القرآن، ج٨، ص: ١٣٥

صِنوان لا عَدوّان»، وهكذا كلما تقدم العلم أرشد إلى إيضاح قضايا خفى أمرها على المتقدمين من العلماء والمفسرين» «١».

١٣- القرآن وأسباب نزول المطر والثلوج

نقرأ فى قوله تعالى «اَلَمْ تَرَ انَّ اللَّهَ يُزجِى سَحَاباً ثُمَّ يُؤلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِن خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَابَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالابصَارِ». (النور/ ۴۳)

فى هذه الآية تعابير مختلفة، لم تتوضح معانيها بدقة فى الماضى.

«يزجى»: مأخوذة من مادة (إزجاء) ومعناها فى الأصل هو الدفع أو التحريك الملائم الهادىء.

يقول الراغب فى المفردات: «التزجية» معناها هو التحريك على سبيل الترتب والتسلسل.

واستعمل القرآن الكريم هذه الكلمة لحركة السفن على أثر هبوب الرياح فى البحر كما رودت فى سورة الاسراء، الآية ۶۶.

«الركام»: (على وزن غلام) وتعنى الأشياء الموضوعة فوق بعضها.

«وَدْق»: (على وزن شَرق)، وهى حسب رأى بعض المفسرين بمعنى قطرات المطر، وحسب رأى البعض الآخر بمعنى البرق.

«البَرَد»: على وزن (سَبَد) والمقصود به قطرات المطر المنجمدة، وهى فى الأصل مأخوذة من مادة بَرْد على وزن (فَرْد) وهى البرودة. ولأنّ قطع البَرَد ذات طبيعة باردة وتبعث على برودة الأرض أيضاً اطلقت هذه الكلمة عليها «٢».

---

(١) تفسير المراغى، ج ٨، ص ٢٥.

(٢) جاء فى كتاب (التحقيق): «البرودة فى الماء أن يبرد إلى أن يصل حدَّ الانجماد فيقال له البَرَد».

نفحات القرآن، ج٨، ص: ١٣۶

«جِبال»: جمع جَبَل، جاء فى (معجم مقاييس اللغة) هو: بمعنى تجمع الشىء مصحوباً بالارتفاع، وورد هذا المعنى فى (التحقيق) أيضاً، وعليه فالجبل لايراد منه جبال الحصى والرمال فحسب، بل إنّ كل مرتفع متراكم ومخزون يقال له فى لغة العرب: جبل.

واستناداً إلى ما قيل فى هذا المجال نعود إلى الآية الآنفة الذكر: «وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ».

لم يدرك أحد فى ذلك العصر بدقّة أنّ السحب فى السماء على هيئة جبال بارتفاعات متفاوتة نشاهد قاعدتها غالباً. لأننا نراها بصورة لوحة واسعة فى السماء، لكن عندما نحلق بالطائرة إلى أعلى السحب، نشاهدها جبالًا ووديانا ومرتفعات ومنخفضات، كما نشاهد ذلك على سطح الأرض، وبعبارة اخرى إنّ السطح الأعلى للسحب غير مستوٍ وعلى غرار سطح الأرض يحتوى على تضاريس كثيرة، وفى كثير من الأحيان يكون متراكماً على هيئة جبل.

ومن أجل أن يتضح مفهوم الجبال فى الآية أكثر يمكن أن نضيف النكتة الدقيقة والتى ثبتت نتيجة لتطور العلوم وازدهارها وهى:

ذكر أحد العلماء فى تحليله الشخصى ما خلاصته: إنّ السحب المرتفعة عُبّر عنها بجبال الثلج، فى الآية التى وقعت مورداً للبحث؛ لأنّ العلماء فى تحليقاتهم الجوية اصطدموا بسحب متكونة من إبَرٍ ثلجية، يصدق عليها عنوان (جبال من الثلج) واقعاً، ومن الغريب هو ما ذكره بصددها أحد العلماء الروس أثناء شرحه لبعض (السحب المحملة بالأمطار) بأنّها جبال من الثلج، أو جبال من السحب.

هذا كله من جهة ومن جهة اخرى ذهب علماء معاصرون فى صدد كيفية نشوء البَردَ فى السماء إلى القول: إنّ قطرات المطر تنفصل عن السحاب وتصطدم بالمناطق العليا الباردة للجو فتنجمد، ولكونها صغيرة جدّاً تقذفها إلى الأعلى من جديد تيارات هوائية شديدة مسلطة على تلك المنطقة فتنفذ تلك الحبيبات داخل السحب مرّة اخرى لتستقر مقابلها صفحة جديدة من الماء، تنجمد مرّة ثانية حينما تنفصل عن السحاب، ويحدث أحياناً أن

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۳۷

يتكرر هذا الأمر عدّة مرات حتى يصبح حجم البَرَد كبيراً، ولا تقوى التيارات الهوائية على دفعه إلى الأعلى أو أن تهدأ تلك التيارات بصورة مؤقتة، فحينئذٍ يشق طريقه إلى الأرض ويسقط باتجاهها بدون أى مانع، ويحدث أن يكون كبيراً ثقيلًا فى بعض الأحيان فيلحق اضراراً بالمزارع والبساتين والحيوانات وحتى أفراد البشر أيضاً.

من هنا يتبيّن أنّ وجود بَرَد كبير الحجم ثقيل الوزن ممكن عندما تتراكم الحبيبات المنجمدة فوق قمم السحب الجبلية إلى أن تظهر رياح شديدة فتقذفها وسط السحب، وتجمع مقداراً أكثر من الماء، فتصبح ثقيلة الوزن.

وعلى هذا الأساس تعتبر السحب الجبلية منبعاً مهماً لتكوّن بَردٍ كبيرِ الحجم، سبقت الإشارة إليه فى الآية.

وتتضح المسألة أكثر فيما لو قلنا: إنّ هذه الجبال هى الأكوام المتكونة من الذرات الثلجية نفسها «۱».

والسؤال الوحيد الذى يبقى هنا هو: لماذا وجه القرآن الكريم الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله بقوله: (الَم تَرَ) فى حين أنّنا نعلم أنّ هذه المسألة لا تقبل الرؤية على الاطلاق، وإنّما تمكن ملاحظاتها فى عصرنا فقط من خلال التحليق بالطائرة؟

والجواب عن هذا السؤال واضح، ذلك أنّ (الَم تَرَ) والجمل المشابهة لها يراد منها «الَم تَعْلم»، ولهذا يقول القرآن مخاطباً النبى فى سورة الفيل الآية ۱: «الَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِاصْحَابِ الفِيلِ»، بالرغم من ولادته صلى الله عليه و آله فى عام الفيل (العام الذى هاجم فيه أبرهة مكة المكرمة) وعدم حضوره تلك الواقعة.

---

(۱) ذهب المفسرون فى تفسير: «وينزل من السماء من جبال فيها من بَرَد» إلى قولين يمكن استنتاجهما من سياق تركيب الآية؛ الأول: إنّ الجار والمجرور فى «من برد» متعلق بينزل وهى فى حكم المفعول فيصبح معنى الآية: إنّ اللّه ينزل قطع الجليد من جبال فى السماء (وهنا ذكرت الجبال بصورة مطلقة). والثانى: إنّ الجار والمجرور متعلق بفعل محذوف يقع صفة ل «جبال» فيصبح معنى الآية بناء على ذلك: إنّ اللّه ينزل بَرداً من جبال الثلج التى فى السماء (وهنا يكون مفعول «ينزل» محذوفا ويفهم من سياق الكلام).

وكلا التفسيرين يوضح الاعجاز العلمى للقرآن وفقا لما ذكرناه سالفاً. لأنّ قولًا تضمن ذكر جبال من الثلج، وقولًا اخر تضمن جبال السحاب، وكلاهما لم يكن معروفا فى زمانه.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۳۸

۱۴- القرآن وعلاقة الرعد والبرق والمطر

ورد الحديث عن الرعد والبرق فى القرآن الكريم بشكل مكرر ثم وردت الإشارة إلى هطول الأمطار بعد ذلك مباشرةً.

ورد فى قوله تعالى «وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفَاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ ماءً فَيُحيِ بِهِ الارضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَعْقِلُونَ». (الروم/ ۲۴)

ونقرأ فى قوله تعالى «هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفَاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَال».

(الرعد/ ۱۲)

وفى الماضى لم يكن أحد يعرف بدقة منشأ (الرعد) و (البرق)، ولذا فقد كان كل واحد يختلق لنفسه فرضية معينة، ويضفى عليها أحياناً طابع الأساطير والخرافات، أما اليوم فقد أضحى مسلَّماً أن حدوث الرعد والبرق يرتبط بالتفريغ الكهربائى بين سحابتين لهما شحنتان كهربائيتان مختلفتان (أحدهما موجبة والآخرى سالبة).

وفى الواقع مثلما يتصل سلكان كهربائيان احدهما بالآخر فتحدث شرارة كهربائية يصحبها الصوت والحرارة معاً، كذلك يحدث هذا الأمر بين السحب. (فالبرق) هو الشرارة الكهربائية الهائلة، و (الرعد) هو صوت تلك الشرارة.

وقد يحدث هذا التفريغ الكهربائى بين قطع السحاب التى لها شحنات كهربائية موجبة وبين الأرض ولها شحنة كهربائية سالبة عادة، فتقذف شرارة نارية إلى سطحها يطلقون عليها اسم (الصاعقة) والتى تسبب الحرائق الكبيرة فى الصحارى والغابات وحتى فى المبانى والعمارات فى بعض الأحيان.

وبإمكانها أن تُحوِّل قطيعاً كبيراً من الحيوانات إلى رماد فى لحظة واحدة وإذا ما ضربت جبلًا ما فسوف يتلاشى وينهار، أو إذا اصابت سطح البحر قضت على كل ذى روح يعيش فى ذلك الموضع منه؛ ويُعزى ذلك كله إلى أنّ الحرارة الناجمة من تلك الشرارة النارية هائلة جدّاً، (تصل إلى حدود خمسة عشر الف سانتيكراد، أى ضعف حرارة سطح الشمس تقريباً)، فتحيل كل الأشياء إلى دخان ورماد.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۳۹

وإذا ما كان البرق والرعد من المظاهر المرعبة لعالم الطبيعة إلّاأنّهما بالرغم من ذلك يشتملان على فوائد ومعطيات كثيرة أيضاً.

فمن احدى آثارهما المهمّة هى نزول الأمطار الغزيرة، وذلك لأنّ الحرارة المتولدة من البرق، تُسخن مساحة واسعة من الهواء المحيط بها، فيقلّ ضغطه، ومن المعلوم أنّ السحب ستفرغ ما فيها من أمطار على أثر قلة الضغط، ولهذا السبب تهطل أمطار غزيرة بعد حصول الرعد والبرق.

وممّا يجدر ذكره: عندما تقترب السحب المتراكمة من الأرض لتظلّلها يصبح الجو مظلماً، ويسمع صوت الرعد المخيف وتتراءى أنوار البرق، فى الوقت ذاته تؤثر العواصف العاتية على السحب فتجعلها محملة بقطرات كبيرة غزيرة وتؤدى إلى تزايد وزنها «۱»، وهذا هو عين ما قرأناه فى الآياتالسابقة التى تحدثت عن السحب الثقيلة بعد أن أشارت إلى مسألة البرق، إضافة إلى أنّ الحرارة الشديدة للبرق تؤدى إلى أن تتركب قطرات المطر من مقادير أكثر من الاوكسجين، فينتج من ذلك ماء مؤكسد ويسمونه بالماء الثقيل أيضاً (H_2O ۲).

ولهذا الماء الثقيل تأثير كبير فى القضاء على كثير من الميكروبات والآفات النباتية، ولذا ذهب العلماء إلى القول بتكاثر الآفات النباتية فى السنة التى يقل فيها الرعد والبرق (وهذا تفسير آخر فى صدد السُحب الثقيلة).

وإضافة إلى ذلك فإنّ حامض الكربونيك يتولد من قطرات المطر الممتزجة بكاربون الجو وبواسطة الحرارة الشديدة للبرق، وبعد سقوطه على الأرض يتفاعل مع مواد اخرى لينتج مركبات تعد من أفضل الأسمدة لنمو الأعشاب، حتى ذهب العلماء إلى القول: إنّ مقدار الأسمدة الناشئة من الرعد والبرق فى الكرة الأرضية تصل إلى حدود العشرة ملايين طن فى جميع أنحاء الكرة الأرضية، وهو رقم كبير جدّاً.

وتتوضح عظمة القرآن العلمية بالمقارنة بين هذه الاكتشافات والآيات الآنفة الذكر،

(۱) العواصف والأمطار، ص ۱۳۸.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۴۰

خصوصاً إذا أُخذ بنظر الاعتبار عدم وجود أدنى أثر لهذه العلوم فى ذلك العصر وفى بيئة الجزيرة العربية.

۱۵- القرآن وكشف هوية الإنسان

نقرأ فى قوله عزّ من قائل: «اَيَحْسَبُ الانسَانُ الَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ* بَلَى قَادِرِينَ عَلَى انْ نُّسَوِّىَ بَنَانَهُ». (القيامة/ ۳- ۴)

جاء فى الروايات، أنّ أحد مشركى العرب ويُدعى (عدى بن ربيعة) وكان رجلًا معانداً ومتعصباً جدّاً، أتى إلى النبى صلى الله عليه و آله وسأله عن يوم القيامة وكيفية وزمان تحققه، وقال: إننى لا اصدقك ولا أؤمن بك وإن رأيت ذلك اليوم بأمّ عينى، كيف يمكن التصديق بأنّ اللَّه تعالى يجمع هذه العظام النخرة، هذا ممّا لا يقبل التصديق فنزلت الآية المذكورة أعلاه «۱».

«بَنان»: فى اللغة بمعنى الاصابع، وقد ورد أحياناً (بمعنى رؤوس الأصابع)، وهو مأخوذ من مادة (بَنَ) بمعنى الإقامة.

وبناءً على كون الأصابع، أداة لإصلاح أحوال إقامة الإنسان فى العالم، اطلق عليها هذا الاسم «۲».

إنّ للأصابع دوراً مهماً جدّاً فى حياة الإنسان، وتعد من عجائب الخلقة، وإن غفلنا عن أسرارها. لأنّها تحت تصرفنا دائماً، ولو قطعت أصابع يد أحد ما، فإنّه سوف لا يستطيع أن ينجز عملًا دقيقاً بأى شكل من الأشكال، وستستحيل عليه الكتابة، وتصفح أوراق الكتاب، وتناول الطعام بسهولة، والاتصال بالهاتف، وفتح الأبواب بالمفاتيح وأنواع الصناعات الدقيقة وتستحيل عليه بقية الصناعات الاخرى كانواع الأعمال المتعلقة بالسيارات، وحتى أخذ الأشياء الثقيلة باليد أيضاً، بل ويمكن لنقص أحد الأصابع أن يوجه

---

(۱) التفسير الكبير، ج ۳، ص ۲۱۷؛ وتفسير القرطبى، ج ۱۰، ص ۶۸۸۵.

(۲) المفردات للراغب؛ ومجمع البحرين؛ ومعجم مقاييس اللغة، مادة (بن).

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۴۱

ضربة عنيفة لكثير من الأعمال اليومية التى يقوم بها الإنسان. ولهذا السبب تنجز الحيوانات ذوات الأربع كثيراً من أعمالها بفمها أو رأسها.

وبعبارة اخرى يمكن القول: إنّ وجود الأصابع لدى الإنسان يعتبر من العوامل المهمّة للتقدم الحضارى له، والتعبير ب «البنان» المأخوذ من مادة الإقامة والدوام، إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة نفسها، وذلك لصعوبة وجوده فى العالم بدونها.

يقول اللَّه تعالى فى الآية الآنفة الذكر: إنّ بإمكاننا أن نعيد العظام الصغيرة الدقيقة فى يوم القيامة أيضاً فضلًا عن العظام الكبيرة.

واحتمل جماعة من المفسرين أيضاً أنّ المقصود من تسوية البنان هو وصالها مع بعضها واخراجها بصورة حافر حيوان من ذوات الأربع وليس لهذا التفسير تناسب مع آيات السورة.

من الامور التى يمكن استنتاجها من هذه الآية هو هذا الاكتشاف المهم، فقد أصبح من الثابت أنّ معرفة هوية أحد ما يتمّ بوسيلة رؤوس أصابعه. وهى أوثق وأدق من كل امضاء ولا يستطيع أحد تزويره، فى حين أنّ التزوير قادر على التسرب إلى أعقد التواقيع، ولهذا السبب أصبحت مسألة «أخذ البصمات» من الحقائق العلمية فى عصرنا الحاضر واستحدثت لأجلها دائرة خاصة فى المراكز الأمنية، من خلالها يكشف النقاب عن كثير من المجرمين، فيكفى أن يضع أحد السراق يده على مقبض الباب، أو زجاج الغرفة، أو على القفل والصندوق والكرسى عند دخوله لأحد الغرف أو المنازل فيبقى أثرها على تلك الأشياء، أو يتمّ العثور على سلاح فى قضية قتل، عليه بصمات أحد الأشخاص، وهذا يكفى لأخذ نماذج فورية لها فتتم مطابقتها على بصمات الأشخاص المشكوك بهم فى تلك الحادثة- إضافة لما لديهم من معلومات عن المجرمين والسراق- ومن ثم يلقون القبض على الجانى.

إذن يكون مفهوم الآية بناءً على هذا التفسير: إنّنا لسنا قادرين على أن نجمع العظام الكبيرة والصغيرة فحسب، بل إنّ فى مقدورنا أيضاً أن نعيد الأصابع وبصماتها بجميع

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۴۲

مزاياها، التى هى من أدق ما فى البدن من خصوصيات إلى حالتها الاولى

وبعبارة اخرى أنّ مفهوم تسوية البنان (ومعناها التنظيم والترتيب)، شامل لجميع الخصوصيات والجزئيات، من جملتها بصمات الأصابع.

ومن الجدير بالذكر هو ما نجده من توافق بين هذا المعنى وبين مسألة القيامة، المحكمة الكبرى للعدل الإلهى، التى يجب التحقيق فيها مع المجرمين والمذنبين، ذلك أنّ هذه المسألة يستفاد منها أيضاً فى محاكم الدنيا، قبل أى مكان آخر.

۱۶- القرآن يكشف الستار عن عظمة خلق السماوات

نقرأ فى قوله تعالى «لَخَلْقُ السَّمَواتِ وَالارضِ اكبرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ اكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ». (المؤمن/ ۵۷)

صحيح أنّ أغلب المفسرين اعتبر هذه الآية رداً على جدال المشركين فى (المعاد) «۱»، أى إنّكم تشكون فى بعث الإنسان من جديد، فى حين أنّ خلق الإنسان ليس بأعظم من خلق السماوات، بل إنّ خلق السماوات والأرض أهم من ذلك وأعظم، بيدَ أنّ جملة «ولكنّ أكثر الناسِ لا يَعلَمُون»، هى إشارة إلى حقيقة أنّ عظمة السماوات كانت مجهولة لدى معظم الناس سابقاً.

وبالرغم ممّا اكتشفه العلم الحديث من اسرار عظيمة ومهمة جدّاً عن وجود البشر لم يكن واحد من الألف منه معروفاً فى العصور السابقة، إلّاأنّ الاكتشافات التى تحققت فى مجال عظمة السماوات، تدل على أنّ خلقها والأرض يفوق بمراتب خلق البشرية بكل ما تنطوى عليه من عجائب.

إنّ آخر ما توصل إليه العلماء بصدد السماوات وبالأخص المجرات يقول: إنّه قد اكتشف إلى اليوم أكثر من مليارد مجرة بواسطة المراصد الفلكية الكبيرة، ومنظومتنا الشمسية ما هى

---

(۱) تفاسير مجمع البيان؛ الصافى؛ الكبير؛ الكشاف؛ روح المعانى؛ وروح البيان.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۴۳

إلّا جزء ضئيل من احدى المجرّات التى تسمى ب «درب التبانة»، ففى مجرّتنا فقط أكثر من مائة مليارد كوكب والشمس بعظمتها هى احدى النجوم المتوسطة فى هذا الجيش الجرّار للنجوم.

الفضاء واسع جدّاً بحيث إنّ سبر اغواره ليس يستحيل بالمركبات الفضائية البشرية فحسب، بل إنّنا لو ركبنا ذرات الضوء- التى تسير بسرعة فائقة تصل إلى ثلاثمائة الف كيلو متر فى الثانية الواحدة- لاستغرقت رحلتنا هذه ملياردات السنين الضوئية أيضاً حتى يمكننا أن نقطع المساحة المكتشفة فى هذا العالم.

وكلما كان حجم المراصد الفلكية أكبر وأدق، كلما كشفت لنا الحجب عن عوالم جديدة اخرى

بالرغم من هذه الاكتشافات فإنّنا لحد الآن لم نتوصل إلى ما وراء ما عرفناه وشاهدناه، وإنّ ما اكتشف بأكبر المراصد هو زاوية صغيرة وتافهة من هذا العالم العريض.

وحسب قول أحد العلماء: فإنّ كل هذا العالم الواسع الذى نشاهده ليس إلّاذرة صغيرة، وجزء لا حدود له من عالم أكثر عظمة «۱».

ومن هنا نقف على عمق الآية الآنفة الذكر التى تقول: «لَخَلقُ السَّمَواتِ وَالارض اكبرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكنَّ اكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعلَمُونَ».

ونتساءل ألا يُعدُّ بيان مثل هذه الامور من قبل فرد امى فى عصر نزول القرآن وفى بقعة من أكثر بقاع العالم تأخراً، معجزة؟

وبهذا النحو نصل إلى نهاية بحث الاعجاز العلمى للقرآن، وإن كانت لا تزال هناك ملاحظات كثيرة لم نتطرق إليها.

ونعتقد أنّ البحث فى النماذج الستة عشر السابقة أثبت بشكل منصف ولكل إنسان واع حقيقة استحالة أن يكون هذا الكتاب العظيم أى (القرآن) من صنع عقل البشر.

---

(۱) مجلة الفضاء، العدد ۵۶، سنة ۱۹۷۱.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۴۵

۴- الاعجاز التاريخى للقرآن

دور التاريخ فى المسائل التربوية:

ممّا لا يقبل الشك أنّ القرآن ليس كتاباً تاريخياً، لكنه ولأسباب مختلفة فانه يضم بحوثاً تاريخية متنوعة، وذلك لأن المسائل التربوية وبالأخص الاجتماعية لا يمكنها أن تنفصل عن المباحث المرتبطة ب (تاريخ القدماء) لأنّ التاريخ من أكبر معلمى الحياة وهو معيار جيد لتحديد وتبيين مزايا وخصائص المبادىء الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وفصل الحقائق عن الأوهام والمثاليات عمّا يناقضها.

إنَّ عظمة التاريخ تكمن فى اظهاره المسائل الفكرية والعقلائية فى قالب محسوس تؤدى خدمة كبيرة لفهم المسائل الإنسانية بصورة صحيحة، فمن جملة المسائل التى تُستنبط من التاريخ هى: إلى أين تؤول عاقبة الظلم والجور والاستبداد، وماهى نتيجة الاختلاف والتشرذم، وما هى خاتمة التعصب والعناد والانانية، وعدم الاعتناء بالحقائق الواقعية؟

ولهذا السبب يمكن القول: إنّ التاريخ هو معين الحياة الذى يمد الإنسان بالعمر والبقاء، فمن خلال مطالعة تاريخ القدماء نحصل على صفحات مركزة هى عصارة آلاف السنين من التجارب الإنسانية توضع بين يدى جيل الحاضر والمستقبل.

وأشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة المهمّة بجملة مختصرة إذ يقول:

«لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّاوْلِى الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىءٍ وَهُدىً وَرَحمَةً لِّقَومٍ يُؤمِنُونَ». (يوسف/ ۱۱۱)

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۴۶

والجدير بالذكر هنا أنّ القرآن بيّن هذا المفهوم بعد قصة النبى يوسف عليه السلام المليئة بالحوادث والعبر التى يستفاد منها فى الأبعاد المختلفة للمسائل التربوية.

وفى موضع آخر يعتبر القرآن قصص وتاريخ القدماء وسيلة لإيقاظ الأفكار والعقول فيقول: «فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُم يَتَفكَّرُونَ». (الأعراف/ ۱۷۶)

وفى آيات اخرى يُعد تاريخ الأنبياء الاوائل وسيلة ناجحة ل (تثبيت قلب) نبى الإسلام صلى الله عليه و آله وتقوية إرادته ولتوعية المؤمنين وايقاظهم، فيقول عز من قائل: «وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيكَ مِنْ انْبَاءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجاءَكَ فِى هَـذِهِ الحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى لِلمُؤمِنِينَ». (هود/ ۱۲۰)

ويقول اللَّه سبحانه وتعالى فى صدد التعريف بقصّة نوح عليه السلام: «وَلَقَدْ تَّرْكنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُّدَّكِرٍ». (القمر/ ۱۵)

ويذكر الآثار المتبقية للقدماء بتعبير حى جميل، فيقول: «افَلَمْ يَسِيرُوا فِى الارضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا او آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فانَّهَا لَاتَعْمَى الابْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ». (الحج/ ۴۶)

وعلى هذا، فالأحداث التاريخية المفصلة والآثار التاريخية الغابرة للقدماء تساهم فى إنارة البصائر وتفتح آفاق جديدة رحبة.

ومن خلال هذه الإشارة إلى فلسفة تاريخ القدماء نعود إلى القرآن مرة ثانية لنلقى نظرة على الاعجاز التاريخى للقرآن.

الخطوط العريضة للتاريخ فى القرآن:

اشارة

سبق القول إلى أنّ مقطعاً مهماً من المباحث التربويـة والمواعظ والنصائح والبشائر والنُذر والعهود والآمال القرآنية بُيِّنت بصـفتها مسائل تاريخية شيقة ومعبرة ومؤثرة تجذب السامع تلقائياً نحو الأهداف العليا، ولانستطيع الوقوف على عظمة البحوث التاريخية

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۴۷

المعجزة فى القرآن مالم نطالع بدقة سورة يوسف، والأنبياء، وطه، والقصص، ومريم، وآل عمران، وأمثالها.

و تنطوى البحوث التاريخية على الخصوصيات الأساسية التالية:

۱- الاستناد إلى المقاطع الحساسة وإلقاء نظرة فاحصة ونافذة على المسائل التربوية المهمّة.

۲- خُلّوها من أى شكل من أشكال الحشو والإضافات.

۳- خُلّوها من حالات التضاد والتناقض وعدم السنخية والانسجام.

۴- خلافاً لُاسلوب كتابة التاريخ المتعارف فى ذلك الزمان (وحتى فى القرون التى تلته)، حيث طرح التاريخ فيها كمادة مسلية، ووسيلة للإطلاع على اوضاع الماضـين، فلم يشـتمل على أيّـة نظرة فاحصـة محللـة تشـكل فلسـفة التاريخ والدروس والعبر المسـتلهمة من حياة القدماء.

بينمـا اهتم القرآن المجيـد فى تواريخه بـأصول المسائـل وبظواهرهـا أيضاً بشـكل يُنمى روح حب الإطلاع فى نفس القارىء والمتلقّى ويحفز ذهنهما على التفكير الدقيق فى الحوادث.

ومن الجدير بالذكر: إنّه لم يرد ذكر للحوادث التافهة التى لا هدف لها سوى اطالة الكلام وإتلاف الوقت فى أى واحدة من آياته.

۵- أولى القرآن اهتماماً بالغاً وبشـكل دقيق بمسألـة فصل الحقائق التاريخية عن الأساطير، وهى من المسائل المعقدة أحياناً، لأنّ هناك عوامل مزجت التاريـخ بالأساطير الكاذبـة دائماً: من جملتها، الترفيه وإرضاء العواطف الطفوليـة، إدارة الخيال وإيجاد الروابط المفتعلـة، بحيث يمكن القول: إنّ الأساطير والخرافات تستأثر بمقطع مهم من تواريخ القدماء وتشكل أحد أركانها الأساسية.

فبناءً على ذلك لو فرضنا أنفسنا فى زمن نزول القرآن وأجواء حياة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله لشاهدنا مدى امتزاج تواريخ ذلك الزمان بخرافات تُتناقل على الألسنة وتعد فى قائمة

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۴۸

المسلمات بحيث لايستطيع المتعلمون الفصل بينهما، فضلًا عن أحد الامّيين.

وقـد كـان علماء ذلك العصـر من الربانيين و (أحبار) اليهود والنصارى ومشـركى العرب يـدافعون عن هـذه الأساطير والخرافات، ومن الطبيعى أنّ من يعيش فى مثل تلك البيئة ويصل سنّه إلى الأربعين تنسج أفكاره بهذه الأساطير والخرافات ويستحيل الفصل بينها عادة، ترى هـل يسـتطيع أحـد أن يُنقى التاريـخ فى تلـك البيئـة المظلمـة ويفصـل الحقـائق عن الأوهام والخرافات؟ إنّ أحـداً من المحققين، والمطلعين على التاريخ فى يومنا هذا لا يتمكن من القيام بمثل هذا العمل إلّابشق الأنفس، فكيف يمكن توقع ذلك من شخص امّى لا يعرف القراءة فى ذلك العصر؟

والآن نتوقف عند بعض الأمثلة فى القرآن وبشىء من المقارنة يتضح ماقلناه سابقا:

۱- كيفية خلق «آدم» كما ورد فى القرآن وفى العهدين

بيّنَ القرآن الكريم (خلقة) الإنسان فى سورة البقرة فى الآيات (٣٠ إلى ٣٧) بالشكل التالى:

«وَاذْ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلَائِكَةِ انِّى جاعِلٌ فِى الْأَرضِ خَلِيفَةً قَالُوا اتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ انِّى اعْلَمُ مَالَا تَعْلَمُونَ* وَعَلَّمَ آدَمَ الاسْماءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلَائِكَةِ فَقَالَ انْبِئُونِى بِاسْماءِ هؤُلَاءِ إنْ كُنْتُم صَادِقِينَ* قَالُوا سُبْحَانَكَ لَاعِلْمَ لَنَا الَّا مَاعَلَّمْتَنَا انَّكَ انْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ* قَالَ يَاآدَمُ انبِئْهُمْ بِاسَمائِهِم فَلَمَّا انبَاهُمْ بِاسمائِهِم قَالَ الَمْ اقُلْ لَّكُمْ انِّى اعْلَمُ غَيْبَ السَّموَاتِ وَالارضِ وَاعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ* وَاذْ قُلْنا لِلمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا الَّا ابلِيسَ ابَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ* وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ انْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ وَكُلَا مِنها رَغَداً حَيْثُ شِئْتَما وَلَاتَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ* فازَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنهَا فاخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنا اهْبِطُوا بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى الارضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ الَى حِينٍ* فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتَابَ عَلَيهِ انَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ». (البقرة/ ٣٠- ٣٧)

نفحات القرآن، ج٨، ص: ١٤٩

وقد أشير إلى هذا المعنى أيضاً فى سور قرآنية اخرى كالأعراف وطه.

ويستفاد من الآية (١٢) من سورة طه بشكل واضح، أنّ الشيطان خدع آدم من خلال قوله له: إنّ هذه الشجرة، شجرة الحياة الأبدية، فى حين أنّ آدم تلقى إنذاراً مُسبقاً يقضى بأنّ الشيطان عدوٌّ لك فلا تغتر بأقواله.

وكذلك يستفاد من الآية (٢٦ و ٢٧) من سورة الأعراف و (١٢١) من سورة طه هذا المعنى أيضاً هو أنّ آدم وزوجته كانا يرتديان الأثواب فى الجنّة لكن عندما تناولا من تلك الشجرة المُحرّمة عليهم، خُلعت عنهما أثواب الجنة.

وصنعوا لأنفسهما لباساً من اوراق اشجار الجنة، واستناداً إلى الآيات السابقة نستنتج مايلى:

أولًا: من المميزات الأساسية لشخصية آدم عليه السلام هى نيله مقام الخلافة الإلهيّة وسجود الملائكة له، وهى نفس حالة اطلاعه على «علم الأسماء» وعلمه بالحقائق والأسرار الكونية.

ثانياً: السبب وراء خروج آدم من الجنّة، هو تناوله من تلك الشجرة التى حُظرت عليه من قبل وإن كان القرآن لم يذكر اسماً لهذه الشجرة، لكن ظاهر الأمر أنّها كانت تحمل فاكهة طيبة ولذيذة والغاية من الأمر بتركها هو اختبار آدم عليه السلام وامتحانه من أجل غربلة إيمانه وصقل إرادته فى مقابل الوساوس النفسانية والشيطانية.

ويتضح من عبارة «فأزَلَّهُما الشَّيطانُ» معنى أنّ التناول من تلك الشجرة المحظورة لايعدو أن يكون مخاضاً من المخاضات وليس هو من نوع ارتكاب الذنب والطغيان أمام قدرة اللَّه وانتهاك حرمة العبودية.

والآن نعرج على التوراة لنرى كيف امتزجت هذه الحادثة التاريخية بأنواع الخرافات والمسائل غير المنطقية والصبيانية؟

جاء فى الفصل الثانى من (سفر التكوين ٧- ٢٥) مايلى:

* ثم صور اللَّه تعالى آدم من صعيد الأرض ونفخ فى انفه نسمة الحياة، فأخذ روح آدم ينبض بالحياة.

نفحات القرآن، ج٨، ص: ١٥٠

نفحات القرآن ج٨ ١٩٩

* وغرس اللَّه تعالى بستاناً فى الجانب الشرقى من عدن، وأنزل الإنسان الذى صوره هناك.

* وأنبت اللَّه تعالى كل شجرة بديعة ولذيذة المطعم، وانبت شجرة الحياة وسط البستان وشجرة المعرفة (بالحسن والقبح) ...* وأخذ اللَّه تعالى آدم وأنزله فى بستان عدن ليرعاه ويحرسه.* وأمر اللَّه تعالى آدم وقال انك مخير بأنّ تأكل من كل اشجار البستان.* ولكن لا تأكل من شجرة المعرفة، لأنك ستستحق الموت حين تناولك منها ...* وكان آدم وزوجته كلاهما عاريين ولا يستحيان.

ووردت تتمة هذه الواقعة فى الفصل الثالث من (سفر التكوين) نفسه على النحو التالى:

١- خلق اللَّه الأفعى (الشيطان) أمكر من كل ذى روح يدب على وجه الصحراء، فقالت للمرأة: هل قال اللَّه حقاً لا تأكلا من جميع

أشجار البستان.

۲- وقالت المرأة للافعى بأننا نأكل من فاكهة أشجار البستان.

۳- إلّاأنّ اللَّه تعالى أمرنا بأنّ لا نأكل من ثمار الشجرة التى فى وسط البستان ولا نلمسها حتى لا نموت.

۴- وقالت الأفعى للمرأة وبالطبع لا تموتان.

۵- الحقيقة أنّ اللَّه يعلم أنكما يوم تأكلان منها تتنور بصيرتكما، وتصبحان كالآلهة (الملائكة) الذين يعلمون الحسن والقبح.

۶- فرأت المرأة أنّ من الصلاح أن تأكل من الشجرة التى تبدو رائعة المنظر، جذابة لمن يعشق المعرفة فوظفت من ثمارها واكلت واعطت لزوجها أيضاً فأكل.

۷- حينئذٍ تنورت بصيرتهما، وعلما أنّهما عاريان فحاكا من أوراق شجرة التين إزاراً لهما.

۸- وسمعا صوت اللَّه تعالى حينما كان يتبختر صباحاً فى البستان، فاختفى آدم وزوجته بعيداً عن حضرة اللَّه بين الأشجار.

۹- ونادى اللَّه آدم وقال له اين أنت؟

۱۰- فأجابه إننى سمعت نداءك فى البستان وأصابنى الهلع، لأننى عارٍ من اللباس ولهذا اختفيت.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۵۱

۱۱- فقال اللَّه من قال لك إنّك عارٍ؟ هل تناولت من الشجرة التى أمرتك أن لا تأكل منها؟

۱۲- وقال آدم: إنّ المرأة التى منحتها لى لتكون معى هى التى أعطتنى من تلك الشجرة فأكلت.

۱۳- وقال اللَّه تعالى للمرأة ما هذا الذى فعلت؟ قالت المرأة لقد أغوتنى الأفعى فأكلت.

۱۴- وقال اللَّه تعالى للأفعى: لأنك فعلت ذلك فأنت ملعونة من بين كل البهائم، والحيوانات الصحراوية ستمشين على بطنك وستأكلين التراب طيلة أيّام حياتك ...

۲۲- وقال اللَّه تعالى نظراً لأنّ آدم أصبح واحداً منّا لعلمه بالحسن والقبح، فلا ينبغى أن يمد يده إلى شجرة الحياة أيضاً فيأكل منها ويعيش عيشاً أبدياً.

۲۳- إذن لهذا السبب ابعده اللَّه تعالى من بستان عدن، ليشتغل بزراعة الأرض التى نشأ منها.

۲۴- وأبعد آدم واسكن الكروبيين (الملائكة) فى الجانب الشرقى من «بستان عدن» وكانوا يطوفون حول شجرة الحياة بالسيف البتار ليحرسونها.

وخلاصة ما جاء فى التوراة بصدد تاريخ خلق آدم وخروجه من الجنّة على النحو التالى:

خلق اللَّه آدم، وأسكنه بستاناً فى الجانب الشرقى من عدن، ليرعاه، وختم هذا البستان بين أشجاره شجرتين.

إحداهما: (شجرة العلم، بالحسن والقبح) وهى شجرة يحصل من يأكل من ثمارها على العقل والذكاء، ولأنّ آدم لم يكن قد تناول منها شيئاً، فلم يدرك معنى الحسن والقبح. ولهذا السبب لم يستح من عُريه هو وزوجته قط، والاخرى كانت (شجرة الحياة) ومن أكل منها حَظى بالعمر الخالد.

وأمر اللَّه تعالى آدم أن لا يتناول شيئاً من شجرة العلم، المعرفة والحسن والقبح على الاطلاق وإلّا فسيموت، وسرعان ما ألقى الشيطان وسواسه فى روع زوجة آدم (حواء) وقال لها: لِمَ لا تأكلين من (شجرة العلم، والمعرفة) لأنّك لو أكلت لانُيرت بصيرتك ولاطّلعت على الحسن والقبح كالملائكة، وكان منظر تلك الشجرة جذاباً جميلًا، ومن ثمّ

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۵۲

أكلت منها حواء واعطت منها لآدم أيضاً فتفتحت عيناهما، واطلعا على الحسن والقبح، وأدركا قبح العرى فصنعا من الورق العريض لشجرة التين ستراً لهما وربطوه حولهما، حينما كان اللَّه تعالى يتمشى فى الجنّة عمد آدم إلى اخفاء نفسه بين أشجارها، فلم يشاهده

اللَّه تعالى وناداه أين أنت؟ فأجاب اللَّه تعالى إنّى هنا بين الأشجار وقد أخفيت نفسى لأننى عارٍ فسأله اللَّه تعالى من أين علمت أنّك عارٍ؟ لعلك تناولت شيئاً من شجرة الحسن والقبح (شجرة العلم والمعرفة)، فالقى التبعة على عاتق زوجته، لما عُوتبت حواء ألقت التبعة على عاتق الأفعى (الشيطان)، هنا عاقب اللَّه الأفعى بأنّ تزحف على بطنها، وتأكل من تراب الأرض طيلة حياتها.

من ناحية اخرى بعد أن تناول آدم من (شجرة العلم والمعرفة) وأصبح كأحد الآلهة، احترس اللَّه تعالى من أن يتناول من (شجرة الحياة) أيضاً ويحظى بالعمر الخالد. ولذلك اصدر اللَّه تعالى أمراً بإخراجه من الجنّة وأمر الملائكة أن يحرسوا شجرة الحياة بالسيف البتار لئلا يقترب منها آدم.

ولا يخفى علينا أنّ هذا هو التوراة نفسه الذى يعد اليوم (الكتاب المقدس) لجميع يهود ومسيحيى العالم، ويؤمن جميعهم بمحتواه ويعتقدون أنّه الكتاب عينه الذى كان فى أيدى اليهود والنصارى فى عصر نزول القرآن.

وبطبيعة الحال فإنّنا لا نعتقد بوجود مثل هذا النوع من الخرافات الصبيانية المبتذلة فى الكتاب السماوى لموسى عليه السلام، أو أنّ الأنبياء بعده دافعوا عنه، ولكن على أى حال احتوت هذه الاسطورة الغريبة على امور جارحة فى حق اللَّه تعالى بحيث إنّ كل واحدة منها أشنع من الاخرى ومن جملتها:

١- نسبة الكذب إلى اللَّه تعالى استناداً إلى ما نقلوه من قوله أنّكما لو تناولتما شيئاً من شجرة (العلم والمعرفة) فستموتان.

٢- نسبة البخل إليه جل وعلا بمانقلوه من أنّه لم يوافق على أن يأكل آدم وحواء من شجرة العلم والمعرفة، فيحظيا بالعقل والإدراك وكان يريد لهما البقاء على جهلهما وعدم معرفتهما.

نفحات القرآن، ج٨، ص: ١٥٣

٣- إنّ اللَّه تعالى لم يمنحهما العقل والعلم الكافيين ليدركا قبح كونهما عاريين، بل وكان تعالى كثيراً ما يرتضى لهما هذه الحالة.

٤- القول بأنّ له جسماً وأنّه يتمشى على قدميه فى البستان، وفى الوقت نفسه يغفل ولا يعلم بما يدور حوله، بحيث يمكن لآدم وحواء أن يتواريا عن نظره وكل واحد من تلك الامور يعد كفراً، ولا ينسجم مع مقام الألوهية اطلاقاً.

٥- إنّ الشيطان (نعوذ بالله) أشد حرصاً من اللَّه تعالى على آدم وحواء لأنّه أرشدهما إلى معرفة الحسن والقبح، وهو لم يكف عن اضلاله فحسب بل دعاهما إلى طريق التكامل، بينما الحقيقة هى أننا ندين الشيطان فى علومنا ومعارفنا.

٦- إنَّ الجنة منزل الجهال والأغبياء لأنّ اللَّه أخرج آدم وحواء من الجنّة بجريرة حصولهما على العلم.

٧- إنّ الشيطان إنّما لعن وطرد من ساحة الرحمة الإلهيّة، لأنّه كان يطلب الخير لآدم، فعوقب من دون أن يرتكب ذنباً معيناً.

وكذلك فيما يخص الخرافات الاخرى كالعلم والمعرفة والحياة، وثمار أشجار البستان، أو أنّ غذاء الأفعى هو التراب دائماً، وأمثال ذلك.

والآن يمكننا اجراء مقارنة بسيطة بين ما بينه القرآن فى صدد تاريخ نشوء آدم وصراعه مع الشيطان، وبين ما قرأناه فى العبارات السابقة، لنعلم أيّهما هو الكتاب السماوى وأيّهما نتاج عقل إنسان جاهل؟

٢- لقاء إبراهيم عليه السلام بالملائكة

يبيّن القرآن الكريم قصة مجيء الملائكة إلى إبراهيم فى حالة مسيرتهم إلى قوم (لوط) لإنزال العقاب بحقهم فى قوله تعالى، على النحو التالى:

«وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا ابْرَاهِيمَ بالبُشْرَى قَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ ان جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ* فَلَمَّا رَءَآ ايْدِيَهُمْ لَاتَصِلُ الَيهِ نَكِرَهُمْ وَاوْجَسَ مِنْهُم خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ انَّا ارْسِلْنَا

نفحات القرآن، ج٨، ص: ١٥۴

الَى قَومِ لُوطٍ* وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرنَاهَا بِاسحقَ وَمِنْ وَرَاءِ اسحقَ يَعْقُوبَ* قَالَتْ يَاوَيْلَتَى ءَأَلِدُ وَانَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِى شَيْخاً إِنَّ هذَا لَشَىءٌ عَجِيبٌ* قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُم اهْلَ البَيْتِ إِنّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ* فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ ابْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ البُشْرَى يُجَادِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ* إِنَّ ابْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ* يَاابْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وإِنَّهُم آتِيهِم عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ». (هود/ ۶۹- ۷۶)

فى هذا المقطع التاريخى لا نواجه شيئا غريباً ومعقداً وغير متعارف أو غير منطقى مطلقاً، فالقصة واضحة المعالم بكل تفاصيلها: حيث أمر اللَّه الملائكة بمعاقبة قوم لوط عليه السلام، وقبل ذلك جاءوا إلى إبراهيم عليه السلام يبشرونه بأنّه سيرزق ولداً، فقرر أن يطعمهم، وسرعان ما اطلع علىحقيقة الأمر وأراد أن يشفع لقوم لوط عليه السلام ليدفع العذاب عنهم، غير أنّ الأمر قد انتهى فقوم لوط لا يستحقون الشفاعة، ثم يبشرونه وزوجته بولادة ابن لهما، وتنتهى فصول هذه القصة.

ولكن لنرى ماذا نسج الكتاب المقدس- (كما يسمونه)، وهو مورد قبول اليهود والنصارى من أساطير فى هذا المجال وما الذى طرحه من مسائل غير منطقية؟

نقرأ فى الفصل الثامن عشر من سفر التكوين مايلى:

«وظهر اللَّه تعالى فى معبر يسمى «بلوطستان» بينما كان (إبراهيم) جالساً على باب الخيمة فى يوم قائظ، وما أن فتح عينيه حتى رأى ثلاثة أشخاص واقفين أمامه. وحينما رآه أخذ يعدو من الخيمة لاستقباله وانحنى إلى الأرض وقال: سيدى الآن وقد حزتُ على التفاتة منك أرجوك ألّا ترحل قبل أن آتيك بقليل من الماء لأغسل رجليك، وتستريح تحت هذه الشجرة وسأجلب بعض الخبز لتقوى به قلبك، وبعد ذلك أرحل لأنّهم سيقولون لقد عمل كما أمره عندما عبر بالقرب منى.

ثمّ هرع إبراهيم إلى (سارة) فى الخيمة، وقال: عجلى فى ثلاثة مكاييل من الحنطة أعجنيها واخبزيها أقراصاً بالتنور، ثم اسرع إبراهيم إلى قطيع الأبقار وأخذ عجلًا ذكراً يافعاً واعطاه لشاب فأعده وحضره بسرعة ثم حمل الزبد والحليب مع العجل الذى أحضره ووضعه أمامه ووقف بالقرب منه تحت تلك الشجرة ليتناول طعامه!

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۵۵

ثمّ قال له: أين امرأتك سارة؟ فقال: ها هى فى الخيمة، وقال آخر: سأعيد لك عمرك وهذه امرأتك سارة سيكون لها ولدٌ، وكانت سارة عند باب الخيمة وراءه تسمع ذلك وهى وإبراهيم كانا عجوزين طاعنين فى السن، وانقطعت عن سارة عادة النساء ضحكت سارة من دون قصد، وقالت: بعد أن هرمت أنا وزوجى هل يمكن أن أكون مسرورة؟!

ثم قال اللَّه تعالى لإبراهيم: لماذا ضحكت سارة؟ قالت: هل سألد حقّاً بعدما أصبحت عجوزاً، وهل يصعب على اللَّه أمر ما، والحال سأعيد لك عمرك فى الوقت الموعود، وسيكون لسارة ولد، وانكرت سارة وقالت: لم أضحك، لأنّها ذعرت، فقال: ليس كذلك بل ضحكت حقاً!

ونهض هذا الشخص من هناك واتجه إلى سدوم وشايعه إبراهيم ليسلك الطريق.

وقال اللَّه: لا أخفى على إبراهيم الأمر الذى أفعله، لأنّ إبراهيم سيكون حقاً قوماً عظيماً وكبيراً وتتبرك به كافة طوائف الأرض ...

وقال اللَّه تعالى حيث إنّ صيحة (سدوم) و (عموراه) وعالية ذنوبهم عظيمة فسأهبط لأرى هل قاموا بهذه الصيحة كما أخبرت، وإذا لم يكن كذلك فسأطلع على الأمر، وتوجه هؤلاء الأشخاص من هناك وتحركوا باتجاه (سدوم) والحال أنّ إبراهيم لازال واقفاً أمام اللَّه، ثم أخذ إبراهيم يتقرب وقال: هل ستقوم باهلاك الصالح مع الطالح حقاً؟ من الممكن أن يوجد ۵۰ فرداً صالحاً، فى أعماق المدينة، هل يمكن أن تهلك المكان ولا تنقذه بسبب مايوجد فى الأعماق من ۵۰ فرد صالح، حاشا لك أن تقوم بهذا العمل وتهلك الصالحين مع الطالحين فيكون الصالح مساوياً للطالح، حاشا لك، هل يمكن لمن يحكم الأرض بأجمعها أن لا يكون عادلًا؟

ثم قال اللَّه تعالى إذا وجدت ۵۰ فرداً صالحاً فى وسط مدينة سدوم فسأخلص كافة أهل ذلك المكان بسببهم، وقال إبراهيم فى

الجواب: الآن وقد شرعت فى الكلام من التراب والرماد، أطلب من سيدى، لو انقصنا خمسة أفراد من مجموع ٥٠ فرد صالح .. هل يمكن أن تهلك كل أهل المدينة بسبب أولئك الخمسة أفراد؟ فقال اللَّه: لو وجدت ۴۵ فرداً لما أهلكتها.

نفحات القرآن، ج٨، ص: ١٥۶

وتحدث معه مرة اخرى قال لو وجد فيها ۴٠ شخصاً، فقال هو: لا أقوم بهذا الأمر بسبب ۴٠ شخصاً، وقال: إبراهيم أرجو أن لا يغضب سيدى حتى أتكلم بل وجد فيها ٣٠ شخصا، قال: لو وجدت فيها ٣٠ شخصا لما فعلت ذلك.

وقال اخرى والآن وقد منح لى أن أتكلم مع سيدى، بل وجد هناك ٢٠ شخصاً، قال هو لا أهلكها بسبب ٢٠ شخص، وقال تارة اخرى أرجو أن لا يغضب سيدى حتى أتكلم مرّة اخرى بل وجد هناك ١٠ أشخاص، فقال هو سوف لا أهلكلهم بسبب ١٠ أشخاص وعندما قضى اللَّه الكلام مع إبراهيم بدأ المسير وعاد إبراهيم إلى مكانه» «١».

استناداً إلى هذه المخطوطة فى التوراة إطلع اللَّه تعالى وثلاثة من الملائكة على إبراهيم فى معبر يدعى «بلوطستان» فى أحد الأيّام الحارة، ويقوم إبراهيم باستقبال الملائكة الثلاثة استقبالًا حاراً، وهم بدورهم يتناولون من طعامه (وفهم البعض من هذه العبارة أنّ اللَّه تعالى أكل من طعامه!! وأنّ هؤلاء النفر الثلاثة كانوا من المظاهر الثلاثية للَّهوفقاً لعقيدة التثليث) وعلى كل حال حمل اللَّه البشارة إلى «سارة» بأنها سترزق ولداً، إلّاأنّ سارة ضحكت وعاتب اللَّه سارة بالقول لماذا ضحكت فأنكرت ذلك بأنّها لم تضحك إلّاأنّ اللَّه أكد عليها بأنّك ضحكت.

ثم إنّ هؤلاء عزموا على الرحيل وأخذ إبراهيم يشايعهم، وفى منتصف الطريق يحدث اللَّه نفسه بأنّه لماذا لا يخبر إبراهيم بالقرار الذى يريد أن يتخذه فى حق قوم لوط، لذلك قال له: سمعت ضجة كبيرة من بلاد قوم لوط وقد نقل عنهم ارتكابهم لمعاصى كثيرة، فهبطت من السماء لاحقق النظر فيما أخبرت به هل كان صحيحاً أم لا، وإذا كان صحيحاً فسأبيدهم عن آخرهم، ثم إنّ هؤلاء الثلاثة تحركوا تجاه «سدوم» غير أنّ إبراهيم لم يزل واقفاً أمام اللَّه تعالى وبدأ بالمحاورة والمجادلة أو بالاصطلاح (الرد والبدل) فقال: ليس من العدالة بمكان أن تهلك هذه البلاد لو وجد فيها ٥٠ فرداً صالحاً، فطمأنه اللَّه تعالى على أنّه لو وجد فيها ذلك لما أهلكهم، ثم يبدأ إبراهيم بالعد التنازلى بشىء من الحيطة والحذر، وفى كل مرة

---

(١) التوراة، سفر التكوين، الفصل ١٨.

نفحات القرآن، ج٨، ص: ١٥٧

يشرع فى حديثه يطلب العفو والمسامحة لئلا يغضب اللَّه تعالى حتى أنّه قال مرتين بصراحة: (أرجو أن لا يسبب ذلك فى ازعاجك وغضبك) إلى أن وصل العدد إلى عشرة، ويبدو أنّ إبراهيم لم يجرأ على التنزل أكثر من ذلك، لذا فى هذه الحالة اختار السكوت على مواصلة الحديث، ولما وصلت المحاورة إلى طريق مسدود، انتهى كلام اللَّه مع إبراهيم وتحرك اللَّه تعالى باتجاه (سدوم) وعاد إبراهيم إلى مقره الأصلى، وانطلاقاً من أنّ المقصود من اللَّه عزّ وجلّ فى هذه الآيات (أو بالأصح، الجُمل) هو نفس بارى هذا الكون يمكن أن نستنتج المطالب التالية.

أ) نسبة الجسمانية إلى اللَّه تعالى وقد لاحظنا هذا الموضوع فى موارد متعددة من هذه العبارات.

ب) نسبة الجهل إلى اللَّه تعالى وذلك بقوله هبطت إلى الأرض، لاحقق النظر فى شأن قوم لوط.

ج) التعصب والتشدد الإلهى! بحيث يلتمس منه إبراهيم أن لا- يغضب، وكان يتوسل بالحيل اللطيفة، من أجل النزول بحالة الغلظة والحدة الإلهيّة ازاء عباده إلى ادنى مستوى ممكن!

د) الملائكة يتناولون الطعام!

ه) (سارة) تلك المرأة المؤمنة العارفة ضحكت على أثر بشارة اللَّه ثم بعد ذلك أنكرت أيضاً.

هـذه من نقاط الضـعف الواضـحة لهـذه الاسـطورة الكاذبـة فى التوراة المحرفة التى نسـبت إلى اللّه عز وجل ولكن عندما نطالع أصـل الواقعـة فى القرآن، لا نشاهـد أى واحـدة من هـذه الاشـتباهات والنسب الشـنيعة، فمن خلال هـذه المقارنـة تتبين حقائق كثيرة فى هذا المضمار.

۳- منشأ اختلاف اللغات

من المسائل المثيرة التى كانت تقع دائماً فى قائمة الأولويات الأساسية هى مسألة

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۵۸

اختلاف ألسـنة شـعوب العالم بالرغم من تولـدهم جميعاً من وأب واحـد وام واحدة، يقول القرآن الكريم فى هذا الصدد: «و مِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمواتِ وَالارْضِ وَاخْتِلافُ الْسِنَتِكُمْ وَالْوانِكُمْ انَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلعَالِمِينَ». (الروم/ ۲۲)

إنّنا اليوم نعلم أنّ منشأ اختلاف اللغات فى الواقع يكمن فى شيئين:

أولًا: وجود قـدرة (الابتكـار) والاـختراع فى ذهن البشـر فهم يعمـدون إلى خلق لغـات جديـدة وصـياغة جمل جديـدة فى سبيل تأمين حاجاتهم الذاتية.

وثانياً: الفواصل القائمة بين الملل والشـعوب، ففى العصور السابقة عندما كانت الأقوام والشـعوب تتباعد عن إحداها عن الاخرى كانت تتحقق تغيرات وتحولات فى ألفاظهم وعباراتهم القائمة شيئا فشيئاً، وذلك لعدم وجود وسائل الاعلام وأخذت هذه التغيرات تتضاعف عبر آلاف السنين فبدأت اللغات والألسنة تنفصل إحداها عن الاخرى فكان ذلك سبباً لبداية نشوء الاختلافات فى الألسنة واللغات.

وانطلاقاً من كون اختلاف اللغات هى أحـد دعائم التعرف على الأقوام المختلفة واعتبر ذلك من العوامل المساعدة والمؤثرة فى مسألة التعرف على المجتمع البشرى وإذا كـان القرآن الكريم يعـدّ اختلاف اللغات إلى جانب اختلاف الألوان من آياته وعلائمه فهى إشارة إلى هذه الحكمة نفسـها، لأنّ كلًا من اختلاف الألوان واللغات وسيلة وأداة للتعارف، غاية ما فى الأمر أن الأول خارج عن اختيار البشر والثانى له ارتباط واضح بالإبتكار والإبداع البشرى.

والآن لننظر إلى ما تقوله (التوراة) المحرفة على صعيد اختلاف اللغات.

فقد ورد فى الفصل الحادى عشر من سفر التكوين مايلى:

«وكـان اللسـان والكلاـم واحـد فى جميع أنحـاء الأـرض- وحـدث عنـدما أخـذوا بالرحيـل من الجـانب الشـرقى «إشارة إلى أبناء نوح وقبائلهم» أن وجـدوا وادياً فى أرض شـنعار «الاسم القـديم لبابل» وسـكنوا فيه- وقال بعضـهم للآخر هلموا لنصـنع الآجر وذلك بحرق اللبن بالنار، وكان الآجر يستعمل بدلًا عن الحجر، والطين اللازب بدلًا عن الجص- وقالوا

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۵۹

هلموا لنبنى لنـا بلـدة وبرجـاً يناطـح السـماء، ولنختار لنا إسـماً لئلا نتفرق على وجه الأرض- ولان اللّه تعالى أراد أن يرى مايصـنعه بنو البشـر من بلدة وبرج، نزل- وقال: إنّ هؤلاء القوم مجموعة واحدة وهم على حد سواء فى اللسان وشـرعوا بالقيام بهذا العمل، ولا شىء يمنعهم عما يريدون- بناءه- تعال لننزل إلى الأسـفل وهناك نقوم بخلط ألسـنتهم حتى لا يفهم أحدهم لسان الآخر- ومن هناك عمد اللّه إلى تفريقهم على وجه الأرض بأكملها، وحال دون اتمام بناء البلدة وصار سبباً لتسميتها ببابل، لأنّ اللّه خلط كل الأرض فيها، ومن هناك فرقهم على جميع وجه الأرض» «۱».

ووفقاً لهـذه الروايـة الموجودة فى التوراة، كانت لغـة جميع الناس واحدة على وجه الأرض فى البداية إلى أن اجتمع أبناء نوح وقبائلهم فى (شـنعار) بابل، وصـمموا على عمل مهم، وهو بناء بلدة كبيرة وبرجاً عالياً، ولم يكن هذا العمل مرضـياً عند اللّه تعالى فكان قلقاً من تحركهم ومايؤول ذلك من نتائـج لـذا قال لبعض الملائكة هيا اهبطوا إلى الأرض لايجاد الاختلاف فى السـنتهم حتى يتفرقوا (فأوجد

الاختلاف بينهم حتى افرض هيمنتى الإلهيـة) ووقع هـذا الأمر، ونظرا لعـدم فهم أحـدهم للغـة الآخر انتشـروا فى البقاع المختلفة، وحال دون اتمام بناء البرج العظيم.

وقد أشير فى كتاب (أعلام القرآن) إلى وجه تسمية «بابل» بهذا الاسم بالقول:

(رواة القصـة ظنوا أنّ لفظـة «بابل» مأخوذة من بلبل وقالوا إنّ الناس اجتمعوا فى هذه المدينة بعد طوفان نوح وشـيدوا فيها برجاً لتصـبح علامـة على مركزيتهم وشـكلوا فيها المجاميع الرسـمية ولكنهم عندما ناموا فى الليل واستيقظوا فى الصـباح اختلفت ألسـنتهم واخذ كل منهم يتكلم بلغة جديدة، وعلى أثر عدم حصول التفاهم بينهم افترقوا فى أنحاء العالم ونشأ من كل واحد منهم شعب من الشعوب «۲».

هذه الاسطورة تنطبق تماماً مع مانقلناه سابقاً فى متن التوراة التى دلت على أنّ

---

(۱) التوراة، سفر التكوين، الفصل ۱۱، من الجملة ۱ إلى ۹.

(۲) اعلام القرآن، ص ۲۳۸.

الاختلاف فى اللغات تحقق من قبل اللّه تعالى من أجل مقارعة قدرة المجتمع البابلى.

إلّـا أنّ السيد «هـاكس» مؤلف كتـاب «القـاموس المقـدس» له كلاـم آخر لتبرير مـا ورد من جمـل فى التوراة إذ يقول: «كـانت الـدنيا بأجمعها تمتلك لهجة ولغة واحدة إلى حدود الألفين عام تقريباً ... لكن بعد مائة سـنة من الطوفان، أى فى زمن عصيان الكوشيون «۱» فى بابل، أوجد اللّه تعالى بشـكل خارق للعادة الاختلاف فى لغاتهم، وبسط ولايته على وجه الأرض مع هذه الأقوام المختلفة والألسـنة المتنوعة» «۲».

وفى موضع آخر يقول:

«بناء على عدم كون هذه المسألة وهى (بناء البرج العالى) موافقة للإرادة الإلهية أوجد اللّه تعالى الاختلاف فى ألسـنتهم بحيث لم يكن بمقـدور أحدهم أن يفهم كلام الآخر ولهذا السـبب انتشـروا فى جميع بقاع المعمورة وتحققت على إثر ذلك امنية اللّه تعالى وتعمرت الأرض» «۳».

هـذه التعابير توحى إلى أنّ الغايـة الإلهيّة من ايجاد هذا التبعثر فى لغة مجتمع بابل، هى العمران والتشـييد، والحال أنّ التوراة فى العبارة التى نقلناها تقول بصـراحة: إنّ الهدف من ذلك لم يكن سوى إضـعاف مجتمع بابل وكسـر قدرتهم ووحدتهم وشوكتهم، إلّاأننا نعلم على كل حال بأنّ منشأ اختلاف اللغات لم يكن مثل هـذا الأمر على الاطلاق، وأنّ العامل الأساسـى لهـذا الأمر هو مرور الزمان وتباعد الأقوام فيما بينهم، ولازال الحديث فى المطلب متواصلًا أيضاً.

۴- عباده العجل من قبل بنى اسرائيل

وردت الإشارة إلى قصة عجل السامرى فى القرآن الكريم فبعدما جاء موسى عليه السلام إلى

---

(۱) «كوشيان»، هو اسم والد نمرود.

(۲) القاموس المقدس، مادة (اللغة).

(۳) المصدر السابق، مادة (بابل).

ملتقى الوعد الإلهى (جبل الطور) ليتسلم آيات الوحى وجه اللّه تعالى إليه الخطاب بالقول:

«قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَاضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ* فَرَجَعَ مُوسَى الَى قَوْمِهِ غَضْبانَ اسِفًا قَالَ يَاقَوْمِ الَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدَاً حَسَنًا افَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ امْ ارَدتُّم انْ يَحِلَّ عَلَيكُم غَضَبٌ مِن رَّبِّكُم فَاخْلَفْتُم مَّوْعِدِى* قالُوا مَا اخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا اوْزاراً مِنْ زِينَةِ القَوم فَقَذَفْنَاهَا فَكَذلِكَ الْقَى السَّامِرِيُّ* فَاخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقالُوا هَذَا الهُكُم وَالَهُ مُوسَى فَنَسِىَ* افَلَا يَرَوْنَ الّا يَرجِعُ الَيهِم قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُم ضَرًّا وَلا نَفْعَاً* وَلَقَدْ قَالَ لَهُم هَارُونُ مِنْ قَبْلُ ياقَومِ انَّمَا فُتِنْتُم بِهِ وَانَّ رَبَّكُمُ الرَّحمنُ فَاتَّبِعُونِى وَاطِيعُوا امْرِى* قَالُوا لَنْ نَّبْرَحَ عَلَيهِ عَاكِفِينَ حَتّى يَرْجِعَ الَيْنَا مُوسَى قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ اذْ رَايْتَهُم ضَلُّوا* الَّا تَتَّبِعَنِ افَعَصَيتَ امْرِى* قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَاتَاخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَاْسِى انِّى خَشِيتُ انْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى اسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرقُبْ قَوْلِى* قَال فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ* قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّن اثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى».

(طه/ ٨٥- ٩٦)

يستفاد من مجموع هذه الآيات أنّ بنى اسرائيل فى غياب موسى قد غرّر بهم «السامرى» ذلك الرجل المنحرف والذى يقال إنّ له خبرة فى صياغة الذهب، فصنع لهم من حُليّهم وزينتهم عجلًا من ذهب وانبرى هارون إلى منازلتهم. إلى أن يقول القرآن فى مقام اعتذار هارون من موسى «إنَّ القَومَ اسْتَضعَفُونِى وَكَادُوا يَقتُلُونَنى». (الأعراف/ ١٥٠)

وأخيراً انزعج موسى عليه السلام كثيراً من هذه القضية، وألقى باللائمة على أخيه، وعاتب السامرى، وأحرق صنمه بالنار، وذرَّ رماده فى البحر، ووجه عقاباً صارماً إلى بنى اسرائيل، والآن لنلقى نظرة على ما تقوله التوراة فى هذا المجال:

جاء فى الفصل الثانى من سفر الخروج فى التوراة مايلى:

«ولما رأى القوم أنّ موسى عليه السلام يتريث فى هبوطه من الجبل، اجتمع أولئك القوم عند

هارون)؛ وقالوا له: انهض واصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأننا لا نعلم ما حلّ بذلك الرجل الذى أخرجنا من ملك مصر- وقال لهم هارون أخرجوا الاقراط الذهبية من آذان نسائكم وصبيانكم! وبناتكم واجلبوها عندى- فاخرج جميع القوم الأقراط الذهبية التى كانت فى آذانهم وجاءوا بها إلى هارون، فأخذها من أيديهم، فصورها بشكل بارز، وصبت على شكل عجل وقالوا: ياأسرائيل هذه هى آلهتك التى أخرجتك من أرض مصر.

وعندما رأى هارون ذلك أقام مذبحة مقابل ذلك، ونادى هارون وقال غداً سيكون عيداً نعقده لهذا الإله- وقاموا فى وقت السحر وقربوا القرابين المحترقة وقذفوا الهدايا بالقرب منها للحفظ والسلامة وجلسوا للأكل والشرب وقاموا من فورهم للّعب- وقال اللّه تعالى لموسى عليه السلام انزل إلى قومك، لأنّ القوم الذين أخرجتهم من أرض مصر قد فسدوا- بل إنّهم انحرفوا بسرعة عن المسلك الذى أمرتهم به، وصنعوا لأنفسهم عجلًا أعدوه من قبل وسجدوا له وقدموا له قرباناً أيضاً، وقالوا لاسرائيل هاهى آلهتك التى اخرجتك من أرض مصر، لكن موسى طلب من ربّه وقال: لماذا تصب غضبك على القوم الذين أخرجتهم من أرض مصر بحولك العظيم لكى لا يتكلم أهل مصر بأنّك أخرجتهم لقصد سيّء، حتى تقضى عليهم فى وسط الجبال ولتبيدهم من على وجه الأرض؛ تنازل من شدّة سخطك! وغيّر إرادتك بصدد انزال البلاء على قومك، واذكر عبادك إبراهيم واسحاق واسرائيل، لأنّهم أقسموا بذاتك من أجلهم، قلت لهم: بأنّى سأبارك فى ذرّيتكم واجعل عددكم بعدد النجوم.

ووقع الأمر بالفعل، فعندما اقترب من المخيم شاهد العجل والمهرولين وثارت ثائرة موسى، فألقى الألواح من يده، وكسرها تحت الجبل، وأخذ العجل الذى صنعوه وأحرقه بالنار وسحقه إلى أن أصبح تراباً ثم نثره فى الماء، وسقى بنى اسرائيل منه! وقال موسى لهارون: ماذا فعل بك هؤلاء القوم حتى أقدمت على ارتكاب هذا الذنب العظيم، فقال هارون: لاتثر ثائرة سيدى لأنّك تعلم أنّهم يميلون إلى الخطايا، وقالوا لى اصنع لنا آلهة نقتدى بهم ونمضى خلفهم، لأنّ موسى الرجل الذى أخرجنا من أرض مصر، لا نعلم ماذا حلَّ به، وأنا قلت لهم: ليخرج كل من كان لديه قطع ذهبية، ثم أعطونى إيّاها والقيتها فى نار حامية فخرج هذا العجل ...

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۶۳

ورجع موسى إلى ربّه، وقال وا أسفى على ما ارتكب هؤلاء القوم من ذنب عظيم لأنّهم صنعوا لأنفسهم آلهة من ذهب، والآن لو رفعت عنهم وزرهم وإلّا ألتمس منك أن تمحو إسمى من الكتاب الذى عهدته لى (مقام النبوة)!

وقال اللَّه تعالى لموسى كل من أقام على الذنب امحو اسمه من كتابه، فإذن تحرك الآن وارشد هؤلاء القوم إلى المكان الذى أوصيتك به «۱».

ويستفاد من العبارات السابقة المنقولة عيناً من كتاب العهد القديم عدّة نكات:

۱- إنّ الأمر بصنع الصنم وعبادته صدر من هارون، كما أنّ الأمر تحقق بمعونته أيضاً وهو فضلًا عن عدم نهيه عن هذا العمل كان مروجا له ومرسياً لدعائمه، ولم يأت الحديث عن السامرى فى هذا الفصل مطلقاً، ترى هل يمكن تحقق هذا العمل من قبل شخص يقوم مقام موسى بصفته وزيراً مساعداً وملازماً ورئيساً لكهنة بنى اسرائيل- بشهادة التوراة- كيف يصدق العقل والمنطق أن تُنسب هذه النسبة القبيحة والمخجلة إلى هارون «۲»؟

۲- إنّ اللَّه تعالى اشتد غضبه على أثر هذه القضية بحيث أراد أن يبيد قوم موسى لكن موسى نبّهَ اللَّه تعالى إلى نكتتين (خصوصاً أنّه يخاطب اللَّه تعالى بجملة واحدة ويقول لا يعزب عن بالك ليهدأ من فورة غضبه وسخطه، الاولى إنّك إذا قمت بهذا العمل فإنّ أهل مصر سيقولون: ألهذه الغاية اخرجت بنى اسرائيل من مصر، كى تقتلهم فى وسط الجبال وتبيدهم من على وجه الأرض، والاخرى هى أنّك اعطيت موثقا بأنى سأزيد من نسل أبنائكم بعدد نجوم السماء، وهذا العمل لا ينسجم مع هذا القول والقسم! وتغيرت مشيئة اللَّه تعالى على أثر تنبيهات موسى له كما هو المصرح به فى التوراة.

۳- إنّ موسى عليه السلام بعد أن أحرق العجل بالنار، نثر رماده فى الماء وأعطى هذا الماء لبنى اسرائيل كى يشربوا منه فهل كانت هناك خصوصية فى الرماد المتبقى من العجل حتى يشربوا من مائه؟!

---

(۱) نقلًا عن التوراة المترجم والذى طبع فى بريطانيا سنة ۱۸۷۸ ص ۱۰۴ و ۱۰۵، (سفر الخروج الباب ۲۳).

(۲) مؤلف كتاب «القاموس المقدس» هاكس الاميركى يقدم توجيهاً مضحكاً لهذه القصة إذ يقول:

«لقد قام هارون بهذا العمل لإسكات القوم»، فمع أنّ هذا الكلام يصدق عليه القول المعروف «العذر أقبح من الفعل»، فهو لا يتلائم أبداً مع اقامة المذبحة والأمر بالقربان وتعيين العيد.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۶۴

۴- حينما اعترض موسى على هارون، قال هارون بهدوء تام له: أنت تعلم مدى ميل هؤلاء القوم نحو الخطايا وهم طلبوا منى وأنا لبيت طلبهم (ياله من عذر؟! ...) وموسى لم يعترض عليه فى المرة الثانية (فياله من مصلح متقاعس).

۵- وفى نهاية المطاف ذهب موسى عليه السلام إلى محضر القدس الإلهى، وهدد اللَّه بالاستقالة من مقام النبوة قائلًا: إذا غفرت لهؤلاء العاصين فهو الأحسن وإلّا فامحو اسمى من الكتاب الذى دونته! (واعهد بهذه المهمّة الشاقة إلى شخص آخر ...).

لاحظوا جيداً إلى ما رسمته التوراة عن اللَّه، والنبى، ووزيره، ثم قارنوا بعد ذلك بين هذا الفصل التاريخى وبين ماورد فى القرآن!

۵- قصة النبى داود عليه السلام وزوجة اوريا

من المقاطع التاريخية الاخرى للقرآن الكريم، هى مسألة «قضاء داود» النبى عليه السلام التى دارت بين أخوين متخاصمين.

ويفصل القرآن القول فى هذه القصة بالنحو التالى:

«وَهَل اتَاكَ نَبُؤُ الخَصمِ اذْ تَسَوَّرُوا المِحْرَابَ* اذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لاتَخَفْ خَصْمَانِ بَغى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا

بالحَقِّ وَلاتُشْطِطْ وَاهْدِنَا الَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ* انَّ هَـذَا اخِى لَهُ تِسعٌ وَتِسعُونَ نَعجَةً وَلِىَ نَعجةٌ وَاحِدةٌ فَقَالَ اكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى الخِطابِ* قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ الَى نِعَاجِهِ وَانَّ كَثيراً مِنَ الخُلَطَاءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ الَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاودُ انَّمَا فَتَنَّاهُ فَاستَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَانَابَ* فَغَفَرنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنا لَزُلفَى وحُسنَ مَآبٍ* يَادَاوُدُ انَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الارْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ وَلَاتَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الـذَّينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُم عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَومَ الحِسَابِ».

(ص/ ۲۱- ۲۶)

فى هذا المقطع التاريخى من حياة داود عليه السلام، لانقع على أى مفهوم سلبى سوى أنّه تسرع

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۶۵

شيئاً ما فى إصدار الحكم، فحينما طرح أحد هذين الأخوين ادّعاءه، أعرب عن قوله ومن دون أن يستمع إلى ادّعاءات الأخ الثانى: إنّ أخاك قد ظلمك وأنّه لاينبغى أن ينازعك فى صدد نعجة واحدة مع كل مايمتلكه من المال والثروة، وإن كان هذا لا يمثل الحكم النهائى لداود عليه السلام، إلّاأنّ نفس هذا المقدار من التسرع فى إصدار الحكم لا يصلح لمقام القضاء العادل بصورة عامة، وقضاء النبى داود عليه السلام بصورة خاصة، ولعل هذا هو السبب فى توبته واستغفاره وسجوده.

ولأجل هذه الدقّة فى مسألة القضاء والتماس المغفرة والمسامحة من هذه الزلة أعطاه اللّه المقام المحمود.

والشاهد على هذا التوجيه للآيات السابقة هى الآية التى وردت مباشرة بعد هذه الآيات وذلك عندما يقول: «يَادَاوُدُ انَّا جَعَلنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأَرضِ فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ وَلَاتَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ».

هذه الآية تدل بوضوح على أنّ المخالفة، أو بعبارة أصح، ترك الأولى الذى صدر من النبى داود عليه السلام لم يكن يتضمن فى حقيقته بعض الامور التى هى من قبيل الغرام والتعلق بزوجة أحد قادة جيشه الذى يدعى باسم (اوريا) وأمثال ذلك من المفاهيم التى نسجتها ذهنية أهل الأساطير استناداً إلى ما جاء فى التوراة.

والآن نعود إلى التوراة الفعلى المحرف لننظر إلى مايقوله فى هذا المجال:

نطالع فى الكتاب الثانى لاشموئيل هذه الحادثة:

«ووقع عند الغروب عندما نهض من فراشه وطاف حول سطح بيت الملك، ورأى من السطح امرأة تستحم وكانت هذه المرأة غاية فى الجمال والرشاقة، وأخذ داود يستفسر عن هذه المرأة، وقال شخص أليست «بث شبع» «۱» (وهذا اسمها) وهى بنت «اليعام» «۲» زوجة «اورياه حتّى» «۳»؟

---

(۱) «بث شبع» اسم تلك المرأة التى رآها داود- طبقاً لما تقوله التوراة- عارية من سطح البيت وعشقها، وهى ابنةاليعام أحد أصحاب المناصب العبرية.

(۲) المصدر السابق.

(۳) «اوريا»، بتشديد الياء اسم أحد القادة البارزين فى جيش داود، و «حتّى» بتشديد التاء وكسر الحاء نسبة إلى «حت بن كنعان» الذى يعرف قومه ب «بن حت».

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۶۶

وأرسل داود اليجيان فأمسكها وجيء بها إليه، فاضطجع معها وبعد التطهير من النجاسة ذهبت إلى بيتها وحملت المرأة، وأرسلت إلى داود من يخبره أنّها حاملة وأرسل داود إلى «يوآب» (قائد جيشه) أن ابعث الىّ «اورياه حتّى» وبعث يوآب اورياه إليه وقدم عليه، فسأله داود عن سلامة يوآب وسلامة القوم وعن استقرار أوضاع الحرب.

وقال داود لاوریاه انزل إلی بیتک واغسل رجلیک، وخرج اوریاه من قصر الملک واخرج من ورائه مقداراً من طعام الملک، إلّاأنّ اوریاه نام مع سائر عبید سیده فی رحبة القصر ولم ینزل فی بیته فحینما خبروا داود أنّ اوریاه لم ینزل فی بیته، فقال داود لاوریاه ألم تأتِ من السفر فلمَ لم تنزل فی بیتک؟ فقال اوریاه لداود: إنّ الصندوق واسرائیل ویهوداه یسکنون تحت السقوف ویجلس سیدی یوآب وعبیده فی خیمة وسط الصحراء، فهل یجوز لی أن أذهب إلی البیت لأقضی وطری من الطعام والشراب والنوم مع زوجتی، أقسم بحیاتک أن لا أقوم بهذا العمل قط ...

وتحقق الأمر بالفعل بأنّ کتب فی الصباح رسالة إلی «یوآب» وبعثها بید اوریاه، وکتب الرسالة بهذا المضمون. ألقوا بأوریاه فی اتون حرب ضاریة ثم امنعوه من الانسحاب، حتی یصاب ویموت «أی یقتل» وتحقق الأمر بالفعل بعدما ألقی یوآب نظرته علی المدینة، ووضع اوریاه فی الموضع الذی علم بوجود الرجال الشجعان فیه وخرج رجال المدینة، وقاتلوا ضد یوآب، وسقط البعض من القوم عبید داود ومات «اوریاه حتّی» أیضاً ... وعلمت زوجة اوریاه أنّ زوجها قد مات وأقامت العزاء فی حق زوجها وبعد انتهاء العزاء أرسل علی أثرها داود علیه السلام وأتی بها إلی بیته وأصبحت زوجته! ... غیر أنّ العمل الذی أقدم علیه داود لم یکن مرضیا عند اللّه تعالی »«۱».

خلاصة القصة أن داود علیه السلام عندما کان فی «اورشلیم» صعد فی یوم من الأیّام إلی سطح القصر، فوقعت عیناه علی البیت المجاور له، فشاهد امرأة عاریة فوقع حبّها فی قلبه وجلبت بعنف إلی قصره واضطجع معها فحملت منه!.

---

(۱) نقل عن الکتاب الثانی شموئیل الفصل ۱۱، من الجمل ۲، وحتی ۲۷.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۶۷

وکان زوج هذه المرأة من القادة المرموقین لجیش داود وکان رجلًا مجبولًا علی الصفاء ونقاء الطبع بحیث إنّه عندما عاد من میدان القتال لم تطاوعه نفسه أن یذهب إلی بیته ویضطجع مع زوجته ویستمتع بالأطعمة الممتازة مواساة منه لأترابه المقاتلین الذین لازالوا فی میدان القتال یعیشون فی الخیمة، بالرغم من ذلک أصدر داود قراراً مجحفاً جدّاً، فکتب رسالة إلی قائد عسکره (یوآب) وأعطاها بید (اوریاه) نفسه لیوصلها بدوره إلی قائد العسکر، وقد کتب فی هذه الرسالة أنّه لابدّ من تحدید مسؤولیته فی احدی المواضع الخطرة لساحة القتال، ثم تخلیة أطرافه کی یقضی علیه بسیف الأعداء، ونفذ هذا القرار الاجرامی المشؤوم، وقتل علی أثره اوریاه الطاهر القلب والنقی والشجاع واستأثر داود علیه السلام بزوجته!! .... ونقرأ فی الجملة الأخیرة من هذا الفصل «أنّ هذا العمل لم یقع مورداً لرضا وقبول الحق تعالی ».

والآن نعود إلی تتمة الحکایة، فقد ورد فی الفصل الآتی من التوراة مایلی:

«وبعث اللّه تعالی «ناثان» «۱» إلی داود فجاء إلیه، وقال له: کان فی احدی المدن شخصان أحدهما غنی والآخر فقیر، کان الغنی یمتلک غنماً وبقراً کثیراً جدّاً، ولم یکن الفقیر یمتلک سوی انثی واحدة من الغنم، اشتراها وربّاها وتعاهدها مع أولاده بالرعایة تأکل من طعامه وتشرب من إنائه وتنام فی احضانه وکانت کأحد بناته.

وقدم مسافر إلی هذا الغنی وآل علی نفسه أن یأخذ من أغنامه وأبقاره حتی یعده للمسافر الذی قدم علیه وأخذ نعجة ذلک الرجل الفقیر وذبحها علی شرف الرجل المسافر الذی قدم علیه.

وثارت ثائرة داود وقال ل (ناثان) أقسم باللّه الحی القیوم، أنّ الرجل الذی فعل ذلک یستحق القتل! وبسبب فعله هذا وعدم اعتنائه یجب أن یؤخذ منه!.

حینئذٍ قال ناثان لداود: إنّ ذلک الرجل هو أنت، یقول اللّه تعالی ربّ اسرائیل: أنا الذی

---

(۱) «ناثان أو ناتان» أحد أنبياء بنى اسرائيل وكان مستشاراً لداود.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۶۸

جعلتك سلطانا على اسرائيل وأنقذتك من ربقة «شاوول» «۱» ... لماذا استهنت بأمر اللَّه تعالى وارتكبت عملًا قبيحاً لديه فضربت، (اوریاه حِتّی) بالسيف، وفعلت مع زوجته فعلا قبيحاً، إنّك قتلته بسيف «بنى عمون» «۲»، والآن لن يفارق بيتك السيف أبداً، والسبب فى ذلك هو تحقيرك لى، أخذت امرأة (اوریاه حتی» لتكون زوجتك، واللَّه تعالى يقول سأشعل فتيل البلاء عليك من قصرك وساخذ زوجاتك من أمام عينيك واعطيها لصاحبك! وسينام مع نساءك فى عين هذه الشمس! لأنّك قمت بهذا العمل سراً أمّا أنا فسأنفذ العقاب فى وضح النهار بمرأى ومسمع من بنى اسرائيل.

وقال داود ل «ناثان»: إنّى خالفت أمر اللَّه تعالى بارتكابى الذنب، وقال «ناثان» لداود أيضاً: إنّ اللَّه قد عفى عن ذنبك ولن تموت ...

وقدم داود التعازى إلى زوجته «بث شبع» وقاربها، نام معها فأنجبت ولداً سماه (سليمان) وقد أحبّه اللَّه تعالى «۳».

تظهر فى هذا المقطع من القصة بعض الملاحظات التى ينبغى التدقيق فيها:

أ) لم يأت إلى داود عليه السلام من يطالب بإجراء العدالة وإنّما جاء إليه أحد أنبياء بنى اسرائيل فى ذلك العصر وقد كان مستشاراً لداود وذكر له على سبيل المثال أحد القصص للموعظة والنصيحة، ولم يتطرق الحديث فى هذه القصة إلى الأخوين، وإنّما اتّجه البحث إلى الرجلين الغنى والفقير وكان أحدهما يملك قطيعاً كبيراً من الأبقار والأغنام والآخر لا يملك سوى نعجة واحدة، كما أنّه لم يتطرق الحديث فى هذا الموضع أيضاً إلى مسألة استدعاء الشخص الأول من الثانى، بل غاية ما فى الأمر أنّه حينما قدم ضيف إلى الرجل الغنى ذبح النعجة التى كَبُرت على يد الرجل الثانى واعدها طعاماً للضيف.

ب) ذهب داود عليه السلام إلى الاعتقاد بأنّ مثل هذا الظالم يستحق القتل (ولماذا يتوجّب القتل من أجل اغتصاب نعجة واحدة؟!).

---

(۱) «شاوول»، أحد سلاطين بنى اسرائيل.

(۲) «بنى عمون»، كانت من الشعوب المحاربة التى تعيش فى الطرف الشرقى من «البحر الميت» وقد حاربهم داود.

(۳) الكتاب الثانى، شموئيل الفصل ۱۲، من الجملة ۱، وحتى ۲۴.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۶۹

ج) حكم داود عليه السلام بإعطاء أربع نعجات عوضا عن نعجة واحدة (فلماذا أربع مقابل واحدة؟!).

د) اعترف داود عليه السلام بذنبه وعمله القبيح فى صدد قضية زوجة «أوریاه».

ه) وعفى اللَّه تعالى عن داود (بهذه البساطة؟!).

و) وقدر اللَّه تعالى لداود جزاء دنيوياً واحداً وهو أن تقع نساؤه فى أيدى أصحابه فيمارسون معهنّ هذا العمل فى وضح النهار وبمرأى من بنى اسرائيل!.

ز) وبالنتيجة أصبحت إحدى هذه النساء أمّاً ل (سليمان) وولد منها سليمان وكان اللَّه تعالى يحبّه أيضاً؟!

إذا اعتقدنا بنبوة داود من قبل اللَّه تعالى كما يقر بذلك جميع المسلمين وتؤيدها مقاطع من عبارات التوراة، فليست هناك أدنى حاجة للبحث والمناقشة فى منافاة هذه الأعمال لمقام النبوة، ولا يقتصر هذا الأمر على عدم انسجامه مع منزلة النبوة بل يعتبر من‌الأعمال الإجرامية الكبرى والذى يعد حدوثه من قبل شخص عادى أمراً شاذاً وغريباً من نوعه ويستحق العقاب، فكيف يمكن التصديق بأنّ اللَّه تعالى يعفو ويتسامح بهذه البساطة عن إنسان قاتل عرض أحد قادة جيشه للقتل عمداً، من أجل الإستيلاء على زوجته ثم اقترف الزنى بها قبل الزواج منها؟!

وإذا اعتبرناه ملكاً من ملوك بنى اسرائيل فقط- كما وردت أحواله فى كتاب الملوك والسلاطين فى التوراة- لايقبل منه ذلك أيضاً

على الاطلاق لأنّه:

أولًا: لم يكن ملكاً عادياً، فالتوراة أفصح عن عظمة داود ومقامه الشامخ فى فصوله المختلفة، وأنّه هو الذى وضع الحجر الأساس للمعبد الكبير لبنى اسرائيل والذى لم يكتمل بناؤه فى زمانه بسبب الحروب الكثيرة وألقيت مسؤولية اكماله على ابنه سليمان، ترى هل يمكن صدور هذا العمل من قائد يمتلك مقاما معنوياً محموداً ويكون مسدداً ومؤيداً من قبل اللَّه تعالى !

ثانيا: من الكتب المعروفة للتوراة كتاب «مزامير داود» وأناشيده الاعتقادية ومناجاته،

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۷۰

فهل يمكن أن تقع مناجاة ودعوات «قاتل ارتكب الزنى بالمحصنة» ضمن الكتب السماوية؟

إلّا أننا عندما نعود إلى القرآن، نجد أنّه لا أثر لأىحديث عن عشق داود وإجرامه واقترافه للذنب ولا على فقرات هذه القصة الكاذبة، وإنّما ورد الحديث عن حكاية لأحد المحاكم العادلة- وذلك بشكل جدى لا على شكل مثال- والذى سبق شرحه من قبل، وممّا تجدر الإشارة إليه هو خلو القرآن من هذه التهم، والنكتة التى ينبغى ذكرها فى هذا الموضع أيضاً هى أنّ من المؤسف وقوع بعض المؤرخين والمفسرين الإسلاميين تحت تأثير الأساطير الكاذبة للتوراة ونقلهم إيّاها فى كتبهم، ومن البديهى أنّ أحاديث هذا النمط من الأفراد لا تمتلك أى قيمة علمية وتاريخية وتفسيرية، وذلك لعدم وجود أدنى دليل على مقالاتهم فى المنابع الإسلامية المعتبرة.

والجدير بالذكر هو مانقل عن الإمام على عليه السلام قوله: «لا اوتى برجل يزعم أن داود تزوج امرأة اوريا إلّاجلدته حدّين حدّاً للنبوّة وحداً للاسلام» «۱».

۶- هل أنّ سليمان عليه السلام بنى معبداً للأصنام؟!

ورد التعريف بشخصية سليمان عليه السلام فى القرآن الكريم على كونه نبياً كبيراً وقائداً مقتدراً امتلك سلطة عريضة وفريدة من نوعها، واشيد بعظمته وصلاحه فى سور قرآنية مختلفة، من جملتها سورة البقرة، النساء، الأنبياء، النمل، سبأ وص، فعلى سبيل المثال نقرأ قوله تعالى

«وَوَهَبنَا لِدَاودَ سُلَيمانَ نِعْمَ العَبدُ إِنَّهُ اوَّابٌ». (ص/ ۳۰)

القرآن فى حكايته المفصلة نوعاً ما التى أوردها فى السور المتقدمة الذكر عن هذا النبى الكبير ليس فقط لا ينسب له نسبة عبادة الصنم وصناعته مطلقاً وإنّما يعدّ كافة جوانب حياته نزيهة من أى لون من ألوان التلوث بالشرك والمعصية.

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۸، ص ۴۷۲.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۷۱

يكفى فى هذا المجال مراجعة سورة الأنبياء (الآيات ۲۸ إلى ۸۲) وسورة النمل (الآيات ۱۵ إلى ۴۴) وسورة ص (الآيات ۳۰ إلى ۴۰) وعلى الخصوص قصة هداية (ملكة سبأ) وانقاذها من براثن الشرك ودعوتها إلى التوحيد الخالص، وخاصة عندما يقول: «وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّها كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ». (النمل/ ۴۳) وأساساً، يستفاد من الآيات الموجودة فى نفس السورة أنّ الهدف الرئيسى لسليمان فى واقعة ملكة سبأ يكمن فى محاربة الشرك والوثنية وانقاذها وقومهامن وطأة هذا الانحراف، والآن نعود إلى التوراة الفعلى المحرف لننظر إلى ما يقوله فى شأن سليمان وما يختلقه من صورة بشعة عن هذا النبى العظيم، صورة لرجل مفتون بالأهواء بحيث ساقه هوسه وهواه إلى حد الشرك والوثنية وحتى بناء معبد للأصنام.

جاء فى الكتاب الأول للملوك والسلاطين مايلى: «وأحبّ الملك سليمان نساء أجنبيات كثيرة من الامم التى قال الربّ لبنى اسرائيل فى شأنها: لا تذهبوا إليهن ولا يذهبن إليكم فإنّهنّ يستميلنّ قلوبكم إلى اتباع آلهتهن، فتعلق بهن سليمان حبّاً لهنّ، وكان له سبع مائة

زوجة وثلاث مائة جارية فازاغت نساؤه قلبه، وفى زمن شيخوخة سليمان تمكن أزواجه من امالة قلبه إلى اتباع آلهة اخرى فلم يكن قلبه مخلصاً للربّ إلهَهُ، كما كان قبل داود أبيه فتبع سليمان عشتروت آلهة الصيدونيين، وملكوم بنى عمون ووضع الشر فى عينى الرب ولم يتبع الرب اتباعاً تاماً مثل أبيه داود.

حينئذٍ بنى سليمان مشرفاً لكاموش صنم قبيلة موآب فى الجبل المقابل لاورشليم ولمولك صنم بنى عمون، وكذلك صنع لجميع نسائه الغريبات اللواتى كن يحرقن البخور ويذبحن لآلهتهن، فغضب الرب على سليمان، لأنّ قلبه مال عن الرب إله اسرائيل الذى تراءى له مرّتين وأمره فى ذلك أن لا يتبع آلهة اخرى فلم يحفظ ما أمره الرب به، فقال الرب لسليمان: بما أنّ أمرك هذا، وأنت لم تحفظ عهدى وفرائضى التى أمرتك بها، فسأنتزع الملك عنك واسلمه إلى عبدك، إلّاأنّى لا أفعل ذلك فى أيّامك نظراً لداود أبيك، بل انتزعه من يد ابنك» «۱».

---

(۱) سفر الملوك الأول، الفصل ۱۱: ۳۳: ۳۴.

يستخلص من مضمون هذه القصة الكاذبة للتوراة مايلى:

أ) كان لسليمان عليه السلام علاقات كثيرة بنساء الطوائف المشركة، وقد استولى على قسم كبير منهن خلافا لأمر اللّه ثم أخذ يميل إلى معتقداهن شيئاً فشيئاً، وبالرغم من كونه شخصاً ميالًا للنساء فقد حاز على ۷۰۰ امرأة بالعقد الدائم و ۳۰۰ امرأة بالعقد المنقطع! إلّاأن تعلقه الشديد بالنساء ادى به إلى ابتعاده عن طريق اللّه تعالى .

ب) أصدر سليمان قرارا معلنا ببناء معبد للأصنام، وبنى على الجبل المطل على «اورشيلم» تلك البقعة المقدّسة لاسرائيل، معبدا لصنم كموش- الصنم المعروف لطائفة الموابيان- وصنم مولك- الصنم المختص بطائفة بنى عمون- وبرزت فى نفسه علاقة خاصة بصنم «عشتروت» الصنم المنسوب إلى الصيدونيان، وقد تحقق ذلك كله فى عهد شيخوخته!

ج) ووجه اللّه تعالى له عقابا على هذا الانحراف والذنب العظيم، وتبلور هذا العقاب فى أن يسلب منه مملكته وسلطانه ولكن لا يسلبه من يده شخصاً وإنّما يسلبه من يد ابنه «رحبعام»! وسيمنحه فرصة البقاء فى الحكم متى شاء، وهذا الأجل لكونه من عباد اللّه المقربين؛ لقد كان والد سليمان هو داود، ذلك العبد المقرب عند اللّه والذى أقدم على قتل النفس وارتكاب الزنى بالمحصنة، وهى زوجة أحد قادة جيشه!!

هل يمكن لأحد الأشخاص العقلاء أن ينسب هذه التهم الفظيعة إلى ساحة إنسان مقدس كالنبى سليمان؟!

إذا اعتقدنا بنبوة سليمان عليه السلام- كما صرح به القرآن- فالأمر واضح وإذا وضعناه فى قائمة ملوك بنى اسرائيل، فكذلك لا يمكن أن تصدق فى حقه مثل هذه التُهم أيضاً.

ولو أننا أنكرنا نبوته فمن المسلم أنّه كان تالياً للنبى من بعده، لأنّ من الكتب التى اشتملت على أقوال هذا الرجل الإلهى الكبير كتابين من كتب العهد القديم أحدهما يقع تحت عنوان «مواعظ سليمان» أو «حكم سليمان» والآخر تحت عنوان «نشيد سليمان» بالإضافة إلى أنّ التوراة فى الفصل الثالث من الكتاب الأول لتاريخ الملوك «الجمل من ۵

إلى الأخير» يقول بصراحة: «لقد تجلى اللّه تعالى لسليمان فى المنام ليلًا، وخاطبه بالقول، أطلب منى ما تشاء ونظراً لصغر سنه وقلة تجربته طلب سليمان من اللّه الحكمة، واستجاب اللّه دعاءه وأعطاه الفهم والحكمة وقال: إنّ هذا الفهم والحكمة التى أعطيته إليك لم أعطه لأحد من قبلك ولا من بعدك».

هل يعقل أن يتلقى أحد الأشخاص هذا النوع الفريد من العلم والحكمة من اللّه تعالى فى أيّام شبابه ثم يقدم على بناء معبد للأصنام

ارضاءً لرغبات زوجاته فى عهد كِبَرِهِ ونضج عقله واكتمال إدراكه؟!

ممّا لا يقبل الشك أنّ هذه الأساطير الكاذبة كانت من صنع الأدمغة العاجزة فى السابق، ومن المؤسف حقاً أنّ عدّة من الأفراد الجهلاء وضعوها فى سلسلة الكتب السماوية بعد ذلك، وقد أطلقوا على هذا الكلام «اللا مقدّس» اسم «الكتاب المقدّس» لكن، هل ترى واحدة من هذه النسب السيئة فى الوقائع والحوادث التى ينقلها القرآن؟ فاذا دققت وبحثت فسوف يكون الجواب بالنفى.

۷- المنافسة العجيبة بين يعقوب وأخيه عيسو

القرآن الكريم يسدى احتراماً بالغاً لابراهيم عليه السلام وابنه «اسحاق» وحفيده «يعقوب» ويشيد بعظمتهم واخلاصهم، فنقرأ فى قوله تعالى «وَاذكُر عبَادَنَا إبرَاهِيمَ وَإِسحَاقَ وَيَعقُوبَ أُولِى الايدِى وَالأَبْصَارِ* إِنَّا اخْلَصنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكرَى الدَّارِ* وَإِنَّهُم عِندَنَا لَمِنَ المُصطَفَينَ الاخْيَارِ». (ص/ ۴۵- ۴۷)

وفى موضع آخر فى قوله تعالى فى شأن هذه الاسرة: «وَوَهَبنَا لَهُ إِسحَقَ ويَعقُوبَ نَافِلَةً وَكُلّاً جَعَلنا صَالِحِينَ* وَجَعَلْنَاهُم أَئِمَّةً يَهدُونَ بِأَمرِنَا وَأَوحَينَا إِلَيهِم فِعلَ الخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَآءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ». (الانبياء/ ۷۲- ۷۳)

هذه التعبيرات إن دلت على شىء فانما تدل على أنّ هؤلاء رجال موحدون، على جانب

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۷۴

كبير من الإيمان وصفاء السريرة وعلى اطلاع ولياقة عالية فى قيادة البشرية، ولذا فهم مطهرون ومنزهون عن كل رجس ودنس، لكن عندما يدوّن تاريخ حياة هؤلاء على أيدى أصحاب الخرافات يرسمون عنهم صورة قبيحة جدّاً تنزل بهم إلى مستوى الأشخاص الانتهازيين والجشعين والمتحللين الذين لا يدخرون وسعاً فى سبيل التوصل إلى منافعهم اللامشروعة، ولإثبات حقيقة هذا الكلام نلتجىء إلى التوراة المحرف لنرى ما اختلقه من ملامح ومعالم رهيبة عن «اسحاق» و «يعقوب» والأخ الأكبر ليعقوب «عيسو»:

«وحدث لما شاخ اسحاق وكلّت عيناه عن النظر فدعا عيسو ابنه الأكبر وقال له: يابنى، فقال هاأنذا، فقال: إننى قد شخت ولا أعرف يوم وفاتى فالآن خذ عدتك، واسلحتك وقوسك واخرج إلى البرية وتصيد لى صيداً واصنع لى أطعمة كما أحب، وائتنى بها لآكل حتى تباركك نفسى قبل أن أموت.

وكانت ربقاه سامعة لكلام اسحق مع عيسو ابنه، فذهب عيسو إلى البرية كى يصطاد صيداً ليأتى به، وأما ربقاه فكلمت يعقوب ابنها قائلة: إنّى قد سمعت أباك يكلم عيسو أخاك قائلا: ائتنى بصيد وأصنع لى أطعمة لآكل واباركك أمام الرب قبل وفاتى، فالآن يابنى اسمع لقولى فى ما أمرك به، اذهب إلى الغنم وخذ لى من هناك نعجتين جيدتين، فاصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب وحضرها إليه ليأكل حتى يباركك قبل وفاته، فقال يعقوب لربقاه امّه: هو ذا عيسو أخى رجل أشعر، وأنا رجل أملس ربّما يجسنى أبى فاكون فى عينيه كمتهاون وأجلب على نفسى لعنة لا- بركة، فقالت له امّه: لعنتك علىَّ يابنى، اسمع لقولى فقط واذهب. فذهب وأحضر لُامه فصنعت منها أطعمة كما كان أبوه يحب وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التى كانت عندها فى البيت وألبست يعقوب ابنها الأصغر، وشدته على يديه وعنقه جلود جدى المعزى واعطت الأطعمة والخبز التى صنعت فى يد يعقوب ابنها فدخل إلى أبيه وقال: ياأبى، هاأنذا. من أنت ياإبنى؟ فقال يعقوب لأبيه: أنا عيسو بكرك، قد فعلت كما كلمتنى، قم واجلس وكل من صيدى لكى تباركنى نفسك.

فقال اسحق لابنه: ما اسرع ما اصطدت يابنى؟ فقال: إنّ الرب إلهك قد يسرلى فقال

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۷۵

اسحق ليعقوب: تقدم لاحسك يابنى، أأنت هو ابنى عيسو أم لا؟ فتقدم يعقوب إلى اسحق أبيه؟، فجسه وقال: الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو، ولم يعرفه لأنّ يديه كانتا مشعرتين كيدى عيسو أخيه فباركه، وقال: هل أنت ابنى عيسو، فقال: أنا هو، فقال

قدم لى لآكل من صيد ابنى حتى تباركك نفسى، فقدم له فاكل واحضر له خمرا فشرب، فقال له اسحق أبوه: تقدم وقبلنى يابنى، فتقدم وقبله فشم رائحة ثيابه وباركه وقال: انظر، رائحة ابنى كرائحة حقل قد باركه الرب.

فليعطك اللَّه من ندى السماء ومن دسم الأرض وكثرة الحنطة والخمر، ليستعبد لك شعوب، وتسجد لك قبائل، كن سيداً لاخوتك وليسجد لك بنو امك، ليكن لاعنوك ملعونين ومباركوك مباركين، وحدث عندما فرغ اسحق من بركة يعقوب وفى حين خروج يعقوب من عند أبيه فاذا بعيسو اخاه قد اتى بصيده، فصنع هو اطعمة ودخل بها إلى أبيه، وقال لابيه: ليقم أبى ويأكل من صيد ابنه حتى تباركنى نفسك فقال له اسحق أبوه: من أنت؟

فقال؟: أنا ابنك، بكرك عيسو فارتعد اسحق ارتعاداً عظيماً، وقال: فمن هو الذى اصطاد صيداً وأتى به الىّ فأكلت منه قبل أن تجىء وباركته؟ فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة وقال لأبيه: باركنى أنا أيضاً ياأبى، فقال: قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك» «۱».

ونطالع فى الفصل الآتى هذا المعنى

«ثم إنّ اسحاق استدعى يعقوب ودعى له بالخير والبركة، وأوصاه أيضاً بوصية وقال لا تتزوج بامرأة من بنات كنعان ... وإنّ اللَّه القادر المطلق سيبارك لك وسيحيطك برعايته وعنايته لكى تصبح قيّماً على جماعة الامم، وليمدك اللَّه ولك ولنسلك ببركة إبراهيم حتى ترث الأرض التى اعطاها اللَّه لابراهيم ليسافر فيها» «۲».

خلاصة الحكاية تقع فى أنّ اسحاق كان له ولدان الأكبر يسمّى «عيسو» والأصغر يسمّى

---

(۱) التوراة، سفر التكوين، فصل ۲۷، الجمل ۱- ۴۰.

(۲) المصدر السابق، فصل ۲۸، الجمل ۱- ۴.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۷۶

«يعقوب»، وفى آواخر أيّام حياته حينما فقد بصره قرّر أن يجعل ولده الأكبر وصيّاً ونائباً عنه من بعده ويبارك له (يستفاد من القرائن أنّ المقصود من هذه البركة هو نفس مقام النبوة والروح الرساليّة وقيادة الامة) إلّاأنّ يعقوب توسّل بالحيلة ولبِس ثوب أخيه الأكبر بأمر من أمّه التى كانت متعلّقة به وتفضّل له أن يقوم مقام اسحاق، ثمَّ ربط على يده وعنقه قطعة من جلد الغنم لأن بدن أخيه كان مكتسياً بالشعر، ممّا قد يفضى به ذلك إلى إفشاء سره لدى أبيه (الإنسان الذى يكسوه الشعر إلى هذا الحد بحيث يكون بدنه كالغنم غريب فى بابه واقعاً) وبالتالى شغل مكان أخيه الأكبر بالحيلة والكذب والخداع، واقتنع والده العجوز بلمس يده المكسّوة بالصوف فقط مع أنّه قد عرف صوته فى الوهلة الاولى ثمَّ إنّه دَعا فى حقه وبارك له فى عمله وأعدّه وصيّاً ونائباً عنه وقيّماً على أهله وأسرته، وحينما اطلع اخوه الأكبر على القضية بكى بكاءً مرّاً، إلّاأنّ الأمر قد انقضى فحينما طلب من أبيه أن ينزل البركة عليه أيضاً، سمع جواباً يقضى بانتهاء البركة وأنّ ما كان منها استأثر به أخوه يعقوب ولم يعد هناك فرصة لاعادة النظر!!

والغريب فى الأمر هو ماذهب إليه إله اسحاق من تأييده هذا العمل أيضاً، وتسليم مقام النبوة لرجل محتال وكذاب ومزيف، وعلى حد قول التوراة أنّه انشأه وتعاهده وطاف به كثيراً وجعله مالكا للجماعة والامم ووارثا لملك ومآثر نبيه (إبراهيم) العظيم، وليس فقط اسرة اسحاق مأمورة باتباعه فحسب، بل إنّ سائر الناس مأمورون باتباعه والخضوع له تعظيما واجلالًا له.

كيف يمكن اعتبار هذه الاسطورة الكاذبة والمضحكة على أنّها وحى سماوى؟!

لو أنّ شخصاً استولى على مقام بسيط بالحيلة والكذب- كأن يرتدى على سبيل المثال زيا عسكريا متواضعاً- فإنّه بعد الكشف عن حقيقته ليس فقط يسلبون منه ذلك، ويخلعون عنه هذا اللباس بل يعاقبونه على هذا العمل أيضاً، لكن كيف يمكن الاستيلاء على مقام النبوة والحصول على البركة الإلهيّة وقيادة المجتمع بالخداع والمكر، ثم الإبقاء عليه بعد الكشف عن حقيقته المخزية؟!

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۷۷

۸- نسبة صنع الخمر إلى عيسى المسيح عليه السلام

أولى القرآن الكريم احتراماً بالغاً للسيد المسيح عليه السلام وتحدث عنه فى سور متعددة (من قبيل سورة البقرة وآل عمران والمائدة وبعض السور الاخرى ، وأشار إليه بكونه أحد أنبياء أولى العزم (صاحب شريعة وكتاب سماوى) وله معجزات كثيرة، نقرأ فى قوله تعالى

«وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالحِكمَةَ وَالتَّورَاةَ وَالإنجِيلَ* وَرَسُولًا الَى بَنِى اسْرَائِيلَ انِّى قَد جِئتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُم انِّى اخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيراً بِاذنِ اللَّهِ وَابرِئُ الأَكمَهَ وَالأَبرَصَ وَاحِى المَوتَى بِاذنِ اللَّهِ وأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بِيُوتِكُم انَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُم انْ كُنْتُم مُّؤمِنِينَ». (آل عمران/ ۴۸- ۴۹)

وبناء على ذلك تشكل المعاجز الأربع من (خلق الطير) و (شفاء المرضى الميؤوس من معالجتهم) و (إحياء الأموات) و (الإخبار عن الغيب) (التى كانت تتحقق بإذن اللَّه) عظمة معاجز السيد المسيح عليه السلام (وفقاً لبيان القرآن).

وفى موضع آخر يعد نزول المائدة السماوية (طعام الجنّة) إحدى معاجز المسيح عليه السلام وذلك فى (سورة المائدة آية ۱۱۵) نظراً إلى اعتبار المسائل المعقولة والمقبولة من المعاجز بصورة عامة، والآن لنلقى نظرة على ما تقوله (الأناجيل) فى هذا المجال، ففى الباب الثانى من «انجيل يوحنا» الأنجيل الرابع من الأناجيل الأربعة ورد هذا المعنى:

«وفى اليوم الثالث كان فى قاناى الجليل (أحد مدن بيت المقدس) عرس، وكانت ام يسوع هناك فدعى يسوع وتلاميذه إلى العرس ونفذت الخمر، فقالت له امه: ما بقى عندهم خمر، فأجابها: ومالى ولك يا امرأة ما جاءت ساعتى بعد، فقالت امه للخدم: اعملوا مايأمركم به.

وكان هناك ستة جرات من حجر يتطهر اليهود بمائها على عادتهم، يسع كل واحد منها مقدار مكيالين أوثلاثة، فقال يسوع للخدم: املأوا الجرات بالماء فملأوها حتى فاضت فقال لهم: استقوا الآن وناولوا رئيس الوليمة، فناولوه فلما ذاق الماء الذى صار خمرا، وكان لا يعرف من أين جاءت الخمر، لكن الخدم الذين استقوا منه كانوا يعرفون، دعا العريس

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۷۸

وقال له: جميع الناس يقدمون الخمر الجيد أولًا، حتى إذا سَكَر الضيوف، قدموا إليهم الخمر الردىء، أما انت فأخرت الخمر الجيد إلى الآن» «۱».

يستشف من هذه القصة النكات التالية:

۱- لما دخل السيد المسيح مع امّه مريم عليهما السلام إلى محفل العرس ونفذت المشروبات الخمرية، أقدم وبإيعاز من امه على خلق المعجزة، وأبدل ست جرات ممتلئة بالماء إلى خمور صافية، بحيث إنّ الطعم اللذيذ لها استهوى على أفئدة الحاضرين.

۲- هذه هى المعجزة الاولى من نوعها للمسيح عليه السلام والتى تحققت بإيعاز من أمه.

۳- عظم شأن السيد المسيح وجلَّ قدره من خلال هذه المعجزة (تبديل الماء إلى خمر) ممّا أدى ذلك إلى إيمان تلامذته به.

والطريف هنا أنّ أهالى مدينة قاناى الجليل، لم يبرحوا يصنعون جرات المياه ويبيعوها للزوار والسياح احتفاء بذكرى جرات الخمر التى حدثت بإعجاز السيد المسيح عليه السلام.

و ممّا لا شك فيه أنّ هذه هى اسطورة من الأساطير المفتعلة والكاذبة المنسوبة إلى هذا النبى العظيم، ولا يخفى على أحد ما للخمر من قبح واضرار غير قابلة للحصر، وقد منعت وحرمت فى كافة الأديان السماوية، حتى أنّه سبق التصريح بها فى نفس الكتب المقدّسة لليهود والنصارى، كما ورد ذم الخمر بلهجة شديدة فى كتاب «أمثال سليمان» إذ يقول هناك:

«لمن الويل لمن الشقاوة لمن المخاصمات لمن الكرب لمن الجروح بلاـ سبب لمن ازمهرار العينين، للذين يدمنون الخمر الذين يدخلون فى طلب الشراب الممزوج، لاـ تنظر إلى الخمر إذا إحمّرت حين تظهر حبابها فى الكأس وساعت مرقوقة وفى الآخر تلسع كالحية وتلدغ كالاقحوان» «۲».

يفهم من هذه العبارة جيدا أنّ مفاسد الخمرة كثيرة جدّاً فهى السبب الأساسى لكل الالام

---

(۱) انجيل يوحنا عرس قانا الجليل ص ۲۵۶.

(۲) العهد العتيق، كتاب أمثال سليمان، فصل ۲۳.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۷۹

الجسدية والهموم النفسية والفكرية والمنازعات والمصادمات والاختلافات الاجتماعية، وهى من عوامل شقاء الإنسان وبؤسه، وتفعل فعلها فى وجود البشر كسم الحية وهى مبرر كاف على انعدام العفة والسقوط فى وحل الانحرافات الجنسية السيئة والوقوع فى شرك أنواع التخيلات والابتلاءات التى طرحت فى هذه العبارات بشكلٍ واضح جدّاً.

ونقرأ فى موضع آخر من كتاب «أمثال سليمان» هذه العبارة: الخمرة المستهزئة (وهى التى تدعو الإنسان إلى أن يقوم بحركات ويتحدث بكلمات تفضى إلى الاستهزاء والسخرية) والمسكرات الصاخبة (وهى التى تسبب المنازعات والمخاصمات) وكل من يقع فى أسره لايصبح حكيماً «۱».

كما ونقرأ فى الفصل ۲۸ من كتاب اشعياء هذه العبارة أيضاً: «أما هؤلاء (إشارة إلى مجموعة من المنحرفين) فقد ضلوا طريقهم وفقدوا صوابهم بفعل الخمر والمسكرات أيضاً».

وجاء فى موضع آخر من نفس الكتاب هذا المعنى: «الويل لُاولئك الذين استعانوا بشرب الخمرة على الغلبة وبمزج المسكرات على القوة» «۲»، أى أنّ قواهم تتحرك من خلال شرب الخمرة وتستعد للنزاع.

وجاء فى كتاب هوشيع (من التوراة): «إنّ الزنا والخمر وعصير العنب «بصورته المسكرة» كل منهم يؤدّى إلى ضعف القلب» «۳».

يتضح من هذه العبارات جيداً أنّ المعوّل فى حرمة الخمر ليس كونها من المشروبات العادية إنّما لكونها من المائعات المسكرة التى تلحق الضرر بالجسم والروح الإنسانية وتؤدى إلى الضياع والشقاء.

بناء على هذا أليس من المخجل أن يقال إنّ المعجزة الاولى للسيد المسيح عليه السلام التى ظهرت فى مدينة قاناى الجليل تبلورت فى التحول الذى طرأ ببركته على عدّة ظروف كبيرة

---

(۱) عهد عتيق، كتاب أمثال سليمان، فصل ۲۰، جملة ۱.

(۲) كتاب اشعياء، فصل ۵، جملة ۲۲.

(۳) كتاب هوشيع فصل ۴، جملة ۱۱.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۸۰

ممتلئة بالماء إلى خمور صافية، وعندما نقارن ذلك مع المعاجز القرآنية للسيد المسيح يتضح لنا مدى الفاصلة بين التواريخ المختلفة فى ذهن البشر وبين التاريخ الواقعى الناشىء من طريق الوحى.

۹- المسيح عليه السلام ودعوى الالوهية

القرآن يبرىء ساحة السيد المسيح عليه السلام من أى لون من ألوان الادّعاء المزيف على صعيد الالوهية، ويقول بصراحة: «وَإِذ قَالَ

اللَّهُ يَاعِيسَى ابن مَريَمَ ءَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونى وَأُمِّىَ إِلَهَينِ مِن دوُنِ اللَّهِ قَالَ سُبحَانَكَ مَايَكوُنُ لِى ان اقُولَ مَالَيسَ لِى بِحَقٍّ انْ كُنتُ قُلتُهُ فَقَد عَلِمتَهُ تَعلَمُ مَافِى نَفسِى وَلَا أَعلَمُ مَافِى نَفسِكَ انَّكَ انتَ عَلَّامُ الغُيوُبِ* مَاقُلتُ لَهُم إِلَّا مَاأَمَرتَنِى بِهِ ان اعبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُم وَكُنتُ عَلَيهِم شَهِيداً مَّادُمتُ فِيهِم فَلَمَّا تَوَفَّيتَنِى كُنتَ انتَ الرَّقِيبَ عَلَيهِم وَانتَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ شَهِيدٌ». (المائدة/ ۱۱۶- ۱۱۷)

والآن لننظر إلى ماتقوله الأناجيل فى صدد المسيح عليه السلام.

نقرأ فى انجيل يوحنا هذا المعنى:

«وجاء عيد التجديد فى اورشليم، وذلك فى الشتاء وكان يسوع يتمشى فى الهيكل فى رواق سليمان فتجمع اليهود حوله وقالوا له: «إلى متى تبقينا حائرين؟ قل لنا بصراحة: هل أنت مسيح؟

فأجابهم يسوع: «قلت لكم، ولكنكم لاتصدقون، الأعمال التى أعملها بأسم أبى تشهد لى، وكيف تصدقون وما أنتم من خرافى، خرافى تسمع صوتى وأنا أعرفها وهى تتبعنى اعطيها الحياة الأبدية فلا تهلك أبداً ولايخطفها أحد منى الأب الذى وهبها لى هو أعظم من كل موجود، وما من أحد يقدر أن يخطف من يد الأب شيئاً، أنا والأب واحد».

وجاء اليهود بحجارة ليرجموه فقال لهم يسوع: «أريتكم كثيرا من الأعمال الصالحة من عند الأب، فلاى عمل منها ترجمونى

أجابه اليهود: لا نرجمك لاى عمل صالح عملت بل لتجديفك فما أنت إلّاإنسان، لكنك جعلت نفسك إلها. نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۸۱

فقال لهم يسوع: «أما جاء فى شريعتكم أنّ اللَّه قال: أنتم آلهة؟ ماذا كان الذين تكلموا بوحى من اللَّه يدعوهم اللَّه آلهة، على حد قول الشريعة التى لا ينقضها أحد، فكيف تقولون لى، أنا الذى قدّسه الأب وأرسله إلى العالم: أنت تجدف لأنّى قلت: أنا ابن اللَّه؟ إذا كنت لا أعمل أعمال أبى فلا تصدقونى وإذا كنت اعملها فصدقوا هذه الأعمال إن كنتم لا تصدقونى حتى تعرفوا وتؤمنوا أنّ الأب فىّ وأنا فى الأب» «۱».

يتضح من خلال هذه العبارات عدّة نكات:

۱- اتّهم اليهود عيسى من ذى قبل أنّه ادعى الالوهية وأصدروا حكماً بتكفيره ورميه بالحصى

۲- يقول المسيح تارة فى صدد الدفاع عن نفسه: أنا الذى قلت إنّى ابن اللَّه، وأنّ أبى اللَّه، وتارة اخرى يقول: أنا أقوم بأعمال إلهيّة، ولو لم أنجز ذلك فلا تصدقوا كلامى، ولو انجزت ذلك فصدقوا أنى حالٌّ فى اللَّه واللَّه حالٌّ فى نفسى.

إنّ التعبير بالأب والابن والقيام بأعمال إلهيّة، والقول بحلول الإنسان فى اللَّه واللَّه فى الإنسان، كلها تعبيرات إلحادية، لا تلتئم مع كافة الموازين المنطقية، ولا دليل على أن يدلى أحد الأنبياء بمثل هذه العبارات فى حق نفسه وحق اللَّه تعالى ولو بصورة مجازية، لأنّ ذلك يؤدى إلى وقوع البسطاء فى دوامة الاشتباه والالتباس، ويساهم فى أن يجد الأعداء الذريعة المناسبة لأنّ يرموه بالحصى متى ماشاءوا.

هذا فى الوقت الذى يقول القرآن فى الآيات التى تلوناها سابقاً بصراحة تامة إنّه لم يصدر من المسيح عليه السلام أى ادّعاء سوى العبودية لله ودعوى النبوة والرسالة وكان فى غاية الخضوع والتذلل فى مجال العبودية والتسليم لأمر اللَّه تعالى

وفى آيات اخرى يقول أيضاً: إنّ كل ما أنجزه من معاجز كان جميعه بإذن اللَّه، نقرأ فى قوله تعالى «وَاذْ تَخلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيئَةِ الطَّيرِ بِاذْنِى فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيراً بِاذنِى وَتُبرِئُ الاكمَهَ وَالأَبرَصَ بِاذنِى وَاذْ تُخْرِجُ المَوْتَى بِاذْنِى». (المائدة/ ۱۱۰)

---

(۱) انجيل يوحنا، باب، اليهود يرفضون المسيح، ص ۲۸۹.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۸۲

إنّ المقارنة بين هذا النوع من المسائل التاريخية فى القرآن وبين ماورد منها فى الانجيل من شأنه أن يضع الحدود الفاصلة بينهما ويبين

أيّهما هو الصادر من قبل اللّه حقاً، وأيّهما هو المحرف والمختلق من الذهن البشرى.

۱۰- حضور المرأة العاصية فى مجلس السيد المسيح عليه السلام

لم تظهر فى الآيات المختلفة للقرآن التى وردت فى حق السيد المسيح حتى الحد الأدنى من ترك الأولى وقد وصفت الآيات التى وردت فى شأن أمه مريم قداستها فى أجلى صورها، بحيث إنّها ذعرت بشدة والتجأت إلى اللّه حينما شاهدت ملك الوحى الذى جاءها من قبل اللّه ليهبها ولداً، (لأنّه ظهر أمامها على هيئة شاب جميل مجهول) حتى أنّها لما قاست من آلام وضع الحمل، وجسدت فى مخيلتها مستقبل حياتها، بأنّ من الممكن أن ينسب لها الأعداء والبسطاء النسب القبيحة؛ قالت: «يَالَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَّنْسِيّاً». (مريم/ ۲۳)

غير أنّ نبيّاً بهذه القداسة بحيث ينطلق لسانه بأمر من اللّه فى المهد، ويبرهن عملياً على طهارة امه، ويتحدث عن الصلاة والزكاة، وكل مظهر من مظاهر التقوى من تلك اللحظة، مثل هذا النبى يرد وصفه فى بعض الأناجيل بأوصاف تبعث كلّ قارىء على الدهشة والاستغراب.

والآن لنستمع وننظر إلى مابينه «انجيل لوقا» عن حكاية المرأة السيئة الصيت التى جاءت إلى المسيح عليه السلام وتابت: «ودعا أحد الفريسيين (إحدى فرق اليهود، والفريس بمعنى المُعتزل) إلى الطعام عنده فدخل بيت الفريسى وجلس إلى المائدة وكان فى المدينة امرأة خاطئة فعلمت أن يسوع يأكل فى بيت الفريسى وجاءت ومعها قارورة طيب، ووقفت من خلف عند قدميه وهى تبكى واخذت تبل قدميه بدموعها وتمسحهما بشعرها، وتقبلهما وتدهنهما بالطيب فلما رأى الفريسى صاحب الدعوة ماجرى، قال فى نفسه: «لو كان هذا

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۸۳

الرجل نبيّاً لعرف من هى هذه المرأة التى تلمسه وما حالها فهى خاطئة!» فقال له يسوع:

«ياشمعون، عندى ما أقول لك»، فقال شمعون: «قل يامعلم»، فقال يسوع: «كان لمدين دين على رجلين: خمسمئة دينار على أحدهما وخمسون على الآخر وعجز الرجلان عن ايفائه دينه، فاعفاهما منه فأيّهما يكون أكثر حبّاً له؟».

فأجابه شمعون: «أظن الذى أعفاه من الأكثر» فقال له يسوع: «أصبت» والتفت إلى المرأة وقال لشمعون «۱»: «أترى هذه المرأة؟ أنا دخلت بيتك فما سكبت على قدمىَّ ماء، وأمّا هى فغسلتهما بدموعها ومسحتهما بشعرها، أنت ما قبلتنى قبلة، وأمّا هى فما توقفت منذ دخولى عن تقبيل قدمىَّ، أنت ما دهنت رأسى بزيت، وأمّا هى فبالطيب دهنت قدمىَّ، لذلك أقول: غفرت لها خطاياها الكثيرة لأنّها أحبتنى كثيراً، وأمّا الذى يغفر له القليل فهو يحب قليلًا» ثم قال للمرأة: «مغفورة لك خطاياك!» فأخذ الذين معه على المائدة يتساءلون، من هذه حتى يغفر خطاياها» «۲».

ملخص هذه الحكاية أنّ السيد المسيح ينزل فى بيت لأحد الفريسيين وهم كانوا طائفة من اليهود، ولا يبدى له صاحب البيت احتراما بالغاً، وما أن اطّلعت المرأة العاهرة والمنحرفة «۳» التى تسكن ذلك البلد على حضوره حتى توجهت إلى بيت اليهودى وكانت العادة الجارية فى ذلك العصر على غسل رجل الضيف اكراماً له، وطلى شعره بالدهن أحياناً لأنّ الناس كانوا يمشون حفاة غالباً، ونظراً لعدم امتلاكهم وسيلة للتغطية والحفظ فى الأسفار كانت شعور وقشور أبدانهم تصاب بالجفاف على أثر هبوب الرياح.

ووفقا لهذه الحكاية المفتعلة قامت المرأة العاهرة بغسل رجلى المسيح عليه السلام بدموعها عوضاً عن الماء، وجففتهما بشعرها الطويل عوضاً عن المنشفة، وقبّلتهما بشفتيها بحرارة،

---

(۱) شمعون فى الأصل بمعنى السامع، وقد اشير إلى اسماء ۱۰ أشخاص فى الكتاب المقدس للمسيح طبقاً لما قالهمؤلف كتاب

(قاموس الكتاب المقدس)، وكان أحدهم شمعون الفريسى.

(۲) انجيل لوقا، باب يسوع يغفر لامرأة خاطئة، ص ۱۸۳.

(۳) هذه المرأة هى مريم مجدليته كانت عاهرة ومتمولة، فأعلنت عن توبتها على يد السيد المسيح عليه السلام طبقاً لماجاء فى انجيل لوقا فى الباب الثامن.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۸۴

بحيث أدّى هذا المشهد المثير إلى استياء الرجل اليهودى صاحب البيت وقلقه، وقال فى نفسه إن كان هذا نبياً وواقفاً على سيرة هذه المرأة لصدها عن هذا العمل على الأقل، المسيح بفراسته علم بذلك، وأقنعه بذلك من خلال المثال الذى ضربه فى صدد الشخصين المديونين وأعرب له: إننى كنت ضيفك إلّاأنّك لم تقم بما قامت به المرأة المنحرفة من حسن الضيافة، فأنت لم تغسل رجلىَّ بالماء وهى غسلته بدموع عينيها وأنت لم تقبلنى وهى قبلت رجلىَّ بلا انقطاع، ولم تدلك رأسى بالدهن وهى دلكت رجلى بالعطر.

والآن لنبدأ قليلًا بتحليل هذه القصة، لنرى هل من المناسب لهذا النبى العظيم وحتى لمؤمن عادى أن يضع نفسه تحت تصرف امرأة عاهرة كى تعامله بمثل هذه المعاملة.

أولًا: إنّ السيد المسيح عليه السلام كان شاباً يناهز عمره الثلاثين عاماً فى ذلك العصر، ولابدّ أن تكون تلك المرأة العاهرة شابة وجميلة أيضاً، ولا يعقل أن تكون قبيحة المنظر منهوكة القوى فى الأعم الأغلب فكيف يتأتى لنبى عظيم بعث لتهذيب الأخلاق ونشر مظاهر التقوى أن يسمح لامرأة فاجرة بأن تتمسّح برجليه مرات متعددة ثم تغسهما بدموع عينيها وتجففهما بشعرها الناعم وتدهنهما بيديها الظريفتين وتطبع عليهما قبلات حارة، فهل يُعقل هذا؟

وعلى فرض أنّها أرادت التوبة من وراء ذلك فإنّ للتوبة حدوداً وقيوداً أيضاً، وهل سبق لأحد إلى يومنا هذا أن يتعامل مع أحد الروحانيين أو الرهبان العاديين بمثل هذه المعاملة، حتى تصل إلى نبى من أنبياء اللَّه؟

وعلى كل حال فالآثار الخرافية لهذه الرواية ظاهرة من بين ثناياها بصورة كاملة، فضلًا عن أنّ ما ذكره السيد المسيح عليه السلام من المثال لا يعتبر جواباً عن استفسار اليهودى على الاطلاق.

فإشكال اليهودى لم يقع على عظم محبّة هذه المرأة حتى يأتى الجواب على أنّ عظم محبتها وشدّة تعلقها ناتج عن كثرة ذنوبها، وإنّما وقع للاستفسار عن السبب فى سماح نبى من أنبياء اللَّه بأنّ تمسح أمراة عاهرة وسيئة السمعة برجليه إلى هذه الدرجة ثم تغسلهما

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۸۵

بدموع عينيها، وتجففهما بشعرها، وتدلكه بالعطر والدهن، فمما لا شك فيه أنّ كثرة الذنوب وقلتها لا صلة له بهذا العمل من قريب أو بعيد.

وعليه فما جاء فى تواريخ القرآن من وقائع وحوادث عن السيد المسيح عليه السلام تنزهه وتبرء ساحته من مثل هذه النسب السيئة.

نتيجة البحث:

يستنتج ممّا ذكر سابقا ضمن هذه النقاط العشر ومن خلال ما أجريناه من مقارنة واضحة بين تواريخ العهدين (الكتب المقدسة لليهود والنصارى) هى نفس الكتب التى عُدّت من أهم المصادر التاريخية للأديان فى عصر نزول القرآن- على أنّ القرآن لا يمكن أن يكون وليد الفكر الإنسانى اطلاقاً، لأنّ ذلك يستلزم أن يتأثر بها، وقابلية التأثر هذه تترك أثرها فى نقل وقائع هذه القصص، فدلت نزاهة التواريخ التى ينقلها القرآن من هذه الخرافات والنسب القبيحة خصوصاً فيما يتعلق بشرح وقائع الأنبياء على أنّه صادر من مصدر العلم الربانى وأنّه معجزة خالدة على مر الدهور.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۸۷

۵- الاعجاز القرآنی فی سن القوانین

اشارة

من المعلوم أنّه قد ورد فی القرآن الکریم بالإضافة إلی المعارف والتعالیم المرتبطة بالمبدأ والمعاد والمسائل الأخلاقیة والتاریخیة والتشریعات المتعلقة بالعبادات، مجموعة من القوانین الاجتماعیة أیضاً، والتی ترسم معالم القانون الأساسی للاسلام وبعض القوانین المدنیة، الحقوقیة والجزائیة المتعلقة به.

إنّ الدقّة والحکمة الموجدتین فی النصوص القرآنیة تکفیان لوحدهما فی اظهار معجزة القرآن استناداً إلی أنّ ظهور وبروز هذه القوانین الحکیمة جدّاً- والتی ستأتی أمثلتها فیما بعد- فی محیط تحکمه شریعة الغاب، أو بعبارة اخری فی جو یضجُّ بالفوضی والتسیب، هذه القوانین بإمکانها أن تحمل کل فرد منصف علی التسلیم والاذعان، لذا نحن لسنا ملزمین بأنّ نفتش عن عظمة هذا الکتاب السماوی واعجازه فی المسائل المرتبطة بالفصاحة والبلاغة، أو المعارف والعلوم والجوانب التاریخیة فقط، بل إنّ الاقتصار علی البحث فی مجموعة القوانین القرآنیة یفتح نافذة بوجه هذا العالم الکبیر.

وهنا ینبغی- وقبل کل شیء- أن نقدم مقدمة قصیرة حول بیان معنی القانون الصالح وحقیقته، وذلک من أجل تدعیم أساس هذا البحث.

ماهی أفضل القوانین؟

من الصعوبة الجواب عن هذا السؤال، ولکن إذا وقفنا علی الحکمة الواقعیة من وراء وضع القوانین فی المجتمعات الإنسانیة فإنّ معالم الطریق ستصبح واضحة.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۸۸

إنّ المسألة تکمن فی کون الإنسان یمیل فطریاً إلی الحیاة الاجتماعیة، ویعود الفضل فی رُقیه وتطوره إلی حیاته الاجتماعیة، فمن خلال هذه الحیاة تتلاقح أفکار العلماء والمفکرین وتتآزر الاکتشافات والاختراعات والإبتکارات العلمیة الموجودة فی المجتمع وتنتقل من جیل إلی جیل آخر، ففی کل یوم نشهد تطوراً وتقدماً ورقیاً علی صعید العلوم والتفکر والخصارة الإنسانیة.

وأیّاً کان الدافع من وراء الاهتمام بهذا التعایش المشترک فإنّ له موضوعاً مستقلًا للبحث، ولکن ممّا لا شک فیه إذا کانت حیاة الناس مبعثرة ومشتتة شأنها شأن حیاة الحیوانات الاخری لم یکن هناک أی فرق بین إنسان الیوم وإنسان العصر الحجری، ولا یوجد معنی للعلم والحضارة والاـختراع والاکتشاف ولاـ الصناعات والفنون ولاـ اللغة والآداب ولا لأیشیء آخر، إلّاأنّ لهذه الحیاة الاجتماعیة طوارىء ومشاکل إذا لم تتمّ الوقایة منها بشکل صحیح فإنّها تؤدّی إلی حدوث نکبات وویلات تُودی بحیاة الأجیال فضلا عمّا یترتب علی ذلک من توقفٍ لعجلة التکامل والرقی.

إنّ هذه الافرازات عبارة عن: الصراعات التی تنشأ من تعارض المصالح وتزاحم الحقوق وطلب الاستعلاء، وحب الاستئثار، والأنانیات والمنافع الشخصیة والتی تؤدّی بدورها إلی حدوث الخلافات والنزاعات والمناوشات الفردیة أو الجماعیة ونشوب الحروب الأقلیمیة، أو الدولیة، ولهذا أدرکت المجامیع الإنسانیة منذ تلک اللحظة هذه الحقیقة وهی أنّه لو لم توضع المقررات اللازمة لتعیین حدود صلاحیات الأفراد وحقوقهم واسلوب حل المنازعات والد عاوی والمشاجرات، لانقلبت الموازین الاجتماعیة رأساً علی عقب وأدّت إلی حدوث کارثة کبری

وأساساً إنّما یأخذ المجتمع الواقعی طریقه إلی الوجود والظهور بعد أن تسوده حالة التعاون والتعاضد والتعاطف بین أفراده، ومثل هذا الأمر لا یتحقق إلّافی ظل وضع القوانین والمقررات، وفی الواقع لیس هناک مفهوم للتعاون من دون تعهد أخلاقی، وهذا التعهد بحد

ذاته منشأ حدوث القانون.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۸۹

علاوة على ذلك فإنّه من الخطأ أن نعتبر وظيفة القانون منحصرة فى نطاق الحد من حدوث الاعتداءات وإنهاء النزاعات- وإن كان هذا هو الهدف من وضع الكثير من القوانين- بل يقع على عاتق القانون قبل هذا مسؤولية توثيق العلاقات الاجتماعية وإيجاد الضمانات والتعامل معها بصدق وأمانة وتأمين الحرية اللازمة من أجل تمكين وتربية القابليات وتنميتها، وتمركز القوى وتعبئة الإمكانيات باتّجاه معين من أجل توسيع رقعة التكامل.

والواقع إنّ القانون هو بمثابة الدم الجارى فى عروق المجتمع البشرى، لهذا لابدّ من القول بصراحة: إنّه إذا انعدم القانون لم يكن لوجود المجتمع معنى، ولم يتحقق التقدم والازدهار.

إذن لم يعد الجواب عن السؤال المتقدم صعباً، فالقانون الأفضل هو الذى يمتلك صلاحية أكثر فى تأمين الامور التالية:

۱- أن يجمع بين كافة القوى المؤلفة للمجتمع الإنسانى تحت راية واحدة قوية، ويحل مشكلة الاختلافات الموجودة فيه كاختلاف الألوان والقوميات واللغات.

۲- أن يهيء الأرضية المناسبة لنمو الاستعدادات الكامنه وتطوير القدرات الخلاقة لدى المجتمع.

۳- أن يؤمّن الحرية الواقعية حتى يتمكن جميع الأفراد من العمل على تنمية استعداداتهم فى ظلها.

۴- يحدد الحق المشروع لكل شخص من الأشخاص وكل فئة من الفئات كى يقف حاجزاً دون حصول النزاعات والاختلافات والاعتداءات.

۵- أن يعمق فى النفوس روح الاعتماد والاطمئنان من خلال تعيين نظام إجرائى صحيح مضمون.

۶- القانون الصالح ليس كما يتصوره البعض بأنّه القانون الذى يحمل معه مجموعة من القوانين العريضة والموسعة والتى تشتمل على الأجهزة القضائية الواسعة والشرطة والسجون الكثيرة، بل إنّ هذا يدل على ضعف ذلك القانون وذلك المجتمع وعجزهما،

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۹۰

فالقانون الصحيح هو الذى يتخذ إجراءات وقائية مناسبة من خلال وضع التعليمات الثقافية والمقررات الصحيحة حتى لا تدعو الحاجة إلى التوسل بمثل هذه الامور.

إنّ الأجهزة القضائية والعقوبات والسجون بمثابة الطب العلاجى، أو بعبارة أصح، بمثابة إجراء عملية جراحية للمريض؛ بينما القوانين السليمة والمقررات الدقيقة بمثابة الطب الوقائى الذى يعتبر أقل مؤونة وأسلم طريقة لخلوه من الطوارىء والأخطار.

بعد هذه المقدّمة نعود إلى القرآن مرّة اخرى لندقق فى قوانينه ونبحثها.

مزايا القوانين القرآنية:

اشارة

قبل كل شىء نرى من اللازم أن نذكر هذه النكتة وهى: إنّ جميع هذه القوانين إنّما خرجت فى محيط الحجاز، ذلك المحيط الذى لايعرف للقانون معنى تقريباً، والأمر الوحيد الذى حكم بشكل قانونى فى اوساط قبائله هىالعادات والتقاليد المحدودة والممتزجة بالخرافات، لذا فإنّ ظهور القوانين الإسلامية فى مثل هذا المحيط يعدّ بحق ظاهرة عجيبة لا يمكن تبريرها وتصورها تصوراً طبيعيا وعادياً، ومن هنا فلابدّ أن نتعرف على خصائص القوانين الإلهيّة، وليس لنا سوى القبول والتسليم بأنّ ذلك كله صادر من اللّه تعالى

أولًا: الشمولية والسعة

بالرغم من أنّ القرآن نزل فی محیط مغلق من جهات مختلفة، ومحدود فی ارتباطه مع عالم ما وراء شبه الجزیرة العربیة، وکان الطابع الذی یسود ارجاءه هو طابع القومیة والعنصریة والحیاة القبلیة، فکان من الطبیعی حتماً أن یصطبغ مثل هذا المحیط بصبغة القومیة العربیة، بل بصبغة التعصب القبلی ممّا یلفت النظر إلی أنّ القوانین لم تصطبغ بهذه الصبغة بأی شکل من الأشکال حتی أنّه لم یرد الخطاب ب (یا أیّها العرب) ولا مرّة واحدة فی القرآن، بل إنّ الخطاب کان موجهاً إلی عامة الناس فی کل المواضیع والخطابات حیث

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۹۱

ورد بصیغة- یا بنی آدم «۱» ویّا أیها الناس «۲» ویا أیّها الذین آمنوا «۳» ویاعبادی «۴» ویا أیّها الإنسان «۵»- فالمخاطبین فی القرآن هم جمیع أهل العالم، وقوانینه ناظرة إلی البشریة جمعاء.

وممّا یدل علی هذا المدعی أیضاً هذه الآیة: «وَمَا ارْسَلْنَاکَ الَّا رَحمَةً لِلعَالَمِینَ». (الأنبیاء/ ۱۰۷)

والآیة: «تَبَارَکَ الَّذِی نَزَّلَ الفُرقَانَ عَلَی عَبْدِهِ لِیَکُونَ لِلعَالَمِینَ نَذِیراً». (الفرقان/ ۱)

والآیة: «انْ هُوَ الَّا ذِکْرٌ لِّلعَالَمِینَ». ونظائرها. (یوسف/ ۱۰۴)

لقد نبذ القرآن التمییز العنصری- فی ذلک المحیط العنصری- بحیث أولی اهتماماً کبیراً وعنایة فائقة للأواصر الأخویة ولجمیع أبناء البشریة من خلال اطروحته الرائعة المتضمنة هذا المعنی «أنتم جمیعاً أبناء آدم وخلقتم من أب واحد وام واحدة» فأنتم جمیعاً اخوة لُاسرة واحدة، یقول عزّ من قائل فی هذا المضمار: «یَا ایُّهَا النَّاسُ انَّا خَلَقنَاکُم مِّن ذَکَرٍ وَانثَی وَجَعَلْنَاکُم شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا انَّ اکْرَمَکُم عِندَ اللَّهِ اتْقَاکُم». (الحجرات/ ۱۳)

وفی موضع آخر ینفی کافة الارتباطات المحدودة ویبلور العلاقة القائمة بین المؤمنین فی إطار الاخوة والصداقة التی هی من أقرب العلائق التی تقوم علی أساس المساواة والمواساة، إذ یقول عز من قائل: «انَّمَا المُؤمِنونَ إخوَةٌ». (الحجرات/ ۱۰)

وممّا یدعو إلی الانتباه والالتفات إلی ما فی هذه الآیة هو مجیء کلمة «إنّما» التی تستعمل للحصر، هذا من جهة، ومن جهة اخری أحاطت هذه القوانین بشمولیتها سائر

---

(۱) وردت ۵ مرات.

(۲) وردت ۲۰ مرّة.

(۳) وردت ۸۰ مرّة.

(۴) وردت ۵ مرات.

(۵) وردت مرّتین.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۹۲

أنحاء الحیاة البشریّة بدءاً بأهمّ المسائل الاعتقادیّة (کالتوحید) وانتهاءً بأبسط المسائل الأخلاقیة والاجتماعیة، (کالرد علی السلام وعلی أی لون من ألوان التحیة والاستقبال)، فعلی سبیل المثال یقول تعالی فی أحد المواضع: «وَاذَا حُیِّیتُم بِتَحَّیةٍ فَحَیُّوا بِاحْسَنَ مِنْهَا اوْ رُدُّوها انَّ اللَّهَ کَانَ عَلَی کُلِّ شَیءٍ حَسِیبَاً». (النساء/ ۸۶)

وقد ضمَّ القرآن الکریم بین دفتیه آیةً تُعدُّ من أطول الآیات القرآنیة التی دار الحدیث فیها حول کتابة الدیون والحقوق، فقد ذکر فیما یتعلق بهذه المسألة عشرین حکماً إلهیاً، وهی (الآیة ۲۸۲ من سورة البقرة) وهذا إن دل علی شیء فإنّما یدل علی أن تطرق القرآن للمسائل المرتبطة بالعقائد والمعارف الإسلامیة لایتنافی بتاتاً مع بیانه للأحکام الضروریة العملیة أیضاً، ولا نقصد من ذلک أنّه قد تمّ بیان جمیع جزئیات الأحکام والقوانین علی صعید الظواهر القرآنیة، لأنّ ممّا لا یقبل الشک أنّ حجمها یعادل أضعاف حجم القرآن،

وإنّما المقصود أنّه تعالى قد بيَّن الاصول والقواعد الضرورية فى كل مورد من الموارد القرآنية.

ولا يضير فى هذا المجال أن نشير إشارات مختصرة إلى مقتطفات من هذه الأصول:

١- أكَّدَنا أنّ القرآن الكريم استند فى المسائل الاعتقادية قبل كل شىء على (أصل التوحيد)، وقد ذكر هذا المفهوم مئات المرات فى الآيات القرآنية، بحيث رسم الخطوط العريضة لأدقّ المفاهيم التوحيدية إلى أن يقول فى صدد الحديث عن ماهية اللَّه تعالى «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىءٌ». (الشورى/ ١١)

وقد بين صفاته الجلالية والجمالية فى مئات الآيات، ويمكنكك فى هذا المجال مراجعة المجلد الثالث من هذا الكتاب (نفحات القرآن)، ولا يقتصر الأمر عند تعريفه بوحدانية اللَّه من كل جهة، بل يعتبر نبوة الأنبياء دعوة واحدة أيضاً، بحيث لا يرى وجود الاختلاف والتفرقة بينهم، لذا يقول: «لَانُفَرِّقُ بَيْنَ احَدٍ مِّن رُسُلِهِ». (البقرة/ ٢٨٥)

وبالرغم من حمل كل واحدٍ منهم مسؤولية خاصة به وفقاً للمتطلبات الزمنية التى يعيش فيها كل نبى، إلّاأنّ حقيقة دعوتهم وجوهرها واحدة فى كل المواقع. بالإضافة إلى أن مسألة

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۹۳

التوحيد تفرض سيطرتها على مرافق المجتمع الإنسانى أيضاً، وكما قلنا سابقاً: يعتبر أفراد البشر أعضاء لأسرة واحدة، ويعبّر عنهم بالأخوة المولودين من أب واحد وأم واحدة.

٢- «العدالة الاجتماعية» وتعتبر من أهم تعاليم الأنبياء يقول تعالى «لَقَدْ ارْسَلْنَا رُسُلَنا بِالبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسطِ». (الحديد/ ٢٥)

وتعقيباً لهذه الغاية فقد حرّض اللَّه تعالى كافة المؤمنين على هذا الأمر سواء كونهم كباراً أو صغاراً، شيباً أو شباباً، وبغض النظر عن انتمائهم العنصرى أو اللغوى، فيقول: «يَاايُّهَا الَّذينَ آمنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى انْفُسِكُم او الوَالِدَينَ وَالأَقرَبِينَ». (النساء/ ١٣٥)

٣- وأما على صعيد «الروابط الاجتماعية» والاتفاقيات وكل عهد وميثاق فيدعو اللَّه الجميع إلى الالتزام بهذا الأصل، ويقول: «يَاايُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اوْفُوا بِالعُقُودِ». (المائدة/ ١)

ويقول أيضاً: «وَاوفُوا بِالعَهْدِ انَّ العَهْدَ كَانَ مَسْؤُولًا». (الاسراء/ ٣۴)

إنّ امتداد وسعة هذه الآيات شملت حتى المعاهدة والمفاوضة مع غير المسلمين، وفرضت سيطرتها على العلاقات الاجتماعية والفردية والاتفاقيات الدولية أيضاً.

۴- وعلى صعيد «الوقوف بوجه الاعتداءات»، وتفادى الاحباطات، يقول تعالى فى عبارة مختصرة ودقيقة جدّاً: «فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيكُم فَاعْتَدُوا عَلَيهِ بِمِثْلِ مَااعْتَدَى عَلَيكُم وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا انَّ اللَّهَ مَعَ المُتَّقِينَ». (البقرة/ ١٩۴)

۵- وعلى صعيد «الدفاع» يقدم اطروحة أصيلة ومتينة عامة متجسدة بقوله تعالى

«وَاعِدُّوا لَهُم مَّااستَطعتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخَيلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُم». (الانفال/ ۶۰)

وفى هذا الصدد يوصى «بإعداد القوة وتعبئة القوى بصورة عامة»، وتجهيز القدرة الحربية لذلك العصر بصورة خاصة «بعنوان أحد المصاديق» وذلك من أجل الحد من وقوع الحرب، والارهاب، وإلقاء الرعب فى قلوب الأعداء، وهذا من الأهداف المنطقية الكبرى لتقوية البنية العسكرية.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۹۴

۶- وأما من ناحية المناوشات الكلامية والنزاعات التى تقع بين أصحاب المذاهب والرقباء الاجتماعيين فله وصية اخرى يقول فيها: بدلًا من المقابلة بالمثل وإعداد القوى استخدموا أسلوب مقابلة الضد بالضد، وردّوا القبيح بالحسن كى تُقتلع بذرة النفاق والعداوة من

جذورها، يقول عزّ من قائل: «ادْفَعْ بِالَّتِی هِیَ احْسَنُ فَاذَا الَّذِی بَیْنَکَ وَبَیْنَهُ عَدَاوَةٌ کَانَّهُ وَلِیٌّ حَمِیمٌ* وَمَا یُلَقَّهَا الَّا الَّذِینَ صَبَرُوا وَمَایُلَقَّاهَا الَّا ذُو حَظٍّ عَظِیمٍ». (فصلت/ ۳۴- ۳۵)

۷- أما بصدد «المصیر الإنسانی» یقول بصراحة: إنّ مصیر کل شخص بیده، وموقوف علی جهده وسعیه: «کُلُّ نَفسٍ بِمَا کَسَبَتْ رَهِینَةٌ». (المدثر/ ۳۸)

«وَان لَّیسَ لِلإِنسَانِ الَّا مَا سَعَی وَانَّ سَعیَهُ سَوفَ یُرَی . (النجم/ ۳۹- ۴۰)

۸- وحول «حریة العقیدة» وإنّه لا یمکن النفوذ فی الحیز الفکری لشخص معین إلّاعن طریق الاستدلال وتوضیح معالم الدین یقول تعالی «لَا اکرَاهَ فِی الدِّینِ قَدْ تَّبَیَّنَ الرُّشدُ مِنَ الغَیّ». (البقرة/ ۲۵۶)

وفی مجال «حریة الإنسان» یقول: إنّ أحد الأهداف المهمّة لبعثة نبی الإسلام صلی الله علیه و آله هو اطلاق سراح الناس من قیود وسلاسل الأسر والعبودیة: «وَیَضَعُ عَنْهُمْ اصْرَهُم وَالاغْلَالَ الَّتِی کَانَتْ عَلَیهِم». (الأعراف/ ۱۵۷)

ولهذه الأغلال مفهوم واسع بحیث تشمل کافة أنواع سلب الحریة الإنسانیة.

۹- وفی صدد «عدم التدخل فی الأمور الشخصیة للآخرین»، والمحافظة علی کرامة الأفراد، وعدم هتک حرمتهم یقول تعالی «یَاایُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اجتَنِبُوا کَثِیرَاً مِّنَ الَظَّنِّ انَّ بَعضَ الظَنِّ اثمٌ وَلَاتَجَسَّسُوا وَلَا یَغْتَبْ بَّعضُکُم بَعْضاً». (الحجرات/ ۱۲)

۱۰- ومن المبادیء التی أکد علیها القرآن الکریم هو مبدأ «التعایش السلمی» مع کافة الأفراد المسالمین الذین یعدونهم من أهل التفاهم والحوار فی الأهداف المشترکة، أو علی الأقل من الذین اتخذوا طریق الحیاد والاعتدال، لذا یقول تعالی «لَّایَنْهَاکُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِینَ لَم یُقَاتِلُوکُم فِی الدِّینِ وَلَمْ یُخرِجُوکُم مِّن دِیَارِکُم انْ تَبَرُّوهُم وَتُقسِطِوُا إِلَیهِم انَّ اللَّهَ یُحِبُّ المُقسِطِینَ»، ثم یعقب علی ذلک بقوله: «انَّمَا یَنهاکُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِینَ قَاتَلوُکُم فِی الدِّینِ

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۹۵

وَأَخرجُوکُمْ مِّن دِیَارِکُمْ وَظَاهَرُوا عَلَی إِخرَاجِکُمْ انْ تَوَلَوْهُمْ وَمَن یَتَولَّهُمْ فَأُولَئِکَ هُمُ الظَّالِمُونَ». (الممتحنة/ ۸- ۹)

ثانیاً: تقویة الروابط الاجتماعیة

إنّ المجتمع البشری هو المصدر الرئیسی لکل تطور وتقدم علمی واجتماعی ویستطیع أن یصل إلی هدفه المطلوب عندما تحکمه روابط وثیقة ومحکمة جدّاً، وفیما عدا ذلک فسوف یتحول إلی جحیم لا یطاق یحمل فی طیاته مآسی وویلات اجتماعیة، هذا فضلًا عن عدم استثماره لمعطیاته ومکتسباته الذاتیة، فمن جانب یؤکد علی الوحدة الشمولیة للعالم البشری بصفتهم أعضاء لُاسرة واحدة، وإخوة من أب واحد وأم واحدة، کما جاء ذلک فی سورة الحجرات الآیة ۱۳ وأشرنا إلیه سابقاً.

ومن جانب آخر یعتبر المؤمنین أعضاء لکیان واحد بغض النظر عن الاختلافات الموجودة بینهم من الناحیة اللغویة والعرقیة، لذا یقول تعالی «بَعضُکُم مِن بَعْضٍ». (آل عمران/ ۱۹۵)

ویقول فی موضع آخر: «وَالمُؤمِنونَ وَالمُؤمِنَاتُ بَعضُهُم اوْلِیَاءُ بَعضٍ». (التوبة/ ۷۱)

ولم یکتفِ بهذا الأمر فقط، فبالإضافة إلی العلاقات الإنسانیة والإیمانیة أوصی وأکد علی الروابط الشخصیة أیضاً والتی تتحقق فی نطاق أضیق وأقرب.

ولذا یعتبر نقض هذا العهد والحلف جریمة کبری یقول تعالی فی هذا الصدد: «الَّذِینَ یَنقَضوُنَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعدِ مِیثَاقِهِ وَیَقطَعُونَ مَا امَرَ اللَّهُ بِهِ انْ یُوصَلَ وَیُفسِدُونَ فِی الارْضِ اولَئِکَ هُمُ الخَاسِرُونَ». (البقرة/ ۲۷)

ونقرأ فی سورة محمد الآیة ۲۲ و ۲۳ قوله تعالی «فَهَلْ عَسَیْتُم انْ تَوَلَّیتُم انْ تُفسِدُوا فِی الارضِ وَتُقَطِّعُوا ارحَامَکُم* اولَئِکَ الَّذِینَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَاصَمَّهُم وَاعمَی ابصَارَهُم».

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۹۶

وبناءً على ذلك يرى أن قطع هذه العلاقات مقارن للفساد فى الأرض، ومن دواعى فقدان البصيرة والجمود الباطنى.

وتنبثق أهميّة هذه الروابط فى الإسلام من أنّ كل ما يساهم فى تحكيم العلاقات الاجتماعية يعتبر أمراً ضرورياً، حتى أنّ الكذب الذى هو من أبشع الذنوب يعدّ جائزاً لأجل إصلاح ذات البين، وعلى العكس من ذلك فإنّ كل مايساهم فى تضعيف هذه الارتباطات وتفككها يعتبر أمراً منبوذاً ومرفوضاً تحت أى عنوان وإسم كان.

ثالثاً: احترام حقوق الإنسان

إنّ القانون الناجح والممتاز هو القانون الذى يُقدم- بالإضافة إلى امتيازاته الاخرى أطروحة جامعة ودقيقة فى مجال حقوق الإنسان، وبناءً على هذه الحقيقة، كلما ألقينا نظرة حول الآيات القرآنية التى وردت فى هذا المجال تجلّت عظمة هذه القوانين أكثر فأكثر.

فالقرآن حرص كثيراً على مسألة حفظ النفس والمال والنواميس البشرية، بحيث وصل به الأمر إلى أن يعتبر النفس الإنسانية الواحدة مساوية لنفوس الناس جميعاً، لنقرأ قوله تعالى: «مَن قَتَلَ نَفْسَاً بِغَيْرِ نَفْسٍ او فَسَادٍ فِى الارْضِ فَكَانَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَن احْيَاهَا فَكَانَّمَا احْيَا النَّاسَ جَمِيعاً». (المائدة/ ۳۲)

ولا نجد لهذا التعبير مثيلًا فى أى قانون آخر.

ويذهب القرآن فى صدد مسألة حقوق الإنسان إلى أنّ أصل العدالة يحتل مركز الصدارة على جميع الأمور فى إجراء الحقوق، ويحذر من أن تقضى النزاعات الشخصية أو العلاقات الحميمة إلى عدم إجراء العدالة والعمل بها.

يقول تعالى فى محكم كتابه: «وَلَا يَجرِمَنَّكُم شَنَئَانُ قَومٍ عَلَى الَّا تَعدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ اقْرَبُ لِلتَّقوَى . (المائدة/ ۸)

وفى مجال آخر يتعرض القرآن الكريم إلى تأثير الصداقة على إجراء العدالة حيث

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۹۷

يوجه هذا الانذار بقوله تعالى «يَاايُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بالقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى انفُسِكُم او الوَالِدَينِ وَالاقرَبِينَ انْ يَكُن غَنِيّاً او فَقِيراً فَاللَّهُ اولَى بِهِمَا». (النساء/ ۱۳۵)

وتتضح هذه المسألة أكثر من خلال التأكيدات الكثيرة للقرآن على مسألة رعاية الأيتام والمراقبة الدقيقة لأوضاعهم، والتعهد بكفالتهم إلى أن يكبروا ويبلغوا سن الرشد، فيقول فى هذا الصدد: «ان تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالقِسْطِ». (النساء/ ۱۲۷)

والجدير بالذكر أنّ القرآن الكريم جعل مسألة الحماية والرعاية للأيتام مرادفة للتوحيد وللمسائل الإنسانية والأخلاقية الاخرى فيقول عزّ من قائل: «... لَاتَعبُدُونَ الَّا اللَّهَ وَبِالوالِدَينِ احْسَاناً وَذِى القُربَى وَالْيَتَامَى وَالمَسَاكِينَ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسناً وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ». (البقرة/ ۸۳)

ومن طريف القول: إنّه تعالى قرر خمسة قوانين إنسانية لها علاقة بحقوق الإنسان فى ضمن شعيرتين من أهم الشعائر الإسلامية على صعيد الاعتقاد والعمل، ألا وهما- التوحيد والصلاة.

رابعاً: الحرص على تأمين الحرية والأمن

من أهم الأمور التى اهتمت بها القوانين القرآنية هى: حرية العقيدة، وحرية الإنسان، واستقرار الأمن على فى الأصعدة والمجالات كافّة، وتشير إلى هذا المعنى الآية الكريمة:

«لَآاكرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَّبَيَّنَ الرُّشدُ مِنَ الغَىّ». (البقرة/ ۲۵۶)

ومن الأهداف المهمّة لبعثة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله هى القضاء على الأسر والقيود والاغلال إذ يقول سبحانه: «وَيَضَعُ عَنهُم اصْرَهُم وَالاغلَالَ الَّتِى كَانَت عَلَيهِم». (الأعراف/ ۱۵۷)

وفى موضع آخر يخاطب المؤمنين بقوله: «يَاعِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا انَّ ارْضِى وَاسِعَةٌ فَايَّاىَ فَاعبُدُونِ». (العنكبوت/ ۵۶)

وينقل القرآن قصة عجيبة عن «أصحاب الاخدود»، أولئك الذين كانوا يعذبون المؤمنين

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۹۸

ويلقونهم فى حفر النيران لا لشىء إلّا لأنّهم حملوا اعتقادات راسخة، لذا يصفهم بالقول: إنّ هذه الزمرة المتسلطة ما أقدمت على عملها هذا إلّالأجل سلب حرية العقيدة والإيمان، ثم يبين لهم أشد العقوبات الإلهيّة النازلة بحقهم لنقرأ قوله تعالى «انَّ الَّذِينَ فَتَنُوا المُؤمِنِينَ وَالمُؤمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُم عَذابُ جَهَنَّمَ وَلَهُم عَذابُ الحَرِيقِ». (البروج/ ۱۰)

وكثيراً ما يُشيد القرآن الكريم بنعمة «الأمن» بحيث يعتبره مقدماً على أى شىء آخر، ولهذا السبب حينما قدم إبراهيم الخليل عليه السلام على الأرض القاحلة، ذات الحرارة المحرقة والخالية من النبات والشجر فى مكة، وبنى الكعبة، فإنّ أوّل حاجة طلبها من اللّه تعالى لساكنى هذه الأرض مستقبلا هى نعمة الأمن كما ورد ذلك فى القرآن: «رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا بَلَداً آمِناً وَارزُق اهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ». (البقرة/ ۱۲۶)

وقد ورد هذا الموضوع فى مكان آخر من القرآن وبتعبير آخر، فيقول تعالى «رَبِّ اجعَلْ هَذَا البَلَدَ آمِناً وَاجنُبنى وبَنِىَّ ان نَّعبُدَ الاصنَامَ». (ابراهيم/ ۳۵)

ففى الآية الاولى تقدم ذكر الأمن على الأمور الاقتصادية، وفى الآية الثانية تقدم ذكره أيضاً على مسألة التوحيد، ولعله إشارة إلى عدم تحقق الضمان الدينى والدنيوى للمجتمع بدون انتشار الواقع الأمنى فى المحيط القائم، بالإضافة إلى أنّ القرآن يصف حالة انعدام الأمن بأنّها أسوأ حالًا من القتل وسفك الدماء، فيقول: «وَالفِتنَةُ اشَدُّ مِنَ القَتلِ».

(البقرة/ ۱۹۱)

وبالرغم من أنّ للفتنة معانى كثيرة، (كالشرك، والتعذيب والتنكيل والفساد)، ولكن لايستبعد أن يكون مفهوم الآية شاملًا بحيث يستوعب كل هذه المعانى.

وعليه فإنّ إيجاد حالة من انعدام الأمن والفساد تفوق بمراتب حالة سفك الدماء لأنّها بالإضافة إلى كونها مصدراً لسفك الدماء، هى مصدر للمفاسد الاخرى أيضاً.

وتجدرالإشارة إلى هذه النكتة أيضاً وهى: إنّه قد تقرر فى الإسلام نوع خاص من «الأمن» لم يسبق له وجود فى أى قانون من القوانين الدولية ألا وهو الحفاظ على حيثية الأفراد وكرامتهم، حتى فى دائرة أفكار الآخرين.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۹۹

وبتعبير أدق: إنّ الإسلام لايسمح لأىمسلم أن يحمل فى نفسه الظن السىء والتفكير الخاطىء تجاه الآخرين فيعمد إلى خدش كرامة الآخرين وحرمتهم فى دائره التفكير الشخصى، وقد تجسد هذا المعنى بقوله سبحانه فى الآية: «يَاايُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجتَنِبُوا كَثِيراً مِن الظَنِّ انَّ بَعضَ الظَنِّ اثمٌ وَلَاتَجَسَّسُوا». (الحجرات/ ۱۲)

إنَّ الإسلام يريد أن تسود حالة الامن والاطمئنان التام فى المجتمع الإسلامى، ولا يقتصر الأمر على النزاعات الشخصية بين الآخرين فحسب، وإنّما يشمل المناوشات الكلامية، وأكثر من ذلك على صعيد الاتجاهات الفكرية بين الأفراد مع بعضهم البعض، بحيث يشعر كل واحد منهم بأنّ أخيه لا يسدد باتجاهه سهام التهمة والافتراء، وهذه الحالة تمثل أعلى مستويات الأمن ولاتتحقق إلّافى ظل وجود المجتمع الإيمانى وسيادة القوانين الإسلامية.

والجدير بالذكر إنّه قد ورد النهى عن الكثير من الظنون، ولكن فى أثناء بيان العلة يقول:

إنَّ بعض الظنون إثم، ولعل منشأ التفاوت فى التعبير عائد إلى أنّ الظنون السيئة تجاه الآخرين تطابق الواقع أحياناً، ولاتطابقه أحياناً اخرى وبناءً على أنّ النوع الثانى يعدُّ ذنباً من الذنوب، فلابدّ من الابتعاد عن كل الظنون السيئة الواقعة تحت عنوان «كثيراً من الظن».

النكتة الأخيرة فى هذا البحث: هى أنّ الإسلام انطلاقاً من اهتمامه الكبير بتحقيق الأمن الداخلى فى المجتمعات الإسلامية أجاز التوسّل بالقوة والقدرة العسكرية لحل الاختلافات والمجابهات الداخلية فى حالة فشل الأساليب والطرق السلمية، ونطالع هذا المعنى فى قوله تعالى «وَانْ طَائِفَتَانِ مِنَ المُؤمِنِينَ اقتَتَلُوا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَانْ بَغَتْ احدَاهُمَا عَلَى الاخَرَى فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّى تَفِىءَ الَى امْرِ اللَّهِ فَانْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالعَدْلِ وَاقسِطُوا انَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقسِطِينَ». (الحجرات/ ٩)

إنّ مَن يمعن النظر جيداً فى تعبير هذه الآية: يجد أنَّ كلَّ مقطع من المقاطع فيها يحكى عن تحديد صورة لمنهج دقيق يقضى بإنهاء أى شكل من أشكال الاضطراب والفتن

نفحات القرآن، ج٨، ص: ٢٠٠

نفحات القرآن ج٨ ٢٤٨

الاجتماعية وذلك من خلال استخدام أفضل السبل السلمية، أو اللجوء إلى القوة فى نهاية المطاف إذا لم تثمر الأساليب الاخرى

ومن البديهى أنّ المقصودين بالخطاب فى هذه الآية هم أفراد المجتمع الإسلامى، أو بعبارة اخرى الحكومة الإسلامية.

خامساً: ضمانات تنفيذ القوانين القرآنية

إنّ وجود القوانين الدولية لا- يمثل سوى حبرٍ على ورق، وغاية ماتقوم به من تأثير ذاتى أنّها تنقل النصيحة والموعظة لكن بدون الاستناد إلى أى دليل، وبعبارة اخرى فإنّ القوانين بحد ذاتها لاتنطوى إلّاعلى بعد ذهنى وفكرى، وحتى تكتسب قيمة اجتماعية تحتاج إلى أن تستند إلى قاعدة معينة تلزم أفراد المجتمع باتباعها والانصياع لها، وهذه القاعدة هى التى يطلقون عليها عنوان «الضامن التنفيذى» أو «الضمانة التنفيذية».

يتضح جيداً من هذه المقدّمة أنّ قيمة القانون وصلاحيته متوقفة على مدى قوّة الضمانات لتنفيذ هذه القوانين وقدرتها، فمتى ما كانت الضمانة الإجرائية لأحد القوانين أقوى وأدق كانت قيمتُهُ الاجتماعية أعلى وأكثر.

إنّ الكثير من الضمانات التنفيذية للقوانين تنطوى على آثار سيئة للغاية، وتخلق مشاكل ومساوىء على صعيد المجتمع؛ وتؤدّى أحياناً إلى الاصطدام وانعدام الثقة، وسوء الظن بين الأفراد، أو أنّها تعكس القانون بشكل صارم ورهيب وهذه بحد ذاتها تعتبر خسارة كبرى ولو كانت الضمانة التنفيذية تستند إلى مجموعة من المبانى الثقافية والأخلاقية والعاطفية، لما اشتملت على أىٍّ من هذه المساوىء.

إنّ العالم المعاصر ومن أجل تطبيق القوانين الوضعية يمر فى دوامة قاتلة.

وهذه الدوامة ناشئة من عدم وجود ما يضمن تنفيذ هذه القوانين سوى العقوبات المادية

نفحات القرآن، ج٨، ص: ٢٠١

والتى تشمل العقوبات الجسدية أو الغرامات المادية، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى عدم سن القوانين التى تقضى بمعاقبة المجرمين بالإعدام عند ارتكابهم للجرائم والجنايات الفجيعة والتى يستحق فاعلها ذلك.

إنّ عدم وجود الوازع النفسى والوجدانى الذى يضمن تنفيذ القوانين الوضعية، وكذلك ضعف الضمانات التنفيذية الخارجيه، أدّى إلى حصول الكثير من المخالفات القانونية وقد ترتب على ذلك ابتعاد الناس عن الضوابط والمقررات وتجذر حالة عدم المبالاة يوماً بعد يوم، والدليل على ذلك هو كثرة المؤسسات القضائية والسجون فى العالم.

وهذا الوضع هو الذى يمكن أن يطلق عليه عنوان «أزمة الضمانة التنفيذية»، وله نتائج وعواقب غير محمودة، الأمر الذى جعل المجتمعات الإنسانية بأسرها تدفع ضرائب ثقيلة، ويمكن الوقوف على شواهد من هذا القبيل فى أرقى الدول الصناعية فى العالم.

ومن العقبات الاخرى للضمانات التنفيذية فى القوانين الدولية المعاصرة، هو الاقتصار على الأحكام الجزائية وفقدان الجانب الإيجابى فى الجزاء أى الاتكاء على العقوبة وترك المكافاة.

إنّ الإنسان يتمتع بقوتين «القوة الجاذبة والدافعة» أو بعبارة اخرى الميل للحصول على المنافع ودفع المضار، ولابدّ من الاستعانة بكلا الجانبين فى إجراء القوانين، فى حين أنّ عالم اليوم يحصر جلّ اهتمامه على دفع المضار وفى دائرة محدودة أيضاً، والدليل على ذلك واضح، لأنّ العالم المادى ليس فى جعبته شىء ليجعله بعنوان مكافأة تقديرية أزاء كل من يعمل ببنود القانون.

وعلى ضوء هذه المقدّمات نعود إلى مسألة «الضمانة التنفيذية للقوانين القرآنية» لنرى اشتماله على أقوى الضمانات التنفيذية وأجمعها، وهذا الامتياز ينفرد به دون غيره.

وقد أُخذت بعين الاعتبار ثلاثة أنواع من الضمانات التنفيذية فى القرآن:

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۰۲

۱- الضمانة التنفيذية المستمدة من الدولة الإسلامية.

۲- الضمانة التنفيذية المستندة إلى الرقابة العامة.

۳- الضمانة الذاتية الداخلية أو بتعبير آخر، الضمانة الناشئة من الإيمان والاعتقاد بمبادىء الإسلام والقيم الأخلاقية والعاطفية.

ففى المورد الأول تقع على عاتق الدولة الإسلامية مسؤولية الوقوف بصورة حدّية بوجه أى شكل من أشكال المخالفة القانونية، فالخطوة الاولى التى أقدم عليها نبى الإسلام صلى الله عليه و آله بعد هجرته إلى المدينة، وبعد التغلب على المشاكل العالقة، هى إرساء دعائم الدولة الإسلامية، وبيان معالم القوانين الإسلامية، وملاحقة أى نوع من أنواع الانحراف والشذوذ باعتباره من الذنوب التى تدخل فى دائرة (العقوبة الجزائية).

لقد اعتبر الإسلام القوانين القرآنية حدوداً إلهيّة، ووجه العقوبة إلى كل من يتجاوز هذه الحدود.

فمن جهة يُعرِّف المتخلفين بأنّهم ظالمون يقول تعالى «وَمَن يَتَعدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ». (البقرة/ ۲۲۹)

ومن جهة اخرى يؤكد على محاربة الظالمين.

فحينما يذهب القرآن إلى القول: «لَقَدْ ارْسَلنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَانزَلنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ وَانزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَاسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرهُ وَرُسُلَهُ بِالغَيبِ انَّ اللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ». (الحديد/ ۲۵)

فإنّ معناه: إن شَخْصَ نبى الإسلام صلى الله عليه و آله الذى هو خاتم الأنبياء وسيدهم هو الذى تقع على كاهله هذه المسؤولية قبل أى شخص آخر.

هذا من جانب، ومن جانب آخر يدعو كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية إلى المراقبة فى اجراء القوانين الإلهيّة، ووفقاً لمبدأ «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر»، يلزم الجميع بأن لا يتهاونوا ويتخاذلوا فى الوقوف بوجه الانحراف عن القوانين الربانية.

لذا يقول سبحانه فى أحد المواضع: «وَالمُؤمِنُونَ وَالمؤمِنَاتُ بَعضُهُم اولِيَاءُ بَعضٍ

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۰۳

يَأْمُرُونَ بِالمَعرُوفِ وَيَنهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ». (التوبة/ ۷۱)

وتتجلّى الأهميّة القصوى لهاتين الوظيفتين فى الآية الكريمة من خلال تقديم ذكرهما على الصلاة والزكاة وإطاعة اللّه والرسول، والسر فى ذلك يقع فى أنّ أركان الصلاة والزكاة والطاعة لاتستقيم أعمدتها من دون هذه الرقابة العامة على إجراء القوانين.

وفى موضع آخر حينما يعمد تعالى إلى طرح الصفات المختصة بالمجاهدين فى سبيل اللّه أولئك الذين اشتروا الجنّة من اللّه تعالى بأموالهم وأنفسهم، يقول بعد بيان ست صفات من الصفات المتعلقة بهؤلاء المجاهدين: «الآمِرُونَ بِالمَعرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ المُنكَرِ والحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ». (التوبة/ ۱۱۲)

وممّا يلفت النظر: إنّه نظراً إلى أنّ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر له مراحل مختلفة تبدأ من النصيحة والإرشاد والمواعظ الاخوية، وتشق طريقها حتى تصل إلى مرحلة التشدد والحزم العملى، بناءً على ذلك فقد قسمها القرآن إلى قسمين، جعل القسم الأول فى متناول الجميع، أمّا القسم الثانى فقد جعله فى متناول جماعة خاصة تمارس أعمالها تحت إشراف الحكومة الإلهيّة، ولذا يشير إلى هذا التقسيم بقوله تعالى «وَلتَكُن مِّنكُم امَّةٌ يَدعُونَ الَى الخَيرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعرُوفِ وَيَنهوَنَ عَنِ المُنكَرِ واولَئِكَ هُمُ المُفلِحوُنَ».

(آل عمران/ ۱۰۴)

ومن البديهى إنّ الامّة التى تأخذ على عاتقها مسؤولية الرقابة، على إجراء القوانين ويشاطرها فى هذا الشعور بالمسؤولية كافة أفراد المجتمع، سيكون القانون فى أوساطها معززاً مكرماً وصالحاً للتطبيق فى الوقت المناسب.

وحينما نخرج من دائرة الرقابة العامة يأتى الكلام عن الرقابة الذاتية، والروحية والاعتقادية والوجدانية للأفراد على حسن إجراء القوانين وهكذا رقابة تعتبر بحقّ أفضل أنواع الرقابات وذلك لوجود الرادع الذاتى للفرد.

أمّا «الإيمان بالمبدأ» أى بالله عزّ وجلّ الذى هو حاضر فى كل حين وهو أقرب إلى العباد من أنفسهم: «وَنَحنُ اقرَبُ الَيهِ مِن حَبلِ الوَرِيدِ». (ق/ ۱۶)

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۰۴

وسبحان الذى: «يَعلَمُ خَائِنَةَ الاعُينِ وَمَاتُخفِى الصُّدُوُر». (غافر/ ۱۹)

واللَّه الذى جعل الأرض والزمان وحتى أعضاء بدن الإنسان رقيباً عليه وشاهداً وشهيداً على أفعاله «۱».

و «الإيمان بمحكمة القيامة الكبرى بحيث لو كان فى صحيفة أعمال الإنسان مقدار ذرة من عمل الخير أو الشر لاحضروها أمامه، ويلاقى حسابه وجزاؤه: «فَمَن يَعملْ مِثقَالَ ذَرَّةٍ خَيراً يَرَهُ* وَمَن يَعملْ مِثقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ». (الزلزلة/ ۷- ۸)

وليست الأمثلة السابقة هى التى تعكس آثار الإيمان بالمبدأ والمعاد فحسب، بل لدينا مئات الأمثلة من هذه الآيات فى القرآن الكريم يعدّ الاعتقاد بها من أفضل الضمانات لتنفيذ القوانين الإلهيّة.

وكم هو الفرق بين من يرى نفسه مراقباً من قبل القوى الامنية والعسكرية التى لا تتجاوز أعدادها الواحد بالالف وبما تمتلك من إمكانيات محدودة ونواقص كثيرة عندما تكون رقيبةً على أعمال الآخرين، ومع ما تراه لازماً من اتخاذ الاستعدادات الكافية من أجل الدخول فى الأماكن الهامة والمنازل العامة، وما أبعد الهوة بين هذا الشخص وبين من يرى نفسه فى كل الأحوال والأمكنة وبدون استثناء خاضعاً لرقابة اللَّه المستمرة والملائكة، ويعتقد أنّ الموجودات من حوله وحتى أعضاء بدنه ستحتفظ بأعماله وتعلن عنها فى حينه.

إنّ الضمانة التنفيذية لا أثر لوجودها فى العالم المادى إطلاقاً، ولهذا السبب لم تتمكن الضمانات التنفيذية الاخرى بأى شكل من الأشكال أن تقف حاجزاً أمام المخالفات الاخرى فى حين تنحسر هذه المخالفات القانونية فى ظل الأجواء الدينية الواقعية التى يكون هذا الضامن التنفيذى فيها فعالًا، كما تحقق ذلك فى زمن حياة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله ففى ذلك الزمان لم يكن لوجود السجون معنى على الاطلاق، وقلّما كانت تعقد المحاكم القضائية، فقد كانت شكاوى الناس تتلخص بمجيء بعض الأشخاص أحياناً إلى محضر النبى صلى الله عليه و آله فى المسجد ويطرحون دعاواهم، فيستمعون إلى الأجوبة فى المكان نفسه ويخرجون راضين بالحلول العادلة.

---

(۱) الزلزلة، ۴؛ ويس، ۶۵؛ والنور، ۲۴.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۰۵

وفى الوقت الحاضر أيضاً تصل الجنايات والانحرافات إلى الحد الأدنى فى المجتمعات الدينية خاصةً فى المناسبات الدينية (من

جملتها مناسبة شهر رمضان المبارك).

سادساً: إحياء القيم الروحية

بالرغم من أنّ الوجود الإنسانى مركب من مادة وروح أو من جسم وروح، وحياة الإنسان متكونة من جانبين، جانب مادى وجانب معنوى، إلّاأن جميع القوانين فى العالم المادى ناظرة إلى القيم المادية، فأى عمل لا يتعارض مع المسائل المادية للمجتمع يعتبر جائزاً ومشروعاً فى نظرهم، ويدخل فى هذا المضمار تصويب الكثير من القوانين المخزية والتى يبعث ذكرها على الاشمئزاز والتقزز، والحال أنّ هذا الفصل لايوجه ضربة إلى الشخصية الإنسانية المرموقة ويحطها إلى مستوى الحيوان فحسب، بل يُعرض نفس القيم المادية للخطر أيضاً، وذلك لعدم إمكانية الفصل عملياً بين هذين الأمرين.

وانطلاقاً من كون القرآن منسجما مع الخلقة والفطرة الإنسانية فهو يأخذ بالاعتبار كلًا من القيم المادية والمعنوية معاً، فحينما يتطرق فى حديثه إلى اختيار الزوجة يقول: «الزَّانِى لَايَنكِحُ الَّا زَانِيَةً او مُشرِكَةً والزَّانِيَةُ لَايَنكِحُهَا الَّا زَانٍ او مُشرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى المُؤمِنِينَ». (النور/ ٣)

ويقول أيضاً: «قُلْ لَّايَستَوِى الخَبِيثُ وَالَّطِيبُ وَلَوْ اعجَبَكَ كَثرَةُ الخِبيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا اولِى الالبَابِ لَعَلَّكُم تُفلِحونَ». (المائدة/ ١٠٠)

من الواضح إنّ ذكر الخبيث والطيب فى هذه الآية إمّا ناظر إلى الطهارة المعنوية وعدمها، وإمّا ناظر على الأقل إلى العموم فيشمل المعنى المادى والمعنوى معا، لذا فإنّ كثرة الأوبئة وانتشار الموبقات لا يمكن أن يكون دليلًا على مشروعيتهم وحقانيتهم.

وتتبلور هذه المسألة أكثر فى القوانين والدساتير المرتبطة بالزواج خاصة لأنّه يحدث كثيرا أن يقع كل من الجمال الظاهرى والمعنوى على طرفى نقيض، فيقترن جمال الظاهر مع

نفحات القرآن، ج٨، ص: ٢٠٦

تلوث الباطن، وحسن الباطن مع عدم جمال الظاهر. ففى هذه الحالة يرجّح القرآن الكريم الكفة الثقيلة لجمال الباطن وجاذبية الروح والأخلاق والإيمان فيقول: «وَلَا تَنكِحُوا المُشرِكَاتِ حَتَّى يُؤمِنَّ وَلَامَةٌ مُّؤمِنَةٌ خَيرٌ مِّن مُّشرِكَةٍ وَلَو اعجَبَتكُم وَلا تَنكِحُوا المُشرِكِينَ حَتَّى يُؤمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤمِنٌ خَيرٌ مِّن مُّشرِكٍ وَلَو اعجَبَكُم اولَئِكَ يَدعُونَ الَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدعُوا الَى الجَنَّةِ وَالمَغفِرَةِ بِإذنِهِ». (البقرة/ ٢٢١)

ومن المؤسف حقّاً هو عدم الاهتمام بالقيم المعنوية فى وضع القوانين والمقررات الاجتماعية فى عالم اليوم حيث أصبح من العوامل المهمّة للكثير من المآسى والويلات، علاوة على أنّ هؤلاء لا يجدون الطريق إلى هذه القيم فى الواقع، لأنّ الاعتراف بهذه القيم لا يتمّ بدون الاستناد إلى رؤية معنوية للكون تقيم وزناً لها وتحتفظ بقيمتها، لذا أصبح العالم المادى عاجزاً عن الوصول إليها، وما يشاهد حالياً فى المتون القانونية لعالم اليوم من قبيل حقوق الإنسان مثلًا فهو الآخر عرضة للتفاسير المختلفة دائماً، أو مبرر لتوجيه الابتزازات المادية، وغطاء للتستر على الأهداف اللامشروعة المنافية للأصول المنسجمة مع الإنسانية فى كل الحالات.

سابعاً: الاصول الثابتة والمتغيرة

من المعلوم لدينا أنّ مسلمى العالم يعتقدون من خلال ما استلهموه من القرآن والأحاديث الإسلامية المعتبرة أنّ نبى الإسلام هو خاتم الأنبياء، وأنّ الدين الإسلامى هو الدين الخالد، ومع التسليم بهذا الاعتقاد يبرز هذا السؤال وهو: كيف يمكن الحفاظ على بقاء الأحكام والمقررات الثابتة والخالدة مع حدوث التغييرات المستمرة للحياة الاجتماعية للجنس البشرى، وكيف يتم حصول المتطلبات المتغيرة مع وجود قوانين ثابتة؟

إنّ القوانين القرآنية عالجت هذه المشكلة وذلك من خلال تصنيف القرآن لهذه القوانين

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۰۷

إلی صنفین: الصنف الأول منها هی القوانین الکلیة التی أصلها ثابت، ومصداقها وموضوعها الخارجی فی تغیر وتبدل مع مرور الزمن، والصنف الثانی منها هی القوانین الخاصة والجزئیة بالاصطلاح وهی غیر قابلة للتغییر.

وتوضیح ذلک: یُؤخذ من خلال ما خاطب به القرآن المؤمنین بقوله: «یَاایُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اوفُوا بِالعُقُودِ». (المائدة/ ۱)

هذه هی إحدی الاصول العامه السائدة علی مرِّ العصور والأزمنة، وإن کان موضوعها ومصداقها فی حالة تغیر وتبدل، فمثلًا ظهرت مع مرور الزمن سلسلة من الارتباطات الحقوقیة الجدیدة والاتفاقیات المستحدثة بین أوساط الناس لم یسبق لها وجود فی عصر نزول القرآن، فعلی سبیل المثال لم یکن یبدو للعیان شیء اسمه «التأمین»، أو أنواع الشرکات المختلفة فی ذلک الزمن، والتی تحققت فی عصرنا هذا حسب حصول المتطلبات الیومیة، بیدَ أنّ القانون العام الآنف الذکر قد شمل کل هذه الأمور، فأی شکل من أشکال الاتفاقیات والمعاملات الجدیدة والعقود والمواثیق الدولیة، التی تظهر علی مسرح الوجود حسب المتطلبات إلی نهایة العالم وتکون منسجمة مع الاتفاقیات الإسلامیة تقع ضمن هذا الشمول، ونجد قسطاً وافراً من هذه القوانین فی الإسلام بصورة عامة والقرآن بصورة خاصة.

ولننظر فی قوله عزّ من قائل: «وَمَا جَعَل عَلَیکُم فِی الدِّینِ مِن حَرَجٍ». (الحج/ ۷۸)

بناءً علی ذلک إذا تعذّر أداء إحدی التکالیف الإسلامیة فی ظروف خاصة فإنّها تخرج من دائرة الوجوب والإلزام تلقائیاً، فیتبدل الوضوء فی ظروف قاسیة إلی التیمم، والصلاة من وقوف إلی الصلاة من جلوس، والصلاة من جلوس إلی الصلاة فی حالة الاضطجاع، ویتبدل صوم الأداء إلی صوم القضاء، ویرتفع الحج فی مثل هذه الظروف.

وقد وردت إشارات إلی «قاعدة لاضرر» فی موارد خاصة من آیات قرآنیة متعددة تدل علی خطر الأمور التی تلحق الضرر والأذی بشکل أو بآخر، ولذلک تحدد وتضیق دائرة

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۰۸

الأحکام والمقررات التی بینت علی شکل حکم عام حینما تصل إلی موارد الضرر والحرج.

یقول القرآن فی موضوع النساء المطلقات: «وَلَا تُضَارُّوهُنَّ». (الطلاق/ ۶)

ویقول فی موضع آخر: «وَلَا تُمسِکُوهُنَّ ضِراراً». (البقرة/ ۲۳۱)

ویقول فی مورد الوصیة: «مِن بَعدِ وَصِیَّةٍ یُوصَی بِهَا او دَینٍ غَیرَ مُضَارٍ». (النساء/ ۱۲)

ویقول فی مورد الشهود وکتاب السندات: «وَلَا یُضَارَّ کَاتِبٌ وَلَا شَهِیدٌ». (البقرة/ ۲۸۲)

إنَّ هذه القاعدة المطروحة بشکل أکثر تفصیلا فی الروایات الإسلامیة تعتبر من القواعد المهمّة التی تقوم بتطبیق الأحکام الإسلامیة (من خلال التغیرات الطارئة علی الموضوعات)، علی الاحتیاجات والضروریات الواقعیة لکل زمان، وقد تمّ شرح ذلک فی کتب «القواعد الفقهیة»، وعلی أی حال فإنّ من الشواهد الاخری لهذا المدعی هی: «قاعدة العدل والانصاف»، وقاعدة: «عدم تکلیف مالا یطاق»، وقاعدة: «المقابلة بالمثل»، فی المسائل المتعلقة بالجنایات والقصاص والاضرار المالیة، وکلها لها جذور قرآنیة، وخلاصة الکلام: إنطلاقا من «خاتمیة نبوة نبی الإسلام صلی الله علیه و آله وفقاً للآیة ۴۰ من سورة الأحزاب» واستمراریة القرآن الکریم، فإنّ القوانین القرآنیة طرحت من الدقة بمکان بحیث لم تسنح لظروف الزمان وتحولات الظروف والمتطلبات البشریة التی عفا علیها الدهر وعلاها غبار الزمن الغابر.

وفی الوقت التی کانت تسد الاحتیاجات القانونیة لعصر النبی صلی الله علیه و آله الذی هو عصر نزول القرآن کانت ناظرة أیضاً إلی الأزمنة والقرون الآتیة، ومن الأمثلة الرائعة والجلیة هو مانلاحظه فی الآیة المتضمنة لمفهوم (إعداد القوی وتعبئتها حفاظاً علی بیضة الإسلام والمسلمین: «وَاعِدُّوا لَهُم مَّااستَطَعتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخَیلِ تُرهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّکُمْ». (الانفال/ ۶۰)

فمن جهة يضع بصماته على المستلزمات الضرورية لذلك العصر ويتحدث عن الخيول المُجرَّبة، ولكن من جهة اخرى يُنوِّه إلى أصل عام يتوافق مع ذلك العصر، ومع كل عصر

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۰۹

حتى قيام الساعة، وهذا الأصل هو تهيئة شتى أنواع القوى والقدرات التى تشمل كافة الوسائل القديمة والحالية والمستقبلية.

وأروع ماورد فى هذه الآية هو هذا المعنى: إنّ الغاية من كل هذه الأمور هو إلقاء الرعب فى قلوب الأعداء ليقف ذلك حاجزاً دون وقوع الاعتداء والحرب، لا أن يؤدّى ذلك إلى مزيد من إراقة الدماء.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۱۱

۶- الاعجاز الغيبى للقرآن

إشارة وتنبيه:

اشارة

بالرغم من وجود أصول وجذور للحوادث المستقبلية فى الماضى والحاضر إلّاأنّه لن يستطيع أحد أن يكشف النقاب بدقّة عن الحوادث المستقبلية، وبالرغم من إرادة الإنسان وعزمه المستمر فى التعرف والاطلاع على الحوادث المستقبلية، وبالرغم من المساعى الكثيرة التى بذلها فى هذا الطريق، إلّاأنّه لم يصل إلى وسيلة ناجحة ترفع الحجب الكثيفة التى حالت بينه وبين المستقبل.

إنّ الرغبة الشديدة التى يحملها الإنسان للاطلاع على الحوادث المستقبلية هو الذى بعث الحماس والحمية فى سوق الكهان والمنجمين وأصحاب الخرافات، بل حتى الذين يقرأون الطالع والفأل، وهؤلاء بدورهم كانوا يستثمرون حالة النهم والولع لدى الناس بالاستفادة من ألاعيبهم وخدعهم الماكرة، ويُسلّونهم بسلسلة من العبارات المبهمة أو الأقاويل المملة التى كان يتمكن كل شخص أن يطبقها على مراده ومقصوده بسهولة، وكانوا يكسبون المنافع والأرباح من هذا الطريق.

وفى يومنا هذا أيضاً تحصل نبوءات كثيرة فى عالم السياسة وغيرها من العوالم الاخرى ترمى الوصول إلى أهداف خاصة غالباً، وهى جزء لايتجزأ من المخطط السياسى للدول، لكن الكثير منها لا يتحقق فى الخارج. ويخالف ما هو عليه واقعاً.

والجدير بالذكر إنّ هذه الاقاويل الخاطئة لاتقف مانعاً أمام التنبؤات المستقبلية فى مثل هذا النوع من المسائل أيضاً، بيدَ أنّ الحقيقة التى لا يمكن التعتيم عليها هى لو أنّ شخصاً

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۱۲

عمد إلى بيان الأمور المستقبلية بدقة وبكل تفاصيلها (لا بصورة طرح المعانى الكلية والبيانات المبهمة والعبارات المتضاربة) فهذا إن دل على شىء فإنّما يدل على أنّه مطلع على أسرار الغيب بصورة إجمالية، وإذا تكرر وقوع هذا التنبؤ وكان متقارناً مع دعوى النبوة أو الإمامة فحينئذٍ يمكن التعويل عليه بصفته أحد البراهين والأدلة.

من خلال هذه الإشارة نعود مرة اخرى لنبحث أمثلة كثيرة من هذا القبيل فى القرآن الكريم:

۱- «الَمٓ* غُلِبَتِ الرُّومُ* فِى ادنَى الارْضِ وَهُم مِّن بَعدِ غَلَبِهِم سَيَغلِبُونَ* فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلهِ الامْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمئذٍ يَفرَحُ المُؤمنونَ* بِنَصرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحيمُ* وَعْدَ اللَّهِ لَايُخلِفُ اللَّهُ وَعدَهُ وَلَكِنَّ اكثَرَ النَّاسِ لَايَعلَمُونَ».

(الروم/ ۱- ۶)

۲- «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤيَا بِالحَقِّ لَتَدخُلُنَّ المَسجِدَ الحَرَامَ انْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحِلّقِينَ رُؤسَكُم وَمُقَصِّرِينَ لَاتَخَافُونَ فَعَلِمَ مَالَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحَاً قَرِيبَاً».

(الفتح/ ۲۷)

۳- «وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَاخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ ايدِيَ النَّاسِ عَنكُم وَلِتَكونَ آيَةً لِّلمُؤمِنِينَ وَيَهدِيَكُم صِرَاطًا مُّستَقِيمًا* وَاخرَى لَمْ تَقدِرُوا عَلَيهَا قَدْ احَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَىءٍ قَديراً». (الفتح/ ۲۰- ۲۱)

۴- «امْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ* سَيُهزَمُ الجَمعُ وَيُوَلُّونَ الدُبُر». (القمر/ ۴۴- ۴۵)

۵- «وَاذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ احدَى الطَّائِفَتينِ انَّهَا لَكُم وَتَوَدُّونَ انَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ويُرِيدُ اللَّهُ ان يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَيَقطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ* لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبطِلَ البَاطِلَ وَلَو كَرِهَ الُمجرِمُونَ». (الانفال/ ۷- ۸)

۶- «انَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيكَ القُرآنَ لَرَادُّكَ الَى مَعَادٍ». (القصص/ ۸۵)

۷- «تَبَّتْ يَدَا ابِى لَهَبٍ وَتَبَّ* مَا اغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ* سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ».

(تبت/ ۱- ۳)

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۱۳

۸- «انَّا اعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ* فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ* انَّ شَانِئَكَ هُوَ الابْتَرُ».

(الكوثر/ ۱- ۳)

۹- «لَنْ يَضُرُّوكُم الَّا اذًى وَانْ يُقَاتِلُوكُم يُوَلُّوكُم الادبَارَ ثُمَّ لَايُنصَرُونَ».

(آل عمران/ ۱۱۱)

۱۰- «ضُرِبَتْ عَلَيهِمُ الذِلَّةُ اينَ مَاثُقِفُوا الَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ». (آل عمران/ ۱۱۲)

۱- الأخبار عن هزيمة الأعداء فى اقل من عشر سنين

فى الآية الاولى إخبارٌ عن هزيمة الرومیین «غُلِبَتِ الرُّومُ»، ثم يتحدث بعد ذلك عن محل وقوع هذه الحادثة فيقول: «فِى أَدْنى الأَرْضِ»، والمقصود منها أراضى الشام بحد ذاتها أى (المنطقة الواقعة بين بُصرى واذْرُعات)، وهى داخلة ضمن دائرة الروم الشرقية، وكانت تعتبر من المناطق القريبة بالنسبة إلى سكان الجزيرة العربية.

وقد وقعت هذه الحرب بحسب ماورد عن بعض المؤرخين المعاصرين فى عهد «خسرو برويز» وهى حرب طويلة الأمد دارت رُحاها بين الفرس والروم فى حدود عام ۶۱۷ ميلادى، حينما قام اثنان من القادة الايرانيين المعروفين، وهما «شهر بُراز» «۱» و «شاهين» بمهاجمة أراضى امبراطورية الروم الشرقية، وتمكّنا من إلحاق هزيمة مرة بجيش الروم، وكانت منطقة الشامات ومصر وآسيا الوسطى مسرحاً لهذه العمليات، وقد آلت امبراطورية الروم أثر هذه العمليات إلى السقوط والانقراض بعد الهزيمة النكراء التى لحقت بها، وقد استولى الايرانيون على كل ما بسط الروم نفوذهم عليه فى منطقة آسيا ومصر، وقد وقعت هذه الحرب فى حدود السنة السابعة لبعثة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله.

---

(۱) اسمه فرّخان، قائد ايرانى حارب الروم فى زمان خسرو برويز واستولى على مصر سنة ۶۱۶ ميلادى، معجم‌دهخدا- مادة (براز).

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۱۴

وفرح أعداء الإسلام والمشركون فى مكة بهذه الواقعة وتفاءلوا بها خيراً واستدلوا على حقانية أهل الشرك فقالوا: إنّ الايرانيين «مجوس» ومشركون و «وثنيون» أمّا الروميون فهم مسيحيون أهل كتاب، فكما تغلب الايرانيون على الروميين، سيكون النصر حليفنا أيضاً نحن المشركين، وستطوى صحيفة حياة محمد صلى الله عليه و آله وتكون الغلبة لنا ولمعتقداتنا.

إنّ هذا النوع من الاستنتاج والتفاؤل وإن لم يستند إلى أى قاعدة منطقية، إلّاأنّه لم يخل من تأثير إعلامى فى أوساط ذلك المحيط،

ولهذا السبب كان تأثيره شديد الوطأة على المسلمين.

ويضيف القرآن تعقيباً على الآية السابقة: اعلموا أنّ هذه الغلبة للفرس لا تدوم زمناً طويلًا «وَهُم مِّن بَعدِ غَلَبِهِم سَيَغلِبُونَ» أىالروم، ثم يشير إلى الجزئيات بعد ذلك بقوله:

«فِى بِضعِ سنِينَ للَّهِ الامرُ مِّن قَبلُ وَمِن بَعدُ وَيؤمئذٍ يَفْرَحُ المُؤمِنونَ».

إلّا أنّ هذا الفرح والسرور ليس قائماً على أساس التفاؤل بالخير بالنسبة لغلبة الإسلام على الشرك فحسب، بل السبب الأساسى لغبطتهم هذه هو حصولهم على المدد الإلهى (بالنصرة على مجموعة من الأعداء فى محيطهم الداخلى) «بِنَصرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاء وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ».

ومن أجل ترسيخ هذا المعنى أكثر، وازالة أى لون من ألوان الشك والتردد، يقول تعالى

«وَعْدَ اللّهِ لايُخلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ اكْثَرَ النَّاسِ لَايَعلَمُونَ».

إنّ هذا التنبؤ العجيب المشتمل على ذكر الجزئيات، والذى يخبر عن أحد المسائل العسكرية والسياسية المهمّة، كيف يمكن له أن يتحقق بدون الإحاطة بأسرار الغيب؟

فمن جهة يخبر عن أصل وقوع الانتصار للروميين المندحرين الذين وصل بهم الاحباط والهزيمة إلى حد الانقراض وفقدوا مساحة شاسعة من أرض بلادهم، ولم يعد هناك أمل بأنّ يستعيدوا قواهم ويثبتوا كيانهم بهذه السهولة، ومن جهة اخرى يصرح بأنّ هذا الأمر سيتحقق فى بضعة أعوام.

ويضيف على ذلك بقوله: إنّ هذا سيقترن بنصر آخر للمسلمين على الكفار، وفضلًا عن

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۱۵

ذلك كله يؤكد تأكيداً قاطعاً على أنّ هذا الوعد الإلهى حتمى الوقوع وا نّ اللَّه لن يخلف وعده.

ونرى أنّ هذا الوعد تحقق فعلا بكل جزئياته، فقام ملك الروم «هرقل» بإلحاق الهزيمة تلو الهزيمة بمعسكر «خسرو برويز» فى سنة ۶۲۶ م أى بعد ۹ سنوات تقريباً حيث كانت نتائج هذه الحروب لصالح الروميين إلى سنة ۶۱۷ م وحققوا النصر الكامل والشامل، وأصيب «خسروبرويز» بالفشل الذريع فأزاحه الايرانيون من على دسّة الحكم وأجلسوا مكانه ابنه «شيرويه».

خلاصة الكلام: إنّ هزيمة الروميين وقعت فى سنة ۶۱۷ م الموافق للسنة السابعة للبعثة النبوية الشريفة، واستعاد الروميون نصرهم من جديد فى سنة ۶۲۶ م حينما ألحقوا الهزيمة «بالجيش الساسانى»، ووصلت هذه الهزيمة إلى أوجها فى السنة القادمة أى (سنة ۶۲۷ م) ذلك أن هرقل زحف إلى «دستجرد» الواقعة على بعد عشرين فرسخا من «تيسفون» عاصمة ايران وموطن «خسرو برويز»، واندحر «خسرو برويز» ولاذ بالفرار، وعُزل على أثرها من مقام السلطة ممّا أدى ذلك إلى قتله، ونجد أنّ الفاصلة بين هذين لم تتجاوز التسع سنوات، وهو مطابق تماماً لمعنى «بضع سنين»، لأنّ «البضع» فى قاموس اللغة وعلى حد قول الراغب فى المفردات: هو بمعنى حصة من العدد عشرة، فكل مايقع بين الثلاثة والعشرة يقال له: بضع، وقال البعض: إنّ البضع يطلق على العدد الذى يكون أكثر من خمسة وأقل من عشرة.

وجاء فى معجم مقاييس اللغة أيضاً أنّ «البضع» هو العدد الذى يقع بين الثلاثة والعشرة.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ هذه النبوءة أصبحت من الأمور المتعارفة والمسلَّمة لدى المسلمين حتى كان البعض منهم على استعداد لأنّ يراهن على هذه المسألة مع المشركين فى مكة، وتحقق هذا الرهان بالفعل، وفى بداية الأمر وقع الرهان على خمس سنوات، ولما لم يتغير من الأمر شىء جاءوا إلى النبى وأخبروه بحقيقة الأمر، وما جرى عليهم مع المشركين، فقال لهم: كان ينبغى عليكم أن تحاوروهم على أقل من عشر سنوات،

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۱۶

وهكذاحصل وتحقق النصر بعد الهزيمة فى أقل من عشر سنوات.

ومن النكات المهمّة الاخرى هى اقتران هذا النصر بانتصار المسلمين فى «معركة بدر» لأنّ معركة بدر وقعت فى السنة الثانية للهجرة، والمقطع الزمنى الفاصل بين السنة السابعة للبعثة والسنة الثانية للهجرة هو تسع سنوات- هذا إذا ما أخذنا فى الاعتبار نفس السنة السابعة أيضاً وبدونها تكون الفاصلة بينهما ثمان سنوات.

من هنا كان انتصار الروميين وانتصار المسلمين متقاربين، وفى الواقع إنّما فرح المسلمون لأمرين، الأول: هو الذى حققه أهل الكتاب أى الروميّون على المجوسيين الذى كان أحد مشاهد انتصار العبودية لله تعالى على الشرك، فى الوقت الذى كانت هزيمة الروم مدعاة لارتياح مشركى مكة وغبطتهم، والآخر: هو ما حققوه من انتصار كبير على المشركين فى معركة بدر.

۲- التنبوء عن نصرين هامين آخرين

تكشف الآية الثانية- فى هذا البحث- الستار عن اثنين من الحوادث المهمّة الآخرى المرتبطة بمستقبل المسلمين. الحادثة الاولى تكشف عن هذه الحقيقة للمسلمين وهى:

إنّكم ستدخلون المسجد الحرام وتقيمون هذه الشعائر الكبرى فى منتهى الأمن والآمان فى المستقبل القريب بالرغم ممّا يحمله المشركون من رفض واعتراض على دخول المسلمين إلى المسجد الحرام وأدائهم لمناسك الحج والعمرة، والاخرى تبيّن هذه الحقيقة لهم وهى:

إنّ النصر الحقيقى سيكون حليفكم قبل ذلك.

يقول عزّ من قائل: «لَقَد صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤيَا بِالحَقِّ لَتَدخُلُنَّ المَسجِدَ الحَرَامَ ان شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُوسَكُم وَمُقَصِّرِينَ لَاتَخَافُونَ فَعَلِمَ مَالَمْ تَعلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحَاً قَرِيبَاً».

تخبر هذه الآية عن أنّ النبى رأى فى‌منامه رؤيا تعبّر عن أنّ المسلمين سيدخلون

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۱۷

المسجد الحرام آمنين لأداء مناسك الزيارة لبيت اللّه.

كان البعض يتصور أنّ هذه الرؤيا ستتحقق مباشرة فى السنة نفسها، فعندما توجه المسلمون إلى مكة للزيارة واعترض طريقهم مشركوا مكة فى الحديبية (وهى القرية التى تقع مسافة ۲۰ كيلومتر عن مكة واشتق اسمها من البئر أو الشجرة الموجودة فيها) ممّا أدّى ذلك إلى التوقيع على اتفاق الصلح المعروف بصلح الحديبية، عندئذٍ أخذ البعض يراوده الشك والتردد فى أن لا تكون لهذه الرؤيا مصداقية، على مستوى الواقع، حتى أنّهم بدأوا يسألون النبى صلى الله عليه و آله فى هذا المجال عن السبب وراء عدم تحقق هذه الرؤية الرحمانية؟ فأكد لهم النبى صلى الله عليه و آله على أنّه لم يقل: إنّ ذلك يتحقق فى هذه السنة وإنّما قصد وقوعه فى المستقبل القريب، فى هذه الأثناء نزلت الآية المذكورة وأول ما أكدت عليه هو صدق هذه الرؤيا، ثم أشارت بعد ذلك إلى الجزئيات وقالت: إنّكم ستدخلون المسجد الحرام قريباً وتؤدّون مناسك الحج بكل حرية واطمئنان، كما أنّ النصر سيكون حليفكم قبل أداء هذه المناسك، وتحققت هذه النبوءة وفقاً لما ذكرها جميع المؤرخين، واستطاع جمع غفير من المسلمين أن يؤدّوا مناسك العمرة فى السنة التالية لواقعة «الحديبية» وهى (السنة السابعة للهجرة)، وسميت هذه المناسك (عمرة القضاء) لأنّها فى الواقع قضاء للعمرة التى أراد الجميع أن يؤدّوها فى السنة الماضية.

نخرج من كل ما قيل سابقاً بهذه النتيجة: أنّه قد تمّ الاعلان بقوة وحزم فى هذا المقطع من الآيات عن مسألة غير متوقعة الحدوث، والتى كانت مورداً من موارد مثار الاختلاف ونزاع شديد بين المسلمين والمشركين، كما اشير فيها إلى التفاصيل أيضاً بالإضافة إلى ماحصل من تنبؤ عن اقتران ذلك بنصر آخر للمسلمين، وهذا فى حد ذاته بيان مضاعف فيما يرتبط بهذا التنبؤ الهام.

هناك بحث ونقاش بين المفسرين حول المقصود «بالفتح القريب» فقد تحقّق للمسلمين على مقربة من هذه الواقعة، أحدهما هو صلح الحديبية الذى كان من دواعى الانفتاح، والآخر هو «فتح خيبر» الذى تحقق فى أوائل السنة السابعة للهجرة، أى بعد واقعة الحديبية

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۱۸

بعدّة أشهر، والظاهر أنّ «الفتح القريب» هو إشارة إلى الواقعة الثانية كما ذهب إليه الكثير من المحققين على أساس قوله تعالى «مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً».

(الفتح/ ۱۹)

صحيحٌ أنّ للغنيمة مفهوماً واسعاً وشاملًا لكل أنواع الغنيمة المادية والمعنوية، ولكن المتبادر فى مثل هذه الموارد هو معنى الغنائم الظاهرية فى الأعم الأغلب، وممّا نعلمه أنّ الغنائم الظاهرية كانت موجودة فى «فتح خيبر» لا فى صلح الحديبية.

إذن، يمكن الخروج بهذه النتيجة بوضوح وهى: إنّ مثل هذه التنبؤات الدقيقة، والصادرة بكل قاطعية وجدية، وبدون أن يشوبها الاحتمال والتردد، لايمكن أن تتأتى إلّامن خلال الارتباط بعالم الغيب.

۳- الغنائم الكثيرة فى المستقبل

يخبر القرآن فى الآية الثالثة- تعقيباً على قضية «صلح الحديبية» وما تنبّأ به من «عمرة القضاء» و «فتح خيبر»- عن فتوحات اخرى متتالية وحائزة على غنائم وافرة فيقول:

«وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ ايدِىَ النَّاسِ عَنْكُم وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤمِنِينِ وَيَهْدِيَكُم صِرَاطاً مُّستَقِيماً».

ثم يضيف إلى ذلك قائلًا: «وَاخَرى لَم تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ احَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كلِّ شَىءٍ قَدِيراً».

فى هذه الآيات ورد الإخبارُ عن انتصارين علىالأعداء مع الحصول على غنائم كثيرة، أحدهما قصير المدى والآخر بعيد المدى تلك الغنائم والفتوحات التى عجز عنها المسلمون بحسب الظاهر قد جعلها اللّه فى اختيارهم وطوع إرادتهم بحوله وقوته الكاملين.

وثمة نقاش واختلاف بالرأى بين المفسرين فى تحديد نوعية الغنائم والفتوحات، فقد

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۱۹

ذهب الكثير منهم إلى أنّ المقصود من الغنائم التى يحظى بها المسلمون فى فترة قصيرة هى «غنائم خيبر»، وإن احتمل البعض أنّها إشارة إلى «الغنائم المعنوية لصلح الحديبية»، إلّاأنّ هذا الاحتمال ضعيف كما قلناه سابقاً.

وأمّا فى صدد الغنائم طويلة الامد فقد ذهب الكثير من المفسرين إلى أنّها إشارة إلى «غنائم حرب حنين» وقبيلة «هوازن» «۱» و «۲».

واحتمل البعض أيضاً أنّها إشارة إلى الفتوحات الكبيرة القادمة نظير فتح بلاد ايران والروم واليمن، وبالرغم من أنّ فتح حنين والحصول على غنائم قبيلة هوازن لم يكن مستبعدا من قبل المسلمين، إلّاأنّ التوصل إلى فتح «ايران والروم» وما شابهها كان بالنسبة إليهم أمراً شاقاً وبعيد المنال، ولهذا حينما أعطى النبى صلى الله عليه و آله البشارة وفقاً لرواية معروفة بفتح ايران والروم واليمن فى حرب الخندق بدأ المنافقون يسخرون من ذلك، والسبب فى ذلك يعود إلى عدم إمكان تحققه من ناحية الاسباب الظاهرية، لكن اللّه تعالى القادر على كل شىء هو الذى جعل الوصول إلى هذه الفتوحات، والحصول على الغنائم الثمينة قيد الإمكان والتحقق، فكشف الستار عنها قبل التوصل إليها بسنين طويلة، وبيّنها بشكل تنبؤ صادق فى الآيات المتقدمة، فيا ترى هل يمكن حصول هذه التنبؤات بدون الارتباط بعالم الغيب؟

۴- التنبّؤ بالهزيمة الساحقة للاعداء

فى المقطع الرابع نقف على صورة اخرى للتنبؤ.

نزلت هذه الآيات فى مكة عندما كان اعداء الإسلام يسرحون ويمرحون فى أوج قدرتهم، فى حين كان المسلمون فى غاية الضعف وقلة العدد.

---

(۱) اشير إليه فى تفاسير مجمع البيان؛ الكبير للفخر الرازى؛ وروح المعانى؛ والميزان.

(۲) إنّ غنائم حنين كانت عظيمة حتى أنّ البعض قدرها ب ۲۴ الف ناقة و ۴۰ الف شاة ومقادير كثيرة من الفضة (تفسير روح البيان ج ۹، ص ۴۲؛ منتهى الآمال ج ۱، ص ۶۵).

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۲۰

وكان الأعداء يفتخرون بقدرتهم وشوكتهم ويقولون: نحن جماعة قوية ومتحدة وسننتقم من مناوئينا وننتصر عليهم: «ام يَقُولُونَ نَحنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ»، إلّاأنّ القرآن يعقب على ذلك مباشرة بقوله: «سَيُهْزَمُ الجَمعُ وَيُولُّونَ الدُّبُرَ».

إنّ من المسلم هو عدم إمكان حصول التوقع والحدس بالانتصار السريع للمسلمين وكسر شوكة أعداء الإسلام فى ذلك الزمان، إلّاأنّه لم تمرّ فترة قصيرة من الزمن حتى هاجر المسلمون وعظمت قدرتهم وشوكتهم بحيث إنّهم وجهوا ضربة قوية ومباغتة إلى نحور الأعداء فى أول اصطدام من نوعه مع الأعداء فى ساحة معركة بدر.

والجدير بالذكر أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى يوم بدر كما جاء عن ابن عباس بدأ بالدعاء فى خيمته ومن ضمن ما كان يدعو به أنّه صلى الله عليه و آله كان يقول: (اللّهم أقسم عليك بالعهد الذى عاهدته معنا»، ثم لما خرج بلامة الحرب من الخيمة ودخل ساحة القتال تلا هذه الآية: «سَيُهَزمُ الجَمعُ وَيُولُّونَ الدُّبُرَ» أى أنّ الوعد الإلهى سيتحقق هذا اليوم «۱».

وبطبيعة الحال فقد استمرت هزائم الأعداء ونكوصهم على اعقابهم مراراً وتكراراً، ولم تمر أعوام حتى اذعنت «شبه الجزيرة العربية» كافة- فضلًا عن كفار مكة- بالتسليم والانقياد للمسلمين.

ونقل فى تفسير القرطبى عن بعض المفسرين: إنّ هذه الآية نزلت فى ميدان معركة بدر، فى حين أنّ المعروف والمشهور هو نزول سورة القمر بأجمعها فى مكة، والظاهر أنّ منشأ الاشتباه راجع إلى نفس ما تقدمت الإشارة إليه بأنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كرر هذه الآية فى ساحة بدر، فكانت إشارة واضحة إلى تحقق الوعد الإلهى فى ذلك اليوم، لهذا ظن البعض أنّ الآية نزلت فى ذلك المكان، على كل حال فهذه هى احدى التنبؤات القاطعة للقرآن التى تحققت على حين غرة فى فترة قصيرة.

---

(۱) نقل هذا الحديث عن صحيح البخارى عن ابن عباس فى تفسير فى ظلال القرآن، ج ۷، ص ۶۵۷ «مع التلخيص».

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۲۱

۵- نبوءة اخرى عن الانتصار فى معركة بدر

يدور الكلام فى الآية الخامسة عن أحد الوعود الصريحة بالنصر الذى منّه اللّه على المؤمنين من قبل، يقول عز من قائل: «وَاذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ احدَى الطَّائِفَتِينِ انَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ انَّ غَيرَ ذَاتِالشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ انْ يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَيقْطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ».

ثم يضيف على ذلك بقوله: «لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبطِلَ البَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الُمجرِمُونَ».

وتوضيح ذلك أنّ «أبو سفيان» سيد مكة وزعيم المشركين كان فى حال عودته من الشام على رأس قافلة كبيرة تحمل معها بضائع تجارية تقدر بخمسين الف دينار كانت تتعلق به وبجماعة من أساطين مكة وأكابرها.

وأصدر رسول الإسلام صلى الله عليه و آله أمرا إلى أصحابه بأن يعدوا أنفسهم للهجوم على القافلة، وذلك لتحطيم جزء من القدرة

الاقتصادية للأعداء عن طريق مصادرة أموالهم لأنّهم لم ينفكوا لحظة واحدة فى اظهار العداء للمسلمين وإيجاد العراقيل.

اطلع أصحاب «أبو سفيان» فى المدينة على هذه القضية ممّا حدا بهم إلى ايصال الخبر إلى مسامع أبى سفيان.

فلما علم بذلك اسرع فى إرسال أحد الأشخاص إلى مكة ليطلعهم على الخطر الكبير الذى يهدد أموالهم وممتلكاتهم، ولم تمضِ إلّافترة قصيرة حتى تحركت رجالات قريش وقواتها مع سبعمائة بعير ومائة فارس، وكان يقود عسكرهم أبو جهل، وقد حملت هذه المسألة على محمل كبير من الجد والخطورة بحيث أخذ زعماء مكة يهددون بهدم بيت كل من يستطيع الالتحاق بجبهة الحرب ثم يمتنع عن ذلك.

من جانب آخر سلك أبو سفيان طريقا آخر لينجو من قبضة المسلمين وأخذ يسير فى طريق مجهول لكى يبعد نفسه عن مواطن الخطر.

ووصل «نبى الإسلام» مع أصحابه البالغ عددهم ۳۱۳- مع عدّة وعتاد حربى بسيط ولكن بقلوب مملوءة بالايمان والعزم والإرادة- على مقربة من منطقة بدر أحد المنازل القريبة الواقعة بين مكة والمدينة، وجاءه الخبر هناك بتحرك جيش قريش المسلح من مكة

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۲۲

إلى المدينة، فبدأ يشاور أصحابه فى ذلك المكان وما يرتأونه من ملاحقة القافلة التجارية أو الوقوف بوجه معسكر الأعداء، فوافق البعض على مواجهة الأعداء إلّاأنّ البعض الآخر كان يميل باطنياً إلى ملاحقة القافلة والسبب فى ذلك يعود إلى أنّهم لا يجدون فى أنفسهم الاستعداد الكافى لمواجهة القدرة العسكرية الهائلة للأعداء.

لكن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله اختارالمسلك الصحيح وأصدر أمراً بالتحرك باتجاه العدو، ووصل الجيش الإسلامى إلى ناحية بدر (وبدر هو اسم لبئر فى تلك المنطقة من الأرض نسبة إلى صاحبها الأصلى المسمى بهذا الاسم، اطلق على جميع هذه الأرض بعد ذلك).

إنَّ الآية السابقة ناظرة إلى هذه الواقعة حيث تقول: إنّ اللَّه وعدكم أن تكون احدى الطائفتين (جيش قريش أو قافلتهم التجارية) من نصيبكم، إلّاأنّكم أحببتم الحصول على الطائفة غير المسلحة أىالقافلة التجارية، لكن اللَّه يريد اظهار الحق والقضاء على الكافرين.

لذا خاطب النبى المسلمين فى ذلك الموضع أنّ اللَّه تعالى قد وعدنا أن تكون احدى الطائفتين لنا وسنتحرك باتجاه جيش الأعداء، وسننتصر عليهم وأننا سنشاهد بأعيننا مصرع «أبى جهل» ومحل قتله ....

وتحقق هذا الوعد كما أراده اللَّه ورسوله حيث اشتبك الجيشان مع بعضهما البعض، وبعد حرب طاحنة وتضحيات جسيمة وردت تفاصيلها فى مجمل التواريخ الإسلامية، انتصر المسلمون وهزم مشركو مكة هزيمة مُرّة بحيث خلّفوا وراءهم سبعين قتيلًا، وسبعين أسيراً، ولاذ الباقون بالفرار.

وقعت هذه الحرب فى اليوم السابع عشر لشهر رمضان المبارك فى السنة الثانية للهجرة، وتركت تاثيراً بالغاً جدّاً فى مسيرة التاريخ الإسلامى، بحيث إنّ مجاهدى بدر كانوا يعدونها دائماً من أمجادهم ومآثرهم العظيمة.

هنا يطرح هذا التساؤل وهو: هل كان من المتوقع وفقا للمقاييس الاعتيادية أن يتحقق مثل هذا النصر للمسلمين بشكل أو بآخر؟ والجواب عن ذلك، كلا لأنّه:

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۲۳

أولًا: لم يتحرك المسلمون بنية القتال ومن الطبيعى لم تكن فى حوزتهم العدة والعتاد الكافى، لأنّهم كانوا بهدف الاستيلاء على القافلة فاذا بهم يباغتون بجيش جرار ومسلح من قريش (طبعاً فى مقياس ذلك الزمان).

ثانياً: من جهة الموازنة بين القوى فقط كان المسلمون يعيشون فى وضع سىء فى الظاهر فقد كان عدد أفراد جيش العدو يفوق عدد أفراد المسلمين بثلاثة أضعاف، وكانت فى حوزتهم الخيول والجمال الكثيرة والمستلزمات الحربية الكافية، فى حين كان المسلمون يمتلكون فارسين فقط، وكانت عدتهم الأساسية تتكون من ۷۰ ناقة يركبها كل واحد منهم بالتناوب.

ثالثاً: كان يوجد هناك أفراد أقوياء وشجعان بين صفوف جيش قريش، وكان الوازع والدافع النفسى للحرب ناشئاً من احساسهم بأنّهم لا يرون أنّ أموالهم وثروتهم هى المعرضة للخطر فحسب، بل كل شىء يمتلكونه هو معرض للخطر أيضاً.

لكن بالرغم من ذلك كله فإنّ اللّه وعد المسلمين بالنصر وفقاً للآية الصريحة التى تقدم ذكرها، وأكّد النبى على ذلك تأكيداً بالغاً أيضاً.

والجدير بالذكر أنّه قد ظهرت على مدار هذه الحادثة قضايا مختلفة عبرت عن وجود «امدادات غيبية» من جملتها أنّ المسلمين غطوا فى نوم هادىء فى ليلة وقعة بدر بحيث أعدتهم وعبأت قواهم ليوم المنازلة، كما هطل المطر من السماء ليغتسلوا ويتطهروا ممّا هم عليه، ثم لتصبح الأرض الرخوة التى يصعب التحرك عليها صلبة ومتماسكة وصالحة للنزال، وهذا هو ما أشارت إليه الآيات اللاحقة بالقول: «اذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ امَنَةً مِّنهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيطَانِ وَلِيَربِطَ عَلَى قُلُوبِكُم وَيُثَبِّتَ بِهِ الَاقدَامَ». (الانفال/ ۱۱)

ملخص الكلام أنّه يتضح جيداً من مجموع الآيات المتعلقة بملحمة بدر فى القرآن الكريم مدى الاضطراب والتزلزل الروحى لدى بعض المسلمين من تزايد أفراد العدو وقدراته العسكرية وتفوقهم على المسلمين، لذلك كان من الطبيعى جدّاً التنبوء بهزيمة

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۲۴

المسلمين، لكن على الرغم من كل هذه القرائن يقول القرآن: لقد وعد اللّه المسلمين بالنصر من قبل وانتصروا فى نهاية المطاف.

قد يقال: إنّ هذه الآيات نزلت بعد الانتصار فى بدر كما يعبر عنه لحنها وسياقها، وعليه لا يمكن اعتبارها جزءً من التنبؤات القرآنية، إلّاأنّ الاجابة عن هذا الإشكال تتضح من خلال الدقّة والتأمل فى نفس هذه الآيات، لأنّ القرآن يقول بصراحة: إنّ الوعد بالنصر قد جاءكم من قبل ثم تحقق هذا الوعد بعد ذلك.

۶- الوعد بالعودة

فى الآية السادسة وهى- الآية ۸۵ من سورة القصص- وعد اللّه تعالى نبيّه بالعودة إلى الحرم الإلهى الآمن، وقد جاء هذا الوعد فى أصعب أيّام حياة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، أى فى الوقت الذى أراد أن يكسر طوق حصار الأعداء الحاقدين ويخرج من ضيق خناقهم ويهاجر من مكة إلى المدينة.

وقد قام بهذا العمل واتجه صوب المدينة ولما وصل إلى منطقة الجحفة التى لا تبعد عن مكة إلّاقليلًا تذكر موطنه الحرم الإلهى الآمن، وبدت على ملامح وجهه آثار هذا الشوق الممتزج بالحزن والاسى وفى هذا الأثناء نزلت الآية الآنفة الذكر، وأبلغ على هذا النحو: «انَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ القُرآنَ لَرَادُّكَ الَى مَعَادٍ».

إنّ التنبوء بعودة النبى إلى مكة بصورة صريحة وقاطعة غير وارد فى تلك الظروف الحرجة والعصيبة عادة خصوصاً مع اقترانها بنزول القرآن وبأنّ اللّه المنزل للقرآن سيقوم بهذا العمل قطعاً، لكننا نعلم أنّ هذا الوعد الإلهى تحقق فى النهاية، وعاد النبى صلى الله عليه و آله مع جيشه القوى المقتدر إلى مكة منتصراًبعد عدّة سنين، وانضم الحرم الإلهى الآمن تحت راية الإسلام بدون أى قتل وقتال، وهذه هى احدى النبوءات الاعجازية للقرآن التى أخبر فيها عن المستقبل بصورة صريحة وقاطعة، وبدون أى قيد أو شرط، هذا فى الوقت الذى لم

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۲۵

تظهر فيها القرائن والعلائم على تحقق النصر اطلاقاً.

يقول المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان: «فى الآية دلالة على صحة النبوة لأنّه أخبر به من غير شرط ولا استثناء وجاء المخبر مطابقاً للخبر» «۱».

ويقول الفخر الرازى فى تفسيره أيضاً: «قال أهل التحقيق: وهذا أحد ما يدل على نبوته صلى الله عليه و آله لأنّه اخبر عن الغيب ووقع كما أخبر» «۲».

واحتمل البعض فى هذا المقام أنّ المراد من «المعاد» هو معاد يوم القيامة، وهذا الاحتمال ضعيف كما نقل المحققون القول عن المفسرين، لأنّ المعاد لايختص بنبى الإسلام حتى يوجه الخطاب إليه فقط، بالإضافة إلى أنّ كلمة «لرادك» لاتتناسب نوعا ما مع معاد يوم القيامة، لأنّ العودة إلى مكان ما هى فرع الخروج منه.

كما أنّ الاستناد إلى نزول القرآن فى جملة: «انَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيكَ القُرآنَ» التى وردت قبله، وكذلك جملة: «قُلْ رَبّى أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالهُدَى وَمَنْ هُوَ فِى ظَلَال مُّبِينٍ» التى وردت بعده، كلاهما قرينة على أنّ الحديث يدور حول حقانية نبى الإسلام والقرآن، لا حول مسألة المعاد فى يوم القيامة، فضلًا عن أنّ هذا التفسير لا يلتئم مع شأن نزول الآية أيضاً.

بالإضافة إلى لفظة «المعاد» على مانقله المرحوم الطبرسى عن القتيبى هو بلد الإنسان ووطنه (معاد الرجل بلده»، لأنّه أينما يذهب يعود من حيث ذهب.

وتجدر الإشارة إلى أنّ كلمة «المعاد» وردت مرّة واحدة فى القرآن الكريم وذلك فى هذا الموضع الذى هو بمعنى مسقط الرأس والموطن.

۷- لن ينال الإيمان أبداً

يدور الحديث فى الآية السابعة حول أحد المشركين المعروفين وهو «أبو لهب» عم

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۷ و ۸، ص ۲۶۹ فى ذيل الآية مورد البحث.

(۲) تفسير الكبير، ج ۲۵، ص ۲۱ فى ذيل الآية مورد البحث.

النبى، وابن عبد المطلب، وهو الشخص الوحيد الذى ورد ذكره فى القرآن من بين مشركى مكة، وأكد على أنّه من أهل النار وفيه إشارة واضحة إلى أنّه لن يؤتى الإيمان أبداً، يقول عزّ من قائل: «تَبَّتْ يَدَا ابِى لَهَبٍ وَتَبَّ* مَااغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ* سَيَصْلَى نَارَاً ذَاتَ لَهَبٍ».

وبالرغم من أنّ أبا سفيان كان عدواً خطيراً لكنه آمن إيماناً ظاهرياً فى نهاية الأمر، وآمن الكثير من الأفراد الخطرين والمجرمين إيماناً ظاهرياً أمثال «وحشى» قاتل حمزة.

إنَّ هذا التنبوء القاطع عن مصير شخص ك (أبو لهب) لم يكن يتأتى من الطرق العادية، فهذه النبوءة القرآنية لا تتأتى إلّامن طريق الاعجاز.

إنّ الكثير من مشركى مكة آمنوا إيماناً واقعياً، والبعض آمن إيمانا ظاهرياً، لكن من الذين لم يؤمنوا لا فى الواقع ولا فى الظاهر هو: أبو لهب وزوجته «ام جميل» شقيقة أبى سفيان، وقد صرح القرآن بوضوح أنّهما لن يؤمنا أبداً، وهذه من الأخبار الغيبية للقرآن الكريم.

كيف يتأتى للقرآن أن يتحدث عن جهنمية شخص ما يمكن له أن يقف إلى جانب المسلمين فى نهاية الأمر، أو يتظاهر بالاسلام على الأقل إذا لم يكن صادراً من عند اللّه تعالى

يدعى أبو لهب «عبد العزى (وعزى هو اسم لأحد الأصنام الكبيرة للعرب)، وكنيته: أبو لهب ولعل اختياره لهذه الكنية عائد إلى كونه ذا وجه يطفح بالحمرة والشرر، ولا ريب فى أنّ هذه الآيات نزلت فى زمن حياة أبى لهب، ولذا يقول: «تبت يدا أبى لهب»، وما نقله أغلب المفسرين عن شأن النزول يدل كذلك على أنّ هذه المسألة حدثت فى حياته، وذلك حينما أمر النبى بأنّ يدعو عشيرته

الاقربين إلى الإسلام ويحذرهم من الكفر والشرك، فى تلك الأثناء صعد النبى إلى قمة جبل من جبال مكة يدعى ب (جبل صفا) ونادى ياصياحا، (و هذه الجملة لا تستخدم إلّاحين الهجوم المباغت للعدو) فظن أهل مكة أنّ هناك هجوماً عدوانيا على مكة من الخارج، فلما اجتمعوا عند النبى صلى الله عليه و آله قال لهم: «انِّى نَذِيرٌ لَكُم بَيْنَ يَدَىْ

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۲۷

عَذَابٍ شَدِيدٍ»، احذركم من عبادة الأصنام وادعوكم إلى التوحيد.

فاستشاط أبو لهب غضباً وقال: «تباً لك أما جمعتنا إلّالهذا» فعندئذ نزلت الآيات الآنفة الذكر، وقالت: الموت له لأنّه سيكون طعمة لنار جهنم فى النهاية «۱».

۸- إنّا أعطيناك الخير الكثير

نطّلع فى المقطع الثامن من الآيات وهى «سورة الكوثر» على ثلاث نبوءات هامة، لأنّه تعالى يقول: «انَّا اعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ* فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَر* انَّ شَانِئَكَ هُوَ الابْتَرُ».

ذكر معظم المفسرين شأن نزول هذه الآية، وهى متقاربة مع بعضها البعض ومن جملتها ما قاله «البرسوى» فى روح البيان: «وذلك أنّهم (أى المشركون) زعموا حين مات أولاده القاسم وعبد اللَّه بمكة، وإبراهيم بالمدينة، أن محمداً صلى الله عليه و آله ينقطع ذكره إذا ما مات وذلك لفقدان نسله، فنبّه اللَّه سبحانه الى: إنّ الذى ينقطع ذكره هو الذى يشنأه، فأمّا هو فكما وصفه اللَّه تعالى «ورفعنا لك ذكرك»، وذلك أنّه أعطاه نسلًا باقياً على مر الزمان، فانظر كم قتل من أهل البيت والعالم ممتلىء منهم» «۲».

وقال «الطبرسى» فى «مجمع البيان»: «قيل: نزلت السورة فى العاص بن وائل السهمى وذلك أنّه رأى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يخرج من المسجد فالتقيا عند باب بنى سهم وتحدثا، واناس من صناديد قريش جلوس فى المسجد، فلما دخل العاص قالوا: مع من كنت تتحدث؟

قال: مع الأبتر، وكان قد توفى قبل ذلك عبد اللَّه ابن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وهو من خديجة، وكانوا يسمون من ليس له ابن أبتراً فسمته قريش عند موت ابنه أبتراً» «۳».

ونقل الفخر الرازى ستة أقوال فى شأن نزول هذه الآية بأنّ عدّة أفراد قالوا للنبى

---

(۱) نقل الكثير من المفسرين والمؤرخين شأن النزول هذا مع اختلاف طفيف (تفسير مجمع البيان؛ القرطبى؛ المراغى؛ الكبير؛ الدر المنثور؛ فى ظلال نهج البلاغة؛ كذلك الكامل لابن الاثير، ج ۲، ص ۶۰).

(۲) تفسير روح البيان، ج ۱۰، ص ۵۲۵.

(۳) تفسير مجمع البيان، ج ۳۰، ص ۵۴۹.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۲۸

الأكرم صلى الله عليه و آله: إنّك «ابتر»، وهذه السورة ناظرة إلى هؤلاء الأشخاص «۱».

وعلى الرغم من أنّه قد ذكر افراداً متعددين، إلّاأنّ المحتوى والمضمون واحد فى جميعها، وأنّ جميعهم كانوا يسمون النبى صلى الله عليه و آله «بالأبتر» حقداً وعداوة، وقد رد عليهم القرآن بأجمعهم، لأنّ هذه الأقوال الستة لا تتنافى مع بعضها البعض، فمن المحتمل أنّ هذا التعبير صدر من جميعهم، والرد القرآنى ناظر إليهم جميعاً.

وعلى أيّة حال فإنّ لفظة «الأبتر» فى الأصل، تعنى قطع عضو من أعضاء جسم الحيوان، ومن المتعارف أنّها تطلق على قطع الذنب، ثم اطلقت بعد ذلك على الأشخاص المقطوعى النسل، وكذلك على الذين ينقطع ذكرهم الحسن، أو يمحى من الخواطر، والخطبة

«البتراء» أيضاً تقال للخطبة التى لا تبدأ باسم اللّه (أو أنّها لا تشتمل على ذكر اللّه).

وورد فى المقاييس أيضاً أنّ «البتر» هو القطع، و «السيف الباتر» هو السيف القاطع، ويقال لمن لا عقب له: «ابتر». أمّا «الكوثر» فهى مأخوذة من مادة الكثرة «۲»، وهى نفس هذا المعنى، ولها هنا فى هذا المقام معنى واسع وشامل، وهو عبارة عن الخير الكثير والبركة الكثيرة، واحد مصاديقها البارزة هم الأبناء الصالحون والسلالة الطيبة، واجلى مصداق لذلك هى بنت نبيّ الإسلام و «سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين» فاطمة الزهراء عليها السلام.

وذكر المفسرون احتمالات كثيرة لمعنى «الكوثر» بحيث نقل الفخر الرازى خمسة عشر قولًا، ونقل صاحب تفسير روح المعانى عن بعض المفسرين ستة وعشرين قولًا، وأشار إليه المرحوم العلّامة الطباطبائى فى «الميزان» أيضاً، ومن جملة التفاسير المشهورة له هو نفس «حوض الكوثر» المتعلق بالنبى الأكرم صلى الله عليه و آله والذى يرتوى منه المؤمنون عند دخولهم إلى الجنّة «۳».

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۳۲، ص ۱۳۲.

(۲) يقول الآلوسى فى تفسير روح المعانى، ج ۳۰، ص ۲۴۵: الكوثر صيغة مبالغة، بمعنى الكثرة التى تجاوزت حداًمعيناً، وفى لسان العرب؛ الكوثر هو الكثير من كل شىء.

(۳) تفسير مجمع البيان، ج ۳۰، ص ۵۴۹.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۲۹

وفسره البعض أيضاً بأنّه مقام النبوة، أو القرآن، أو نهر فى الجنّة، أو الشفاعة. وكما قلنا:

إنّ لهذه الكلمة معنى واسعاً وشاملًا لكل هذه المعانى وغيرها، ولا يمنع من جامعية المفهوم تعدد مصاديق هذا المفهوم، فليس ثمّة تضاد وتنافر بين هذه التفاسير المتعددة.

وعلى أى حال يستكشف من هذه السورة ثلاث نبوءات هامة:

أولًا: إنّه يقول: (انّا أعطيناك الخير الكثير).

إنّ كلمة «اعطيناك» وإن خرجت بهيئة الفعل الماضى إلّاأنّها من الممكن أن تكون من قبيل المضارع القطعى المبين بصيغة الفعل الماضى.

وهذا الخير الكثير فى الحقيقة يستوعب كل الانتصارات التى حظى بها النبى صلى الله عليه و آله، والتى لم تكن متوقعة حين نزول هذه السورة.

هذا مع الأخذ بنظر الاعتبار شأن النزول وكلمة «الأبتر» التى اطلقها الأعداء على النبى صلى الله عليه و آله، فيكون أحد المصاديق الجلية لهذا الخير الكثير هم «الأبناء»، والسلالة الخيرة التى تفرعت من ابنته الوحيدة «فاطمة الزهراء عليها السلام»، وانتشرت فى سائر أنحاء الكرة الأرضية، وعلى حد قول البعض: إنّهم ملأوا العالم فى يومنا هذا، وهذا هو الذى لم يكن متوقعا فى ذلك العصر.

وأشار إلى هذا الموضوع- بصراحة- جماعة من مفسرى أهل السنّة أيضاً، من ضمنهم الفخر الرازى، فالقول الثالث الذى ينقله فى تفسير «الكوثر» هم نفس أولاده وأبنائه وهذه السورة إنّما نزلت رداً على من عابه صلى الله عليه و آله بعدم الأولاد، فالمعنى أنّه يعطيه اللّه تعالى نسلًا يبقون على مر الزمان، فانظركم قتل من أهل البيت، والعالم ممتلىء منهم، ولم يبق من بنى امية فى الدنيا أحد يعبأ به، ثم انظركم من الأكابر من العلماء: كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام والنفس الزكية وأمثالهم «۱».

وجاء هذا المعنى فى تفسير روح المعانى أيضاً: وقيل: هو أولاده صلى الله عليه و آله لأنّ السورة نزلت رداً على من عابه صلى الله عليه و آله وهم والحمد لله كثيرون قد ملأوا البسيطة «۲».

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۳۲، ص ۱۲۴.

(۲) تفسير روح المعانى، ج ۳۰، ص ۲۴۵.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۳۰

من جهة ثانية يخبر أنّ أعداءه سيكونون «مبتورين»، وبلا عقب، وتحققت هذه النبوءة أيضاً، ووصلت حالة التشرذم والتشتت بأعداء الرسول بحيث لم يبق لهم أثر فى هذا اليوم.

إنّ «أبو سفيان» وأبناءه وعشيرة بنى امية الذين كانوا من الأعداء الشرسين للإسلام قد وقف بعضهم بوجه النبى والبعض الآخر بوجه أبنائه، كانوا فى يوم من الأيّام جمعاً غفيراً، بحيث تجاوز عدد ذويهم وأبنائهم وأرحامهم عن حد الاحصاء، لكن لم يبق لهم شىء يذكر فى يومنا هذا فكل شىء عنهم انطوى فى صفحة النسيان.

يقول الآلوسى فى روح المعانى: «الأبتر، هو الذى لا عقب له، حيث لا يبقى منه نسل ولا حسن ذكر، وأما أنت فتبقى ذريتك وحسن صيتك وآثار فضلك إلى يوم القيامة» «۱».

إنّ هذه السورة وإن دلّ شأن نزولها وفقاً للرواية المشهورة على أنّ القائل لهذا الكلام هو «العاص بن وائل» الذى كان من الأعداء الألداء للنبى صلى الله عليه و آله إلّاأنّه من البديهى أنّ هذه السورة ليست ناظرة إلى الشخص فقط، بل إنّ كلمة «شانىء» المأخوذة من مادة «شنآن» التى هى بمعنى البغض والعداوة، لها مفهوم واسع وشامل لكل الأعداء، وهذا التنبؤ صادق فى حقهم جميعاً، لأنّه لم يبق لهم ذكر يؤثر، ولا أبناء معروفون ولم يكن التكهن بهذا المعنى ممكنا فى ذلك اليوم الذى كان النبى صلى الله عليه و آله يعيش فى مكة، والمسلمون فى منتهى القلة.

۹ و ۱۰- أولئك لن يضروكم بشىء

فى الآيتين التاسعة والعاشرة من هذا البحث نلاحظ تنبؤات مهمّة:

۱- «إنّ أهل الكتاب لن يتمكنوا أن يلحقوا بكم ضررا ذا بال ويهددوا وجود الإسلام والمسلمين بالخطر لأنّ اضرارهم طفيفة وغير مؤثرة» «لَنْ يَضُرُّوكُم الَّا اذىً».

إنّ كلمة «أذىً» وان شملت على حد قول «الراغب» فى «المفردات» كل مايلحق الضرر

---

(۱) تفسير روح المعانى، ج ۳۰، ص ۲۴۷.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۳۱

بروح الإنسان وجسمه ومتعلقاته لكنه نظرا إلى أنّها وردت بصيغة الاستثناء من جملة «لن يضروكم»، ومجيئها بصيغة النكرة أيضاً، دلّ ذلك على أنّ المقصود منها هى الاضرار الجزئية سواء كانت مبادرة بشكل كلام جارح، أو بشكل حركات استفزازية سطحية.

ولا تتأتى هذه النبوءة المستقبلية الصريحة إلّامن طريق الوحى نظراً إلى القوة العسكرية الهائلة التى كان يتمتع بها أهل الكتاب وبالأخص اليهود، وإلى حالة الضعف التى يعانى منها المسلمون من الناحية الظاهرية.

۲- ثم يقول تعالى إنّ هؤلاء سيكون نصيبهم الفشل والاندحار والفرار متى ما قاتلوكم وأثبتوا وجودهم فى ميدان النزال: «وَانْ يُقَاتِلُوكُم يُوَلُّوكُم الادْبَارَ ثُمَّ لَايُنْصَرُونَ».

إنّ هذا التنبؤ عن أنّ مصير اليهود وسائر أهل الكتاب هو الفشل والتراجع فى كل حرب تقع بينهم وبين أصحاب النبى صلى الله عليه و آله لم يكن بالشىء اليسير ولا يتأتى هذا التنبوء من الطرق العادية أيضاً.

۳- إنّ هؤلاء اليهود لن يصمدوا بحال من الأحوال، وأينما وجدوا كُتِبَ عليهم الذل والهوان إلّابالارتباط باللَّه (وإعادة النظر فى

سلوکهم الخاطیء)، أو الارتباط بالناس والتبعیة لهذا وذاک: «ضُرِبَتْ عَلَیْهِمُ الذِلّةُ اینَ مَا ثُقِفُوا الَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ».

وتحققت هذه الوعود والبشائر السماویة الثلاثة فی عصر النبی کما ذکر التاریخ الإسلامی، وبالأخص أنّ الیهود فی الحجاز وهم «بنی قریظة»، و «بنی النضیر»، و «بنی قینقاع»، و «یهود خیبر»، و «بنی المصطلق»، قد خسروا الجولة فی نهایة الأمر، وتواروا عن مسرح الحیاة بعدما قاموا به من انتهاکات کثیرة، وتحرکات مثیرة ضد الإسلام، هذا وإن لم یرد التصریح بذکر الیهود فی الآیات السابقة، لکن یستفاد من القرائن الموجودة فی هذه الآیة والآیات المشابهة لها (کالآیة ۶۱ من سورة البقرة التی ذکر فیها اسم الیهود صریحاً).

إنّ هاتین الآیتین ناظرتان إلی الیهود، وبالأخص بالنسبة لما جاء فی الآیة الأخیرة من أنّ هؤلاء إنّما یستطیعون أن یمسحوا عن جبینهم وصمة الذل فی صورتین:

الاولی فی صورة «الرجوع إلی اللّه، وترک العصیان، والذنب، والفساد فی الأرض»، ولا یتمّ ذلک (إلّا بحبل من اللّه).

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۳۲

والثانیة: فی صورة «إتباع الناس والاتکال علی الآخرین»، (وحبل من الناس).

وهذه الآیة تشیر إلی نفس الظاهرة المشهورة فی حیاة الیهود إلی یومنا هذا، وتاریخهم یفصح إمّا عن حالة الضیاع والتشرد والذل، وإمّا عن حالة التبعیة والانقیاد للقوی الاخری وتسخیر الذات فی خدمة مقاصدهم السیئة، (وتشاهد الحالة الاولی فی العصر الأخیر فی عهد النازیین والحالة الاخری فی یومنا هذا).

وبالرغم ممّا ذکره المفسرون من احتمالات متعددة لتفسیر «حبل من اللّه وحبل من الناس» إلّاأنّ ما تقدم ذکره آنفاً هو الأنسب ظاهراً، ویمکن الأخذ ببعض تفاسیر هؤلاء بعنوان مصداق لهذا المفهوم الکلی الذی ذکرناه.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۳۳

۷- الاعجاز القرآنی فی عدم وجود التناقض والاختلاف

اشارة

من الدلائل الاخری علی اعجاز القرآن الکریم، وکونه نازلًا من قبل اللّه تعالی هو عدم وجود التناقض والاختلاف فی سائر أنحائه، فی حین أنّ الصفة الغالبة علی الظروف التی نزل فیها القرآن والمبعوث به تدلل علی أنّه لو لم یکن صادراً من قبل اللّه لوقع فیه الاختلاف و التناقض، بل الاختلافات والتناقضات الکثیرة، وقد أشار القرآن إلی هذه الحقیقة فی قوله تعالی «افَلَا یَتَدَبَّرُونَ القُرآنَ وَلَوْ کَانَ مِن عِنْدِ غَیرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِیهِ اختِلَافاً کَثِیراً».

(النساء/ ۸۲)

ویمکن الوقوف علی النکتة الأساسیة لهذه المسألة من خلال تحلیل بسیط، فنقول: إنّ الحالات الروحیة لأیإنسان فی تغیر مطرد- وقانون التکامل یحیط بالإنسان فکراً وروحاً فی حالة وجود ظروف طبیعیة، وعدم حصول وضع استثنائی فهو یحدث علی مرّ الأیّام والشهور والسنین تحولًا مستمراً فی ألسنة البشر وأفکارهم وأحادیثهم، وإذا ألقینا نظرة فاحصة علی تصانیف أحد الکتّاب فسوف لن نجدها علی نسق واحد اطلاقاً، بل لابدّ من وجود تفاوت فی بدایة الکتاب ونهایته، خاصة إذا ماکان الإنسان واقفاً أمام موجة من الأحداث الکبیرة والساخنة، الأحداث التی تضع الحجر الأساس لأحد الانقلابات الفکریة والاجتماعیة والدینیة الشاملة، فهو مهما سعی وأراد أن یکون کلامه علی سیاق ونسق واحد، ومعطوفاً علی سابقة لا- یقوی علی ذلک وخاصة إذا ما کان امیّاً وناشئاً فی محیط متخلف جدّاً.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۳۴

أمّا القرآن فقد نزل على حسب الاحتياجات والمتطلبات التربوية للمجتمع فى ظروف وملابسات مختلفة تماماً طيلة ۲۳ عاماً، فهو الكتاب الذى تحدث عن مواضيع متنوعة، وهو ليس كسائر الكتب التى تواكب أحد البحوث الاجتماعية أو السياسية أو الفلسفية أو الحقوقية أو التاريخية فحسب، بل أحياناً يتحدث عن التوحيد وأسرار الخلقة، وأحياناً عن الأحكام والقوانين، والآداب والسنن، وتارة يتحدث عن الامم السابقة وقصصهم المثيرة، وتارة اخرى عن المواعظ والنصائح، والعبادات، والعلاقة القائمة بين اللَّه تعالى وعباده، وعلى ضوء قول الدكتور «غوستاولبون»: إنّ الكتاب السماوى للمسلمين- وهو القرآن- لا يقتصر على التعاليم والدساتير الدينية فحسب، بل تندرج فيه الدساتير الاجتماعية والسياسية للمسلمين أيضاً.

إنَّ مثل هذا الكتاب المشتمل على هذه الخصوصيات لا يمكن أن يخلو من التضاد والتناقض واختلاف الأقوال الكثيرة عادة، لكن عندما نرى الانسجام القائم بين آياته كلها، وخلوها من كل ألوان التضاد والاختلاف والتهافت يمكننا حينئذٍ الحدس بأنّ هذا الكتاب ليس وليد أفكار الناس، بل هو صادر من قبل البارى تعالى كما بيّن القرآن نفسه هذه الحقيقة فى الآية السابقة.

وبعبارة اخرى إنّ كافة الموجودات المادية- ومن ضمنها الإنسان الذى له صبغة مادية بأحد اللحاظات- فى تغّير وتحول دائم ومطرد وتنقل هذا التغيّر إلى الموجودات الدائرة حوله، إنّ قابلية التأثر والتأثير جزء لا يتجزأ من طبيعة الإنسان، وطبيعة أىموجود مادى آخر، ولهذا السبب تتبدل أفكار الإنسان وآراؤه مع تقدم الزمن، علاوة على أنّ ازدياد تجارب الإنسان ورقى مستوى إبداعه فى المسائل المختلفة يساهم فى تصعيد هذا التغير، وهذه هى التى تؤدّى حتما إلى التغير والتضاد واللاإنسجام فى المذكرات التى تعود إلى سنين متمادية لأحد الأشخاص فيما لو جمعت ونسقت بعد ذلك، واللَّه القادر المتعال وحده هو الذى يكون بمعزل عن هذه التغيرات وقابلية التأثر والتأثير، فليس فى كلماته تضاد أبداً وهذه هى إحدى الطرق فى معرفة كلام الحق وتمييزه عن كلام غيره، حتى أنّ البعض من

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۳۵

المفسرين صرحوا بأنّه لايقتصر الأمر على عدم وجود التضاد فى القرآن فحسب، بل يتعداه إلى عدم وجود التفاوت والاختلاف فى درجة فصاحته وبلاغته أيضاً، ومن الصحيح القول بأنا نجد بعض الآيات القرآنية أبلغ من بعضها الآخر، وعلى حد قول الشاعر: متى كانت «تبت يدا» بمنزلة «ياأرض ابلعى» ولكن هذا يتأتى عند اختلاف المقامات أىأنّ كل واحدة منها تعتبر من أفضل التعابير وانسبها فى مقامها الخاص بها، ومن هذه الجهة لا يوجد تفاوت واختلاف.

سؤال:

وهناك سؤال لابدّ من طرحه وهو: إذا لم يكن هناك تضاد واختلاف فى القرآن الكريم فما هو السبب من وجود آيات ناسخة وآيات منسوخة؟

الجواب:

سبق وأن قلنا فى بحث الناسخ والمنسوخ فى القرآن: إنّ الآيات المنسوخة تشتمل على قرائن تدل على أنّ أمدها المضمونى قصير وسينتهى فى يوم من الأيّام، بمعنى وجود دواعى النسخ فى مضمونها، وبناء على هذه النكتة فليست لا تضاد فيها فحسب، بل- علاوة على ذلك- يوجد فيها نوع من التناسب والتوافق بينها.

وعلى سبيل المثال لو أردنا أن نعد برنامجاً دراسياً لمقاطع زمنية مختلفة حتى نساعد الأفراد الدارسين فى دائرة التعليم والتربية على تخطى المراحل المختلفة، والوصول بهم إلى المرحلة النهائية، فإنّ التغيرات الطارئة على البرامج فى فترات مختلفة لا تعد بعنوان تضاد وتناقض وذلك لوجود قرائن فى متن هذه البرامج، بل على العكس هناك نوع من التوافق والانسجام بينها.

وممّا قلناه آنفاً اتضح الجواب عن سؤال مشابه أيضاً يطرح فى مورد آيات «العام والخاص» أو «المطلق والمقيد» ذلك أنّ الجمع بين العام والخاص عن طريق التخصيص،

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۳۶

وكذلك الجمع بين المطلق والمقيد هو جمع عرفى متعارف، ولا يعد تناقضاً بأى شكل من الاشكال.

فمثلًا لو أعلنت الحكومة عن موافقتها على حرية التصدير بشكل مطلق، ثم قررت وضع استثناءات معينة بعد ذلك، فإنّ وجود هذه الاستثناءات ليس دليلًا على التضاد، وبالأخص إذا ما تجسد هذا العمل على شكل سُنّة وخطّة معينة بحيث يقال له: حكم عام، ثم يقومون بتقييده وتخصيصه بعد ذلك، علاوة على أنّه لا يوجد حكم بدون استثناء عادة.

إلى هنا نصل إلى نهاية البحث فى الاعجاز القرآنى والصور المختلفة للاعجاز.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۳۷

خرق العادات والنواميس الطبيعية

اشارة

ممّا لا شك فيه أنّ لنبى الإسلام معجزات اخرى كثيرة غير القرآن الكريم، وقد أجمع المسلمون فى العالم كافة على هذه المسألة ودلت عليها روايات متواترة أيضاً، وكما أنّ القرآن الكريم أشار إليها مراراً وتكراراً، فذكرها تارة بشكل مجمل ومقتضب، وتارة بشكل مفصل من خلال الإشارة والتنويه إلى المعجزات الخاصة.

وممّا تجدر الإشارة إليه هنا هو المقطع الأول من الآية التالية:

١- «وَاذَا ذُكِّرُوا لَايَذْكُرُونَ* وَاذَا رَأَوا آيَةً يَستَسخِرُونَ* وَقَالُوا انْ هَذَا الَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ». (الصافات/ ١٣- ١٥)

التعبير ب (رأَوا آية) يدل بوضوح على أنّهم لو شاهدوا معجزة أو معاجز للنبى، فبدلًا من أن يؤمنوا بها صدرت منهم ردود فعل وممارسات سلبية، من بينها، أولًا: إنّهم أخذوا يتوسلون بمنطق الاستهزاء والسخرية، وثانياً: إنّهم اعتبروا ذلك «سحراً مبيناً».

ومن المسلَّم أنّ الآيات القرآنية سمعيّة وليست بصريّة، وعليه لا يمكن أن تكون لفظة «الآية» هنا ناظرة إلى الآيات القرآنية، بالإضافة إلى ذلك فإنّ التعبير ب «السحر المبين» يتناسب تماماً مع المعجزات وخوارق العادات، والواقع أنّ اتهامهم نبى الإسلام بالسحر، وترويجهم لهذه المسألة بشكل واسع يدل على أنّهم رأوا منه خوارق عادات ومعجزات، وفضلًا عن ذلك كله كيف يتأتى للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله أن ينقل فى كتابه السماوى المعاجز الحسية للأنبياء السابقين كمعجزة «اليد البيضاء»، و «عصا موسى»، والمعجزات التسعة الصادرة منه (النمل/ ١٢)، أو المعجزات المتعددة للسيد المسيح، نظير «إحياء الأموات»،

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۳۸

«وشفاء المكفوفين الذين فقدوا بصرهم منذ الولادة»، و «المرضى الذين يستحيل علاجهم» وما شابه ذلك، وكذلك المعاجز التى جاء بها الأنبياء العظام إبراهيم، وصالح، ويوسف، وسليمان، وداود، والتى ورد ذكرها جميعاً فى القرآن- ثم لا يأتى بنفسه بمعجزة حسية؟! كيف يمكن له أن يقنع الناس بأنّ جميع الأنبياء كانوا يمتلكون معاجز حسية وهو لايمتلك شيئا منها فى حين أنّ نبوّته أفضل النبوّات، ودينه أفضل الأديان؟ إنّ كل هذه القرائن- مضافاً إلى الآية السابقة- تدل على أنّه كانت له صلى الله عليه و آله معجزات اخرى بالإضافة إلى الآية السابقة فهناك آيات كثيرة اخرى بصدد بيان مسألة معاجز نبى الإسلام، وقد وردت عن ائمة الدين روايات فى تفسيرها وذكر سبب وتاريخ نزولها، إنّ معاجز نبيّ الإسلام لا تعدّ ولا تحصى فعلى سبيل المثال لا الحصر نلاحظ نماذج منها:

١- نطالع فى قوله تعالى «سُبْحَانَ الَّذِى اسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ الَى المَسْجِدِ الاقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِن آيَاتِنَا انَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ».

(الاسراء/ ١)

لا شك أنّ الذهاب من «المسجد الحرام» إلى «المسجد الاقصى»، وأكثر من ذلك الصعود إلى السماوات، خاصة فى الظروف

الموضوعية لذلك الزمان، كان أمراً خارقاً للعادة، بيدَ أنّه ما لم يشاهد الناس هذا المشهد لايمكن أن تكون له صبغة إعجازية ولا يمكن أن يقع فى طريق إثبات دعوى النبى صلى الله عليه و آله، إلّاأنّ الروايات الإسلامية تدل على أنّ الناس اطلعوا على هذه القضية عن طريق الأخبار التى ألقاها النبى على القافلة أو القوافل التى كانت تشق طريقها بين مكة والشام «۱».

۲- جاء فى ذيل قوله تعالى «انّا كَفَيْنَاكَ المُسْتَهْزِئينَ». (الحجر/ ۹۵)

---

(۱) جاء فى إثبات الهداة، ج ۱، ص ۲۴۷، عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ النبى صلى الله عليه و آله أخبر عن رؤية قافلة أبى سفيان ومرورها ببئر قبيلة فلان بحثاً عن ناقة لهم ذات وبر أحمر، كما وصف سوق الشام الذى لم يره قط (تفسير مجمع البيان ج ۱، ص ۳۹۵؛ وسيرة ابن هشام، ج ۲، ص ۴۳- ۴۴).

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۳۹

أنّ ستة مجموعات (أو أقل) كانت كل واحدة منها تتعامل مع نبى الإسلام بنوع من أنواع الاستهزاء، وكلما انبرى إلى دعوة الناس كانوا يسعون من خلال أحاديثهم إلى تفريق الناس من حوله، غير أنّ اللَّه تعالى ابتلى كل واحد منهم ببلاء معين، ووصل الأمر بهم إلى أن ينشغلوا بأنفسهم كثيراً بحيث نسوا النبى الأعظم صلى الله عليه و آله «۱».

۳- يقول تعالى «يَاايُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُم اذْ هَمَّ قَوْمٌ انْ يَبْسُطُوا اَلَيْكُم ايْدِيَهُمْ فَكَفَّ ايْدِيَهُمْ عَنْكُم». (المائدة/ ۱۱)

ورد فى بعض الروايات أنّ هذه إشارة مستبطنة ناظرة إلى المؤامرة التى دبرها «يهود بنى النضير» لاغتيال نبى الإسلام، وذلك حينما توجه النبى إليهم مع جمع من أصحابه ليتباحثوا حول الاتفاقية التى كانت معقودة بينهم بالنسبة إلى دِيَة المقتولين، فقالوا: لا مانع من ذلك، اجلسوا وتناولوا الطعام حتى يتحقق مرادكم، وفى تلك الحالة كان فى نيّتهم أن يقوموا بحملة مباغتة ويقضوا على النبى وأصحابه، فأطلع اللَّه تعالى النبى على ذلك وأخبر النبى بذلك أصحابه فعادوا بسرعة، «وكانت هذه احدى معجزات النبى» «۲».

۴- تعقيباً على قوله تعالى «وَاذَا قَرأْتَ القُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَايُؤمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابَاً مَّسْتُوراً». (الاسراء/ ۴۵)

ورد أنّ بعض الأعداء كانوا ينوون القضاء على حياة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى حالة انشغاله بتلاوة القرآن، فأسدل اللَّه تعالى حجاباً على أبصارهم يحول بينهم وبين رؤية نبيّه.

وورد فى الحديث الذى نقله المرحوم الطبرسى فى الاحتجاج عن على عليه السلام: إنّ اللَّه تعالى أسدل خمسة حجب على انظارهم للحيلولة بينهم وبين رؤية محمد صلى الله عليه و آله، وقد اشير إلى هذه الحجب الخمسة فى القرآن الكريم.

فى أحد المواضع من سورة يس يقول: «وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ ايْدِيهِم سَدّاً»، فهذا هو الحجاب الأول ثم يعقب بقوله: «وَمِنْ خَلْفِهِم سَدّاً». (يس/ ۹)

وهذا هو الحجاب الثانى.

---

(۱) نقل الطبرسى فى تفسير مجمع البيان، ج ۵- ۶، ص ۳۴۶، وكذلك العلّامة المجلسى فى بحار الأنوار، ج ۱۸، ص ۴۸، وابن هشام فى السيرةج ۲، ص ۵۰، وبقية المفسرين والمؤرخين شرحاً وافياً لهذه الواقعة.

(۲) تفسير مجمع البيان، ج ۳، ص ۱۶۵.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۴۰

ثم يقول بعدها: «فَاغْشَيْنَاهُم فَهُمْ لَايُبْصِرُونَ» وهذا هو الحجاب الثالث.

ثم إنّه يقول: «وَاذَا قَرأْتَ القُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذينَ لَايُؤمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابَاً مَّسْتُوراً».

وهذا هو الحجاب الرابع.

وقال تعالى بعد ذلك: «انَّا جَعَلْنَا فِى اعْنَاقِهِم اغْلَالًا فَهِىَ الَى الاذْقَانِ فَهُمْ مُّقمَحُونَ» «۱».

(يس/ ۸)

ولذا لا يرون شيئاً، وهذا هو الحجاب الخامس.

إنّ هـذه الحجب سواء كان لها صـبغة مادية أو معنوية، فهى وقفت حاجزاً أمام المؤامرات المختلفة المدبرة ضد النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله، وهذه بحد ذاتها تمثل إحدى المعاجز النبوية الشريفة.

۵- نطالع فى قوله تعالى «فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ». (البقرة/ ۱۳۷)

إنّ الأشـخاص المحيطين علماً بالتاريـخ الإسـلامى هم القادرون على الاطلاع على عمق مفهوم هذه الآية التى يُستشف من ظاهرها أنّ الأعراب المعانـدين والمتعصبين الجاهليين وخاصـة الاشـراف من مشـركى مكـة الـذين تعرضت منافعهم اللامشـروعة للخطر مع ظهور الإسلام، لم يدخروا جهداً فى القضاء على الإسلام والنبى الأكرم صلى الله عليه و آله.

فى الوقت ذاته تعطى الآية التى نحن بصددها وعداً صـريحاً بأنّ اللّه تعالى سوف يدفع شـرورهم، ويسـفِّه أحلامهم، ويفشل مؤامراتهم، وهذه من إحدى النبوءات الاعجازية.

۶- وردت الإشـارة فى القرآن الكريم إلى اعجـاز آخر حـدث فى حرب الأحزاب، يقول عز من قائل: «يَا ايُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُم اذْ جَاءَتْكُم جُنُودٌ فَارْسَلْنَا عَلَيهِم رِيحَاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً». (الأحزاب/ ۹)

إنّ الـذين يطـالعون قصـة «حرب الأـحزاب» فى القرآن الكريم، والروايـات والتواريـخ، يجزمـون على وجود بون شـاسع بين المسـلمين واعدائهم، فقد فرض الأعداء حصاراً شديداً على المدينة بحيث أصبح سقوطها حتمياً بحسب الظاهر، ووصلت الحالة بالمسلمين إلى

---

(۱) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۴۲۳، ح ۲.

أنّ يُعبِّر القرآن عنهم بقوله: «وَاذْ زَاغَتِ الابْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ ... وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيداً». (الاحزاب/ ۱۰- ۱۱)

فى خضم هـذه الظروف هبَّت- على حين غِرّة- نسـمة الرحمـة الإلهيّة، وانقلبت الامور رأساً على عقب وتتابعت فيوضات المدد الإلهى على المسلمين وقذف اللّه فى قلوب المشركين الرعب والفزع الشديد فتراجعوا خائبين بدون أن يحققوا عملًا معيناً وعادوا إلى مكة.

وفى الواقع أنّ جميع الأخبار الغيبية فى القرآن التى بحثناها مفصلًا فى الفصل السابق، يمكن الاستناد إليها فى هذا البحث أيضاً، وذلك لأـنّ كـل واحـد منهـا يعتبر معجزة من معاجز نبى الإسـلام ودليلًا على صـدق قوله وادّعائه. طالعوا مرة اخرى كل ماذكرناه فى الفصول العشـرة من بحث الاعجاز القرآنى من ناحيـة الأخبار الغيبيـة، إذ كل واحـد من تلك الفصول يعتبر شاهداً على البحوث التى بين ايدينا فى هذا الفصل.

وأمّا الموارد الخاصـة التى حـددها القرآن الكريم، ففى مقـدمتها قصة شق القمر التى جاء ذكرها فى قوله تعالى «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ القَمَرُ* وَانْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ* وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا اهْوَاءَهُم وَكُلُّ امْرٍ مُّسْتَقِرٌّ». (القمر/ ۱- ۳)

الكلام يقع فى أنّ المقصود من شق القمر هل هو بعنوان معجزة من المعاجز الواقعـة فى هذا العالم، أو أنّه إشارة إلى انشـقاق القمر فى المسـتقبل أو فى نهاية العالم بصـفته واحدة من العلامات على بداية الآخرة، فالمشـهور بين المسلمين هو الاحتمال الأول على حد قول الفخر الرازى الـذى يقـول: «والمفسـرون بأسـرهم على أنّ المراد أنّ القمر انشـق وحصـل فيـه الانشـقاق، ودلـت الأخبـار على حـديث الانشقاق، وفى الصحيح خبر مشهور رواه جمع من الصحابة» «۱».

وينقل المرحوم «الطبرسى» أيضاً حديث انشقاق القمر عن جمع كبير من صحابة النبى

(۱) تفسير الكبير، ج ۲۹، ص ۲۸.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۴۲

الأكرم صلى الله عليه و آله، وجماعة من المفسرين ويعد المخالفين لهذه المسألة ثلاثة أشخاص فقط، هم:

(عثمان بن عطاء، عن أبيه وكذلك الحسن والبلخى)، ثم يقول بعد ذلك: «وهذا لا يصح لأنّ المسلمين أجمعوا على ذلك فلا يعتد بخلاف من خالف فيه ولأنّ اشتهاره بين الصحابة يمنع من القول بخلافه» «۱».

وذكر جماعة من المفسرين عبارات متشابهة لما نقلناه عن «الطبرسى» و «الرازى».

علاوة على ذلك فانه توجد قرائن واضحة على هذا المعنى فى نفس هذه الآيات من جملتها:

۱- جملة «وانشق القمر» المذكورة بصيغة الفعل الماضى التى تدل على وقوع مثل هذا الأمر، وأمّا كون الفعل الماضى بمعنى المضارع فإنّه وإن ورد ذكره فى موارد معينة من القرآن الكريم، لكن نظراً لكونه استعمالًا مجازياً فهو بحاجة إلى القرينة، ولا توجد قرينة فى هذا المقام.

۲- إنّ أفضل شاهد على هذا المعنى هى الآية الثانية التى تقول: «وَانْ يَرَوا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ»، لأنّ مشاهدة «الآية» و «الإعراض» عنها، ونسبة السحر إلى النبى كلها تدل فى الظاهر على وجود معجزة.

۳- تخبر جملة: «وكَذَّبوا واتَّبعوا أَهْواءَهم» فى الآية الثالثة عن تكذيب هؤلاء لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله حتى بعد مشاهدة المعجزة، ولو لم يكن إعجازاً فى البين لما كان لهذه التعابير أساس من الصحة بأى شكل من الأشكال.

۴- بالإضافة إلى ذلك فقد نقلت روايات كثيرة فى مصادر الحديث الإسلامى أخبار عن حدوث هذا الإعجاز وقد وصلت إلى حد الشهرة والتواتر، وقد أقر جمع من المفسرين مسألة تواتر الأخبار الواردة فى شق القمر، من جملتهم: الطبرسى، والفخر الرازى، وسيّد قطب، والبروسوى فى روح البيان فلا يمكن الإعراض عن هذه الآيات والروايات بالاستناد إلى بعض الهواجس والفرضيات البعيدة على الاطلاق.

وممّا يمكن ذكره بعنوان قرينة على وقوع هذه الحادثة فى المستقبل هو اقتران قرب

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۹ و ۱۰، ص ۱۸۶.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۴۳

وقوع يوم القيامة إلى جانب شق القمر حينما فى قوله تعالى «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ القَمَرُ».

إلّا أنّ الذى ذهب إليه جماعة من المفسرين هو أنّ اقتراب يوم القيامة تحقق مع ظهور نبى الإسلام، لأنّنا نقرأ فى المأثور عنه: «بعثت أنا والساعة لهاتين» وقد أشار إلى اصبعين متوازيين من أصابعه المباركة «۱».

ولذا نقرأ فى قوله تعالى «اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُم وَهُم فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ».

(الأنبياء/ ۱)

ونقرأ فى قوله تعالى «قُلْ انَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا».

(الأحزاب/ ۶۳)

وذلك حينما سألوا النبى صلى الله عليه و آله عن موعد حصول يوم القيامة.

ووفقاً لما ورد فى الروايات المشهورة فإنّ المشركين جاؤوا إلى رسول اللّه وقالوا: «إذا كنت صادقاً فى قولك وإنّك نبى حقاً فاشطر القمر لنا شطرين» «۲».

ولم يمض شىء من الوقت حتى اتصل أحد شقى القمر بالآخر وعاد إلى حالته الاولى

وقد نقل الصحابى المشهور حذيفة قصة انشقاق القمر بحضور جمع من الناس فى مسجد المدائن، فلم يعترض عليه أحد مع أنّهم أدركوا عصر النبى، وهذا إن دلّ على شىء فإنّما يدل على قطعية هذه المسألة فى أوساطهم «۳».

إشكالات حول مسألة شق القمر

اشارة

فى قبال الآيات السابقة، والروايات الإسلامية المشهورة التى وردت فى جميع كتب الحديث المعروفة، وتفسير أهل السنة والشيعة، يميل البعض من خلال الاستناد إلى مجموعة من الإشكالات إلى رفع اليد عن ظهور هذه الآيات، وربطها بالحوادث المختصة ببدايات يوم القيامة وبالاصطلاح «أشراط الساعة».

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۲۹، ص ۲۹؛ و تفسير مجمع البيان ذيل آية ۱۸ من سورة محمد.

(۲) تفسير مجمع البيان وكتب التفسير الاخرى فى ذيل الآية مورد البحث.

(۳) نقل السيوطى هذا الحديث فى تفسير در المنثور، وتفسير القرطبى فى ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۴۴

۱- إشكال من زاوية تاريخية

من جملة الإشكالات التى يوردها بعض البسطاء والسذج على مسألة «انشقاق القمر» هو أنّ هذا الأمر ينبغى أن يدون مع ماله من أهميّة كبرى فى تواريخ العالم، والحال أنّ الأمر ليس كذلك فلا نشاهد أثراً له يذكر فى التواريخ.

ومن الواضح إنّ هذا الاعتراض غير وارد، حيث يلزم ومن خلال دراسة وتحليل لجميع جوانب هذه المسألة تبيين مايلى:

أ) ينبغى الالتفات إلى أنّ القمر قابل للرؤية دائماً فى نصف الكرة الأرضية لا فى جميعها، ولهذا فإنّ نصف الناس مستثنون من هذه القاعدة.

ب) إنّ الأكثرية الساحقة فى هذا النصف من الكرة نائمون أيضاً بعد منتصف الليل، وعليه فإنّ الذى يحيط علما بمثل هذه الحادثة هم ربع الناس فى العالم فقط.

ج) لايبعد فى المجال القابل للرؤية أيضاً أن تكون مساحات شاسعة من السماء ملبدة بالغيوم، ويكون وجه القمر محجوباً عن الرؤية.

د) إنّ الحوادث السماوية إنّما تسترعى انتباه الأشخاص فى صورة كونها كالصواعق المصحوبة بالصخب الشديد، أو كالخسوف والكسوف الكلى المستلزم لانقطاع النور بصورة تامة ولمدّة طويلة نوعاً ما أيضاً.

ولهذا السبب قلما يطلع أحد على الخسوفات الجزئية، والكسوفات البسيطة إذا لم تكن مسبوقة بالاعلان من قبل الفلكيين، حتى أنّ الكثير من الناس تخفى عليهم حالة الكسوف التامة أيضاً فى بعض الأحيان.

إنّ العلماء الذين يترصدون القمر والأجرام السماوية، أو الأشخاص الذين تقع أعينهم على السماء صدفة، هم فقط يمكنهم أن يطلعوا على مثل هذه الحادثة ويخبروا عنها مَن لَم يَرَها من الناس.

ولذا فإنّ مثل هذه الحادثة القصيرة الأمد لاتسترعى انتباه جميع الناس فى العالم، لا سيما أنّ مجتمع ذلك العصر لم يبد الاهتمام

المطلوب بالأجرام السماوية.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۴۵

ه) بالإضافة إلى أنّ الوسائل اللازمة لتدوين المطالب فى التاريخ ونشرها كانت محدودة فى ذلك الزمان، وحتى الأفراد المتعلمون كانوا قليلين جدّاً، وكانت الكتب جميعها خطية، ولم تكن تنشر الحوادث المهمّة بواسطة وسائل الاعلام المسموعة والمرئية والصحف المحلية فى جميع أنحاء العالم، وتسجل فى جميع التواريخ كما هو الحال فى يومنا هذا.

واستنادا إلى هذه النقاط لا ينبغى الاستغراب من عدم ذكر هذه الحادثة فى التواريخ غير الإسلامية، واعتبار ذلك دليلًا على عدم وقوعها.

۲- من الزاوية العلمية

استناداً إلى «هيأة بطليموس» التى ترى أنّ الأرض هى مركز العالم والأفلاك التسعة المحيطة بأطرافها على شاكلة طبقات قشرة البصل، وكانت تعتقد أنّ هذه الأفلاك كالجسم البلورى المرتبط بعضه ببعض، والنجوم والأجرام السماوية مندكة فى قلب الأفلاك، وتدور مساوقة لحركة الأفلاك، وأىنوع من أنواع الخرق والالتئام فى الأفلاك محال، لهذا السبب أنكر اتباع هذه العقيدة كلًا من «المعراج الجسمانى»، و «انشقاق القمر» معاً، ذلك أنّ كليهما يوجب الخرق والالتئام فى الأفلاك!.

إلّا أنّه لم يعد هناك أرضية لهذا الكلام فى يومنا هذا بعد أن طويت فرضية الهيأة لبطليموس فى ملف الأساطير والخرافات وثبت بطلان الافلاك التسعة من الناحية العلمية والحسية.

وقد يقال: ليس من السهل تحقق مسألة انشقاق القمر بمنظار العلم الحديث أيضاً، لأنّ هذه الكرة «مساحة القمر» وإن كانت خمس الكرة الأرضية إلّاأنّها مع ذلك كرة عظيمة، ووقوع الانشقاق والانفجار فيها بحاجة إلى عامل قوى جدّاً، والجواب عن هذا الإشكال واضح فى نظر أهل التوحيد، إذ لم يَدَّعِ أحد بحدوث «انشقاق القمر» من جراء احدى العوامل الطبيعية، بل كان يُعزى سبب حدوث ذلك إلى الاعجاز مستنداً إلى القدرة اللامتناهية للبارى عزّ وجلّ.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۴۶

ولا يخفى عليكم أنّ اللّه لا يصعب عليه انشقاق القمر، بل إنّ ايجاد المنظومات والمجرّات الاخرى كلها منقادة لإرادته ومشيئته أيضاً، ذلك اللّه الذى أحدث الانفجار الأول فى قلب الشمس منذ البداية، وفصل عنها السيارات الكبيرة للمنظومة الشمسية، فقذفت كل واحدة منها فى ناحية من النواحى وبدأت تدور حولها، أجل، إنَّ مَن بيده كل شىء وقادر على كل شىء لقادر على إثبات نبوة نبيّه، وذلك أن يحدث فى لحظة من اللحظات مثل هذا الانفجار ثم الالتئام فى كرة القمر التى هى لا تساوى شيئاً أمام قدرته تعالى

إنّ الذين يستهينون بالقدرة الإلهيّة- والعياذ باللّه- أو لم يحيطوا علماً بحدوث المنظومات السماوية الكبيرة على أثر الانفجارات المتتابعة، هم فقط الذين يثيرون الإشكالات على هذا النوع من المسائل.

۳- انشقاق القمر فى التصور القرآنى

يقولون إنّ هناك آيات فى القرآن الكريم تدل على أنّ نبى الإسلام صلى الله عليه و آله لم يمتلك معجزة سوى القرآن: واستدل هؤلاء على إثبات فكرتهم كما ورد فى قوله تعالى «وَمَا مَنَعَنَا انْ نُرسِلَ بِالآيَاتِ الَّا انْ كَذَّبَ بِهَا الاوَّلُونَ». (الأسراء/ ۵۹)

وكذلك تشبثوا بالآية ۹۰ إلى ۹۳ من سورة الاسراء، وذلك استناداً إلى أنّ جماعة طلبوا من النبى طلبات مختلفة، فتارة قالوا: لا نؤمن

إلّاأن تفجر لنا ينبوعاً من هذه البقعة من الأرض (الجرداء القاحلة)، وتارة اخرى قالوا: لا نؤمن لك إلّاأن يكون فى حوزتك بستان كبير من أشجار النخل والعنب وتجرى من خلاله الأنهار، أو تنزل على رؤوسنا- كما تدعى- الأحجار السماوية، أو تحضر لنا اللَّه وملائكته، أو تمتلك بيتاً من الذهب، مليئاً بالرسوم والنقوش، أو تصعد إلى السماء، ولا نكتف بذلك إلّاأن تأتينا بكتاب من قبل اللَّه تعالى لنطّلع عليه، فما كان جواب النبى الأكرم على مطالبهم إلّاأن قال: «سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ الَّا بَشَراً رَسُولًا». (الاسراء/ ۹۳)

وعلى ضوء جوابه صلى الله عليه و آله ادّعى أولئك المرتابون بأنّه لم يأت بأى معجزة.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۴۷

الجواب:

إنّ الالتفات إلى الكلمة التى وردت فى أقوال جمع من المفسرين الكبار توضح الجواب عن هذا الإشكال وهى: إنّ المعجزات على نوعين:

النوع الأول: هى المعجزات الضرورية لإثبات صدق دعوى النبى، وترغيب الناس فى الإيمان، وتخويف المنكرين، وهى المعاجز المنطقية للذين ينشدون الحق والباحثين عن الحقيقة، بحيث يعبر القرآن الكريم فى ذيل الآية المذكورة بقوله: «وَمَا نُرسِلُ بِالآيَاتِ الّا تَخْوِيفًا». (الاسراء/ ۵۹)

النوع الثانى من المعجزات: هى المعجزات التى تسمى ب «الاقتراحية»، أى المعجزات التى يطالب بها المتعلّلون لا لأجل سلوك سبيل الحق واليقين بصدق دعوى النبوة ومن ثم الإيمان واعتناق الإسلام، وإنّما بقصد تعجيز الطرف الآخر، فإن وجدوا به قدرة على ذلك اتهموه بالسحر.

والأنبياء كانوا يتجهون صوب القسم الأول ولا يستسلمون اطلاقاً لمقترحات المتعللين والمعاجز الاقتراحية.

يشير لحن الآيات ۹۰- ۹۳ من سورة الاسراء بشكل واضح إلى أنّ هذه الموضوعات العجيبة والغريبة والمتهافتة لمشركى العرب لم يكن منشأُها هو البحث عن الحقيقة، بل الغاية منها هى اختلاق الأعذار والتشكيك فى‌نبوة نبى الإسلام وارساء دعائم الشرك والصنمية، ولذا لم يُمعِنوا النظر حتى فى مفهوم كلامهم، فمن ضمن مطالبهم مثلًا أنّهم يطلبون معجزة من المعاجز التى تبيدهم «كنزول الأحجار السماوية على روؤسهم»، وتارة يطلبون معجزة كمعجزة (الصعود إلى السماء)، ثم ينفون ذلك مباشرة ويقولون: نحن لا نؤمن بذلك حتى تبعث لنا كتاباً من قبل اللَّه، وتارة يطلبون الامور المستحيلة كقولهم: أن تأتينا بالله والملائكة، والحال أنّ اللَّه ليس له مكان، وليس بجسم ولا جسمانى.

ثم إذا كان الهدف هو التوصل إلى معرفة حقانية النبى فَلِمَ يطلبون ست معاجز مختلفة؟

ألا تكفى معجزة واحدة؟

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۴۸

من هنا لم يتسن لأى‌نبى أن يستسلم لهذا النوع من الأراجيف والأباطيل، فضلًا عن أنّ الاعجاز ليس من شأن النبى واختياره، وإنّما هو من شأن اللَّه تعالى واختياره.

إنَّ النبى بإمكانه أن يطلب المعجزة من اللَّه واللَّه تعالى يضع بين يديه أى شىء يراه صالحاً، ولهذا نقرأ هذا المعنى فى ذيل قوله تعالى «قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ الَّا بَشَراً رَّسُولًا» (الأسراء/ ۹۰- ۹۳)

وكذا فى قوله تعالى «وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ انْ يَاتِىَ بِآيَةٍ الَّا بِاذْنِ اللّهِ». (الرعد/ ۳۸)

وأمّا قوله: نحن لن نستسلم لمطاليبكم لأنّ الأولين كذبوا ذلك، فهذا يدعو إلى هذا التساؤل وهو: كيف يجوز أن يكون تكذيب الأولين سبباً لحرمان الأجيال المتعاقبة من مشاهدة المعجزات؟ فالاجابة عنه تكمن فى كون هذه العبارة متداولة وذلك بأن يقال للشخص العنيد الذى لا نريد أن نستسلم له: إنَّ اقتراحك لم يكن وجيهاً وقد سبق لغيرك أن اقترحه، ولم يرضخ للحق.

بعبارة اخرى أنّ المعاجز التى تقترحونها لا تستند إلى أساس البحث عن الحقيقة، وإنّما هى «اقتراحية» وتعجيزية، ولو نفذت طلباتكم لما آمنتم أيضاً، فقد سبق لافراد مثلكم فى الامم الغابرة أن طلبوا إظهار معاجز ثم كذبوها بعدما شاهدوها.

ملخص الكلام هو أنّ من الصحيح القول: إنّ القرآن لوحده معجزة خالدة، ولو لم يكن هناك معجزة اخرى سوى هذه المعجزة للنبى لاستطاعت أن تكون شاهداً على صدقه، ولكن هذا لا يدل على أنّ النبى لم يمتلك معجزات جسمانية ومادية غير هذه المعاجز الروحية والمعنوية، بل ذهبت الآيات والروايات والتواريخ الإسلامية وسيرة النبى إلى القول: إنّه كان يمتلك ذلك، ولا شك فى أنّ انضمام المعجزات المحسوسة والمادية إلى تلك المعجزة المعنوية الكبيرة يظهر حقانية الدعوة النبوية بصورة أجلى وأوضح.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۴۹

الطريق الثانى: جمع القرائن طريق آخر للاطمئنان

اشارة

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۵۱

نفحات القرآن ج۸ ۲۹۹

الطريق الثانى: جمع القرائن طريق آخر للاطمئنان

تمهيد:

خلافاً لما يظن البعض فإنّ سبيل إثبات صدق دعوى النبوة لايقتصر على المعجزات فقط، بل أحياناً تثبت عن طريق تجميع القرائن المتعلقة بحياة ذلك النبى، وصفاته وخصائصه الأخلاقية والعملية، ومضمون الدعوة وبرامجها المستخدمة يمكن الحصول على سند واضح قد يعادل اقوى المعجزات بل أحياناً يتقدم تلك المعجزات أيضاً.

إنَّ هذا النوع من الاستدلال يلاحظ أيضاً فى كلام القدامى وإن كان يبدو شكله اقل انسجاماً.

ولهذا السبب فمن اللازم تقديم بعض التوضيحات حول هذا الموضوع مسبقاً.

جمع القرائن دليل متداول فى كل العلوم:

اشارة

للتوصل إلى الحقائق فى العلوم المختلفة يتمّ اليوم الاستفادة من طريقة جمع القرائن بشكل كبير لكشف الجرائم، ولتشخيص أنواع الأمراض، ولمعرفة خصائص الشخصيات العظيمة السالفة على طول التاريخ، ولكشف القضايا المتعلقة بعالم الخلق، الأرض والسماء، النباتات والحيوانات.

والفرق بين هذا الاسلوب وأسلوب (الاستقراء) الذى هو أحد طرق البرهان هو: إنّنا نحصل بالاستقراء على حكم كلى عند البحث والتنقيب عن الأفراد، فعلى سبيل المثال نقوم بعدّ فقرات أفرادٍ كثيرين ثم ندرج فى الكتب قانوناً عاماً يقول: إنّ الإنسان له كذا عدد من الفقرات.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۵۲

ولكن بطريقة جمع القرائن نقوم بدراسة آثار موضوع خاص أو مايسمى ب «الجزئى الحقيقى» ثم نتوصل من مجموع تلك الآثار إلى المؤثر.

وكمثال على ذلك: حينما تقع جريمة فى نقطة ما ويؤتى بالمتهم إلى المحكمة فينكر التهمة الموجهة إليه جملةً وتفصيلًا، مستفيداً من عدم وجود شاهد يثبت التهمة، فإنّ الحاكم الذكى لا يغلق ملفَّ القضية بذريعة إنكار المتهم وعدم تيسّر الشاهد، بل يقوم بتجميع القرائن عن طريق التحقيقات المختلفة، ودراسة امور كثيرة اخرى مثل:

أ) سوابق المتهم.

ب) نوع العلاقة التى تربط بين المتهم والشخص الذى وقعت عليه الجريمة، وهل هناك من خصومة أو اختلاف بينهما أم لا؟

ج) مكان وزمان وقوع الحادثة، وهل بإمكان المتهم ايضاح المكان الذى كان فيه وقت وقوعها؟

د) نوع السلاح أو الرصاصة التى عُثر عليها فى هذه الحادثة، وهل أنّ المتهم يستخدم مثل هذا السلاح أم لا؟

ه) ملاحظة الحالة الجسدية للمتهم والشخص الذى وقعت عليه الجناية، وهل توجد آثار منازعة عليهما ام لا، وهل للمتهم توضيحات لهذه الآثار أم لا؟

و) الاحساس الذى ينعكس على المتهم عند مشاهدته رداء المقتول وآثار الجريمة، وهل تضطرب حالته أم يحتفظ بهدوئه أثناء ذلك؟

ز) الحالة النفسية للمتهم ومقارنتها بالسابق، هل هى متعادلة أم يسيطر عليها الاضطراب؟

ح) عند اجابته عن أسئلة المحقق والحاكم هل ينتابه الارتباك والاضطراب والتناقض وأمثالها أم لا؟

بالإضافة إلى مسائل اخرى كثيرة، وقد لاتكون آحادها كافية لإثبات الحقيقة، ولكن بحث هذه الجوانب أحياناً لايبقى أى شك أو ترديد بأنّ الجريمة نفذت من قبل المتهم، وهذا

نفحات القرآن، ج٨، ص: ٢٥٣

مايقوى من عزم الحاكم أو القاضى بأنّ يتابع القضية بأناة وما أكثر ماتنتهى متابعته إلى إقرار الطرف المقابل أيضاً.

بل ويمكن القول: إنّ (الاقرار) هو دليل ظنى- لأنّه لوحظ كثيراً أنَّ البعض ومن أجل الهروب من قبضة العدالة أعطوا أموالًا طائلة لشخص آخر حتى يعترف بعد طمأنته بأنّهم سيخلصونه فى النهاية، وكذلك (شهادة الشهود) هى دليل ظنى أيضاً، لأنّ احتمالها للخطأ أو التواطؤ ليست مستحيلة (لا شك أنّ شهادة الشهود والاعتراف مقبولة، وأنّ المقصود هو أنّها دلائل ظنية مقبولة فى نهاية الأمر، فى حين أن تجميع القرائن يمكن قبولها عند وصولهامرحلة القطع واليقين).

وتلاحظ فى الأحكام الإسلامية أيضاً نماذج واضحة لهذه المسألة، وأحياناً تمّ إثباتها حتى بواسطة قرينة حكم واحدة مثل حكاية اختلاف (العبد) و (السيد) فى عصر أمير المؤمنين عليه السلام عندما أمر عليه السلام (صورياً) بضرب عنق العبد منهما إذ سحب أحدهما رأسه ليثبت على نفسه أنّه العبد.

أو كقصة اختلاف تينك المرأتين على وليدٍ، وأمره عليه السلام- صورياً- بقطع ذلك الوليد نصفين، عندئذٍ تنازلت الام الحقيقية لذلك الطفل عن حقها فكان موقفها ذاك دليلًا على صدق دعواها، وأمثال ذلك.

على أيّة حال إنّ الاستفادة من هذه الطريقة للوصول إلى نتائج قطعية ليس فى المسائل القضائية وحسب، بل وفى الكثير من العلوم، وكذلك القضايا الاجتماعية والسياسية المختلفة هو أمر معتاد وبنّاء، ويمكننا أيضاً الاستفادة منه فى مسألة إثبات نبوة الأنبياء وأحياناً يكون تأثيره فى ايجاد اليقين والاطمئنان أكثر من تأثير المعجزات العادية.

بهذه الإشارة نعود إلى الآيات القرآنية لنرى مالها من بيان حول هذا الدليل- بشكله الكلى، ثم نتجه نحو حياة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله لنجمع القرائن المختلفة عن حياته ونضعها إلى جانب بعضها البعض حتى يحكم القراء عليها بأنفسهم.

نفحات القرآن، ج٨، ص: ٢٥۴

فى القسم الأول وفى آيات متعددة من القرآن تلاحظ إشارات حافلة بالمعانى حول هذا الدليل، ومن جملتها:

الآيات التى تعبر عن وجود نبى الإسلام صلى الله عليه و آله بأنّه (شاهد) و (سراج منير) و (برهان) و (شمس).

فنقرأ فى قوله تعالى

«يَاايُّهَا النَّبِىُّ انَّا ارْسَلْنَاكَ شَاهِدَاً وَمُبَشِّراً وَنَذيراً* وَدَاعِياً الى اللَّه بِاذنِهِ وَسِراجاً مُّنِيراً». (الأحزاب/ ۴۵- ۴۶)

فى هاتين الآيتين يقدم القرآن الكريم نبى الإسلام صلى الله عليه و آله على أنّه (شاهد)، فقد ورد فى أحد التفاسير أنّه شاهد على أحقيته، لأنّ صفاته وأخلاقه، وخططه البناءة، وسوابقه الساطعة، وأعماله، تشهد على حقانية دينه وصدق دعوته، هذا من جهة «۱».

ومن جهة اخرى يعرّفه بعنوان (سراج منير)، واننا نعرف أنّ السراج هو دليل على نفسه ولا يحتاج لدالٍ عليه، أو كالقول المعروف (طلوع الشمس دليل على الشمس).

وتعبير (برهان) الذى جاء فى قوله تعالى «يَاايُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرهَانٌ مِّنْ رَبِّكُم وَانْزَلْنَا اليكُم نُوراً مُّبِيناً». (النساء/ ۱۷۴)

هو إشارة اخرى لتلك الحقيقة، لأنّ (برهان) مشتقة من مادة (بَره) على وزن (فرح) وتعنى الإبيضاض، ولأنّ الاستدلالات الواضحة تنير وجه الحق وتُبيِّضه، لذا أطلق عليها برهان.

ويعتقد جمع من المفسرين أنّ المقصود من البرهان فى هذه الآية هو ذات الرسول صلى الله عليه و آله «۲»، والمقصود من النور هو القرآن المجيد.

وبناءً على ذلك فإنّ شخص الرسول صلى الله عليه و آله جرى تعريفه بعنوان (برهان)، وذلك بسبب توفّر آثار وقرائن فى وجوده تنبىء بأحقيته فضلًا عن معجزاته.

---

(۱) فى تفسير آخر للآية المذكورة اعتبر النبى صلى الله عليه و آله كشاهد على الأنبياء قبله. أو شاهد على أعمال امته يوم القيامة. فى حين لا يوجد أى تنافض أو تعارض بين هذه التفاسير الثلاثة ويمكن جمعها فى معنى الآية.

(۲) من الذين قبلوا هذا المعنى أو نقلوه باعتباره تفسيراً: المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان، والعلّامة الطباطبائىفى تفسير الميزان؛ والمراغى؛ والقرطبى فى تفسيرهما (ذيل الآية مورد البحث).

وجاء فى تفسير: «والشمس وضحاها» فى روايات متعددة أنّ (الشمس) هى إشارة لوجود الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، وأنّ (القمر) هو إشارة إلى وصيّه بالحق «۱».

من البديهى أنّه لايوجد دليل لإثبات وجود الشمس سوى وجودها بالذات، لأنّ الجميع يطلعون على وجود الشمس المشرقة والمنيرة بمجرد طلوعها من افق المشرق.

وفيما عدا هذه التعابير أشار القرآن الكريم فى آيات اخرى إشارة واضحة إلى هذه المسألة، وأشار إلى بعض دلائل أحقية الرسول صلى الله عليه و آله ومن جملتها أنّه استند إلى قضية (امّيته) واعتبارها قرينة، مثلًا يقول تعالى

«وَمَاكُنتَ تَتلُوا مِنْ قَبلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ اذاً لَّارتَابَ المُبطِلُونَ».

(العنكبوت/ ۴۸)

وهنا يشير القرآن إلى أنّ الرسول صلى الله عليه و آله لو كان يقرأ ويكتب لكان الشك يقع بين كون القرآن منه أو من اللَّه، ولكن بالنظر إلى أنّه صلى الله عليه و آله كان امّياً وأنّ القرآن الكريم كان معجزة من جوانب مختلفة فلا يبقى لأحد أى مجال للشك فى أنّ هذا الكتاب هو من قبل اللَّه تعالى

وهذه طبعاً قرينة واحدة فقط من القرائن الكثيرة التى تلاحظ فى وجوده صلى الله عليه و آله، ودليلٌ على صدق دعوته، وكلما وضعنا مجموع هذه القرائن إلى جنب بعضها البعض لأضحت المسألة أكثر سطوعا من الشمس.

وتعبير (المبطلون) يدل على أنّه حتى لو كان النبى صلى الله عليه و آله قد تلقى التعليم فلا مجال أيضاً إلى أنّ نعتبر هذا الكتاب هو من بناة أفكاره، لماذا؟ لأنّه يقينا اسمى من فكر وعلم بنى البشر، ولكن هذا الأمر بمفرده قد يشكل ذريعة للمفسدين والمبطلين.

ونقرأ فى قوله تعالى:

«قُلْ لَّوْ شَآءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا ادرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُم عُمُراً مِّن قَبلِهِ افَلَا تَعقِلُونَ». (يونس/ ۱۶)

---

(۱) فى تفسير البرهان، ج، ۴ ص ۴۶۶ توجد خمسة أحاديث حول هذا الموضوع، وليس فى هذا التفسير تعارض مع التفاسير الاخرى للشمس، ويمكن جمعها كلها فى معنى الآية.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۵۶

وفى الحقيقة كان النبى صلى الله عليه و آله يعتمد على هذه القرينة عندما يقول: إننى عشت بينكم سنين طويلة ولم تسمعوا منى مطلقاً مثل هذا الكلام (الآيات القرآنية)، ولو كانت هذه الآيات صادرة منى فلابدّ أن تجرى على لسانى خلال هذه الاربعين سنة أو لسمعتم منى قسماً منها على الأقل.

وكما يقول بعض علماء النفس: فإنّ النبوغ الفكرى، واكتشاف وإبداع المسائل المستحدثة يبدأ عادة عند الإنسان من سن العشرين، وتمتد على الأكثر إلى سن ۳۰ أو ۴۰ سنة، أى أنّ الإنسان إذا لم يأت حتى ذلك العمر بابتكار جديد ففى الغالب ينتفى عنده بعد ذلك.

وهذا الموضوع الذى يُعدّ اليوم كاكتشاف نفسانى كان فى الماضى غير واضح إلى هذا الحد، ولكن غالبية الناس كانوا يعرفون عادة بالهداية الفطرية أن ليس بمقدور الإنسان أن تكون له أفكار خاصة متمثلة بدين جديد وهو يعيش بين قومه وشعبه مدّة أربعين سنة ولا يظهرها مطلقاً، ولهذا يقول القرآن: كيف لا تدركون استحالة هذا الأمر؟

إنّ استناد القرآن الكريم فى آيات متعددة على (امّية) النبى صلى الله عليه و آله له دلالات مليئة بالمعانى، وكذلك القرائن بأنّ كيف يستطيع شخص لم يتلقَّ تعليماً أن يأتى بكتاب بهذا المحتوى الذى ليس له نظير، وبهذا الشمول الاستثنائى، والحقائق التى تحتفظ بطراوتها تماما بعد مضى الف سنة أو أكثر، والذى يعتبر وصفة راقية وناجعة لحل المشاكل الحياتية لبنى البشر فى الجوانب المعنوية والمادية؟

وممّا قيل نستنتج أنّ للقرآن الكريم اهتماماً خاصاً بهذا الدليل (أى تجميع القرائن).

والآن نعود إلى الشرح والبيان التفصيلى لهذه القرائن التى اختصّ بها النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، ونخضع الامور التالية للبحث والدراسة الدقيقين:

محيط دعوته والظروف السائدة هناك.

الخصائص الأخلاقية والنفسية لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله وسوابقه.

زمان دعوته من ناحية الوضع العام فى العالم وبالخصوص فى منطقة ظهوره صلى الله عليه و آله.

مضمون دعوته وأسس القضايا التى يدعو الناس إليها. نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۵۷

الوسائل التى يستفيد منها للوصول إلى أهدافه.

انسجامه وعدم انسجامه مع متطلبات البيئة المنحرفة وكيفية تصديه للخرافات.

ماهية الأفراد الذين آمنوا ومن أىطبقة وأى نوع.

ميزان اعتقاده بالاهداف التى يدعو الناس إليها.

سرعة انتشار دعوته ومستوى الاثر الذى تتركه أحكامها وقوانينها فى المجتمع.

بالإضافة إلى علائم اخرى

۱- ميحط دعوة النبى صلى الله عليه و آله والظروف السائدة هناك

إنّ القضية التى يتفق عليها كل المؤرخين الكبار هى: أنّ العرب قبل بدء الرسول صلى الله عليه و آله بدعوته كانوا فى أوضاع سيئة للغاية من ناحية سيطرة المعتقدات الخرافية، والانحطاط الأخلاقى، والاختلافات، والحروب الداخلية المستعرة، والظروف الاقتصادية السيئة، ولا تتحرك فى تلك البيئة نسمة من رياح العلم والمعرفة، ولا يوجد حتى أثر من الحضارة الشكلية للبشر، ولهذا السبب كانوا يعتبرونهم قوما نصف متوحشين، ويطلقون على عصرهم اسم (العصر الجاهلى).

وللقرآن الكريم تعابير صريحة وواضحة عن ذلك العصر يمكنها رسم ملامح الأوضاع فى ذلك الزمان بشكل جيد (حتى لو لم يصدّق أحد بأنَّ القرآن الكريم وحى إلهى، ولكن لا يمكنه انكار حقيقة أن ذكر تلك الصفات لذلك العصر فى القرآن هى دليل على واقعيته وحقيقته، وإلّا يكون منكراً لكل الجوانب).

فيقول اللَّه تعالى فى مكان: «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى المُؤمِنِينَ اذْ بَعَثَ فِيهِم رَسُولًا مِّنْ انْفُسِهِم يَتلُوا عَلَيهِم آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكمَةَ وَانْ كَانُوا مِنْ قَبلُ لَفى ضَلَالٍ مُّبِينٍ».

(آل عمران/ ۱۶۴)

وعبارة (ضلال مبين) فى هذه الآية وفى أواخر الآية الثانية من سورة الجمعة أيضاً، هو

إشارة معبرة عن الاوضاع فى العصر الجاهلى الذى كانت الضلالة المبينة تسود أركانه، وأى ضلالة أوضح وأبين من عبادتهم لأصنام من الحجر والخشب صنعوها بأيديهم، والأسوأ من ذلك هو تلك الأوثان التى يعملونها من التمر ويعبدونها، ثم يأكلونها أيّام القحط والجفاف.

أو يدفنون بناتهم بأيديهم وهن أحياء، وهم يفخرون ويتباهون بعملهم هذا بدعوى أنّهم لا يدعون عرضهم وناموسهم يقع بأيدى الأجانب، أو يقتلون أبناء خوفاً من الإملاق.

وجاء فى قوله تعالى «وَاذا بُشِّرَ احَدُهُم بالانثَى ظَلَّ وَجهُهُ مُسوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ* يَتَوارى مِن القَومِ مِنْ سُوءِ مَابُشِّرَ بِهِ ايُمسِكُهُ عَلَى هُونٍ امْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ* الَا سَآءَ مَايَحكُمُونَ». (النحل/ ۵۸- ۵۹)

وأى ضلال أوضح من سيطرة أنواع الخرافات والأوهام عليهم، أو اعتبارهم الملائكة بنات اللَّه: «وَجَعَلُوا المَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحمَنِ انَاثاً». (الزخرف/ ۱۹)

وفى مكان آخر يقول: «وَيَجعَلُونَ لِلَّهِ البَنَاتِ سُبحَانَهُ». (النحل/ ۵۷)

وهناك آيات اخرى نظير ما أشرنا إليها.

أىّ ضلالٍ أوضح وأبين من أن تسيطر عليهم الحروب وسفك الدماء فى كل أيّام السنة- باستثناء الأشهر الحرم-، وتوارث الأحقاد القبلية من الآباء للأبناء واستمرارها لسنوات وسنوات، كما يشير القرآن إلى ذلك بقوله: «وَاذكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيكُم اذْ كُنْتُم اعدَاءً فَالَّفَ بَينَ قُلُوبِكُم فَاصبَحْتُم بِنِعمَتِهِ اخوَاناً وَكُنتُم عَلَى شَفَا حُفرَةٍ مِنَ النَّارِ فَانقَذَكُم مِّنهَا». (آل عمران/ ۱۰۳)

أىّ ضلالة أوضح من أن تكون حتى مراسم صلاتهم ودعائهم مضحكة ومقززة، فحيناً تطوف النساء حول بيت اللَّه الحرام وهن عاريات تماماً ويحتسبن ذلك عبادة، وحيناً آخر يقيمون صلاتهم مصحوبة بالتصفيق والصفير: «وَمَا كَانَ صَلَاتُهُم عِنْدَ البَيتِ الَّا مُكَاءً وَتَصدِيَةً». (الانفال/ ۳۵)

لقد كانت الخرافات والأوهام تخيم على مجتمعهم، بضروب شتى وكانت كل قبيلة تسعى إلى إبراز نفسها على أنّها أرفع من القبيلة

الاخرى وربّما يؤدّى إلى ظهور الأحقاد

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۵۹

والضغائن والحسد، وأحياناً سفك الدماء بين القبائل إلى الحد الذى يدعهم- من أجل إثبات كثرة عددهم- إلى التوجه صوب القبور لعدّ قبور موتاهم والتفاخر بالعظام النخرة لأجدادهم وهى تحت التراب.

يقول القرآن الكريم: «اَلهٰكُمُ التَّكَاثُرُ* حَتّٰى زُرتُمُ المَقَابِرَ». (التكاثر/ ۱- ۲)

وما إلى ذلك من أوهام ومفاسد وكوارث اخرى من هذا القبيل.

إنّ الانحطاط فى تلك البيئة والفقر المعنوى والمادى جَعل تلك المنطقة فى قائمة أكثر مناطق العالم تخلُّفاً.

ينقل أحد المؤرخين الغربيين عن بعض المؤرخين المعروفين حول بيئة الحجاز فى العصر الجاهلى قائلًا: عندما دخل (ديمتريوس) القائد اليونانى الكبير (البتراء)- إحدى مدن الحجاز القديمة- وهو فى طريقه لاحتلال المنطقة العربية، قال له العرب الساكنون هناك: (أيّها الملك ديمتريوس! لماذا تحاربنا؟ إنّنا نعيش فى أرض حصباء تفتقر لأبسط متطلبات الحياة، ومحرومة من كل النعم التى يتمتع بها أهالى المدن والقصبات، لقد اخترنا السكن فى هذه الصحراء القاحلة لأننا لا نريد أن نكون عبيداً لأحد، ولهذا تقبّل منّا هذه التحف والهدايا التى نقدمها لك وأخرج جيوشك من هنا وعُدْ ...).

وانتهز (ديمتريوس) رسالة الصلح هذه وقبلَ الهدايا وغض النظر عن هكذا حرب تُخلِّف مشاكل كثيرة «۱».

ومنطقة (الحجاز) لم تخضع لسيطرة الفاتحين القدامى على مدى التاريخ وقد حافظت على استقلالها، والسبب كما يقول المحلّلون: هو عدم استحقاق مثل هذه المنطقة- الجرداء التى تفتقر لكل شىء- هذه الجهود والمشاكل، وأيضاً افتقار منطقة الحجاز لحضارات البلدان القديمة مثل ايران وروما والتى تتواجد فى الكثير من نقاط شبه الجزيرة العربية.

وبعد أن تعرفنا على حال الجزيرة العربية لابدّ لنا من النظر إلى حال الإنسان البسيط الذى عاش فى محيطها مهما كانت قوة إرادته وقوة تفكيره (لاسيما إذا لم يكن قد تلقّى أى نوع من التعليم).

---

(۱) تاريخ حضارة العرب والإسلام تأليف كوستاف لوبون.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۶۰

هل أنّ الذى تربى فى محيط موبوء بالجهل والفساد يمكنه أن يكون مؤسسة للعلم والمعرفة والفضائل الأخلاقية؟

و هل سمعتم بأنّ علماء عظماء وفلاسفة نوابغ نهضوا من بين قبائل جاهلية نصف متوحشة؟

إذا نبتت ورود جميلة وحشائش طرية فى ارض خصبة ومهيأة فلا عجب فى ذلك، بل العجب عندما تنبت وردة جميلة فى ارض سبخة.

وعلى أية حال يمكن أن تكون هذه المسألة بمفردها غير كافية فى إثبات أحقية الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، ولكنها بدون شك تعتبر واحدة من القرائن التى متى ما ألحقناها بالقرائن الاخرى شكلت برهاناً قوياً ومبيناً.

نختم هذا الحديث بقول أمير المؤمنين على عليه السلام- الذى أدرك العصرين، عصر الإسلام والجاهلية- وهو يرسم لنا العصر الجاهلى: «أرسله على حين فترة من الرسل، وطول هجعةٍ من الامم، واعتزام من الفتن، وانتشار من الامور، وتلظ (تلظى من الحروب، والدنيا كاسفة النور، ظاهرة الغرور، على حين اصفرار من ورقها، وإياس من ثمرها، واغورار من مائها، قد درست منار الهدى وظهرت اعلام الردى، فهى متجهمة لأهلها، عابسة فى وجه طالبها، ثمرها الفتنة، وطعامها الجيفة، وشعارها الخوف ودثارها السيف» «۱».

وفى مكان آخر نقرأ له عليه السلام: «إنّ اللَّه بعث محمداً صلى اللَّه عليه وآله وسلم نذيراً للعالمين، وأميناً على التنزيل، وأنتم معشر العرب على شر دينٍ وفى شر دارٍ، منيخون بين حجارة خُشنٍ وحياتٍ صُمٍ تشربون الكدر، وتأكلون الجشب، وتسفكون دماءكم،

وتقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبة، والآثام بكم معصوبة» «۲».

وخلاصة القول هى: إنّ البحث فى القرآن الكريم والروايات الإسلامية ومجموع التواريخ التى كتبت فى الشرق والغرب حول العصر الجاهلى، تدلل على أنّها متفقة جميعاً

---

(۱) نهج البلاغة، الخطبة ۸۹.

(۲) نهج البلاغة، الخطبة ۲۶.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۶۱

على أن البيئة التى ظهر فيها نبى الإسلام صلى الله عليه و آله هى من أحط البيئات وأكثرها تأخراً، بيئة لا تنسجم أبداً مع ظهور هكذا دين وتعاليم متطورة فى الأصعدة كافة.

۲- تاريخ الرسول صلى الله عليه و آله وخصائصه الأخلاقية

إنّ الخصائص الأخلاقية هى احدى أفضل الطرق إلى معرفة الدعاة الصادقين من الكاذبين، فهذه الخصائص يمكن اعتمادها كقرائن وأدلة واضحة لنفى أو إثبات احقية الداعى، وكلما شوهدت مظاهر الطهارة والتقوى، والعظمة والتسامح والرأفة والمحبّة، والزهد والتقشف، والشجاعة والشهامة والماضى الاجتماعى الحسن فى المدّعى، فمن الصعوبة بمكان أن لا نعتبره صادقاً، وبالعكس فاذا كان محبّاً للدنيا، ومنكباً على المادة، ومتعلقاً بالمال، والمقام، والجاه، والقدرة المصحوبة بالتهور والكذب، والحقد وحب الانتقام، وما شابه ذلك من رذائل خلقية (لا سمح اللّه)، فلا يمكن اعتبار مدعى النبوة هذا صادقاً مطلقاً.

ولحسن الحظ فإنّ سوابق النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قبل نبوته هى سوابق ساطعة ومضيئة حيث قضى أربعين عاماً بين ظهرانيهم والتاريخ الذى كتبته أيادى الأصدقاء والأعداء يعطى صورة ناطقة ومعبرة عن ذلك.

ففى كل التواريخ اعتبرت نزاهة النبى صلى الله عليه و آله وأمانته بأنّها مسألة متفق عليها وأن لقب (الأمين) سمعوه يطلق عليه من قبل الجميع.

والملفت للنظر هو أنّ الناس- بالرغم من مخالفتهم له- بعد بداية دعوته للإسلام بقوا يودعون أماناتهم عنده، ولذا أمر صلى الله عليه و آله علياً عليه السلام أثناء الهجرة إلى المدينة المنورة- أى بعد مرور ثلاثة عشر عاماً من البعثة- بأنّ يبقى فى مكة ليؤدّى عنه الأمانات إلى أهلها، ثم يهاجر إلى المدينة.

إنّ حسن خلق النبى صلى الله عليه و آله وحسن معاشرته وسخائه وكرمه، وخلاصة الصفات التى تليق

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۶۲

بقائد إلهى عظيم يمكن مشاهدتها به صلى الله عليه و آله بوضوح خلال الوقائع المختلفة فى حياته، وخاصةً أثناء فتح مكة، ومعركة احد، وكذلك فى تعامله مع أسرى الحرب، والرقيق، وطبقات المجتمع المحرومة، إلى الحد الذى اعتبروا فيه هذه المسألة بأنّها نقطة ضعف عنده، وأنّ دينه هو دين العبيد والمحرومين، وابتعد عنه الأغنياء والأثرياء، وعرضوا عليه طرد الحفاة والمستضعفين وإبعادهم مقابل تأييدهم له وتقربهم منه صلى الله عليه و آله، وقد جاء هذا المعنى بإشارة واضحة فى قوله تعالى

«وَاصْبِر نَفسَكَ مَعَ الّذِينَ يَدعُونَ رَبَّهُم بِالغَداةِ والعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَينَاكَ عَنهُم تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنيَا وَلَاتُطِعْ مَنْ اغْفَلنَا قَلبَهُ عَن ذِكرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً». (الكهف/ ۲۸)

وهو الذى صفح عن (أبو سفيان) ألدّ اعدائه والمؤجج الخطير لنيران الحروب ضد الإسلام، وجعل من بيته أثناء فتح مكة ملجأً ومأمناً لأهل مكة، وأعلن العفو العام عن المكيين الذين ارتكبوا جرائم كثيرة ضده وضد أتباعه، وهذا الخُلق الحسن والتسامح واللُّطف

والكرم صار السبب فى جعلهم يلتفون حوله.

وفى (معركة احد) أيضاً عندما فرّ جماعة من حديثى الدخول فى الإسلام من أرض المعركة وتركوه وحيداً بين الأعداء متحملا ضربات شديدة منهم، عاد وأعلن العفو العام، وصفح عن الجميع إلى درجة استوجبت نزول الآية المباركة: «فَبِما رَحمةٍ مَن اللهِ لِنْتَ لَهُم وَلَو كُنتَ فَظّاً غَليظَ القلبِ لَانْفَضُّوا مِن حَولك فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُم فِى الأَمْرِ». (آل عمران/ ۱۵۹)

فقد بيّنت هذه الآية لين قلب وباطن النبى صلى الله عليه و آله وصفاء سريرته وكذلك لهجته الرقيقة والمليئة بالعاطفة التى لم تأمره بالعفو عن أخطائهم فحسب، بل أمرته أيضاً بطلب المغفرة لهم من اللّه تعالى، وأن يحترم شخصياتهم ويشاورهم.

لقد كان صلى الله عليه و آله رحيماً بالمؤمنين وغير المؤمنين بالقدر الذى يجعله يتألم بشدّة من عدم إيمان البعض، وإلى حد يوشك فيه على الهلاك أسفاً عليهم.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۶۳

ونقرأ فى قوله تعالى ما يتضّمن معنى التسلية للنبى صلى الله عليه و آله: «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفسَكَ عَلَى آثَارِهِم انْ لَّمْ يُؤمِنُوا بِهَذَا الحَدِيثِ اسَفاً». (الكهف/ ۶)

وشبيه هذا المعنى جاء فى قوله تعالى «لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ الَّا يَكُونُوا مُؤمِنِينَ» «۱».

(الشعراء/ ۳)

وحقاًإذا لم يتصف القائد بهذه الصفات فلا يستطيع أن يجسّد المعنى الحقيقى والواقعى للقيادة، وقد جاء فى قوله تعالى «لَقَدْ جَاءَكُم رَسُولٌ مِّن انفُسِكُم عَزِيزٌ عَلَيهِ مَا عَنِتُّم حَرِيصٌ عَلَيكُم بِالمُؤمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ». (التوبة/ ۱۳۸)

ومن المسلَّم به أنّ البحث حول الملكات الخلقية للرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وخصائصه الأخلاقية أوسع وأشمل من أن يضمها حديث قصير، وأنّ غايتنا فقط هى الإشارة العابرة لهذه المسألة باعتبارها إحدى القرائن.

۳- مضمون الدعوة

إنَّ تحقيق ودراسة محتوى أىّ دعوة يشكل فى الغالب دليلًا مقنعاً للتوصل إلى صدق أو كذب المُدّعى، فالدين السماوى الذى يصدر عن جهة السماء، وينزل عن طريق الوحى، له مزاياه الخاصة، فى حين أنّ الدين الكاذب الذى يبتدعه فرد أو أفراد لأهداف مادية وشيطانية له مزايا اخرى

فالأول: غايته هداية البشرية، وتقوية النفوس، وإقامة العدل، وتهيئة متطلبات الصلح والسلام والأمن، وأخيراً تكامل الإنسان مادياً ومعنوياً.

فى حين أنّ الثانى. يسعى لتحميق الإنسان وتخدير فكره، والانتفاع الأكثر منه والاستعمار والاستثمار له، ومسلّماً أن أهدافاً كهذه تتطلب خططاً وبرامج اخرى

وبملاحظة ما ذكر آنفا نلقى نظرة إجمالية على مجموع المعارف والقوانين والبرامج

---

(۱) «باخع» من مادة «بَخْع» على وزن «نَقْع» تعنى الهلكة من شدة الغم والحزن، وبتعبير آخر، الموت غصة.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۶۴

الإسلامية، لاسيّما تلك التى استند إليها القرآن الكريم وأكد عليها:

۱- إنَّ أول شىء يبدو للناظر ويشكل الأساس الرئيسى لكل العلوم والقوانين الإسلامية هو مسألة (التوحيد) ومحاربة كل أنواع الشرك بالاعتماد على هذا الأصل، فقد حرر رسول الإسلام صلى الله عليه و آله الإنسان من قيود كل عبودية إلّاعبودية اللّه الأحد، ودعا

البشرية إلى عبادة الآله الواحد الأحد خالق السماوات والأرض، وجامع كل صفات الكمال، المطلع على ظاهرهم وباطنهم، وحطم سلاسل الأوهام والخرافات وعبادة البشر أو الحجر أو الخشب وأنواع الأوثان والأصنام.

وقد ذّم القرآن الكريم اليهود والنصارى لعبادتهم البشر بقوله تعالى «اتَّخَذُوا احبَارَهُم وَرُهبانَهُم اربابًا مِّن دُونِ اللَّهِ». (التوبة/ ۳۱)

وفى مقارنة بديعة على لسان نبى اللّه يوسف وهو يخاطب رفاقه فى السجن يقول تعالى

«ءَاربَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيرٌ امِ اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ». (يوسف/ ۳۹)

۲- إنّ القرآن لايعتبر أىَّ مؤثر فى مصير الإنسان إلّااللّه تعالى ويدعو الجميع للتوكل عليه ويقول: «الَيسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبدَهُ». (الزمر/ ۳۶)

۳- ومن جهة اخرى يعتبر الإنسان مرهوناً بأعماله، وأنّ طريق الخلاص والفلاح الوحيد هو الجد والاجتهاد الأكثر، فيقول تعالى: «وَان لَّيسَ لِلانَسانِ الَّا مَا سَعَى . (النجم/ ۳۹)

ويقول: «كُلُّ نَفسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ». (المدثر/ ۳۸)

۴- إعتبر الإسلام كل بنى البشر ومن أى عنصر ولون وفى كل زمان متساوين، وبناءً على هذا لا يوجد أىّ تمايز بينهم أو تفاضل إلّاب (التقوى) والورع كما أشارت إلى ذلك الآية ۱۳ من سورة الحجرات.

۵- يخاطب القرآن كل المؤمنين بأنّهم (إخوة) لبعضهم البعض، ويعتبر أنّ أقرب رابطة ممكنة بين إنسانين هى الرابطة التى تقوم على العدالة والمساواة، بقوله تعالى «انَّمَا المُؤمِنونَ اخوَةٌ فَاصْلِحُوا بَينَ أَخَوَيْكُم وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرحَمُونَ». (الحجرات/ ۱۰)

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۶۵

۶- يعتبر القرآن (العدالة الاجتماعية) أصلًا اساسياً حاكماً على المجتمعات البشرية ويدعو كل المؤمنين للقيام بالقسط، فيقول: «وَلَايَجرِمَنَّكُم شَنَآنُ قَومٍ عَلَى الَّا تَعدِلُوا اعدِلُوا هُوَ اقرَبُ لِلتَّقَوى وَاتَّقُوا اللَّهَ». (المائدة/ ۸)

وأن لا تكون صلة القرابة والابوة والبنوة ونظائرها حائلًا دون إجراء العدالة وترجيح كفّة الحكم لصالحهم- بدون دليل- كما أشارت إلى ذلك الآية ۱۳۵ من سورة النساء.

۷- أقرَّ الإسلام حاكمية أصل (الإنفاق) على العلاقات الإنسانية، ودعا الجميع إلى الإنفاق ممّا رزقهم اللّه من نعم على الآخرين: «وَمِمَّا رَزَقنَاهُم يُنفِقُونَ». (البقرة/ ۳)

يؤكّد على (صلة الرحم) ورعاية رابطة القرابة (البقرة- ۲۷). وقد أولى (الأب والام) خاصةً احتراماً بالغاً إلى الحد الذى أوصى بالتعامل الحسن معهما حتى وإن لم يكونا مسلمين فى سورة لقمان الآية ۱۴ و ۱۵.

۹- من المسائل التى أكد عليها الإسلام أيضاً هى: (حماية المظلومين) فى شرق العالم وغربه، حتى أنّ ظواهر الآيات القرآنية لم تفرق بين أبناء الدين الإسلامى وغيرهم فى هذه المسألة، كما ورد فى قوله تعالى «وَمَا لَكُم لَاتُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالمُستَضعِفينَ مِنَ الرِجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلدَانِ». (النساء/ ۷۵)

۱۰- أكد أيضاً على (احترام حقوق المرأة) فى ذلك المحيط الذى أهدر كل حقوقها ولم يعطها حتى الحق فى الحياة، ويقبرُ البنات وهنّ أحياء، فأعاد إليها مكانتها إلى الحد الذى يقول تعالى فيه: «ولَهُنَّ مِثلُ الَّذِى عَلَيهِنَّ بِالمَعرُوفِ». (البقرة/ ۲۲۸)

والحق لا ينفصل عن الواجب أبداً.

۱۱- دعوته ل (التعايش مع أتباع الأديان الاخرى وحملة الكتب السماوية، ودعوته كذلك الجميع اللالتفاف حول نقاط الالتقاء والاشتراك، كما نقرأ فى قوله تعالى «قُل يَاأَهلَ الكِتَابِ تَعَالَوا الى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَينَنَا وَبَينَكُم الَّا نَعبُدَ الَّا اللَّهَ وَلَا نُشرِكَ بِهِ شَيئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعضُنَا بَعضاً اربَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ». (آل عمران/ ۶۴)

۱۲- أعطى الإسلام أهميّة بالغة ل (العلم والمعرفة)، وقد أشارت مئات الآيات القرآنية

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۶۶

إلى ذلك، وهذا الأمر كان مثيراً وملفتاً للنظر لاسيما إذا لاحظنا المحيط الذى نزل فيه القرآن، والذى كان مركزاً للجهل والامّية، وأول الآيات التى نزلت على النبى صلى الله عليه و آله كانت تؤكد على العلم كما جاء فى سورة العلق الآية ١- ٥.

ويقسم فى مكان آخر بالقلم كما جاء فى سورة القلم الآية ١، واعتبر أنَّ أفضلية (آدم)، والبشر بصورة عامة تكمن فى (فضيلة العلم والمعرفة) هذه. (البقرة/ ٣١- ٣٣)

١٣- تعتبر فريضة (الأمر بالمعروف) و (النهى عن المنكر) احدى المميزات المشرقة لهذا الدين والتى يعتبرها نوعاً من الاشراف والرقابة العامة على كل المجتمع بواسطة كل المجتمع، ومسؤولية متقابلة لكل أفراده فى مقابل أى نوع من المفاسد الاجتماعية أو ترك القيام بالواجب، انظر إلى سورة آل عمران الآية ١٠۴ و ١١٠ وآيات اخرى

١۴- بما أنّ مصدر الكثير من المفاسد الاجتماعية هو الميل الشديد للقضايا المادية، والتنافس فى حب التجمّل والبذخ فى الحياة فقد دعا الإسلام إلى (العيش البسيط) ونبذ حب التجمل من أجل اغلاق مصدر الشر هذا كما فى سورة الزخرف الآية ٣٣- ٣۵، فى نفس الوقت الذى اعتبر الانتفاع المعقول والمنطقى من المواهب المادية وحتى التزيينية والكمالية بأنّه مباح وقد أشار إليه فى سورة الأعراف الآية ٣٢.

١۵- دعوته إلى ل (مراعاة الاداب)، وحسن المواجهة مع الآخرين، وملاحظة الموازين الأخلاقية فى أى مكان، وقد أشار لهذه المسألة فى سورة لقمان، الآيتين ١٨ و ١٩، وسورة الحجرات، الآيتين ١١ و ١٢، وسورة الفرقان، الآية ٧٢، وآيات اخرى وورد ايضاً فى الآية: «خُذِ الَعفوَ وأْمُرْ بِالعُرفِ وَأَعرِضْ عَنِ‌الجاهِلِينَ» «١». (الأعراف/ ١٩٩)

١۶- استخدام (البحث المنطقى) فى الحوار مع اتباع الأديان الاخرى بدلًا من التعصب الأعمى يقول القرآن الكريم: «ادعُ الَى سَبِيلِ رَبِّکَ بِالحِکمَةِ وَالموَعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلهُم بِالَّتِى هِىَ احسَنُ». (النحل/ ١٢۵)

---

(١) فى حديث للإمام الصادق عليه السلام أن هذه الآية أكثر الآيات الأخلاقية شمولًا فى القرآن المجيد (تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث).

١٧- (الخضوع للحقّ) وقبوله من أىِّ كان لأنه يعتبر واحداً من المبادئ السامية للدين الإسلامى، يقول تعالى «فَبَشِّر عِبَادِ* الَّذِينَ يَستَمِعُونَ القَولَ فَيَتَّبِعُونَ احْسَنَهُ اولَئِکَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَاولَئِکَ هُمْ اولُوا الالبَابِ». (الزمر/ ١٧- ١٨)

١٨- (اخلاص النية من الدوافع غير الإلهيّة) من الاصول التى أكد عليها القرآن الكريم والروايات الإسلامية مراراً، واعتبرها من الأعمال النزيهة المقبولة عند اللَّه تعالى، والتى تؤدى إلى النجاة والسعادة هى الأعمال التى لم يقصد بها التظاهر والرياء، وإنّما التى يراد بها غايات إنسانية واخلاقية وإلهيّة سامية تشكل ركناً اساسياً، واستندت سبعة آيات من القرآن إلى جملة «مُخْلِصِين لَهُ الّدِينَ» «١».

ومن جهة شبّهَ صدقات المؤمنين- الخالصة- فى سورة البقرة، الآية ٢۶۵ بالبستان الملىء بالثمر عندما تنزل عليه رحمة المطر الإلهيّة تتضاعف ثماره ضعفين.

ومن جهة اخرى شبّه فى سورة البقرة، الآية ٢۶۴ أعمال المرائين- غير المؤمنين- بالبذور التى بُذرت فى تراب قليل على صخر صلد جرفه المطر عندما نزل عليه.

١٩- انتقد الإسلام بشدة (الاسراف والتبذير) وسمى المبذرين بإخوان الشياطين: «انَّ المُبَذِّرِينَ كَانُوا اخَوانَ الشَّيَاطِينِ». (الاسراء/ ٢٧)

٢٠- من الاصول الأساسية للإسلام أيضاً: (رعاية الأطفال الأيتام وفاقدى المعيل) وأكدت آيات وروايات كثيرة على ذلك إلى الحد الذى اعتبرت فيه أكل أموال الأيتام كأكل النار: «انَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ امْوَالَ اليَتَامَى ظُلماً انَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِم نَاراً». (النساء/ ١٠)

وفى مكان آخر اوصى بإصلاح شؤونهم، يقول تعالى «وَيَسئَلُونَکَ عَنِ اليَتَامَى قُلْ اصلاحٌ لَّهُم خَيْرٌ». (البقرة/ ٢٢٠)

۲۱- احترام الاسرى فى الإسلام، وقد أوصى بحسن معاملتهم واعتبر مساعدتهم وإعانتهم فى القرآن الكريم بأنّها جزء من أعمال الابرار والاخيار: «وَيُطعِمُونَ الطَّعَامَ عَلى حُبِّهِ مِسكِيناً وَيَتِيماً وَاسِيراً». (الدهر/ ۸)

---

(۱) الأعراف، ۲۹؛ يونس، ۲۲؛ العنكبوت، ۶۵؛ لقمان، ۳۲؛ غافر، ۱۴ و ۶۵؛ البينة، ۵.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۶۸

وجاء فى حديث للإمام على عليه السلام: (اطعام الأسير والاحسان إليه حقٌّ واجبٌ) «۱».

۲۲- ومن المسائل المهمّة التى أكد عليها القرآن الكريم والروايات الإسلامية هى مسألة (التشاور فى الامور)، حتى أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله مع عقله الكامل كان مأموراً بالاستشارة:

«وَشَاوِرهُم فِى الامر». (آل عمران/ ۱۵۹)

واعتبر التشاور فى الامور الاجتماعية المهمّة بأنّه احدى علائم الإيمان: «وَامْرُهُم شُورَى بَيْنَهُم». (الشورى ۳۸)

۲۳- كانت (محاربة الخرافات) أيضاً من المهام الرئيسية للنبى صلى الله عليه و آله فى حين كان مدّعو النبوة الكاذبون يصرون على نشر الخرافات وتسميم أفكار الناس عن طريقها، ولترغيب العامة لقبول خرافاتهم، ولكن نبى الإسلام صلى الله عليه و آله حطم هذا السد، بل كان يحارب كلّ خرافةٍ حتى لو كان الإسلام يستفيد منها ظاهراً.

وأى خرافة أكبر من (عبادة الأوثان) التى اجتاحت جزيرة العرب بأسرها، إلى حد أنّ مخالفتها والإعراض عنها أصبح مشكلة عويصةً وعجيبةً جدّاً، بل عدّ أحياناً من علامات الجنون، وأثناء ما كان النبى صلى الله عليه و آله يدعو لعبادة الإله الواحد الأحد، قالوا: «اجَعَلَ الآلِهَةَ الهَاً وَاحِدَاً انَّ هَذَا لَشَىءٌ عُجَابٌ». (ص/ ۵)

وظاهراً إن أحد أسباب نعت نبى الإسلام صلى الله عليه و آله بالجنون هى أنّه نهض لمحاربة قضية عبادة الأصنام التى كانت من أكثر بديهيات تلك البيئة والمحيط.

والخلاصة هى أنّ عرب الجاهلية كانت تخيم عليهم خرافات كثيرة يطول شرحها، وقد حاربها الرسول صلى الله عليه و آله كلها.

۲۴- من المسائل التى أعطاها الإسلام أهميّة كبيرة هى تحرير الإنسان من ربقة الهوى والهوس واستعباد الآخرين، أو الوقوع فى أسر الأعراف والتقاليد والسنن المغلوطة، إلى درجة اعتبر فيها أن احدى صفات النبى صلى الله عليه و آله هى: «وَيَضَعُ عَنهُم اصرَهُم وَالاغلَالَ الَّتِى كَانَت عَلَيهِم». (الأعراف/ ۱۵۷)

---

(۱) وسائل الشيعة، ج ۱۱، ص ۶۹ أبواب جهاد العدو، الباب ۳۲، ح ۳.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۶۹

وجاء فى الحديث النبوى المعروف: أنّ أحد الذنوب التى لايغفرها اللّه أبداً هى أن يسلب الإنسان حرية الإنسان الآخر ويستعبده ويبيعه «۱».

۲۵- أحد البرامج الأساسية لهذا الدين (المنع من التكاثر) وطلب الزيادة والحرص والطمع فى الامور المادية، وقد اشير إلى ذلك فى آيات متعددة من القرآن الكريم، وكذلك الروايات الإسلامية، إلى حد اعتبرها من الصفات المذمومة فى الحياة الدنيا، وجعلها مرادفة للهو واللعب والتفاخر (الحديد- ۲۰)، وعدها سببا فى عدم الإيمان بالله، وذم بشدة أولئك الذين يتوجهون صوب القبور لحساب قبور موتاهم حتى يثبتوا كثرة قبائلهم: «أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ* حَتَّى زُرتُمُ المَقَابِرَ». (التكاثر/ ۱- ۲)

ويقصُّ عليهم- بالتفصيل- قصة «قارون» المستكبر المستكثر الذى كان يرى نفسه فوق الجميع، وعاقبته وعاقبة أمواله بعد أن خسفت به الأرض، وينهى نبيه صلى الله عليه و آله عن مد عينيه إلى الإمكانات المادية لهؤلاء الأفراد أو اعتبارها علامة على أفضليتهم وعلوهم،

(طه/ ۱۳۱، القصص/ ۷۶ فما بعد).

۲۶- (الدعوة إلى الاتحاد والتضامن) يمكن اعتبارها جزء من الأوامر التى تحتل صدر قائمة البرامج الإسلامية، والتى ذكرها القرآن الكريم بتأكيد شديد، فكان يدعو الجميع إلى الاتحاد وينهاهم عن التفرقة، ويحذرهم من العودة إلى اختلافات الجاهلية وعد الأفراد المتفرقين المشتتين على شفير هاوية من النار، (آل عمران- ۱۰۳) واعتبر التنازع والاختلافات مصدراً لضعف المجتمع، وضياع قدرته وشوكته، (الانفال/ ۴۶).

۲۷- (احترام القانون) يعتبر من اهم وصايا الإسلام التى أكد عليها لدرجة أنّه قال:

احترموا القانون حتى لو حكم ضدكم، وجاء فى القرآن: «كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَو عَلَى انفُسِكُمْ او الْوَالِدَينِ وَالاقرَبِينَ». (النساء/ ۱۳۵)

واعتبر نقض حرمة القانون حراماً، والتعدى على (حدود اللّه) ظلماً وجوراً: «وَمَنْ يَتَعدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَاولَئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ». (البقرة/ ۲۲۹)

---

(۱) عن النبى صلى الله عليه و آله، إنّ اللّه تعالى غافر كل ذنب إلّامن جحد مهراً، أو اغتصب أجيراً أجره، أو باع رجلًا حراً، سفينة البحار، مادة (أجر).

وإنّ الإيمان الصادق هو التسليم المطلق لقانون الحق وترك معارضته حتى فى حيّز الفكر والعقل كما ورد فى الآية ۶۵ من سورة النساء.

۲۸- (نبذ حب الانتقام) ولم تكن هذه الصفة الحميدة مختصة بالرسول صلى الله عليه و آله وإن تجلّت بوضوح كامل فى حروبه وخاصةً فى فتح مكة، وإنّما أوصى أتباعه مراراً وتكراراً إلى العفو والصفح، وغض النظر عن زلات الآخرين وتذكيرهم بالعفو الإلهى: «وَلْيَعفُوا وَلْيَصفَحُوا الَا تُحِبُّونَ انْ يَغفِرَ اللَّهُ لَكُم». (النور/ ۲۲)

بل تعدى ذلك إلى القول: «ادفَع بِالَّتِى هِىَ احسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَينَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَانَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ». (فصلت/ ۳۴)

ولكنّه مع كل هذا لا يسمح بأنّ يستغل الأعداء الحاقدون رحمة الإسلام ورأفته، بل كان صلى الله عليه و آله يأمر أصحابه: مثلما عليكم أن تكونوا لينين وعطوفين مقابل الأصدقاء والأعداء المخدوعين فيجب عليكم أن تتعاملوا مع الأعداء الأشداء بخشونة وشدّة، حتى أنّه وصف الصادقين بأنّهم: «اشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَينَهُم». (الفتح/ ۲۹)

۲۹- (الدعوة إلى التقوى وهى من القضايا التى يستند إليها الإسلام فى كل مناسبة، ويعتبرها السبيل الوحيد لخلاص الإنسان، وزاد آخرته «۱»، ومعيار شخصيته «۲»، وبركة الدنيا «۳»، وسعادة الآخرة «۴»، وسبباً للبصيرة والمعرفة «۵».

۳۰- (الحب والبغض فى اللّه) من اسس التعاليم الإسلامية أيضاً، أو بتعبير أوضح اعتبر الإسلام كل من يخطو فى محجة الإيمان، والحق، والعدل، والتقوى والنزاهة، صديقاً يجب توثيق العلاقة معه، وبالعكس أوصى بالابتعاد عن الاشرار وذوى السمعة السيئة والملوثين والظالمين، واعتبر القرآن الكريم الامتثال لذلك من علائم الإيمان الأصلية (حزب اللّه) «۶». واعتبرتها الروايات الإسلامية بأنّها من أقوى عرى الإيمان والإسلام (أوثق

---

(۱) البقرة، ۱۹۷.

(۲) الحجرات، ۱۳.

(۳) الأعراف، ۹۶.

(۴) مريم، ۶۳.

(۵) الانفال، ۲۹.

(۶) المجادلة، ۲۲.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۷۱

عرى الإيمان الحبُّ فى اللَّه والبغض فى اللَّه) «۱»، وأفضل الأعمال «۲».

هذه طائفة من تعاليم الإسلام فى الاصول والفروع.

فهل يصدق أن يأتى إنسان امّى لم يتلقَّ أى‌تعليم، وهو ابن بيئة غمرتها ظلمات الجاهلية، وعاش فى بؤرة الكفر والفساد والجور والخشونة، بمثل هذه التعاليم؟ كلا بالطبع إلّا إذا كان مسدداً عن طريق الوحى السماوى والالهام والتأييد الإلهى.

إنَّ دراسة مضمون ومحتوى الدعوة لأى‌دين من أفضل الأدلة التى يستخدمها العلماء لإثبات صدق أو كذب مايدعيه ذلك الدين، وأحياناً تكون مقدمة على الكثير من المعجزات، لأنّ العديد من الوساوس التى تبرز من قبل المعاندين اللجوجين لها (من قبيل اتهامه بالسحر وأمثاله) تصبح لا معنى لها عند البحث فى محتوى الدعوة، بل وحتى يمكن تأليف كتاب ضخم حول هذا الموضوع وخاصةً حول تعليمات الإسلام فى كافة الجوانب الاعتقادية والأخلاقية والاجتماعية، وكذلك الميدان الواسع والفسيح لهذا المبحث فى المسائل الفردية والجماعية المعنوية والمادية.

بديهى أنّه لا يمكن أن تكون هذه المجموعة من التعاليم الصادرة من عربى صحراوى امى خرج من أكثر البيئات تخلفاً هى مسألة عادية، وباعتقادنا أنّه لا توجد أى معجزة أكبر من هذه المعجزة، أو على الأقل هى قرينة إذا ضممناها إلى القرائن الاخرى شكلت مجموعة مطمئنة وقوية.

۴- عمق تأثيره فى محيطه

صحيح إنَّ التأثير الواسع الذى تتركه مدرسة من المدارس فى بيئة معينة لا يمكن أن يكون بمفرده دليلًا على صحتها، لأننا نعرف العديد من الديانات والتعاليم الخاطئة تركت

---

(۱) اصول الكافى، ج ۲، ص ۱۲۵.

(۲) سفينة البحار ج ۱، ص ۲۰۱.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۷۲

تأثيرها على بيئات واسعة وكانت نهايتها أن انفرط عقدها أو لازال البعض منها متصلًا، ولكن كيفية هذا التأثير وماهيته يمكن اعتباره كقرينة حية إلى جانب القرائن الاخرى

وعندما يكون هذا التأثير على شكل قفزة وفى جوانب إيجابية ومع أقل الاضرار، فمن المسلَّم به أن يدلِّل على عمق تلك المدرسة وأصالتها.

ومن له أدنى اطلاع على تاريخ العرب والإسلام لا ينكر الفاصلة الزمنية التى مدّتها ۲۳ عاماً وهى سنى دعوة الرسول صلى الله عليه و آله- الفاصلة التى أحدثت (طفرة فلسفية) أكثر ممّا هى ثورة؟

فالمنبوذون الذين لم يتركوا فى التاريخ اسماً ولا رسماً ... ومن وجهة نظر علم الاجتماع لم يخطّ على جباههم أى استعداد للتطور المذهل حتى لو بعد عدة قرون، يتحولون فجأة ويدخلون مرحلة جديدة من الحضارة العظيمة، ولم يغيّروا أنفسهم فقط، بل غيروا أيضاً العالم المعاصر لهم ولتبقى آثار هذه الثورة والتغيير ظاهرة فى القرون اللاحقة وإلى زمان غير محدود ...

حضارة حولت مسير تاريخ البشرية، وغطت باشعاعها الحضارات الخمس العظمى فى عصرها، أى: (حضارة الروم) و (ايران) و (مصر)

و (بابل) و (اليمن).

وهذا بالضبط مالم يستطع المؤرخون وعلماء الاجتماع تفسيره وفق المعايير المعروفة التى بين أيديهم، وإن كانوا قد الّفوا كتباً بعنوان: تاريخ حضارة الإسلام، أو مسميات اخرى ولكنهم يعترفون بأنّه لازالت عندهم نقاط كثيرة غامضة لم تجد الحل حول ظهور الإسلام ونفوذه فى العالم.

والملفت هو أنّ هذه الثورة وهذا التحول- خلافاً لسائر الثورات- لم يحدث على صعيد واحد، ولم تكن له جوانب سياسية أو اقتصادية فحسب، بل وغيّر كل نُظُم المجتمع كالثقافة، والأخلاق، والاقتصاد، والآداب، والتقاليد، وكل شيء.

ملخص الكلام: هو أنّ ابعاد تأثير الإسلام فى محيط ظهوره، ثم فى العالم كله، وكل التاريخ البشرى، هو موضوع يستحق الدقّة التى تجعله قرينة ساطعة من قرائن حقانيته، وأن شرحه وبيانه يتطلب وضع كتاب منفصل.

نفحات القرآن، ج٨، ص: ٢٧٣

٥- ما هى الوسائل الكفيلة لبلوغ الهدف

كل فرد أو مجموعة مضطرون- من أجل الوصول إلى أهدافهم- إلى الاستفادة من وسائل معينة. واختيار هذه الوسائل يمكنه أن يساعد إلى حد بعيد فى التعرف على اصالة وأحقية تلك المدرسة أو على تزويرها وخداعها.

وبديهى أنّ أولئك الذين يعتبرون الاستفادة من كل وسيلة- للوصول إلى أهدافهم- جائزة، ويجعلون أصل (الغاية تبرر الوسيلة)، أو (الغايات تبرر الوسائط) برنامجهم الأصلى هم بعيدون عن الاصالة.

أمّا أولئك الذين يستخدمون الوسائل المقدسة لنيل أهدافهم المقدّسة فهم يعطون الدليل على أحقيتهم، ويمكن تمييز مُدّعى النبوّة الصادقين من الكاذبين عن هذا الطريق.

الأشخاص الذين لا يعترفون بأى قيد أو شرط للوصول إلى أهدافهم ويعتبرون كل وسيلة مشروعة أو غير مشروعة مباحة والذين يعتبرون مفاهيم من قبيل العدالة والامانة والصدق والاحترام للقيم الإنسانية محترمة طالما أنّها تعينهم للوصول إلى أهدافهم وإلّا تركوها ونبذوها فمسلّماً أنّهم فى مُدّعى النبوّة الكاذبين.

إنَّ الأنبياء الإلهيين هم أولئك الذين يحترمون الاصول الإنسانية حتى فى حروبهم، ولا يعدلون عنها فى الشدائد والمحن مطلقا، وعند انتصارهم لا يتجاوزون أصول العدالة، والعفو، والتسامح مع أعدائهم، وفى أوقات الخطر واحتمال عدم تحقيق النصر لا يلتجأون إلى الوسائل غير الإنسانية.

وإذا قسنا هذا الأصل الكلى مع حياة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله والتفتنا إلى سلوكه مع الأعداء والأصدقاء، فى اوقات تحقيق النصر أو عدم تحقيقه، فى الشدّة والرخاء، فسوف ندرك جيداً أنّه كان متّبعاً لقيم خاصة فى اختيار وسائل الوصول إلى الهدف.

لم يلجأ النبىُّ صلى الله عليه و آله مطلقاً فى لحظات الخطر إلى استخدام أساليب غير إنسانية، بل وراعى المسائل الأخلاقية الدقيقة حتى فى ساحة القتال.

فعند انتصاره فى (فتح مكة) أصدر (العفو العام) عن أخطر أعدائه، وصفح حتى عن القتلة ومجرمى الحرب.

نفحات القرآن، ج٨، ص: ٢٧٤

ولما سمع أحد قادة الجيش يعلن شعاراً ثأرياً ويقول:

(اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذلّ اللّه قريشاً) أمر فوراً بعزله وقال:

ليقولوا بدل هذا الشعار (القبيح وغير اللائق): (اليوم يومُ المرحمة ... اليوم أعزّ اللّه قريشاً) «١».

وحتى حين وقف كبراء مكة صفاً ليروا حكم الرسول صلى الله عليه و آله بشأنهم (وكان الكثير من الناس يتوقعون أن يشدد الرسول

ويقسو على هؤلاء الأعداء الحاقدين) التفت إليهم صلى الله عليه و آله وقال: «ما تظنون أنّى فاعلٌ بكم؟» قالوا: لا نظنُّ إلّاخيراً. فقال صلى الله عليه و آله: «أقول لكم ماقال يوسف لإخوته: «لَاتَثْرِيبَ عَلَيكُمُ اليَوْمَ يَغفِرُ اللَّهُ لَكُم وَهُوَ أَرحَمُ الرَّاحِمِينَ». (يوسف/ ۹۲) اذْهَبُوا فأنتم الطلقاء».

وعندما قتل (خالد بن الوليد) أسرى بنى خزيمة بدون سبب ووصل الخبر إلى نبى الإسلام صلى الله عليه و آله. تألم بشدّة وقال مرّتين أو ثلاث: «اللّهم إنّى أبرءُ إليك ممّا صنع خالد»، ثم أمر علياً عليه السلام أن يذهب مع مبلغ من المال إلى تلك القبيلة فيعطيهم دِيَة قتلاهم ويعوض ممتلكاتهم التى تضررت بالمال وأن يسعى فى جلب رضاهم «۲».

إنَّ هذه الامور لا يمكن مشاهدتها فى حروب عالم اليوم، وحتى فى مهد الحضارة الصناعية، فقد شهد العالم افضع مآسى الانتقام فى نهاية الحرب العالمية الاولى والثانية، والجرائم التى لا تُعدّ للجيوش المنتصرة.

والآن كيف اتصف النبى صلى الله عليه و آله بكل هذا العفو والرحمة بين قوم نصف متوحشين؟ هذا السؤال يجب أن يجيب عليه العقلاء والحكماء.

كان ورعه واجتنابه عن الأساليب اللاإنسانية إلى درجة أنّه صلى الله عليه و آله، يرفضها حتى ولو تهيأت مقدماتها وأسبابها بصورة طبيعية، ومهما بدت فى الظاهر أنّها مؤيدة له، ففى حادثة وفاة إبراهيم ابن النبى صلى الله عليه و آله قيلَ: إنّ الشمس كسفت تزامنا مع هذه الواقعة، وقال بعض الناس: إنّها كرامة ومعجزة من قبل النبى صلى الله عليه و آله، وإنّ الشمس كسفت لوفاة إبراهيم.

---

(۱) نقلت هذه القضية بعبارات مختلفة فى بحار الأنوار، ج ۲۱، ص ۱۰۵ و ۱۳۰؛ وفى حبيب السير: ج ۱، ص ۲۸۸؛ وتفسير جامع البيان فى ج ۲، ص ۳۳۴؛ وكامل ابن الأثير ج ۲، ص ۲۴۶.

(۲) حبيب السير، ج ۱، ص ۳۸۹.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۷۵

لكن النبى صلى الله عليه و آله صعد المنبر وقال: «أيّها الناس إنّ الشمس والقمر آيتان من آيات اللّه يجريان بأمره مطيعان له، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فاذا انكسفا أو أحدهما صلوا»، ثم نزل من المنبر فصلى بالناس صلاة الكسوف، فلما سلَّم قال: «ياعلى قم فجهز ابنى» «۱».

تشير هذه القصة إلى أنّ النبى صلى الله عليه و آله سارع إلى هذا العمل حتى قبل اجراء مراسم دفن ابنه إبراهيم كى يقضى على هذه الفكرة الخاطئة قبل شيوعها وإن كانت لصالحه ظاهراً ... إنّه لا يريد أن ينتفع من أساليب مغلوطة وغير مشروعة فى التقدم لنيل أهدافه ومقاصده.

و على الرغم من أنّ الحديث قد طال حول هذا الموضوع، ولكن لابدّ فى الختام من ذكر هذه النقطة وهى: إنّ دقائق الامور التى جاءت فى اداب الحرب فى الإسلام وأكد عليها النبى صلى الله عليه و آله وأثبت عمليا التزامه بها هى شاهد آخر على الادّعاء الآنف الذكر.

فحينما كان الجيش الإسلامى يستعد للتحرك إلى أحد ميادين الجهاد، كان النبى صلى الله عليه و آله يبين لهم واجباتهم الحساسة بهذه العبارات: «سيروا بسم اللّه وبالله وفى سبيل اللّه وعلى ملة رسول اللّه، لاتغلو، ولا تمثلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا صبياً ولا امرأة ولا تقطعوا شجراً إلّاأن تضطروا إليه».

وفى حديث آخر: «... ولا تحرقوا النخل، ولا تغرقوه بالماء، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تحرقوا زرعاً لأنّكم لا تدرون لعلكم تحتاجون إليه ولا تعقروا من البهائم يؤكل لحمه إلّا ما لابدّ لكم من أكله» «۲».

وكان النبى صلى الله عليه و آله ملتزماً بكل المبادئ الأخلاقية السامية إلى تلك الدرجة التى جعلته فى معركة خيبر يرفض اقتراح من

أشار عليه بقطع الماء عن اليهود المحاصرين لمدّة طويلة فى داخل قلاع خيبر القوية، وأجابه صلى الله عليه و آله قائلًا: «إننى لا أقطع عنهم الماء أبداً».

وعندما قال له راعٍ لمواشى اليهود: إننى حاضر لأنّ أعطيك هذه المواشى كلها، رفض النبى صلى الله عليه و آله ذلك ونهاه أن يخون الأمانة التى أودعوها عنده «۳».

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۲۲، ص ۱۵۵، ح ۱۳ (باب عدد أولاد النبى).

(۲) جاء هذا الحديث فى مصادر متعددة وبعبارات مختلفة، من جملتها كتاب الوسائل، ج ۱۱، ص ۴۳ باب آداب امراء السرايا وأصحابهم، ح ۲ و ۳.

(۳) سيرة ابن هشام، ج ۳ ص ۳۴۴.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۷۶

۶- إيمانه وتضحيته فى سبيل هدفه

من القرائن الرئيسة الاخرى لمعرفة المدعين للنبوّة الصادقين من الكاذبين هو إيمانهم بما يدّعونه وتضحيتهم وايثارهم فى سبيله، ولأنّ المدعين الكاذبين مطّلعون على حقيقة الأمر فإنّهم بالطبع لا يضحون كثيرا فى سبيل هدفهم، بالإضافة إلى أنّهم مستعدون للمساومة وتحريف مدعياتهم، فى حين أنّ الصادقين منهم لا يُجوِّزون لأنفسهم أيّاً من ذلك.

صحيح أنّ هذا الأمر بمفرده غير كاف، ولكن يعتبر قرينة جيدة تضم إلى القرائن الاخرى

ولم ير فى أيٍّ من كتب التاريخ أنّ نبى الإسلام صلى الله عليه و آله قد تراجع أو تنصل عن معتقداته، أو فرَّ من ميدان الجهاد، وحتى فى معركة (احد) عندما وصلت الحرب إلى أقصى درجات الشدة وفرّ من ساحة المعركة أغلب الجيش (أو كله عدا علياً عليه السلام وبعض المخلصين والتجأوا إلى مكان ليضمنوا نجاتهم، هنالك حيث بقى النبى صلى الله عليه و آله صامداً فى الميدان، محتملًا أذى الجراحات بسبب اصابته فى جبهته وأسنانه ولم يبق له فى الظاهر أى أمل فى النجاة ولكنه ظل صامداً.

وفى قصة (مرض أبى طالب) وطلب قريش منه- التى قرأناها فى بداية الجزء السابق- أن يعرض على النبى صلى الله عليه و آله أن يكفَّ عن محاربته لعبادة الأصنام، ويكف عن الدعوة إلى الإله الواحد الأحد، قال صلى الله عليه و آله: «لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره اللَّه أو أهلك فيه ماتركته» «۱».

ونقرأ فى قصة اخرى إنّ قريشاً جاءت للنبى صلى الله عليه و آله وأعطته وعداً بأنّ تضع تحت اختياره من المال مايجعله أغنى رجال مكة، وأن يُزوِّجوه أى امرأة يريدها، ويجعلوه عليهم سيداً، بشرط (أن يدع تسفية أصنامهم. وقالوا له: إذا لم تقبل فلدينا اقتراح آخر ينفعك وينفعنا وهو

---

(۱) تفسير جامع البيان، ج ۲ ص ۶۷.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۷۷

أن تعبد الهتنا مثل (اللات) و (العزى عاماً ونحن نعبدُ آلهتك عاماً لنرى ما تكون العاقبة)، وهنا نزلت سورة «يَاأَيُّها الكَافِرُونَ»، وردّ عليهم النبى صلى الله عليه و آله بالسلب «۱».

وفى تفسير سورة طه (الآية الثانية) نقرأ: حينما كان النبى صلى الله عليه و آله- بعد نزول الوحى والقرآن- يتعبدُ كثيراً إلى حد تورّمت قدماه المباركتان، فنزلت الآية الآنفة لتمنعه من هذا العمل المُرهق، وقالت: «مَآانزَلنَا عَلَيكَ القُرآنَ لِتَشقَى . (طه/ ۲)

وهذه دلالة على أنّه إلى أى حدٍّ كان مؤمناً بتعاليمه.

و (قصة المباهلة) ودعوة النبى صلى الله عليه و آله أعداءه- أن إذا كنتم تقولون حقا فتعالوا بأهلكم، ويطلب كل منا من اللَّه أن ينزل العذاب على الكاذب ويفضحه- هى دلالة اخرى على إيمانه الراسخ بدينه، لأنّه صلى الله عليه و آله أعلن استعداده التام لهذا الغرض، وتراجع مخالفوه لأنّهم غير مطمئنين بأحقيتهم فى المباهلة.

وقد نقل مؤرخو الشرق والغرب قصصاً وحكايات كثيرة عن (صمود النبى صلى الله عليه و آله أمام الحوادث ومواجهته للمشاكل الكبرى التى يعجز الإنسان العادى عنها.

قال (غوستاف لوبون) المستشرق الفرنسى المعروف: إنّه لا يهرب من أى خطر، وفى نفس الوقت لا يلقى بنفسه إلى الخطر بدون دليل «۲».

ويقول تلميذ تلك المدرسة العظيم أمير المؤمنين (عليه السلام بشأن أحوال النبى صلى الله عليه و آله فى سوح القتال: «كنّا إذا احمر البأس ولقى القوم القوم اتقينا برسول اللَّه فما يكون أحدٌ أقرب إلى العدو منه» «۳».

۷- من هم المؤمنون به؟

عادة ما يجتذب الأفراد غير الصالحين حولهم أفراداً مثلهم، وهذه القاعدة وإن لم تكن دائمة ولكنها فى الغالب هكذا.

---

(۱) تفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۷۰.

(۲) حضارة الإسلام والعرب، ص ۱۱۹.

(۳) بحار الأنوار، ج ۱۶، ص ۲۳۲، وبنفس المضمون مع بعض التفاوت فى نهج البلاغة. الكلمات القصار، الكلمة ۹.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۷۸

ويتضح ذلك من مطالعتنا للمثل المعروف: (إنّ المزور يُعرف من زائريه)، وعلة ذلك واضحة لأنّ أهل الدنيا ومنتهزى الفرص يتجهون دائماً إلى أولئك المهيئين للتساوم معهم، يعطونهم امتيازات ويأخذون منهم اخرى ليصلوا إلى مقاصدهم غير المشروعة.

وهذه المسألة خاصة تظهر أكثر وضوحا حول المقربين والخواص وحافظى أسرار ذلك الشخص، فاذا رأينا اخلاص خواص تلك المدرسة، وحملة أسرارها، وممن تثق بهم، أدركنا بالنهاية نزاهة وإيمان وصدق قائدها، وبالعكس، فاذا التفَّ حوله أفراد كذابون، نفعيون فسوف نفهم بأنّ الماء ينبع من منبع آسن.

والآن لنلقى نظرة على الخلّص وحملة الأسرار والتلاميذ الأصليين لمدرسة نبيّ الإسلام صلى الله عليه و آله ... أفراداً مثل (على بن أبى طالب)، وفى مراحل لاحقة أفراداً مثل (سلمان) و (أبو ذر) و (المقداد) و (عمار بن ياسر) و (صهيب) و (بلال) وأضرابهم، فنرى كل واحد منهم كان نموذجا للتقوى والفضيلة والإيمان والمعرفة والزهد.

ونموذج آخر من هؤلاء الأفراد هم (أصحاب الصفة) المهاجرون الأبرار الذين هجروا كل ما يملكون فى مكة، والتحقوا بصفوف أصحاب النبى صلى الله عليه و آله وكانوا يعيشون فى أسوأ الأوضاع الاقتصادية.

أو مجموعة السبعين شخصاً الذين توجهوا إلى منطقة (نجد) لنشر الإسلام، ثم تجرعوا كأس الشهادة كلهم فى هذا السبيل، وكانوا يقضون الليل بالعبادة، والنهار بجمع الحطب ليضعوا ما تجود به أيديهم باختيار أصحاب الصفة أولئك «۱».

وكان من بين خلص أصحابه أفرادٌ يعيشون فى مستويات دنيا من حيث الموقع الاجتماعى، والجوانب المادية والظاهرية، ولكن النبى صلى الله عليه و آله كان يكرمهم لمميزاتهم المعنوية ويقدمهم على الآخرين، إلى ذلك الحد الذى سبب اعتراض مخالفيه الشديد وجاءه عدد من أعيانهم وكان عنده أفرادٌ من أمثال سلمان، وصهيب، وأبى ذر، وعمار، وخباب،

(۱) منتهى الآمال- وقائع السنة الهجرية الرابعة- وجاء نفس المعنى مع بعض الاختلاف فى تاريخ الكامل لابن الاثير، ج ۲، ص ۱۷۱.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۷۹

ونظرائهم من المعوزين والفقراء، وحينما وقعت أعينهم على هذا المشهد قالوا بغرور وتكبر: (لو نحيت عن هؤلاء روائح صنانهم ... جلسنا نحن إليك وأخذنا عنك فلا يمنعنا من الدخول عليك إلّاهؤلاء).

وهنا نزلت الآية الكريمة: «وَاصبِر نَفسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدعُونَ رَبّهُم بِالغَدَاةِ وَالعَشِيّ). (الكهف/ ۲۸)

وأُمرَ النبى صلى الله عليه و آله بأنّ يكون دوماً مع هذه الزمرة الحفاة من أصحاب القلوب الطاهرة، وأن لا يمد عينيه إلى الأُبَّهة الظاهرية للأثرياء الأنانيين «۱».

وفى الآية التى بعدها تَردُ كلمات حادة وموجعة على ما يطلبه المستكبرون فتقول: «وَقُلِ الحَقُّ مِن رَبِّكُم فَمَن شَآءَ فَليُؤمِنْ وَمَنْ شَآءَ فَليَكفُرْ انَّا أَعْتَدنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً احَاطَ بِهِم سُرَادِقُها». (الكهف/ ۲۹)

وهذا البيان الصريح والقاطع يثبت بشكل جيد أنّ الإسلام عن أى طبقة يدافع؟ وما هى الطبقات التى تحتل الصفوف المتقدمة فيه؟

ويعتبر القرآن الكريم التفاف الأفراد المؤمنين المخلصين والأبرار حول النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بأنّه واحد من شواهد حقانيته صلى الله عليه و آله إذ يقول: «افَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنهُ». (هود/ ۱۷)

ولكنّ أكثر المفسرين يعتقدون بأنّ (البينة) هى نفس القرآن والمعجزات، وأنّ المقصود ب (الشاهد) هم الاتباع المضحون المؤمنون المخلصون أنفسهم.

ومن البديهى أنَّ إيمان شخصٍ كعلى عليه السلام بما يتصف به من المميزات العلمية والمعنوية والأخلاقية التى اتضحت فى (نهج البلاغة) يمكن أن يكون شاهداً ناطقاً على حقانية النبى صلى الله عليه و آله.

(۱) نقل هذه القصة الكثير من المفسرين والمؤرخين بعبارات مختلفة، تفسير مجمع البيان والقرطبى فى ذيل الآية ۲۸ من سورة الكهف.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۸۰

۸- التطور السريع

إنّ التطور السريع، والتقدم الخارق لدين ما، وإيجاده لتحول عظيم وواسع، يمكنه أن يشكل قرينة اخرى على أصالته وحقانيته، لأنّ تأثيراً كهذا يكون ممكناً فقط إذا كانت قواعد هذا الدين مستندة إلى فطرة الحياة وواقعياتها، ومنطبقة مع قوانين الخلق والإبداع، أى نفس القوانين المتحكمة بحياة البشر.

فالقانون غير الفطرى، وغير المنسجم مع التركيب النفسى والبدنى للإنسان، يتقدم بصعوبة بالغة، وإذا تقدم فبسبب استخدام عوامل سلطوية مشددة، فمثلًا فى بداية دعوة الشيوعية لنفسها كان لها تقدم سريع ومثير، ولكننا نعرف جميعاً أنّ ذلك تمّ باللجوء إلى استخدام القوّة وسفك الدماء والدكتاتورية الشديدة، فى حين أنّ التقدم الفكرى السريع والعميق إذا جرى فى عمق أفكار المجتمع كان دلالة على أصالته، ونحن نعلم بأنّ الإسلام قد انتشر فى مناطق شاسعة فى القرون الاولى من ظهوره بدون أن تطأها أقدام حتى جندى مسلم واحد.

على كل حال إنّ الانتشار السريع للإسلام فى ظاهر المجتمع البشرى وباطنه، وبمناطق شاسعة من هذا العالم، وذلك فى خلال برهة زمنية قصيرة أيضاً، ليس بالشىء الذى يبقى خافياً على أحد، والمثير أنّ هذا الدين ظهر فى منطقة نصف متوحشة، وبسط نفوذه على

كل العالم المتمدن فى ذلك الزمان وفى مدّة وجيزة.

وهذا النفوذ السريع والشامل لازال يشكل لغزاً مُحيّراً للمؤرخين الكبار من غير المسلمين، وكنموذج على ذلك:

۱- عندما يصل مؤلفو كتاب (حضارة الغرب ومرتكزاتها فى الشرق) وهم ثلاثة من العلماء الغربيين المعروفين- إلى فصل ظهور وانتشار الإسلام، يعترفون بصراحة قائلين: «كل المحاولات التى جرت لمعرفة الإسلام وانتشاره السريع- إلى الحد الذى استطاع أن يبسط ظلاله على القسم الأعظم من العالم المتحضر آنئذٍ فى أقل من قرن- وعلى الرغم من كل التفسيرات والتحليلات التى وردت عن هذه الحقبة التاريخية فلا زالت هذه القضية باقية على شكل لغز من الألغاز» «۱».

---

(۱) حضارة الغرب ومرتكزاتها فى الشرق، فصل ظهور الإسلام وانتشاره.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۸۱

۲- كتبت السيدة (فاغلرى) العالمة الاوربية المعروفة كتاباً بعنوان (انتشار الإسلام السريع) يمكن اعتباره شاهداً آخر على هذه المسألة، إذ اعتبرت الانتشار السريع للإسلام بأنّه أمر اعجازى، كما أنّ القرآن كتابٌ اعجازىٌّ لا يمكن أبداً لمحمد صلى الله عليه و آله العربى الامى أن يبتدعه.

۳- وعبَّر باحث ايطالى فى أحد فصول كتابه عن تاريخ الرياضيات حول (الرياضيات عند المسلمين) بأنّها احدى معجزات العرب.

واعتبر أنّ ما أحدثه الإسلام سريعا وعميقاً إلى درجة يعجز المنطق والتعبير العادى عن تفسيره.

ثم يضيف: «إنّ ما ينسبه البعض من المسلمين للمشيئة والقدرة الربانية فى ظهور الإسلام وثقافته ... هو فى الحقيقة دلالة على أنّ أصل تطور الحضارة البشرية هذا كان غير متلائم مع موازين إمكانات ومقتضيات تلك الأزمنة إلى الحد الذى جعلهم لم يستطيعوا أن يجدوا له تفسيرا سوى مشيئة اللَّه وتقديره» «۱».

۴- يقول الكاتب الانجليزى الشهير (برنارد شو) فى أحد كتبه حول عظمة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله: «إننى أنظر دائماً إلى دين محمد صلى الله عليه و آله باحترام كبير، لأنّه يتمتع بحركة وطراوة عجيبة، وأعتقد بأنّ الإسلام هو الدين الوحيد الذى يتطابق مع أدوار الحياة المختلفة، ويتلائم مع كل عصر وزمان ... نحن ننظر إلى القرآن ككتاب لمحمد صلى الله عليه و آله بنفس التعظيم والثقة التى ينظر فيها المسلمون له ويعتبرونه كتاب اللَّه» «۲».

۵- يتنبأ هذا العالم الانجليزى (برنارد شو) فى مقال عن جاذبية الإسلام وانتشاره ويقول: «إنّ الإسلام وبما يمتلكه من نفوذ معنوى يزيد باضطراد من اتباعه خاصةً فى البلدان الاوربية» «۳».

---

(۱) قاموس دارسى الشؤون الإسلامية الأجانب، ج ۱، ص ۶۰، تأليف حسين عبد اللهى خوروش (باللغة الفارسية).

(۲) المصدر السابق، ج ۱، ص ۷۴.

(۳) المصدر السابق، ج ۲، ص ۵۰۵.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۸۲

وإذا أردنا جمع شهادات المؤرخين المسلمين وغير المسلمين حول هذا الموضوع فإنّها تشكل كتابا ضخماً، لذا نكتفى بهذا المقدار:

۱- الأخلاق والصفات الخاصة الاخرى لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله بذاتها شاهد معبر على أنّه يبتغى هدفاً مقدساً، وينفذ مهمّة إلهية، ولم تلاحظ أى علامة من علامات المدعين الكاذبين ومنتهزى الفرص المنتفعين فى أخلاقياته.

وأشارت كل كتب التاريخ تقريباً- سواء التواريخ التى كتبها المسلمون أو غير المسلمين- إلى قضية نزاهته وأمانته وإلى ذلك الحد الذى يعرف فيه كل الناس هذه الصفات حتى فى الجاهلية ويلقبونه ب (الأمين)، بل وبعد ظهور الإسلام كذلك كان معارضوه

وأعداؤه يودعونه أماناتهم، ولهذا السبب عندما أراد النبى صلى الله عليه و آله الهجرة إلى المدينة بعد مضى (۱۳) عاماً من ظهور الإسلام أمر علياً عليه السلام أن يبقى فى مكة ليعيد للناس أماناتهم ثم يهاجر إلى المدينة.

ومن المناسب أن نتأمل فى هذا الحديث عن لسان الآخرين، لنرى ما لدى أولئك الذين هم غرباء عنه فى الظاهر من شهادات صريحة عن هذا الموضوع:

ينقل عن كتاب (الاعتذار إلى محمد صلى الله عليه و آله) للانجليزى (جان ديفن بورت) قوله: «بلا شك إذا لم نأت به «محمد» كواحد من نوادر العالم وكأطهر نابغة استطاع الكون تربيتهم حتى الآن، فيجب أن نعتبرهُ من أعظم البشر، والشخصية الوحيدة التى يمكن لقارة آسيا أن تفتخر بوجود هكذا ابن لها» «۱».

۲- فى كتاب (محمد رسول اللّه صلى الله عليه و آله) نقلًا عن كتاب (الإسلام من وجهة نظر فولتير) أن (نابليون) قال منتقداً (مسرحية فولتير) التى وردت فيها اهانات لساحة الرسول صلى الله عليه و آله: «إنّ فولتير خان التاريخ والوجدان الإنسانى لأنّه أنكر السجايا السامية لمحمد صلى الله عليه و آله، وصور هذا الرجل العظيم الذى سلط نوراً إلهياً على وجوه العاملين، على صورة موجود آخر» «۲».

۳- وصدفة أنّ (فولتير) نفسه غير رأيه بهذه المسرحية المهينة أواخر عمره واعترف

---

(۱) عذر التقصير إلى ساحة محمد والقرآن، ص ۱۴ (فارسى).

(۲) محمد رسول اللّه، ص ۱۴۲.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۸۳

صراحة بالقول: «يوجد فى محمد شىء يدفع الجميع لاحترامه، وأننى أسأت كثيراً بحق محمد» «۱».

۴- جاء فى كتاب (دائرة المعارف البريطانية) فى ذيل كلمة (القرآن): «يعتبر محمد من بين الرجال والشخصيات الدينية العظيمة فى العالم، أكثر الشخصيات توفيقا وظفراً، وكانت رسالته مرادفة للنجاح والانتصار» «۲».

۵- يقول الفرنسى (غوستاف لوبون) مؤلف الكتاب المعروف (حضارة الإسلام والعرب): «إنّ بساطة ووضوح اصول العقائد الإسلامية بالإضافة إلى التعامل مع الناس بالعدل والاحسان الذى طبع وجه الدين الإسلامى بطابعه المنير صار سبباً فى أن يبسط نفوذه على وجه الأرض كلها».

۶- يقول (لامارتين) الشاعر الفرنسى المعروف بعد بيان مفصل فى مدح نبى الإسلام صلى الله عليه و آله: «هذا هو محمد الذى لو أردنا أن نزنَ عظمته بأى ميزان فإننا سوف نضطر للقول: بأنّه ما من رجل فى العالم أعظم من محمد» «۳».

۷- طبيب وكاتب لبنانى مسيحى معروف اعتبر فى أشعاره التى نظمها عن (نبى الإسلام) صلى الله عليه و آله بأنّه أفضل مدبر وحكيم وعالم، ورب للكرم والكلام، ورجل العقل والسياسة، وبطل ميدان المعارك، ووصفه بصفات ليس لها نظير «۴».

۸- مع أنّ البعض من مؤرخى الغرب المغرضين والمنتفعين حاولوا أن يعطوا صورة عن نبى الإسلام صلى الله عليه و آله مخالفة للواقع، ولكن الرد عليهم هو نفس الرد الذى كتبه أحد من باحثيهم باسم (يوحنا واكنبرت) الذى انتقد فى كتابه (محمد والإسلام) الكتاب المتعصبين والمغرضين الذين كتبوا عن نبى الإسلام صلى الله عليه و آله خلافاً للحقيقة، يقول: «بالقدر الذى يعود فيه الشخص إلى الحقائق المعتبرة تاريخياً، والمصادر الموثقة والصحيحة التى كتبت عن أقوال

---

(۱) محمد رسول اللّه، ص ۱۴۳.

(۲) دائرة المعارف البريطانية، مادة (قرآن).

(۳) نقلًا عن كتاب (تاريخ تركيا) حسب كتاب (قاموس دارسى الشؤون الإسلامية، الاجانب) ص ۶۱ (فارسى).

(۴) قاموس دارسى الشؤون الإسلامية الاجانب، ص ۵۳۴ (فارسى).

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۸۴

وأفعال وحالات محمد فسوف يبدو فى نظره شاتمو هذا النبى أمثال (ماركس) و (برايدر) وسائر هؤلاء الأشخاص توافه وحقراء وضعفاء جدّاً» «۱».

ملخص القول: ليس أصدقاؤه واتباعه فحسب، بل ومخالفوه والبعيدون عنه تحدثوا عن صفاته وسجاياه وملكاته الأخلاقية الفاضلة، وبرامج حياته الشخصية والاجتماعية القيمة بالقدر الذى لو جمعت أقوالهم هذه لشكلت عدة كتب كبيرة.

من مجموع هذه القرائن العشر التى كان لنا فى كل منها إشارة عابرة، يمكن أن نستنتج بأنّه كان نبيّاً صادقاً ورسولًا حقيقياً ومبعوثاً من اللَّه العظيم، ولا يوجد فى ذلك أدنى شك أو تردد وحتى لو غضضنا النظر عن كل معجزاته وخوارق العادات التى جاء بها.

هذا الدليل يعتبر كافياً لوحده، بل وكما أشرنا سابقاً أيضاً أنّ هذا الدليل بالنسبة للعلماء أسمى وأعلى من المعجزات.

---

(۱) محمد من وجهة نظر الآخرين، نقلًا عن قاموس دارسى الشؤون الإسلامية، الاجانب، ج ۱، ص ۱۶۴ (فارسى).

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۸۵

الطريق الثالث: البشارات والإشارات

اشارة

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۸۷

الطريق الثالث: البشارات والإشارات

تمهيد:

الدليل الثالث، وهو من الأدلة التى يمكن إقامتها لتصديق أقوال نبيّ الإسلام صلى الله عليه و آله هى البشارات والإشارات التى جاءت فى (الكتب السماوية السابقة)، وبالرغم من أنّ الكثير من هذه البشارات قد غطتها سحب من التعصب وتم حذفها أو تغييرها وتزويرها من كثرة التحريفات التى جرت على الكتب السماوية السابقة، ولكن لازالت إشارات كثيرة عن هذا الموضوع تبدو للناظر فى نفس كتب الديانات الاخرى الموجودة بين أيدينا اليوم.

وتشير القرائن إلى أنّ هذه الإشارات والدلالات كانت فى متناول اليد فى بداية ظهور الإسلام أكثر من الوقت الحاضر بالشكل الذى كان القرآن الكريم يستند إليها مكرراً ويدعو (اليهود) و (النصارى) للتدقيق فيها، وبلا شك إذا لم يكن ذلك موجوداً، فلا يمكن للقرآن أن يعتمد على تلك الإشارات بهذه الصراحة.

وهناك نقطة تثير الانتباه، فكما صرحت الكثير من كتب التاريخ أنّ مجيء مجموعة من اليهود إلى أرض المدينة كان بدافع البشارات التى قرأوها فى كتبهم عن ظهور نبى الإسلام صلى الله عليه و آله، وأنّ الشوق وتمنى إدراك زمان ظهوره هو الذى أجبرهم على ترك ديارهم والجلاء عن أوطانهم وسكنوا المدينة، وإلّا فإنّ بيئة الحجاز عموماً والمدينة خاصةً ليس فيها مايجذب للحياة المادية من قبيل التجارة أو الزراعة أو تربية المواشى حتى يختاروها وطنا لهم.

كانوا يعتبرون أنفسهم أكثر أهلية من الآخرين فى قبول الدين الذى كانوا ينتظرونه،

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۸۸

ولكن بعد ظهور الإسلام وتعرض مصالحهم غير المشروعة للخطر. غيّر قسمٌ منهم شكل القضية، وهبوا فى النهاية لمواجهة النبى صلى الله عليه و آله، ولا مجال للتعجب والاستغراب هنا لأننا نشاهد مثل هذا فى علاقات الكثير من الأصدقاء والروابط الودية لمجموعة من المتحابين.

بهذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم، ونتابع الآيات التى تشير إلى هذا المعنى وتوبخ اليهود والنصارى بسبب عدم توجههم لها:

١- «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعرِفُونَهُ كَمَا يَعرِفُونَ ابنَاءَهُمْ». (البقرة/ ١۴۶) (الأنعام/ ٢٠)

٢- «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِىَّ الامىَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكتُوبًا عِندَهُم فِى التَّورَاةِ وَالاِنجِيلِ». (الأعراف/ ١۵٧)

٣- «وَاذْ قَالَ عِيسَى ابنُ مَريَمَ يَابَنى اسرَائِيلَ انِّى رَسُولُ اللَّهِ الَيكُم مُّصَدِّقاً لِمَا بَينَ يَدَىَّ مِنَ التَّورَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعدِى اسمُهُ احمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ». (الصف/ ۶)

۴- «وَلَمَّا جَاءَهُم كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُم وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَستَفتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّاعَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعنَةُ اللَّهِ عَلَى الكَافِرِينَ». (البقرة/ ٨٩)

۵- «وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَناً قَلِيلًا وَايَّاىَ فَاتَّقُونِ* وَلَاتَلبِسُوا الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكتُمُوا الحَقَّ وَأَنتُم تَعلَمُونَ».

(البقرة/ ۴١- ۴٢)

إنّهم يعرفونه جيداً:

أول آية جاءت فى سورتين من القرآن الكريم تقول:

«الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعرِفُونَهُ كَمَا يَعرِفُونَ أَبنَاءَهُمُ» أى أنّهم ليسوا مطلعين على أصل ظهوره ودعوته فحسب، بل ويعرفون أيضاً إشاراته وخصوصياته وجزئياته، ويقول تعالى فى ذيل الآية التى جاءت فى سورة البقرة: «وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنهُم لَيَكتُمُونَ الحَقَّ وَهُم يَعلَمُونَ». (البقرة/ ١۴۶)

نفحات القرآن، ج٨، ص: ٢٨٩

وينقل عن (عبد اللّه بن سلام)- الذى يعد من علماء اليهود الكبار ثم أعتنق الإسلام- (أنا أعلم به منى بابنى) «١».

وجاء فى رواية اخرى أنّ النبى صلى الله عليه و آله عندما جاء إلى المدينة قال (عمر) لعبد اللّه بن سلام: إنّ اللّه أنزل آية على نبيّه تقول: إنّ أهل الكتاب يعرفون كما يعرفونه أبناءهم، فما هى هذه المعرفة؟، فقال عبد اللّه بن سلام: «إننا نعرفه بصفاته التى بينها اللّه، وعندما نراه فيكم نشخصه من بينكم كما يشخص أحدنا ابنه عندما يراه بين الأولاد» «٢».

والتفسير المشهور للآية والذى ينطبق جيداً مع ظاهرها هو هذا التفسير الذى بيّناه، ولكن تمّ عرض احتمالين آخرين فى تفسير الآية وهما:

الأول: إنّ الضمير فى (يعرفونه) يعود إلى (الاطلاع على النبوة).

والثانى: إلى (مسألة القبلة)، وبناءً على ذلك فإنّ الأول هو إشارة لاطلاع ومعرفة أهل الكتاب بمسألة (النبوّة)، أمّا الثانى فهو إشارة لمعرفتهم بأمر (تغيير القبلة) عند المسلمين من (بيت المقدس) إلى (الكعبة). وكلا الاحتمالين ضعيفان جدّاً.

فى الآية الثانية- ورد ذكر تسعة أوصاف من صفات النبى صلى الله عليه و آله التى هى فى الواقع دلائل على حقانيته من زوايا مختلفة- بعضها إشارة إلى المضمون الرفيع لدعوته وبرامجه، وبعضها إشارة إلى قرائن اخرى مثل أمّيته وعدم تعليمه، وشفقته ورحمته، وأمثال ذلك، وتستند فى قسم آخر من هذه الدلائل إلى مسألة أوصافه وعلاماته وسماته فى الكتب السماوية السابقة (التوراة والانجيل)- يقول تعالى

«الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِی یَجِدُونَهُ مَکتُوباً عِندَهُم فی التَّورَاةِ وَالإِنجِیلِ ... اولَئِکَ هُمُ المُفلِحُونَ».

---

(۱) التفسیر الکبیر للفخر الرازی؛ وتفسیر المنار فی ذیل الآیة مورد البحث.

(۲) تفسیر روح المعانی، ج ۷، ص ۱۰۳؛ وتفسیر مجمع البیان، ج ۳، ص ۲۸۲؛ وتفسیر روح البیان، ج ۳، ص ۱۸.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۹۰

ومع عدم ذکر اسم النبی صلی الله علیه و آله فی هذه الآیة صراحة ولکن الأوصاف التی ذکرتها ترمی بوضوح إلی أنّ المقصود هو نفسه.

فکیف یمکن القبول بأنّ القرآن یتحدث مع الیهود والنصاری بهذه الصراحة، ویخبرهم بوجود دلائل وعلامات النبی صلی الله علیه و آله فی کتبهم ولکن هذه المسألة لا تطابق الحقیقة وأنّهم یسکتون؟ ویقینا إذا لم تکن هذه الإشارات والعلامات موجودة فی کتبهم فإنّهم سیتخذونها حجة وذریعة مهمة ضد النبی صلی الله علیه و آله، ولصرّحوا بها فی کل مکان، وإذا کان ذلک قد حصل لنقله التاریخ لنا.

وبناءً علی هذا فعلی الأقل أنّ سکوتهم یعتبر دلیلًا ساطعاً علی وجود هذه القرائن والأوصاف فی کتبهم، وعلاوة علی ذلک علی حد قول الفخر الرازی: إذا لم تکن لهذا الأمر حقیقة واقعیة لکان موجباًلنفرة الیهود والنصاری من الإسلام، والشخص العاقل لا یقدم مطلقا علی ما یوجب تنفر الناس (خاصةً فی مجال الدعوة) «۱»، وکما سیمر علینا لاحقاً فإنّ قسماً من هذه الدلائل والإشارات موجودٌ حتی فی کتبهم المحرّفة الحالیة.

والملفت للنظر هو أنّ القرآن لایقول: (یجدون علائمه ودلائله)، بل یقول: (یجدونه)، أی یجدون نفس ذلک النبی صلی الله علیه و آله فی التوراة والانجیل، وهذا التعبیر الذی یعنی حضور النبی صلی الله علیه و آله فی کتبهم هو تأکید علی منتهی وضوح هذا الأمر.

وفی البعض من الروایات الإسلامیة جاء فی ذیل الآیة: إنّ بعض المسلمین سألوا شخصین من المطلعین علی التوراة کلًا علی حدة وأنّهما ذکرا أوصاف النبی صلی الله علیه و آله بدقة متطابقة «۲».

---

(۱) تفسیر الکبیر، ج ۱۵، ص ۲۳.

(۲) تفسیر القرطبی، ج ۴ ص ۲۷۳۵ (الملخّص).

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۹۱

فی الآیة الثالثة نقرأ عن لسان عیسی بن مریم أنّه أعطی البشارة أمام بنی اسرائیل «وَاذْ قَالَ عِیسَی ابنُ مَریَمَ یَابَنِی اسرَائِیلَ انِّی رَسُولُ اللهِ الیَکُم مُّصَدِّقاً لِمَا بَینَ یَدَیَّ مِنَ التَّورَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ یَاتی مِن بَعدِی اسمُهُ احمَدُ»، ویقول فی نهایة الآیة: «فَلَمَّا جَاءَهُم بالبَیِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحرٌ مُّبِینٌ».

والمثیر للاهتمام هو أنّ القرآن ینقل أقوال هؤلاء فی مخالفتهم ومعارضتهم للمعجزات واتهامهم عیسی علیه السلام بالسحر، ولکنه لم یتحدث عن معارضتهم حول إخبار (المسیح علیه السلام) بمسألة مجیء (أحمد صلی الله علیه و آله)، وهذا دلیل واضح علی أنّهم لاینکرون هذا الخبر.

فی الآیة الرابعة نواجه نقطة جدیدة تقول: «وَلَمَّا جَآءَهُم کِتَابٌ مِّن عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّما مَعَهُم وَکَانُوا مِن قَبلُ یَستَفتِحُونَ عَلَی الَّذِینَ کَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّاعَرَفُوا کَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَی الکَافِرِینَ».

إنَّ هذه الآیة جاءت لتشیر إلی السبب الذی استوجب نزولها من أن (الیهود) هاجروا من أرضهم ودیارهم إلی المدینة لرؤیتهم علامات نبی الإسلام صلی الله علیه و آله التی فی کتبهم، ولأنّهم قرأوا فیها أنّ محل هجرة هذا النبی صلی الله علیه و آله بین جبلی (عیر) و

(احـد)- وهما جبلان على طرفى المدينة، ولهذا فقد جاءوا وسـكنوا المدينة وكتبوا حتى لإخوانهم بإننا وجدنا الأرض الموعودة فتعالوا إلينا.

فقال أولئك الذين ليسوا بعيدين جدّاً عنها: إنّه لا تفصـلنا فاصـلة كبيرة عن تلك المنطقة وحين يهاجر إليها النبى الموعود نلتحق بكم! وعنـدما يصـطدمون مع سـكان المدينـة الأصـليين من قبيلتى (الأـوس) و (الخزرج) يقولون: «نحن فى ظل النبى الجديـد سوف ننتصـر عليكم» «۱».

---

(۱) اقتباس عن سبب النزول الذى جاء فى الدر المنثور من تفاسير أهل السنة. وتفسير العياشى عن الإمام الصادق (عليه السلام) (وذكره الكثير من مفسرى الشيعة وأهل السنة أيضاً فى ذيل الآية المذكورة)- ومع أنّ البعض من المفسرين مثل الفخر الرازى اعطوا احتمالات متعددة لعبارة (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) ولكن أغلبها ترجع إلى نفس المعنى الذى ذكر أعلاه.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۹۲

ولكنهـم للأـسف عنـدما ظهر هـذا النـبى الأـكرم صـلى الله عليـه و آله نهضـوا لمخـالفته، لأـنّهم لم يروه ملبياً لميـولهم وأهـدافهم غير المشروعة.

وهذه كلها تدلل على أنّ مسألة ظهور نبى الإسلام صلى الله عليه و آله جاءت واضحة فى كتبهم إلى حدٍ ما.

النقطـة الجـديرة بالتأمـل أن عبـارة «مصـدقٌ لمـا معهم» أو مايشابههـا من تعـبير وردت فى القرآن الكريم أكثر من عشـر مرات، وليس مفهومها أنّ النبى صـلى الله عليه و آله يؤيـد كتبهم السـماوية مع ما حـدث فيها من تحريف)، بل المقصود أنّ أوصاف النبى صـلى الله عليه و آله موافقة ومتطابقة مع العلامات والإشارات التى فى أيديهم، وبتعبير آخر أنّ للنبى صـلى الله عليه و آله وكتابه السـماوى نفس الأوصاف التى كانوا يعرفونها من قبل بالضـبط وكان فى الحقيقة تصديقاً لكتبهم السـماوية من ناحية تطابقها تماماً مع صـفاته صلى الله عليه و آله.

وبهذا الترتيب تعتبر كل الآيات التى جاء فيها هذا التعبير فى زمرة الآيات التى نحن بصددها فى هذا البحث.

وختاماً فإنّ الآية الأخيرة- التى تخاطب اليهود حول الموضوع- ضـمن تأكيدها على وجوب الإيمان بالكتاب السـماوى للنبى صـلى الله عليه و آله الذى يتطابق ومالديهم من علامات، تقول:

«وآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَّا مَعَكُم وَلَاتَكُونُوا اوَّلَ كَافِرٍ بِهِ».

أى أنّ عبـدة الأوثـان من العرب إذا كفروا به فلاـ عجبَ فى ذلك، بل العجب كل العجب هو أن تنكروه أنتم وتكفروا به، لأنّ المتوقع منكم أن تكونوا أولّ المؤمنين به، وإلّا ألستم الذين هجرتم مدنكم وديـاركم وجئتم إلى المدينة شوقاً للقائه أوَ لَم تعدوا الأيّام والليالى انتظاراً لظهوره؟ ... إذن لِمَ تنعكس القضية وتكونون أنتم أوّل الكافرين به؟!

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۹۳

ثم تشـير الآيـة إلى الباعث ل «تغيير أسـلوبهم» هـذا وتقول لهم: لا تكتموا الحقائق من أجل المنافع المادية: «وَلَا تَشتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَناً قَلِيلًا وَايَّاىَ فَاتَّقُونِ».

و هذه إشارة إلى أنّ أىَّ ثمن يأخذونه مقابل ذلك فهو لا شـىء، حتى ولو كان العالم كله، ولكنكم يا أصحاب الهمم الدنية، من أجل مصالحكم المادية التافهة (أحياناً من أجل ضيافة سنوية) كتمتم الآيات التى تحمل علامات وأوصاف النبى صلى الله عليه و آله.

ثم تقول الآية تأكيداً للمراد: «وَلَا تَلبِسُوا الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكتُمُوا الحَقَّ وأَنتُم تَعلَمُونَ».

وفى الحقيقة فإنّ اليهود ارتكبوا عدّة مخالفات فى هذا المجال:

الاولى: إنّهم تعاهدوا على أن يكونوا أول المؤمنين بالنبى صلى الله عليه و آله فى حين كانوا أول الكافرين به.

الثانیة: إنّهم لبسوا الحق بالباطل حتی یطمسوا وجهه ویوقعوا الناس فی المتاهات.

الثالثة: إنّهم کتموا الحق وهم یعلمون بأنّه حق واشتروا بالآیات الإلهیّة ثمناً قلیلًا.

وهناک فی القرآن الکریم آیات متعددة اخری بنفس المعنی (أی تحکی عن «کتمان الحقائق» من قبل الیهود) والظاهر أنّ تلک الآیات کلها تشیر إلی نفس مسألة کتمان آیات النبوة.

ویستفاد من مجموع ماجاء فی الآیات الآنفة بأنّ اوصاف وعلامات نبی الإسلام صلی الله علیه و آله وحتی اسمه المبارک قد وردت فی الکتب السابقة، وقدمت بشارات وإشارات کثیرة بالنسبة لظهوره.

ونتجه الآن صوب کتب العهدین الموجودة فی متناول أیدینا (التوراة والانجیل)، لنبحث فی نماذج من هذه العلامات والإشارات:

التبشیر بظهور النبی صلی الله علیه و آله فی الکتب السماویة:

کما أشرنا من قبل، فإننا نجد فی کتب الیهود والنصاری الموجودة الیوم علامات ذلک

النبی العظیم، ولکن قبل ظهوره کانت توجد یقیناً مسائل کثیرة طمست فی ظلمات الکتمان علی أثر عدم انسجامها مع التعصبات العمیاء الصماء أو متطلبات مصالح زعمائهم.

وحول (بشارات العهدین) کتبت مؤلفات متعددة، أو خصصت لها أقسام من بعض الکتب، لا یسعنا ذکرها فی هذه العجالة، ونکتفی ببعض النماذج البارزة:

تمّ التأکید فی ثلاثة موارد من «انجیل یوحنا» علی لفظة (فارقلیط) أو (فارقلیطا) والتی تعنی فی العربیة ب (المُعزّی).

ونقرأ فی مورد منها: «وسأطلب من الأب أن یعطیکم معزیاً آخر (فارقلیطا)، یبقی معکم الی الأبد» «۱».

وجاء فی مورد آخر: «ومتی جاء المعزی الذی أرسله إلیکم الأب، روح الحق المنبثق من الأب، فهو یشهد لی» «۲».

وفی الباب التالی له: «صدقونی، من الخیر لکم أن أذهب، فإنْ کنت لا أذهب لا یجییئکم المعزی أما إذا ذهبت فارسله إلیکم» «۳».

ممّا یجلب الانتباه أنّ الفخر الرازی ینقل فی الجزء (۲۹) من تفسیره صفحة (۳۱۳) عن الأناجیل الموجودة فی عصره (انجیل یوحنا- الباب ۱۴): (وأنا أطلب لکم إلی أبی حتی یمنحکم ویؤتیکم الفارقلیط حتی یکون معکم إلی الأبد). وهذا عین ماذکرناه أعلاه ولکن بالتصریح بلفظة (فارقلیط)، ویذکر نفس المعنی بالتصریح بلفظة (فارقلیط) أیضاً فی الباب ۱۵ و ۱۶ منه.

إنّ (فارقلیط) التی تلفظ باللغة الیونانیة (بریکلتوس) أو (براقلیتوس) فسرها الکثیر من المسیحیین بمعنی (المُعَزّی) أو (روح القدس)، ولکن جمعاً منهم ذکر أنّ معناها (کثیر الحمد) وهو مایتطابق تماماً مع اسم أحمد ومع الآیة التی تقول: «وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ یَأْتِی مِن بَعْدِی اسْمُهُ احْمَدُ». (الصف/ ۶)

---

(۱) انجیل یوحنا، الباب ۱۴، الجملة ۱۶.

(۲) المصدر السابق، الباب ۱۵، الجملة ۲۶.

(۳) المصدر السابق، الباب ۱۶، الجملة ۷.

وإنّ مایتضح من المطالعة الدقیقة لجذور هذه الکلمة هو أن (فارقلیط) کلمة یونانیة الأصل، وأنّ جذرها (بریقلتوس) ومعناه (کثیر الحمد) التبس علیهم مع (براقلیتوس) التی تعنی (المُعَزّی).

ینقل السید حسینیان مؤلف کتاب (السراج) «۱» فی بدایة کراسه الصغیر والملیء بالمضامین، عین المتن اللاتینی لإنجیل یوحنا عن

كتاب باسم (الأناجيل) من تأليف «لامينيه»- طبع باريس- والموجود حالياً فى مكتبة مجلس الشورى الإسلامى:

مايدلل جيداً على أنّ كلمة (فارقليط) وردت هناك على صورة (بِركليت)- التى تعنى بالعربية (أحمد) وبالفارسية (كثير الحمد) وليس بصورة بَرَكليت (باراكليت) التى تعنى (المُعَزّى) «۲»، ولكن للاسف حُذف التعبير الأول فيما بعد من متون الأناجيل وحلَّ محلّه التعبير الثانى.

ويضيف أيضاً: «إنّ قدماء النصارى فهموا من لفظ «براكليت» اسماً خاصاً لشخص، لأنّ فى التراجم السريانية جاء عين اللفظ «أى فارقليط»، وفى التراجم العبرانية الموجودة لدى ورأيتها شخصياً «فرقليط». ولأنّهم يعتبرونه اسم إنسان «معين»، والترجمات العبرانية والسريانية عند المسيحيين لها كمال الأهميّة والاعتبار» «۳».

وفى الواقع فإنّ مفردات من قبيل (محمدٍ) و (على) و (حسن) و (حسين) وأمثالها لا يمكن مطلقا ترجمتها عند ترجمة العبارات، فمثلًا: بدل جملة (جاء على) لايقول الفارسى أبداً:

(بلند مرتبه آمد) بل يقول (على آمد)، ولكن المؤسف أنّ العلماء المسيحيين فى الأزمان المتأخرة، ومن أجل محو علامة نبوة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله هذه أبدلوا أولًا: لفظة (بركليت) ب- (باراكليت).

وثانياً: اخرجوها من صورتها كاسم علم إلى معنىً وصفيٍّ وقالوا بدلها «المُعَزّى» (فتأمل).

---

(۱) (چراغ)- فارسى.

(۲) كتاب جراغ، ص ۱.

(۳) المصدر السابق، ص ۶.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۹۶

يتضح من هذا الكلام أنّ اللفظة الأصلية إذا كانت (بريقليتوس) فإنّ معناها (كثير الحمد) ومن غير المستبعد التباسها مع (براقليتوس)، وطبعاً أنّ احتمالات التعمد فى هذا التفسير كثيرة جدّاً.

يقول المرحوم (العلّامة الشعرانى) فى كتابه «نثر طوبى : «رأيت فى أحد قواميس اللغة اليونانية أنّ «فارقليط» ترجم معناها ب «كثير الحمد» أىمن تتناقله الألسن ويذكر بالخير.

ثم يضيف: إنّ قواميس اللغة اليونانية باللغة الانجليزية، والقواميس الفرنسية موجودة فى كل مكان و (يمكنكم مراجعتها ولكن) يعتبرها المسيحيون مصحفة ومحرفة.

ويترجمونها بمعنى (المعزى) وقد كتبنا نحن رسالة مستقلة فى هذا الباب» «۱».

ونطالع فى كتاب قاموس مفردات القرآن «۲» تأليف الدكتور قريب: «أنّ المستفاد من الروايات هو أنّ الأنبياء العظام كل بنوبته قد بشروا فى كتبهم بحضرة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله ثم ينقل عن الكثير من المصادر الإسلامية أنّ اسمه فى الانجيل «الفارقليطا» التى يكون معناها (أحمد)» «۳».

وفيما عدا ذلك ففى تعبيرات الانجيل نفسه توجد جمل تشير إلى أنّ هذه الكلمة وبأى تعبير تكون فهى تتحدث عن نبى يظهر ويبقى دينه خالداً.

فجملة (وسأطلب من الأب أن يعطيكم معزياً آخر يبقى معكم إلى الأبد) «۴» دليل واضح على أنّ المقصود من (المعزى) هو نبى دينه أبدى وخالد.

ويقول هناك: «ومتى جاء المعزى الذى ارسله اليكم الأب، روح الحق المنبثق من الاب، فهو يشهد لى» «۵».

وواضح أنّ هذا المعزى هو نبى وليس روح القدس. وتكمنُ فى تعاليمه كل الحقائق ولن يبق شىء يستحق القول.

(۱) نثر طوبى ج ۱، ص ۱۹۷.

(۲) فرهنك لغات قرآن (فارسى).

(۳) فرهنك لغات قرآن (فارسى)، ج ۱، ص ۳۵۱.

(۴) انجيل يوحنا، الباب ۱۴، الباب ۱۶

(۵) المصدر السابق، جملة ۲۶.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۹۷

وعلى أيّة حال فلا مجال لأىشك أو ترديد بأنّ كلمة (أحمد) أو مفردات من قبيلها كانت موجودة فى الأناجيل المتوفرة فى زمن النبى صلى الله عليه و آله، وإلّا فإنّ الآية السادسة من سورة الصف ستكون فى مظان الاعتراض الشديد من قبلهم ولأصبحتْ حجةً قوية لهم فى محاربة الإسلام. فى حين لم ينقل لنا التاريخ الإسلامى مثل هذا الشىء.

وبناء على ذلك يبدو أنّ البعض من علماء المسيحية حينما رأوا أن مواقعهم معرضة للخطر اتخذوا قرارهم بتحريف وتبديل تلك المعانى إلى معانٍ اخرى وحتى يمكن مشاهدة نفس الاسم المقدّس للنبى صلى الله عليه و آله فى بعض كتب المسيحيين التى كانت موجودة لقرون بعد ظهوره صلى الله عليه و آله فى زوايا العالم المختلفة.

والشاهد على هذا الكلام بيان مثير لأحد العلماء المسيحيين الذين أعلنوا إسلامهم فى كتابه (أنيس الاعلام) وهو كتاب تحقيقى فريد أزاح الستار عن هذا الجانب.

وباعتباره كان بنفسه أحد القساوسة المسيحيين المعروفين وأنهى دراسته عند كبار علماء المسيحية ووصل إلى مقام كبير فى نظرهم، يشرح فى مقدمة كتابه المذكور قصة اسلامه العجيبة بهذا الشكل، يقول: «بعد تنقيب كثير وجهود خارقة وجولات فى المدن المختلفة وصلت إلى قسيس رفيع المستوى كان ممتازاً من ناحية الزهد والتقوى. ويعود إليه أبناء الطائفة (الكاثوليكية) من ملوك وغيرهم بأسئلتهم الدينية، وقد درست عنده فترة مذاهب النصارى المختلفة، وكان عنده تلامذة كثيرون ولكن كان له تعلق خاص بى من دونهم وكانت مفاتيح المنزل كلها بيدى إلّامفتاح واحد لأحد الخزائن كان يحتفظ به عنده.

فى تلك الأثناء أحس القسيس المذكور يوماً بوعكة صحية، فقال لى: قل للتلاميذ أننى لا طاقة لى على التدريس، وعندما جئت للطلبة وجدتهم مشغولين بالبحث والنقاش الذى انجر إلى معنى لفظة (فارقليطا) فى السريانية و (بريكلتوس) باللغة اليونانية ... وقد امتد جدالهم وطال، وبدا لكل واحد منهم رأىٌ ... بعد أن عدتُ إلى الاستاذ سألنى: ما بحثتم اليوم؟ فقدمت له تقريراً عن اختلافهم فى لفظ (فارقليطا) ... قال: وأنت أى الأقوال انتخبت؟

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۹۸

قلت: انتخبت ما اختاره فلان مُفسِّر.

فقال القس: ما قصّرت ولكن الحق والواقع يخالف كل هذه الأقوال، لأنّ الحقيقة لايعلمها (إلّا الراسخون فى العلم) وقليل من هؤلاء أيضاً من يعرفها، فألححت عليه أن يقول لى معناها، فبكى بشدّة وقال: إننى لا أبخل عليك بأى شىء ... إن فى تعلم معنى الاسم أثراً عظيماً ولكن بمجرّد شيوعه سيقتلوننا أنا وأنت وإذا عاهدتنى بأنّ لا تقول لأحد سأبيّن لك المعنى ... فأقسمت له بكل المقدّسات أن لا أبوح باسمه، عندئذ قال: إنّ هذا الاسم هو من أسماء (نبى المسلمين) ومعناه (أحمد) و (محمد):

ثم أعطانى مفتاح تلك الغرفة الصغيرة وقال: افتح باب الصندوق الفلانى. وآتنى بكذا وكذا كتاب، فجلبت الكتابين له وكانا مكتوبين بالخط اليونانى والسريانى قبل ظهور نبى الإسلام، على الجلد.

وقد ترجم لفظ (فارقليطا) فى كلا الكتابين بمعنى (أحمد) و (محمد)، ثم اضاف الاستاذ قائلًا: لم يكن عند علماء النصارى أى

اختلاف قبل ظهور نبى الإسلام بأنّ (فارقليطا) تعنى (أحمد ومحمد) ولكن بعد أن ظهر محمد أوَّلوا اللفظة واخترعوا لها معنىً آخر من أجل الابقاء على رئاستهم ومنافعهم المادية، وقطعاً أنّ هذا المعنى لم يقصده صاحب الانجيل.

فسألته: ما تقول عن (دين النصارى ؟ قال: نسخَ بمجيء الدين الإسلامى وكرر هذا اللفظ ثلاث مرات، فقلت: فى هذا الزمان ما هو طريق النجاة والصراط المستقيم ...؟ قال:

أنّه منحصر فى اتّباع محمد صلى الله عليه و آله.

قلت: وهل أنّ تابعيه من أهل النجاة؟ قال: أىواللّه (كررها ثلاثا) ...

ثم بكى الاستاذ وبكيت أنا أيضاً، وقال: إذا كنت تريد الآخرة والنجاة فيجب أن تقبل دين الحق ... وسوف أدعو لك دائماً، بشرط أن تشهد لى يوم القيامة بأننى كنت مسلماً فى الباطن ومن أتباع حضرة محمد صلى الله عليه و آله ... وليس من شك اليوم أنّ «دين الإسلام» هو دين اللّه على وجه الأرض ...» «۱».

---

(۱) اقتباس مع قليل من الاختصار عن (الهداية الثانية) مقدمة كتاب أنيس الاعلام.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۹۹

وكما تلاحظون فإنّ علماء أهل الكتاب- وفق هذا السند- فسروا وبرروا اسم وعلامات النبى صلى الله عليه و آله بعد ظهوره بشكل آخر من أجل مصالحهم الشخصية.

سؤال:

يطرح هنا سؤال وهو: إنّ الاسم المعروف للنبى صلى الله عليه و آله (محمد) فى حين سمى فى الآية ۶ من سورة «الصف» باسم (أحمد)، وهاتان المفردتان وإن لم تختلفا كثيراً فى دلالتهما على معنى ومفهوم (محمود) ولكنهما فى الظاهر اسمان مختلفان. وبناءً على ذلك إذا كانت (فارقليطا) تعنى (محمود)، فإنّها تنسجم مع كليهما، ولكن تعبير القرآن ب (أحمد) لاينسجم مع الاسم المعروف للنبى صلى الله عليه و آله.

الجواب:

ستتضح الاجابة جيداً عن هذا السؤال ببيان بعض النقاط:

۱- جاء فى التواريخ بأنّ للنبى صلى الله عليه و آله منذ طفولته اسمين، وحتى أنّ الناس كانت تخاطبه بكليهما. أحدهما: (محمد) والآخر (أحمد)، والأول: اختاره له جده (عبد المطلب).

والثانى: أُمه (آمنة)، وقد ذكر هذا الموضوع بالتفصيل فى السيرة الحلبية.

۲- من بين الذين ينادونه مراراً بهذا الاسم، عمه (أبو طالب)، وفى أيدينا اليوم كتاب بعنوان (ديوان أبى طالب) نشاهد فيه قصائد كثيرة ذَكرت النبى صلى الله عليه و آله بعنوان (أحمد) مثل:

أرادوا قتل «أحمد» ظالموهمولیس بقتلهم فيهم زعيم

وإن كان «أحمد» قد جاءهمبحق ولم يأتهم بالكذب «۱»

وفى غير (ديوان أبى طالب) نقلت عنه أشعار فى هذا المجال مثل:

لقد أكرم اللّه النبى محمداًفأكرم خلق اللّه فى الناس أحمد «۲»

---

(۱) ديوان أبى طالب، ص ۲۵ و ۲۶.

(۲) تاريخ ابن عساكر، ج ۱، ص ۲۷۵.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۰۰

نفحات القرآن ج۸ ۳۲۵

۳- ویری هذا التعبیر أیضاً فی أشعار (حسان بن ثابت) الشاعر المعروف فی عصر النبی صلی الله علیه و آله:

ومفجعة قد شفها فقد أحمدفَظَلَّت لآلاءِ الرسولِ تعدد

والأشعار التی جاء فیها اسم (أحمد) بدلًا من محمد سواءً فی دیوان أبی طالب أو غیره کثیرة جدّاً ولا مجال لنقلها کلها هنا. ونختم هذا البحث ببیتین آخرین لابن أبی طالب (علی علیه السلام) حیث یقول:

أتامرنی بالصبر فی نصر «أحمد»ووالله ماقلتُ الذی قلتُ جازعاً

سأسعی لوجه اللّه فی‌نصر «أحمد»نبی الهدی‌المحمود طفلًا ویافعا «۱»

۴- نقرأ فی الروایات التی جاءت تتحدث عن مسألة المعراج أنّ اللّه خاطب النبی صلی الله علیه و آله فی لیلة المعراج مرات باسم (أحمد) وربّما من هنا اشتهر بأنّ اسمه فی السماء (أحمد) وفی الأرض (محمد).

وجاء أیضاً فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السلام أنّ للنبی صلی الله علیه و آله عشرة أسماء جاءت خمسة منها فی القرآن وهی: (محمد) و (أحمد) و (عبد اللّه) و (یس) و (ن) «۲».

۵- عندما تلی النبی صلی الله علیه و آله الآیات المذکورة (آیات سورة الصف) لأهل المدینة ومکة وسمعها أهل الکتاب أیضاً، لم یعترض أی واحد من المشرکین وأهل الکتاب بأنّ (الانجیل) بشر بمجیء (أحمد) بینما اسمک (محمد). وسکوتهم هذا دلیل علی اشتهار هذا الاسم فی ذلک المحیط، لأنّه إذا حدث مثل هذا الاعتراض لکان قد نُقل إلینا. مع أنّ اعتراضات الأعداء وحتی فی الموارد الجارحة جدّاً مثبتة فی التاریخ.

نستخلص من مجموع هذا البحث أنّ اسم (أحمد) کان من الأسماء المعروفة لنبی الإسلام صلی الله علیه و آله لدی أهل الکتاب.

---

(۱) الغدیر، ج ۷، ص ۳۵۸.

(۲) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۰۱

نشاهد بشارة اخری فی سفر التکوین والظهور فی (التوراة) فی الفصل السابع، لا یمکن تطبیق علاماتها إلّاعلی النبی صلی الله علیه و آله.

ففی الجمل من ۱۷ إلی ۲۰ نطالع: «وقال إبراهیم للرّب یالیت إسماعیل یعیش أمامک ...

فقال اللّه سمعت دعاءَک فی حق إسماعیل وها أنا اباارکه وأکثر نسله وسیلد منه اثنا عشر رئیساً وسنجعله امّةً عظیمة» «۱».

وفی کتاب (أنیس الأعلام) ینقل متن جمل التوراة المکتوبة باللغة العربیة ویکتب ترجمتها علی هذا الشکل: «... وأثمره وأعظمه ب «مادماد» والاثنا عشر إماماً الذی سیکون من نسله وسنجعله امّةً عظیمة» «۲».

ثم یضیف: «أنّ (مادماد) هو نفس (محمد صلی الله علیه و آله بالعبرانیة».

ومع الالتفات إلی أنّ النبی هو من نسل اسماعیل، وجاء فی البشارة المذکورة بأنّه سیکون امّة عظیمة ویخرج منه (اثنی عشر سیداً وإماماً) سیتضح عدم وجود أی مصداق لها سوی شخص النبی صلی الله علیه و آله، وإذ ألحقنا بها لفظة (مادماد) التی وردت فی النص العبری- وإن لم یأتوا بها فی الترجمة من العربیة إلی الفارسیة- ستتضح أکثر وأکثر.

إن قیل بأنّ هؤلاء (الاثنی عشر سیداً وإماماً) وکذلک الامّة العظیمة إشارة إلی (موسی علیه السلام) و (أسباط بنی اسرائیل الاثنی عشر) ففی الحقیقة أنّ اللّه بشر إبراهیم بظهور موسی علیه السلام، ویکون الجواب عن ذلک واضحاً لأنّ موسی علیه السلام وأسباط بنی

اسرائيل هم من نسل إسحاق، فى حين أنّ العبارة الآنفة تعرفهم على أنّهم من أبناء إسماعيل ولا يمكن أن يكون لها مصداقٌ إلّانبى الإسلام صلى الله عليه و آله.

ج) جاء فى سفر التكوين (التوراة)- الباب ۴۹ رقم ۱۰: «ولن تؤخذ عصى السلطنة من يهودا حتى يأتى شيلوه الذى ستجتمع حوله الامم» «۳».

وظاهر هذه العبارة هو أنّ حكم (يهودا) وتسلط بنى اسرائيل سيستمر حتى ظهور (شيلوه) وتجتمع الامم حوله.

---

(۱) سفر التكوين، الفصل ۷.

(۲) أنيس الأعلام، ج ۵، ص ۶۹.

(۳) سفر ظهور التوراة، باب ۴۹، رقم ۱۰.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۰۲

أمّا من هو وما هو المقصود ب (شيلوه)، فإنّ مؤلفى اليهود والنصارى قدموا احتمالات كثيرة كان أغلبها لا تتسق مع العبارة المذكورة بأى وجه، ومن جملتها أن (شيلوه) تعنى مكاناً للاستراحة أو مدينة فى شمال «بيت ايل» أو محلًا يسمونه الآن (سيلون)، والمسلَّم فيه أنّ التعبير بمجيئه واجتماع الامم حوله هو إشارة إلى شخص وليس إشارة إلى مكان أو محل.

و (مستر هاكس) الأميركى مؤلف كتاب (القاموس المقدس) ضمن عَدِّهِ للمعانى المختلفة لهذه المفردة ذكر معنى (مرسل) التى تنطبق على لفظة رسول أو رسول اللَّه.

والشىء الوحيد الذى يمكن أن يقال هو أنّ بشارة التوراة هذه هى إشارة لظهور (المسيح عليه السلام) كما قالوا ولكن حسب قول فخر الإسلام فى (أنيس الأعلام): إنّ هذا الاحتمال غير صحيح لأنّ المسيح عليه السلام هو من أبناء (يهودا) من جهة الأم.

وبناءً على ذلك فإنّ حاكميته تعتبر امتداداً لحاكمية يهودا، وفى هذه الحالة لم يبق من مصداق لها سوى نبى الإسلام صلى الله عليه و آله المرسل من اللَّه الذى تزاح بظهوره حكومة (آل يهودا) خصوصاً فى المدينة وخيبر والشامات والكثير من المناطق الاخرى «۱».

طبعاً ذكرت بشارات متعددة اخرى أيضاً فى كتب العهدين يطول شرحها وأنّ البعض منها قابل للقدح والتجريح، والذين يرغبون بالبحث والتحقيق أكثر فى هذا الموضوع يمكنهم الرجوع إلى كتب (أنيس الأعلام) و (بشارات العهدين) و (البشارات والمقارنات).

---

(۱) أنيس الأعلام، ج ۵، ص ۷۳.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۰۳

الخاتمية فى القرآن الكريم

اشارة

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۰۵

الخاتمية فى القرآن الكريم

تمهيد:

مسألة (الخاتمية) وأنّ نبى الإسلام صلى الله عليه و آله هو آخر الأنبياء الإلهيين من المسائل التى يعتقد بها كل المسلمين من أى فرقة

أو مذهب كانوا، ولا يعرفها العلماء فحسب بل كل أفراد المسلمين أيضاً ويعتبرونها من (ضروريات الإسلام) التى يتوصل إليها أى أحد بسرعة مهما قلت معاشرته لأتباع هذه المدرسة وهى أنّهم يعتبرون النبى الأكرم صلى الله عليه و آله هو آخر الأنبياء الإلهيين.

ومصدر هذا الاعتقاد يعود إلى (القرآن الكريم) و (الروايات الإسلامية) لأنّ هذه المسألة ليست بالشىء الذى يمكن إثباتها بالأدلة العقلية فقط، ويقيناً بعد قبولهم للقرآن الكريم بصفته كتاباً سماوياً، ونبى الإسلام صلى الله عليه و آله كونه رسولًا لله، يمكن الاعتماد على قولهم بهذا الصدد.

لهذا السبب نتوجه أولًا إلى الآيات القرآنية، ثم نتطرق إلى الشواهد التاريخية والروايات الإسلامية، ونختتمها ببعض الشبهات التى ألقاها مخالفو الإسلام حول خاتمية النبى صلى الله عليه و آله:

وردت الآية الرئيسية التى تشهد على هذا المعنى فى قوله تعالى «مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ ابَا احَدٍ مِّن رِجَالِكُم وَلكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِينَ وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَىءٍ عَلِيماً».

(الأحزاب/ ۴۰)

وذكر العلماء آيات متعددة اخرى حول الموضوع إذا لم نقبل دلالتها القطعية فعلى أقل

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۰۶

تقدير إنّها تحتوى على إشارات مثل:

۱- «انَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكرِ لَمَّا جَآءَهُم وَانَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ* لَّايَاْتِيهِ البَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيهِ وَلَا مِن خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّن حَكِيمٍ حَمِيدٍ». (فصلت/ ۴۱- ۴۲)

۲- «تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الفُرقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعَالَمِينَ نَذِيراً». (الفرقان/ ۱)

۳- «وَاوحِىَ الَىَّ هَذَا القُرآنُ لِانذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ». (الأنعام/ ۱۹)

۴- «وَمَا ارْسَلْنَاكَ الَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً». (سبأ/ ۲۸)

۵- «قُلْ يَا ايُّهَا النَّاسُ انِّى رَسُولُ اللَّهِ الَيْكُم جَمِيعَاً». (الأعراف/ ۱۵۸)

۶- «انْ هُوَ الَّا ذِكرى لِلعَالَمِينَ». (الأنعام/ ۹۰)

۷- «وَمَا ارْسَلْنَاكَ الَّا رَحْمَةً لِّلعَالَمِينَ». (الأنبياء/ ۱۰۷)

جمع الآيات وتفسيرها

الآية الاولى التى وردت فى بحثنا، وهى الآية ۴۰ من سورة الأحزاب والتى أشارت قصة «زيد»، وهو ابن الرسول صلى الله عليه و آله بالتبنى، حيث إنّ الرسول صلى الله عليه و آله تزوج من زوجته التى طلقها، وذلك من أجل القضاء على احدى السنن الخاطئة التى كانت متداولة آنذاك والتى تقضى بعدم الزواج من زوجات أدعيائهم بعد الطلاق ولكى لا تبقى بعد زواجها من غير زوج.

والجدير بالذكر هو أنّ زواج زيد من هذه المرأة كان بواسطة الرسول صلى الله عليه و آله، وقد طلقها لعدم انسجامهما.

وقد نفت الآية الكريمة القرابة النَسبيّة بين زيد والرسول الأكرم صلى الله عليه و آله حيث قال: «وَمَا كَانَ مُحَمدٌ أبَا أَحَدٍ مِن رِّجَالِكُمْ»، ثم أضافت: «وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيينَ».

حيث تُثْبت لرسول اللّه صلى الله عليه و آله الرابطة الروحية والمعنوية المتأتية من مقام النبوة والخاتمية، أى أنّه ليس أباكم الجسدى، بل هو أبوكم الروحى، وأبو كل الأجيال اللاحقة حتى نهاية الدنيا، وإذا نقل فى بعض الروايات عن النبى صلى الله عليه و آله قوله: «أنا وعلى أبوا هذه

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۰۷

الامّة» فهو أيضاً إشارة إلى نفس الابوة الروحية التى تنبع من التعليم والتربية والقيادة.

ويجب الالتفات إلى أنّ للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله عدة أولاد نسبيين بأسماء (القاسم)، (الطيب)، (الطاهر)، و (إبراهيم) ورحلوا جميعهم عن هذا العالم قبل البلوغ. ولهذا السبب لم تسميهم الآية (رجالًا) «۱».

ضمنا هناك رابطة اخرى بين مسألة ختم النبوة وعدم وجود الولد وهى أن أولاد الأنبياء كانوا أنبياء أيضاً، ولأنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله لا ابن له بلغ مبلغ الرجال لم يبق أىمجال للتوهم بأن سيكون بعده نبى آخر، وعلى هذا فإنّ فقدان الولد هى إشارة إلى ختم النبوة.

ويقول فى آخر الآية «وكان اللَّه بكل شىء عليماً».

ووضع تحت تصرف هذا النبى الخاتم ماكان لازماً من معارف وعلوم ومسائل الاصول والفروع.

وقد ابدى الاحتمال فى ربط بداية الآية بنهايتها، ففى بدايتها نفى عن النبى صلى الله عليه و آله ابُوَّته الجسمية لُامته، ولذا سيظهر هذا السؤال وهو: إذا كان بهذا الشكل فلماذا لا يحق لُامّته أن يتزوجوا زوجات النبى صلى الله عليه و آله من بعده؟ وفى الجواب على ذلك يقول: «إنّه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بالإضافة إلى كونه خاتم أنبيائه وأفضلهم، ولهذا السبب فإنّ حفظ حرمته واجب وترك الزواج من أزواجه بعد وفاته هو جزءٌ من هذه الحرمة» «۲».

مفهوم خاتم النبيين:

مع أنّ معنى (خاتم) واضح جدّاً- لأنّ مادة ختم فى كافة معاجم اللغة العربية تعنى انهاء شىء- ولكن قسماً من وساوس المنحرفين تستوجب تقديم توضيحات أكثر بشأنها، يقول «ابن فارس»، أحد علماء اللغة المعروفين فى القرن الرابع الهجرى، فى «معجم مقاييس اللغة: «ختم، لها معنىً أصليٌّ واحدٌ لا أكثر وهو الوصول إلى نهاية الشىء. وأن قولهم (ختم)

---

(۱) تفسير القرطبى؛ وتفسير الميزان، ذيل الآية مورد البحث.

(۲) تفسير القرطبى، ذيل الآية مورد البحث.

عندما يضعون ختما (مهرا) على شىء فهو من هذا الباب، لأنّهم دائماً بعد انهاء شىء ما يضعون ختما أو مهراً عليه».

ويقول (الخليل بن أحمد) وهو من أقدم المؤلفين والمحققين فى لغة العرب والذى عاش فى القرن الثانى للهجرة فى زمن الأئمّة المعصومين عليهم السلام عن معنى خاتِمْ وخاتَمْ: «خاتِم كل شىء هو نهايته وآخرته. وخاتَم تعنى الختم «المهر» الذى يضعونه على الطين»، وذلك عند اتمام الرسالة وطيها ومن أجل أن لا يفتحها الغرباء يلصقون قطعة لينة من الطين على محل ربطها ثم يختمون فوقها بحيث لايبقى أى طريق لفتحها إلّابكسر الختم.

وذهب سائر أصحاب اللغة أيضاًإلى هذا المعنى نفسه، وفسروا (خاتم) بمعنى الشىء الذى يؤدّى إلى النهاية أو الختم الذى يضعونه فى النهاية.

وفى كتاب (التحقيق) الذى يعد تحقيقاً جامعاً فى مصادر اللغة المهمّة بعد أن ينقل أقوال كبار اللغويين العرب يقول: «المتحقق أنّ لهذه المادة جذرٌ واحد وهو فى مقابل «بدء». أى اكمال شىء وايصاله إلى آخره ونهايته» «۱».

وكذلك المفسرون الإسلاميون من أقدمهم وحتى معاصريهم لم يخرجوا جميعهم عن أن معنى (خاتم النبيين) فى الآية المذكورة هو آخر الأنبياء.

ويقول المفسر المعروف (محمد بن جرير الطبرى) الذى عاش فى القرن الثالث فى تفسيره الذى يعتبر من أقدم التفاسير فى ذيل الآية

آنفة الذكر: و «خاتم النبيين الذى ختم النبوة فختم عليها فلا تفتح لاحد بعده إلى قيام الساعة» «۲».

ويقول المرحوم (الشيخ الطوسى) وهو من عظماء الفقه والتفسير، وعاش فى القرن الخامس فى كتابه المشهور (البيان) بعد أن يذكر (خاتم النبيين): «أى آخرهم لأنّه لا نبى بعده الى يوم القيامة» «۳».

وكذلك المفسر الكبير (الطبرسى) الذى عاش بعده بقرن واحد جاء بنفس المعنى أيضاً وشرحه «۴».

---

(۱) التحقيق، مادة (ختم).

(۲) تفسير جامع البيان، ج ۲۲، ص ۱۲.

(۳) تفسير البيان، ج ۸، ص ۳۱۴.

(۴) تفسير مجمع البيان، ج ۷ و ۸، ص ۳۶۲.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۰۹

يقول (أبو الفتوح الرازى) الذى يعدّ من المفسرين رفيعى الشأن فى القرن السادس وكتب تفسيره باللغة الفارسية فى تعبير جذّاب فى ذيل كلمة (خاتم النبيين): «وآخر الأنبياء حتى تظن أنّه ختم النبوة، وبنبوته ختم باب بعث الأنبياء» «۱».

ويقول كذلك المفسر السنى الشهير (الفخر الرازى) والذى يعدّ من مفسرى القرن السادس الهجرى المعروفين بعد كلمة (خاتم النبيين): «مفهومها أن لا نبى بعده، وشريعته تامة بحيث لم يبق شىء لم يذكر» «۲».

وسار بقية المفسرين قرناً بعد قرن على نفس المعنى حتى وصل إلى المفسرين المعاصرين.

والشىء الملفت للنظر هو أنّ مادة ختم ومشتقاتها- الآية المذكورة- استخدمت فى القرآن الكريم فى سبعة موارد جاءت كلها وبدون استثناء بمعنى الاتمام أو انهاء الشىء أو الختم الذى يضربونه أسفل الرسائل، وهذا بذاته يدلل على أنّ الآية موضوع البحث ليس لها اى مفهوم سوى أنّ النبى صلى الله عليه و آله هو خاتم سلسلة الأنبياء، والختم الذى وضع على نهاية سجل الرسالات.

وكذلك جاء فى (نهج البلاغة) والروايات الإسلامية نفس المعنى بشكل عام، وسوف يشار إلى قسم منها فى نهاية هذا البحث.

الاجابة عن بعض الاسئلة:

۱- يقال أحياناً: إنّ (خاتم) تعنى الزينة. وبناء عليه فإنّ مفهوم الآية هو أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان زينة لكل الأنبياء وليس خاتمهم.

لكن يجب الالتفات إلى أنّ (خاتم) لم تأت أبداً بمعنى الزينة وإنّما بمعنى (الخاتم الذى له

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۹، ص ۱۶۲.

(۲) تفسير الكبير، ج ۲۵، ص ۲۱۴.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۱۰

فصّ ويوضع فى الأصابع) وأن هذا التعبير غير لائق تماماً أن يقال: إنّ النبى صلى الله عليه و آله هو خاتم أصابع النبيين، ثم إنّنا قلنا: إنّ المعنى الأصلى ل (خاتم) لم يكن أبداً (خاتم الاصبع) وإنّما الختم الذى يختمون به عند الانتهاء من الرسائل أو البرامج أو الكتب. وانطلاقاً من أن وضع الختم يكون فى (الختام) والنهاية. فإنّ اسم (خاتم) يطلق على الواسطة التى تختم بها الرسالة. (لاحظوا أنّ كلمة «خاتم» بفتح التاء معناها «مايختم به» أى الشىء الذى يختمون به).

وما يثير الاهتمام هو أنّ الختم الأصلى للأشخاص فى عصر نزول القرآن والقرون التالية له، كان على الخواتيم التى يحملونها على

أصابعهم وبواسطتها كانوا يختمون رسائلهم، ولهذا السبب جاء فى سيرة النبى صلى الله عليه و آله «أنّ خاتم رسول اللَّه كان من فضة نقشه محمد رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله» «۱».

وجاء فى بعض التواريخ أنّ من جملة وقائع السنة السادسة للهجرة أنّهم «عرضوا على النبى صلى الله عليه و آله بأنّك تراسل زعماء البلدان والملوك وأنّهم لا يقرأون الرسائل التى لاتختم عليها.

لهذا السبب اختار النبى صلى الله عليه و آله خاتماً لاصبعه حتى يختم به الرسائل» «۲».

وجاء فى كتاب (الطبقات الكبرى) أيضاً أنّ النبى صلى الله عليه و آله عندما قرر أن ينشر دعوته ويكاتب الملوك والسلاطين فى العالم أمر فصنعوا له خاتماً كتب عليه (محمد رسول اللَّه) وكان يختم به رسائله «۳».

بهذا البيان يتضح أنّ كلمة (خاتم) وإن كانت تطلق على خواتيم الزينة أيضاً ولكن فى زمان نزول القرآن وما بعده كان يطلق على الخواتيم التى يختمون بها رسائلهم أو يختمون بها على محل ربط الرسائل بعد طيها واغلاقها.

والنقطة الملفتة للنظر هى أنّ نفس المعنى استخدم فى آيات متعددة من القرآن الكريم،

---

(۱) سنن البيهقى، ج ۱۰، ص ۱۲۸؛ وفروع الكافى: ج ۶، ص ۴۷۳- باب نقش الخواتيم، ح ۱، (كان نقش خاتم النبى محمد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله).

(۲) سفينة البحار، ج ۱، ص ۳۷۶.

(۳) الطبقات الكبرى، ج ۱، ص ۲۵۸.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۱۱

فيقول حول مجموعة من الكفار: «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِم وَعَلَى سَمْعِهِم». (البقرة/ ۷)

ويقول عن يوم القيامة: «اليَومَ نَخِتمُ عَلَى افْوَاهِهِم». (يس/ ۶۵)

وعلى كل حال فإنّ أقل اطلاع على معانى هذه المفردة فى الأدب العربى وجذورها الأصلية وموارد استعمالها يثبت بوضوح أنّ كلمة (خاتم النبيين) ليس لها أى معنى سوى معنى متمم عدة الأنبياء وخاتمهم.

السؤال الثانى:

الايراد الواهى الآخر طرح من قبل البعض من عديمى الخبرة وهو أنّ القرآن الكريم يقول: إنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله (خاتم النبيين) ولم يقل (خاتم الرسل) ومن الممكن أنّ سلسلة الأنبياء تنتهى بظهوره ولكن سلسلة الرسل، لانهاية لها.

الجواب:

صحيح أنّ (النبى) معناه كل نبى يوحى إليه من قبل اللَّه تعالى سواءً كان مكلفاً بالتبليغ أم لا. ولكن (الرسول) هو نبى مكلف بالبلاغ. وبتعبير آخر، أنّ كل نبى رسول ولكن ليس كل رسول نبى.

بهذا البيان تكون الاجابة عن السؤال المذكور واضحة تماماً، فعندما يكون شخص ما خاتماً للانبياء فبطريق أولى يكون خاتماً للرسل أيضاً، لأنّه كما قلنا قبل قليل: إنّ كل رسول هو نبى- لأنّ مرحلة الرسالة أشمل من النبوة-.

وهذا الكلام يشبه بالضبط قولنا إنّ فلاناً خرج من منطقة الحجاز. فبالتأكيد أنّ ذلك الشخص خرج من مكة أيضاً، أمّا إذا نقول إنّ فلانا ليس فى مكة. فمن الممكن أن يكون فى نقطة اخرى من الحجاز.

وبناء على هذا إذا كان النبى صلى الله عليه و آله خاتم المرسلين كان ممكناً أن لا يكون خاتماً للأنبياء.

ولكن حينما تقول الآية أنّه خاتم النبيين فمن المسلم به أن يكون خاتما للمرسلين كذلك.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۱۲

فی قسم آخر من الآیات المذکورة هناک تعبیرات یعتبرها الکثیر من العلماء دلیلًا ساطعاً علی مسألة الخاتمیة. وإذا افترضنا عدم قبول دلالتها الصریحة. فلا أقل من أن تکون قرائن وشواهد علی هذه المسألة:

نقرأ فی أول آیة من هذا القسم: «انَّ الَّذِینَ کَفَرُوا بِالذِّکرِ لَمَّا جَاءَهُم وَانَّهُ لَکِتَابٌ عَزِیزٌ* لَّا یَاتِیهِ البَاطِلُ مِن بَیْنِ یَدَیْهِ وَلَا مِن خَلْفِهِ تَنْزِیلٌ مِّن حَکِیمٍ حَمِیدٍ».

و «الباطل»: فی هذه الآیة معناه الشیء الذی یبطل أو ینسخ، وعلیه فإنّ مثل هذا الکتاب سیکون خالداً وأبدیاً، وهذا بنفسه دلیل علی خاتمیة الدین الذی یعود له هذا الکتاب، کما هو دلیل علی عدم تحریف القرآن أیضاً.

وقد یقال: إنّ (الباطل) فی اللغة لا یعنی (المبطل) إذن کیف فسرتم الآیة بهذا الشکل؟

فنقول: علاوة علی أنّ الکثیر من المفسرین ذکروا أنّ أحد معانی الباطل هنا هو المبطل «۱» فأصولًا عندما یقول (لا یأتیه الباطل) فإنّ مفهومها أنّ الباطل لا یمکنه أن یعیقه أو یعطله خصوصاً وأنّه قال قبلها: (وأنّه لکتاب عزیز) التی تدل علی بقائه وثباته.

وفی الآیة التالیة یقول: «تَبَارَکَ الَّذِی نَزَّلَ الفُرقَانَ عَلَی عَبْدِهِ لِیَکُونَ لِلعَالَمِینَ نَذِیراً».

ولفظة (عالمین) التی تشمل کل سکان العالم بالرغم من عدم تقییدها بأی قید فهی تعم أبناء کل الأعصار حتی نهایة الدنیا.

وهی لیست غیر محدودة من ناحیة المکان فحسب، بل وحتی من ناحیة الزمان أیضاً، وتشمل حتی الآتین، ولهذا السبب اعتبرها الکثیر من المفسرین دلیلًا علی عالمیة الدین الإسلامی أولًا وعلی خلوده ثانیاً «۲».

والنقطة الملفتة للنظر أیضاً أنّ کلمة (عالمین) اخذت من مادة (علم) التی تشمل کل

---

(۱) مثل المرحوم الشیخ الطوسی فی تفسیر البیان؛ والطبرسی فی تفسیر مجمع البیان؛ والعلّامة الطباطبائی فی‌تفسیر المیزان؛ والآلوسی فی تفسیر روح المعانی وکذلک بعض المفسرین الاخرین (ذیل الآیة مورد البحث).

(۲) تفسیر الکبیر، ج ۲۴، ص ۴۵؛ وتفسیر القرطبی، ج ۷، ص ۴۷۱۸؛ وتفسیر روح البیان، ج ۶، ص ۱۸۸.

الموجودات التی یحتویها علم الإنسان وحتی السماوات والأرض، ولکن بمراعاة کلمة الانذار التی وردت فی الآیة فإنّ مفهومها یکون هنا محصوراً بالمکلفین فی العالم.

علی أیّة حال، یکون الاستدلال علی الآیة الثالثة بنفس الطریقة أیضاً، لأنّ الرسول صلی الله علیه و آله یقول وفق هذه الآیة: «وَأُوحِیَ الَیَّ هَذَا القُرآنُ لِانذِرَکُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ».

فسعة مفهوم (ومن بلغ) غیر خافٍ علی أحد ویکون شاملا لکل بنی الإنسان إلی نهایة العالم، وهو دلیل علی عالمیة الإسلام ودیمومته وخلوده.

ویصرح (الطبرسی) رحمه اللّه فی مجمع البیان- ذیل الآیة المذکورة- بأنّ (من بلغه القرآن إلی یوم القیامة) مشمولون بهذه الآیة «۱».

وکذلک الکثیر من المفسرین القدماء والمحدثین بینوا صراحة فی ذیل هذه الآیة أنّها دلالة علی مسألة (الخاتمیة) ومن جملة هؤلاء (أبو الفتوح الرازی) من علماء القرن الثالث للهجرة وصاحب تفسیر (روح البیان) والعلّامة الطباطبائی فی (المیزان) وغیرهم.

ودلالة الآیات (۴ و ۵ و ۶ و ۷) مورد البحث تکون أیضاً بنفس الطریق لأنّ تعبیر (کافة للناس) الذی جاء فی الآیة الرابعة یشمل عموم الناس. وفی الآیة الخامسة «انَّی رَسُولُ اللَّهِ الَیکُم» والآیة السادسة أیضاً استندت إلی العالمین الذی هو مفهوم واسع من جهة الزمان والمکان.

ومجموع هذه الآیات یمکن أن یکون تأییداً وتأکیداً آخر علی مسألة (خاتمیة نبی الإسلام صلی الله علیه و آله) و (خلود القرآن).

وذکر بعض من الکتاب والمؤلفین آیات اخری بهذا الصدد صرفنا النظر عن ذکرها لأنّ دلالتها غیر کافیة کما یبدو للناظر.

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۳ و ۴، ص ۲۸۲.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۱۴

الخاتمية فى الروايات الإسلامية:

كما اشير من قبل إلى أنّ الاعتقاد بخلود الإسلام وديمويته من الامور التى اتفق عليها كل العلماء والمفكرين المسلمين، بل وتعتبر من ضروريات هذا الدين ومصدر هذه العقيدة- وبالإضافة إلى الآيات القرآنية- هناك روايات لا تحصى وصلتنا عن النبى صلى الله عليه و آله وبقية الأئمّة المعصومين عليهم السلام بما يشكل مجموعها كتاباً كاملًا، وسنشير إلى قسم منها فى هذا الملخص كنموذج.

۱- الروايات العديدة حول ختم سلسلة الأنبياء والتى جاءت على لسان النبى صلى الله عليه و آله وهذه الروايات بذاتها تشكل باباً واسعاً جدّاً، ومن جملة الأحاديث فى هذا الباب الروايات التالية:

أ) فى الحديث المشهور الذى نقلته الكثير من مصادر الحديث والتفاسير عن النبى صلى الله عليه و آله والذى يقول فيه:

«مثلى ومثلُ الأنبياء كمثلِ رجلٍ بنى داراً فأتمها وأكملها إلّاموضع لبنةٍ فجعل الناسُ يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون: لولا موضع اللبنة، قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء» «۱».

ونقل نفس الحديث بطريق آخر جاء فى آخره: «فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين) «۲».

ونفس المعنى نقل بطرق متعددة «۳».

وفى تفسير (مجمع البيان) جاء هذا الحديث بهذه الصورة: يقول: نقل فى حديث صحيح عن جابر بن عبد اللَّه الأنصارى عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إنّما مثلى فى الأنبياء كمثل رجلٍ بنى داراً فأكملها وحسنها إلّاموضع لبنة، فكان من دخلها فنظر إليها قال: ماأحسنها إلّاموضع هذه اللبنة، قال صلى الله عليه و آله: فأنا موضع اللبنة ختم بى الأنبياء» ثم يقول: هذا الحديث نقل فى

(۱) صحيح مسلم، ج ۴، ص ۱۷۹۱.

(۲) المصدر السابق.

(۳) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۱۵

(صحيح البخارى) و (صحيح مسلم) «۱».

وجاء أيضاً فى مسند (أحمد بن حنبل) و (الترمذى) و (النسائى) وكثير من كتب الحديث والتفاسير الاخرى وهو من الأحاديث المعروفة جدّاً والمشهورة.

والعلّامة الطباطبائى بعد أن يذكر هذا الحديث يقول: «نفس هذا المعنى نقله أيضاً غير البخارى ومسلم مثل: الترمذى والنسائى وأحمد وابن مردويه عن غير جابر» «۲».

ب) وجاء فى (نهج البلاغة) أيضاً التصريح بمسألة خاتمية نبى الإسلام صلى الله عليه و آله فى خطب متعددة. ونقرأ فى الخطبة ۱۷۳: «أمين وحيه وخاتم رسله».

وفى الخطبة ۱۳۳: «ختم به الوحى».

وفى الخطبة ۷۲ بعد أن يصلّى علىّ عليه السلام ويسلم على النبى صلى الله عليه و آله يصفه هكذا: «الخاتم لما سبق والفاتح لما انغلق».

وفى الخطبة ۸۷ يخاطب الناس قائلًا: «أيّها الناس خذوها عن خاتم النبيين ...».

ويقول فى الخطبة الاولى من نهج البلاغة: «بعث اللّه سبحانه محمداً صلى الله عليه و آله لانجاز عدته واتمام نبوته».

والمثير للاهتمام أنّه عند التدقيق الواسع الذى جرى على ۱۱۰ أجزاء من كتاب (بحار الأنوار) بواسطة أجهزة الكومبيوتر تبيّن أنّ كلمة (خاتم النبيين) أو (خاتم الرسل) و (خاتم الأنبياء) وردت فى أكثر من ۳۰۰ موضع من الكتاب (من الجزء الثانى وحتى الجزء ۱۱۰) والقسم الأعظم منها فى روايات الأئمّة المعصومين عليهم السلام والقليل منها فى تفاسير العلّامة المجلسى وأمثاله. وتبيّن بوضوح ما تحظى به مسألة ختم النبوة بنبى الإسلام صلى الله عليه و آله فى أوساط المسلمين فى كل عصر وزمان من شهرة وشيوع واسعين «۳».

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۷ و ۸، ص ۳۶۲.

(۲) تفسير الميزان، ج ۱۶، ص ۳۲۷. ذيل الآية مورد البحث.

(۳) نتقدم بالشكر إلى المركز الكومبيرترى للحوزة العلمية فى قم الذى قدم هذه الموارد التى جاءت فى ۲۳ صفحة من الحجم الكبير إلى مركز تفسير رسالة القرآن.

وجاء فى كتب أهل السنة كرارا لفظ (خاتم النبيين) و (خاتم الأنبياء) «۱».

ج) حديث (المنزلة) المعروف- الذى ورد فى الكثير من كتب الشيعة وأهل السنة المعروفة بخصوص على عليه السلام ويعتبر من أشهر الأحاديث النبوية المتواترة- دليلً واضح على هذا المعنى. لأنّ النبى صلى الله عليه و آله كان يريد التوجه مع جيشه إلى (معركة تبوك) فخلف مكانه فى المدينة علياً عليه السلام وقال له: «أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلّاأنّه لا نبى بعدى» «۲».

والنقطة المثيرة للاهتمام أيضاً هى أنّ هذه الجملة لم يقلها النبى صلى الله عليه و آله فى واقعة (معركة تبوك) فقط، بل وصرح بها فى مواضع اخرى أيضاً، وعلى الأقل أنّها سمعت منه صلى الله عليه و آله ستّ مرات فى غير (غزوة تبوك):

أولًا: فى يوم (المؤاخاة الاولى .

ثانياً: فى يوم (المؤاخاة الثانية).

ثالثاً: أثناء تعزية النبى صلى الله عليه و آله ل (ام سليم) عندما استشهد أبوها وأخوها.

رابعاً: فى الحديث الذى ينقله (ابن عباس) عن (عمر) بهذا الخصوص.

خامساً: فى الحديث الذى جرى أثناء المنازعة على كفالة بنت (حمزة سيد الشهداء).

سادساً: فى الحديث الذى ورد عن سد الأبواب التى على المسجد إلّاباب بيت على عليه السلام وبيت النبى صلى الله عليه و آله «۳».

وهذا الحديث يثبت بوضوح أنّ ما من نبى سيأتى بعد نبى الإسلام صلى الله عليه و آله وأنّ هذه المسألة اعتبرت جزءا من الواضحات منذ نفس عصر ظهور النبى الإسلام صلى الله عليه و آله.

د) ورد فى أحاديث متعددة أنّ الأحكام الإسلامية باقية وقائمة إلى نهاية العالم. وهذا

---

(۱) يراجع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى مادة، (ختم).

(۲) الملفت أنّ هذا الحديث نقل عن ۱۷۰ طريقاً- مائة منها عن طرق أهل السنّة وسبعون طريقاً من طرق أهل البيت عليهم السلام- ومن جملة الكتب التى نقل فيها هذا الحديث: صحيح مسلم؛ صحيح البخارى؛ سنن ابن ماجه؛ مستدرك الحاكم؛ مسند أحمد بن حنبل؛ ذخائر العقبى؛ الصواعق المحرقة؛ كنز العمال؛ ينابيع المودة وغيرها. (للاستيضاح أكثر ارجعوا إلى «المراجعات» المراجعة ۲۸).

(۳) للاطلاع أكثر ارجعوا إلى (تفسير نمونة «فارسى») ذيل الآية ۴۲ من سورة الأعراف والمراجعات (المراجعة ۳۲).

الأمر لايستقيم إلّاب (خاتمية نبى الإسلام صلى الله عليه و آله لأنّ مجيء نبى جديد آخر سينسخ قسماً من أحكام النبى الذى سبقه على الأقل.

ومن جملتها نقرأ فى اصول الكافى: «حلال محمد حلالٌ أبداً إلى يوم القيامة وحرامهُ حرامٌ أبداً إلى يوم القيامة. لا يكون غيره ولا يجيء غيره» «۱».

وجاء نفس المعنى فى مكان آخر إذ يقول الإمام الصادق عليه السلام بعد أن ذكر الأنبياء: «حتى جاء محمد صلى الله عليه و آله فجاء بالقرآن وبشريعته ومنهاجه، فحلاله حلال إلى يوم القيامة وحرامهُ حرامٌ إلى يوم القيامة» «۲».

ثم إنّه يتضح من هذا الخبر المشهور أنّه ليس النبى صلى الله عليه و آله (خاتم الأنبياء) فحسب، بل وأنّ دينه ومجموع تعاليمه وأحكامه خالدة وأبدية ولا تتعرض لاى تغيير، وأنّ أولئك الذين يتصورون- بقبولهم مسألة الخاتمية- أنّهم يستطيعون بأفكارهم إيجاد تغييرات فى تعاليم الإسلام وأحكامه مخطئون جدّاً، لأنّ الأحاديث آنفة الذكر تقول إنّ خلود نبوّته ملازماً لخلود تعاليمه وأحكامه.

ونقل (العلّامة المجلسى) رحمه اللَّه هذا الحديث أيضاً فى الكثير من مجلدات بحار الأنوار «۳».

ه) فى آخر خطبة (حجة الوداع) الشهيرة وهى نفس الخطبة التى بينها النبى صلى الله عليه و آله للناس بعنوان وصيته الجامعة فى آخر حجة وآخر سنة من عمره الشريف جاءت مسألة (الخاتمية) صريحة.

إذ يقول: «ألا فليبلغ شاهدكم غائبكم لا نبى بعدى ولا امّةً بعدكم» ثم رفع يديه المباركتين إلى السماء- بعد أن انتهى من تبيين كل وصاياه- حتى بان بياض أبطيه وقال:

«اللّهم اشهد أنّى قد بلغت» «۴».

---

(۱) اصول الكافى، ج ۱، ص ۵۸، ح ۱۹.

(۲) اصول الكافى، ج ۲، ص ۱۷، ح ۲.

(۳) بحار الأنوار، ج ۲، ص ۲۶۰، ح ۱۷.

(۴) بحار الأنوار، ج ۲۱، ص ۳۸۱ نقلًا عن الخصال ج ۲، ص ۸۴.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۱۸

و) وجاء فى حديث معروف اخر عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إنّ الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدى ولا نبى» «۱».

وهذا الحديث بالخصوص ملفت للنظر من جهة أنّه اغلق الطريق أمام مختلقى الذرائع الذين يقولون: إنّه (خاتم الأنبياء) وليس (خاتم الرسل).

ز) ننهى هذه الروايات بحديث آخر عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقد جاء فى كتاب (اسد الغابة):

«أنّ (العباس بن عبد المطلب) عم النبى كان يطلب منه صلى الله عليه و آله أن يأذن له بالهجرة من مكة إلى المدينة حتى يلحق به (حسب بعض الروايات أنّ العباس كان من المؤمنين الذين يكتمون إيمانهم وبقى فى مكة باذن من النبى صلى الله عليه و آله يكتب له أخبار المشركين ويلجأ إليه المسلمون، وعندما قويت شوكة الإسلام طلب العباس من النبى صلى الله عليه و آله أن يأذن له بالهجرة، ولكن النبى صلى الله عليه و آله قال له: «لا تعجل بهذا الأمر»)، ومتن هذه الرواية يشير إلى هذا الأمر:

«ياعمّ أقم مكانك الذى أنت به فإنّ اللَّه تعالى يختم بك الهجرة كما ختم بى النبوة».

ثم جاء إلى النبى صلى الله عليه و آله فى المدينة قبل (فتح مكة) وهاجر ورافقه فى فتح مكة، وبفتح مكة انتهت الهجرة- لأنّ هذه المدينة أصبحت بعد فتح مكة دار إسلام وليس دار كفر يهاجر منها إلى المدينة» «۲».

وبناءً على ذلك كان (العباس) هو آخر من هاجر من مكة إلى المدينة إذ بعده فتحت مكة وانتهت الهجرة. وكتب البعض أنّ (العباس)

الـذى كان فى طريق هجرته إلى المدينـة مع زوجته وأبنائه التقى بالنبى صـلى الله عليه و آله فى أحـد المنازل وسط الطريق عندما كان صلى الله عليـه و آله فى طريقه ل (فتـح مكـة) فـانضم إليه وقـال له صـلى الله عليه و آله: «وهجرتـك آخر الهجرة كمـا أنّ نبـوتى آخر النبوة» «۳».

ويبلغ مجموع الأحـاديث التى ذكرت تحت هـذه العنـاوين السـبعة التى ذكرنـا الآـف الأحاديث التى تـدل بوضوح كلها على أنّ مسألة خاتمية نبى الإسلام صلى الله عليه و آله كانت منذ البداية

---

(۱) سنن الترمذى، ج ۳، ص ۳۶۴.

(۲) اسد الغابة، ج ۳، ص ۱۱۰.

(۳) عيون الاخبار لابن قتيبة، ج ۱، ص ۵.

من المسائل الواضحة والبديهية.

والنقطـة الملفتـة للنظر أيضـاً أنّ كـل واحـد مـن الأئمّـة المعصـومين الأربعـة عشـرة عليهم السـلام وصـلنا عنه حـديث أو أحـاديث عن (الخاتمية) «۱».

والبعض من الكُتّاب قسموا هذه الأحاديث إلى عشرين قسماً «۲».

توضيحات

۱- هل أنّ السير التكاملى للإنسان ينسجم مع مسألة الخاتمية؟

أول سؤال يمكن أن يطرح فى هذا البحث هو: هل يمكن للمجتمع الإنسانى أن يتوقف؟

أو هل ل (السـير التكاملى للبشر) حدّ وحدود؟ أولا نرى بأعيُننا أنّ الناس هم اليوم فى مرحلة أعلى من العلم والمعرفة والثقافة نسبة إلى السابق؟

إذن بهذه الحالة كيف تختم النبوات بالكلية ويحرم الإنسان فى سيره التكاملى هذا من الأنبياء الجدد؟

الجواب:

إنّ الاجابـة عن هـذا السؤال تتضـح بالالتفـات إلى نقطـة واحـدة وهى أنّ الإنسـان أحياناً يصل إلى مرحلـة من النبوغ الفكرى والثقافى تمكنه من مواصـلة سـيره بالاستفادة المستمرة من الاصول والتعاليم التى وضعها باختياره النبى الخاتم بشكل جامع بدون أن يحتاج إلى شريعة جديدة.

وهذا بالضـبط مايشـبه إنساناً يحتاج فى كل مرحلة من المراحل الدراسـية المختلفة إلى معلم ومُربٍّ جديد حتى ينهى المراحل الاخرى أما عندما يصل إلى مرحلة (الدكتوراه) أو (الاجتهاد) ويصبح صاحب رأى فى علم أو علوم متعددة، ينقطع عن ادامة تحصيلاته عند

---

(۱) للاطلاع أكثر راجعوا كتاب الخاتمية من وجهة نظر القرآن والحديث والعقل.

(۲) للاطلاع أكثر راجعوا كتاب خاتمية آخر الأنبياء صلى الله عليه و آله من ص ۳۹ إلى ص ۴۱.

اسـتاذ جديـد، ويكتفى بالاعتمـاد على مـاتعلمه من اساتـذته القـدامى وخصوصـاً الاسـتاذ الأـخير وينشـغل بالبحث والتحقيق والمطالعة

والتدقيق ويواصل مسيره التكاملى.

وبتعبير آخر صار يضع الحلول للمشاكل التى تعترض طريقه اعتماداً على تلك الاصول الكليـة وما حصل عليه من آخر اساتـذته، وبناء على ذلك فلا حاجة لأن يظهر دائماًللوجود دين وتعاليم جديدة بمرور الزمان (تأملوا).

أو بعبـارة اخرى إنّ الأنبيـاء السـابقين- ومن اجل أن يتمكن الإنسان من متابعـة سيره نحو التكامل فى هـذا الطريق الملىء بالمنعطفات والصـعود والانحدار وضع- كل واحد منهم على حدة- تحت تصـرفه جزءاً من خارطة هذا المسير حتى أصبح مؤهلًا لأنّ يتلقى خارطة المسير عامة وجامعة وكامله والتى وضعها اللّه تعالى من خلال آخر الأنبياء:.

ومن البديهى إذا تلقى الخارطة الكاملة والجامعة فسوف لن يحتاج إلى خارطة اخرى وهذا فى الحقيقة بيان لنفس التعبير الذى ورد فى أحاديث (الخاتمية) واعتبرت فيه نبى الإسـلام صلى الله عليه و آله هو آخر لبنة أو واضع آخر لبنة فى بناء ذلك القصر الجميل والمتين للرسالة.

كل ما ذكرنا له علاقـة بعـدم الحاجـة إلى دين أو تعاليم جديـدة، أما مسألة القيادة والامامة التى هى نفس الاشـراف الكلى على تطبيق هذه الاصول والقوانين وإعانة المتخلفين عن المسـيرة فهى مسألة اخرى لايسـتغنى عنها الإنسان فى أى وقت من الأوقات، ولهذا السبب فإنّ اتمام سلسـلة النبوّة لا تعنى مطلقاً اتمام سلسـلة الإمامـة، لأنّ تبيين وتوضـيح تلك الاصول والتحقق الخارجى لها غير ممكنـة بدون الاستفادة من وجود قائد إلهى معصوم.

٢- هل أنّ القوانين الثابتة تتماشى مع احتياجات الإنسان المتغيرة؟

فيمـا عـدا مسألـة السـير التكـاملى للبشـر التى طرحت فى السؤال الأـول هناك سؤال آخر وهو: إننا نعلم أنّ مقتضـيات الزمان والمكان مختلفة من وقت لآخر، أو بتعبير آخر أنّ الإنسان دائماً فى حالة تغيير، فى حين أنّ شريعة خاتم الأنبياء لها قوانين ثابتة، فهل

نفحات القرآن، ج٨، ص: ٣٢١

باستطاعة هذه (القوانين الثابتة) تلبية احتياجات (الإنسان المتغيرة) على طول الزمن ...؟

يمكن الاجابة عن هذا السؤال أيضاً بالالتفات إلى النقطة التالية:

إذا كان لكل القوانين الإسلامية صفة (الجزئية) وتعين لكل موضوع حكماً محدداً وجزئياً فإنّ هذا السؤال يكون فى محله، أمّا إذا عرفنا أنّ فى التعاليم الإسـلامية توجـد سلسـلة من (الاصول العامة) الواسـعة جدّاً والتى بإمكانها مسايرة الاحتياجات المتغيرة وتلبيتها فلا يبقى أى مجال لمثل هذا الإشكال.

مثلًا: بمرور الزمان تظهر سلسـلة من المعاهدات والعقود والاتفاقيات الجديدة والعلاقات الحقوقية بين الناس لم تكن موجودة فى عصـر نزول القرآن أبـداً، كمـا هو الحـال فى مايسـمى اليوم ب (التـأمين) ففى ذلـك الزمـان لاـ يوجـد بتاتـاً شـىء يسـمى (التـأمين) وفروعه المتعددة، «١» أو أنواع الشـركات فى عصـرنا وزماننا هذا والتى تظهر للوجود حسب مقتضيات الوقت الحاضر، ولكن مع هذا فإنّ لدينا فى الإسـلام قانوناً عاماً جاء فى بداية سورة المائدة عنوانه (وجوب الوفاء بالعهد والعقد) يقول: «يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوفُوا بِالعَقُودِ». وكل تلك المعاهدات والعقود يمكن وضعها تحت غطاء ذلك القانون.

وطبعاً جاءت قيود وشروط بصورة عامة أيضاً على هذا الأصل الكلى فى الإسلام يجب مراعاتها.

وبناءً على هذا فإنّ (القانون العام) ثابت وإن كانت مصاديقه فى حالة تغيير، وكل يوم يمكن أن يظهر مصداق جديد.

والمثال الآخر: إنّ لـدينا فى الإسـلام قانوناً بـديهياً باسم (قانون لا ضـرر) الذى يمكن بواسـطته الحد من كل حكم يشـكل ضـرراً على المجتمع الإسلامى، وعن طريق هذا القانون تسد الكثير من احتياجاته.

وبغض النظر عن هذا فإنّ مسألة (لزوم حفظ نظام المجتمع) و (وجوب تقديم الواجب)

(١) طبعا توجد فى الإسلام موضوعات شبيهة بالتأمين وفى حدود خاصة مثل مسألة (ضمان الجريرة) ولكن كماقلنا إنّها شبيهة بهذه القضية فقط.

نفحات القرآن، ج٨، ص: ٣٢٢

ومسألة (تقديم الأهم على المهم) يمكنها فى مجالات واسعة جدّاً أن تكون حلالة للمشاكل.

بالإضافة إلى كل ماورد فإنّ الصلاحيات الممنوحة للحكومة الإسلامية عن طريق (ولاية الفقيه) تعطيها إمكانيات واسعة لحل المشكلات فى إطار الاصول الكلية للإسلام.

وطبعاً أنّ بيان كل واحد من هذه الامور بالخصوص عند الالتفات إلى فتح باب الاجتهاد (الاجتهاد معناه استنباط الأحكام الإلهيّة من المصادر الإسلامية) يحتاج إلى تحقيق كثير يبعدنا القيام به عن هدفنا، ولكن مع هذا فإنّ ما أوردناه هنا إشارة بامكانها أن تشكل اجابة عن الاشكال آنف الذكر.

٣- هل يجب حرمان الإنسان من فيض الارتباط بعالم الغيب؟

السؤال الاخر هو: إنّ (نزول الوحى) والارتباط مع عالم الغيب وما وراء الطبيعة إضافة إلى كونه هبة ومبعث افتخار لعالم البشرية، يعد نافذة أمل لكل المؤمنين الصادقين، إذن لا يعتبر قطع طريق الارتباط هذا وغلق نافذة الأمل هذه حرماناً عظيماً للإنسان الذى عاش بعد وفاة النبى الخاتم؟

والجواب عن هذا السؤال يتضح أيضاً بالالتفات إلى مايلى:

أولًا: إنّ الوحى والارتباط مع عالم الغيب هو وسيلة لإدراك الحقائق، وعندما يقال كل مايراد قوله وتتضح كل الاحتياجات إلى يوم القيامة فى الاصول الكلية والتعليمات الجامعة للنبى الخاتم، فإنّ قطع هذا الارتباط لا يسبب أى مشكلة.

ثانياً: إنّ الذى قُطع للأبد بعد ختم النبوة هو (الوحى لشريعة جديدة أو لتكميل شريعة سابقة)، وليس كل نوع من الارتباط بما وراء عالم الطبيعة، لأنّ الأئمّة عليهم السلام لهم ارتباط بعالم الغيب وكذلك المؤمنين الصادقين الذين ينالون مقام (الكشف) و (الشهود) على أثر ازاحتهم للحجب عن قلوبهم بعد تهذيب نفوسهم.

نفحات القرآن، ج٨، ص: ٣٢٣

يقول الفيلسوف المعروف (صدر المتألهين الشيرازى) فى كتاب (مفاتيح الغيب): « (الوحى) يعنى نزول الملك بقصد مهمّة النبوة حتى وإن كانت منقطعة لأنّه بحكم «أكملت لكم دينكم» كان ما يجب أن يصل إلى نوع البشر عن هذا الطريق قد وصل، أما باب الالهام والاشراق فلم يغلق ولن يغلق أبداً ولا يمكن أن يغلق هذا الطريق» «١».

واصولًا أنّ هذا الارتباط نتيجة لارتقاء النفس وتنقية الروح وصفاء الباطن ولا علاقة له بمسألة الرسالة والنبوّة.

وبناء على هذا ففى أى زمان تحصل مقدماته وشرائطه فسوف تتمّ هذه الرابطة المعنوية ولم يحرم نوع البشر أبداً من هذا الفيض الإلهى العظيم ولن يحرم.

۴- هل تنسجم هذه الآيات مع مسألة الخاتمية؟

إنّ مجموعة من مبتدعى الأديان فى عصرنا، من أجل أن يعبدوا الطريق أمام مدعياتهم حول النبوة، لم يجدوا أىحل أمامهم سوى التوجه لمسألة (الخاتمية) التى هى من بديهيات وضروريات الدين الإسلامى ووضعها تحت الاستفهام. وكما هو اسلوب أصحاب القلوب المريضة تناولوا بعض الآيات القرآنية التى وجدوها قابلة للتحريف والانسجام مع مقاصدهم وتشبثوا بها لنفى (الخاتمية)، وكان

البعض منها غريباً عن مسألة الخاتمية إلى حد لا تستحق حتى طرحها، ونذكر هنا قسمين فقط من تلك التى يمكن طرحها إلى حد ما والتى استندوا إليها أكثر:

۱- يقولون: إنّ الآيات لا تنفى إمكانية ظهور أنبياء آخرين. لأنّها تقول: «يَابَنِى آدَمَ امَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيكُم آيَاتِى فَمَنِ اتَّقَى وَاصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيهِم وَلَا هُم يَحزَنُونَ». (الأعراف/ ۳۵)

إنّهم يقولون: بالالتفات إلى أنّ جملتى (يأتينكم) و (يقصون عليكم) هما فعلان

---

(۱) مفاتيح الغيب، ص ۱۳.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۲۴

مضارعان، إذن فإنّ الآية تدلل على امكانية بعث أنبياء آخرين فى المستقبل، وفى هذه الحالة يكون اتباعهم واجباً.

أمّا إذا التفتنا إلى نقطة واحدة سيكون الجواب عن هذا الكلام واضحاً، وهى: إذا عدنا إلى ما قبل هذه الآيات ودققنا فيها من ۱۱ إلى ۳۴ من تلك السورة سنرى أنّ كل هذه المباحث هى حول (خلق آدم) من تراب ثم إصدار الأوامر للملائكة بالسجود لآدم، ثم اسكانه فى الجنّة وطرده وزوجته منها لتركهم الأولى، ثم هبوطهم إلى الأرض وأوامر اللّه لعموم بنى آدم عليه السلام.

وبعبارة اخرى أنّ المخاطب فى هذه الآيات ليس المسلمين فحسب. بل شرائح المجتمع الإنسانى كافّة وكل أبناء آدم ولا شك، فقد جاء لبنى آدم أنبياء ورسل كثيرون ذكرت أسماء بعضهم فى القرآن الكريم وسجلت كتب التواريخ اسماء البعض الآخر.

ولكن هؤلاء الذين أرادوا الانتفاع من هذه الآية أنكروا الخاتمية من أجل مقاصدهم ومهدوا السبيل أمام مدعى النبوة الكاذبين. وقطعوا تماماً ارتباط الآية بماضيها وصوروها على أنّها خطاب للمسلمين وخرجوا بنتيجة تقول: إنّ على المسلمين أن ينتظروا ظهور نبى جديد.

والملفت للنظر هو أنّ خطاب (يابنى آدم) تكرر عدّة مرات قبل هذه الآية فى نفس سلسلة الآيات، فى الآيات ۲۶ و ۲۷ و ۳۱، فالآية ۲۶ تأتى مباشرة بعد قصة هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض والآية ۲۷ تأتى بعدها ثم جاءت الآية ۳۱، وفى المرحلة الرابعة تأتى الآية مورد البحث.

والمثير أيضاً أنّ خطاب (يابنى آدم) غير موجود فى أى خطاب من القرآن إلّافى هذه الآيات الأربع، ويكون الخطاب للمسلمين عادة ب «ياأيها الذين آمنوا» الذى جاء على نفس الصورة فى أكثر من ثمانين موضعاً من القرآن، وأحياناً جاء خطاب أكثر عمومية هو: «ياأيها الناس».

والشاهد الآخر على هذا المدّعى الآية التى نقرأ فيها نفس المضمون بعد مسألة هبوط

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۲۵

آدم عليه السلام إلى الأرض. تقول: «قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوفٌ عَلَيهِم وَلَا هُم يَحْزَنُونَ». (البقرة/ ۳۸)

ومعنى اتيان (الهدى هنا هو نفس معنى (اتيان الرسل).

وجاء المضمون نفسه فى الآية ۱۲۳ من سورة طه، وما يلفت النظر بالخصوص فيها هو أنّ المخاطب فى البداية (آدم) و (حواء) وجملة (اهبطا) جاءت بصورة التثنية- ولكن فى جملة «إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّى هُدىً» فالمخاطب جمع يشمل بنى آدم بلا شك، لأنّ الشيطان لاحَظَّ له من الهداية الإلهيّة مطلقاً، وبناءً عليه لا يمكن أن يكون ضمن المخاطبين فى هذه المجموعة، لأنّه بعد الخطاب يقول: «وَانَّ عَلَيكَ لَعَنتِى إِلَى يَومِ الدِّينِ». (ص/ ۷۸)

أى الذى صدر عقب عناده الشديد حيث لم يبق أى أمل بهدايته، ومعلوم أنّ آدم وحواء شخصان، إذن فالمخاطب هما وبَنوهما.

وهنا نصل إلى ختام الجزء الثامن من تفسير (نفحات القرآن)- مجموعة بحوث النبوة الخاصة- والحمد للّه‌ربّ العالمين.

إلهى! نور قلوبنا دائماً بنور القرآن وسنة النبى صلى الله عليه و آله وأبنائه المعصومين عليهم السلام.

إلهى! مُنَّ علينا بتوفيق إصلاح أنفسنا فى ظل هذه التعليمات المنجية.

ربنا! أزح من دربنا العقبات واهدنا إلى ما يوجب رضاك.

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحامِيل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ أُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ أُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائى/ "بناية "القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِى الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹